الاتجاهات الوطنية
في الأدب المعاصر

من الثورة العرابية
إلى قيام الحرب العالمية الأولى

الجزء الأول

تأليف

الدكتور محمد محمد حسين

للنشر والتوزيع
مكة ـ هاتف ٥٥٦٥٤٨١

الاتجاهات الوطنية

في الأدب المعاصر

الجزء الأول

من الثورة العرابية الى قيام الحرب العالمية الأُولى

تأليف

الدكتور محمد محمد حسين

دار الرسالة

للنشر والتوزيع

الطبعة التاسعة

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

دار الرسالة
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - مكة - هاتف: ٥٥٦٥٤٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

حياة المؤلف في سطور

- ولد الدكتور محمد محمد حسين عام ١٩٢١ م في سوهاج إحدى مدن الصعيد.
- تلقى تعليمه الابتدائي في بلدته، حتى التحق بمدرسة أسيوط الثانوية، لأنها كانت المدرسة الثانوية الوحيدة في صعيد مصر وقتذاك.
- التحق بالجامعة المصرية والتي كان هذا اسمها، وحصل منها على الليسانس عام ١٩٣٧ م من قسم اللغة العربية.
  وكانت هذه الجامعة الوحيدة في مصر والدول العربية كلها آنذاك.
- عين معيداً بالكلية نفسها، وكلف بتدريس اثني عشر درساً أسبوعياً في السنة الأولى، وكانت هذه هي السابقة الأولى التي يعين فيها معيد في سنة تخرجه ويكلف بالتدريس.
- حصل على الماجستير والدكتوراه وانتدب للتدريس في كلية الآداب بالإسكندرية عام ١٩٤٠ م، وكانت وقتها فرعاً من الجامعة المصرية بالقاهرة، ثم نقل إليها بعد استقلالها عام ١٩٤٢ م وتدرج في وظائف التدريس فيها إلى أن شغل كرسي الأستاذية عام ١٩٥٤ م.
- أعير أثناء عمله بالإسكندرية إلى الجامعة الليبية وجامعة بيروت العربية،

ثم تعاقد مع جامعة بيروت العربية بعد بلوغه سن التقاعد عام ١٩٧٢م، وظل فيها إلى أن تعاقد مع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٩٧٦ م ، وظل يعمل فيها إلى عام ١٩٨٢ م حيث رغب في عدم تجديد عقده وعاد إلى الإسكندرية حيث توفي يوم الجمعة ٩ ربيع أول سنة ١٤٠٣ هـ الموافق ٢٤ ديسمبر عام ١٩٨٢ م .

رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه خيراً عما قدم للإسلام والمسلمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين . وصلاته وسلامه دائمين عاطرين على رسوله الأمين ، الذي هدانا الله به وأحيانا ، ولولا فضل الله ورحمته لكنا من الضالين الهالكين .

وبعد فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب (الاتجاهات الوطنية) في جزئه الأول . أدخلت عليها بعض التعديل في الفصل الأخير «نزعات إصلاحية» ولم يكد يطرأ عليها بعد ذلك شيء يذكر في بقية فصول هذا الجزء إلا قليلا . ويستطيع القارىء أن يلمس مواضع التعديل بالمقارنة بين ذلك الفصل كما جاء في هذه الطبعة ، وبين ملخصه كما يبدو في مقدمة الطبعة الأولى ، التي أبقيتها كما هي دون تعديل . ولم يكن من هذا التعديل بدّ بعد أن بدا التناقض واضحاً بين ماجاء في هذا الفصل وبين ماكتبته بعد ذلك بسنتين في الفصلين الثالث والرابع من الجزء الثاني لهذا الكتاب ؛ ولا سيما ما يتعلق منه بمحمد عبده وحركته . وقد اجتمعت لي منه مادة صالحة لايتسع لها هذا الكتاب ، أرجو أن يتاح لي نشرها فيما بعد . وهي تكشف عن جوانب أغفلها الذين كتبوا عنه وأرّخوا له .

وقد كنت أحب أن أنجز في هذه الطبعة للجزء الأول ما وعدت به في تقديم الجزء الثاني ، من تعميم هذه الاتجاهات لكي تشمل العالم العربي كله — وظروفه في تقديري متشابهة في خطوطها الكبيرة ، يصدق في كل قطر من أقطاره ما صح في مصر . فكلها قد مر في فترة التعلق بفكرة الجامعة الإسلامية ، حين كانت جميعاً جزءاً من دولة إسلامية كبرى تعتبر امتداداً للخلافة الإسلامية وهي الدولة العثمانية .

وكلها قد ظهر فيها صراع بين هذه النزعة الإسلامية التليدة الموروثة وبين النزعات القومية الطارئة ، التي بدأت طلائعها تظهر واضحة في سائر البلاد العربية منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري. وكلها قد مر بفترة صراع بين النزعات الإقليمية وبين النزعة العربية التي تريد أن ترد العرب إلى الوحدة الأصيلة بعد الفرقة الطارئة . وكلها قد دارت فيها معارك حول تصور العروبة : هل هي امتداد للإسلامية السابقة ؟ أم هي صورة من القوميات الغربية اللادينية ؟ وكلها قد شغل بالبحث والمناقشة حول أمثل الطرق والأساليب للنهوض ولاستعادة القوة والتخلص من أسباب الضعف وآثاره . ولم يكد الخلاف فيها جميعاً يخرج عن اتجاهات ثلاثة : اتجاه يدعو إلى العودة لينابيع الإسلام الأولى ؛ واتجاه آخر يدعو لاحتذاء الغرب وتتبع خطاه ؛ واتجاه ثالث يدعو إلى إسلامية متطورة يفسر فيها الإسلام تفسيراً يطابق الحضارة الغربية ، ويبرر أنماطها وتقاليدها . وكلها قد شغل بمصير الخلافة الإسلامية وواجب المسلمين إزاء إلغاء الحركة الكمالية للخلافة الإسلامية في تركيا . وكلها قد دارت فيه معارك فكرية وأدبية بين المتمسكين بالتقاليد الإسلامية والعربية وبين الداعين إلى الحضارة الأوروبية والمفتونين بأساليبها وأنماطها .

كنت أحب أن أنجز وعدي ذاك ، فأعمم هذه الاتجاهات التي تحدثت عنها في هذا الكتاب بجزءيه ولكن ظروفي الراهنة لم تسمح به . فأرجو المعذرة . ولعلي أفي بهذا الوعد فيما بعد ، أو لعل غيري ينهض به . وقد نهض صديقي الدكتور ماهر حسن فهمي بشطر منه حين أصدر كتابه « القومية العربية والشعر المعاصر » في سلسلة « مع العرب » التي تصدرها مؤسسة المطبوعات الحديثة ، بالقدر الذي سمح به حجم الكتاب وطبيعته . وقد تفضل مشكوراً بتصحيح تجارب هذا الجزء لبعدي عن مصر أثناء طبعه .

والله سبحانه وتعالى هو المستعان . له الحمد في الأولى والآخرة . ولا حول ولا قوة إلا به .

محمد محمد حسين

بنغازي في صباح السبت ١٢ من رمضان المبارك ١٣٨١ (١٧ – ١٩٦٢/٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

كان اتجاهي أول الأمر إلى أن أكتب عن الوطنية في شعر شوقي. ولما اجتمعت لي مادة البحث، رأيت أن الذين كتبوا عن هذا الشاعر قد ظلموه ظلماً بيناً في وطنيته. ونظرت فإذا شوقي ليس وحده هو الذي مدح السلطان عبد الحميد، فقد كان ذلك اتجاه شعراء العصر جميعاً. ونظرت فإذا شوقي لم يكن وحده الموالي لتركيا، فقد كانت مغاضبة تركيا وقتذاك لاتعني إلا موالاة أعدائهم وأعداء مصر الإنجليز. ونظرت فإذا الرجل لم يكن وحده هو الذي مدح عباساً – وإن تكن صناعته ووظيفته قد اقتضته ذلك – فقد كان عباس في الفترة الأولى من حياته موضع مدح كل الشعراء، بل وموضع حب المصريين جميعاً وآمالهم.

ورجعت إلى كتابات العصر وصحفه وتاريخه، فإذا كل ذلك يوحي بأن وطنية هذه الفترة لم تكن هي وطنيتنا، وأن قيمها لم تكن هي قيمنا، وأن تفكيرها لم يكن هو تفكيرنا. فالخطأ في الحكم يرجع في معظمه إلى تغير مفهوم (الوطنية) على مر الأيام. فالذين يدرسون أدب الصحراء والفطرة في الجاهلية لاينصفون إذا وزنوه بموازين الحضارة والمدنية في القرن العشرين. والذين يدرسون شعراء ما قبل الإسلام يظلمون إذا وزنوهم بموازين الإسلام. والجيل الذي يولد في هذه الأيام يخطىء إذا درس آداب آبائه بعد عشرين عاماً أو ثلاثين فحكم على الذين مجدوا (الملكية) بالخيانة. وكذلك كان شأن الدارسين مع شوقي. لاموه لميوله التركية حين كانت الرابطة العثمانية حديث كل الأمم الإسلامية. وغضوا من

قدره لأنه كان رجل القصر حين كان عباس ساكن القصر موضع أمل الوطنيين من المصريين وقدوتهم في مقاومة الاحتلال في شطر من حياته .

وعند ذلك خطر لي أن لا أقصر تاريخ الوطنية على شوقي ، وأن أؤرخ للاتجاهات الوطنية في الشعر العربي في مصر جملة ، ورأيت أن مثل هذا البحث قد يصحح كثيراً من الأحكام السابقة العاجلة ، وقد يعين على وضع مقاييس صحيحة للقيم الوطنية وتطورها . فليس من الإنصاف أن يحاسب الناس على أسس مباينة كل المباينة أو بعض المباينة لأسس العصر الذي عاشوا فيه وعبروا عن قيمه واتجاهاته . وليس من البحث العلمي أن يدرس الشاعر منفصلا عن بيئته التي استمد منها تجاربه . ومن هذا يبدو أن البحث في لبه يستهدف تصحيح القيم الوطنية والقيم النقدية في دراسة الشعراء المعاصرين .

وقد تبين لي من بعد أن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٩) كانت حداً فاصلا بين عصرين متباينين في فهم مدلول (الوطنية) . ولذلك رأيت أن أقسم بحثي عن (الاتجاهات الوطنية في الشعر المعاصر) إلى قسمين ، ينتهي أولهما إلى قيام الحرب العالمية الأولى ، وهو موضوع بحث هذا الكتاب الذي أقدمه بين يدي القراء .

وقد قسمت البحث إلى خمسة فصول :

تكلمت في الفصل الأول عن (الجامعة الإسلامية) فبينت أنها كانت هي النزعة الغالبة على تفكير مصر ، حين لم تكن الفكرة القومية بمعناها الحديث قد سيطرت على الأذهان ، وحين كانت العاطفة الدينية هي المسيطرة على القلوب والأفهام ، وحين كانت الظروف التي تسود العصر توحي بأن الخصومة بين الشرق والغرب هي خصومة بين الإسلام والمسيحية ، أو هي استمرار للحروب الصليبية كما تصور بعض زعماء الوطنية وكتابها . وكان يعين على تدعيم هذا التصور ما يدور من حروب بين تركيا من ناحية وبين الدول الأوروبية الطامعة في اقتسام أملاكها من ناحية أخرى . هذه تنادي بتحرير الشعوب الأوروبية في جنوب أوروبا من وحشية المسلمين ، وتلك تنادي بتماسك الشعوب الإسلامية واتحادها أمام الجشع الأوروبي . كما أعان عليه مهاجمة كثير من ساسة الغرب وكتابه للإسلام والمسلمين ،

وتصويرهم في صورة الهمج المتخلفين ، ورد تخلفهم هذا إلى جمود الإسلام الذي لا يصلح في زعمهم لأن يكون شريعة أمة متمدنة راقية. وأعان عليه كذلك ما كانت تبذله انجلترا من جهود دائبة للقضاء على تركيا ، بتشجيع كل مناوىء لها وخارج عليها ومذيع لمساوئها ومصور لفساد الحكم فيها .

وبينت في هذا الفصل أن موالاة تركيا والإشادة بها ومدح الشعراء للسلطان عبد الحميد لم يكن في حقيقة أمره إلا تمسكاً بخليفة المسلمين الذي يلي أمرهم ويجمع شملهم ، وأن الخروج عليه ومهاجمته لم يكن يعني في أفهام كثرة المعاصرين إلا موالاة المستعمرين أعداء المسلمين . وتتبعت ذلك في مختلف المناسبات والأحداث مثل الحركة العربية التي كان يظن أن انجلترا هي التي تثيرها ، مستعينة بها على قتل الخلافة الإسلامية التي كانت تريد أن تنقلها إلى أمير عربي تضعه تحت حمايتها، فتتسلط عن طريقه على الرأي العام الإسلامي . ومثل حرب اليونان سنة ١٨٩٧ ، والدستور العثماني ١٩٠٨ ، وسقوط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ ، وحرب طرابلس سنة ١٩١١ ، وحرب البلقان وسقوط أدرنة سنة ١٩١٢ . وقدوم طيارين تركيين إلى مصر سنة ١٩١٤ .

ثم بينت آخر الأمر أن المنادين بالجامعة الإسلامية لم يكونوا جميعاً من المؤيدين للنفوذ التركي في مصر . وأن كثرتهم كانت مدفوعة إلى ذلك بعاطفتها الدينية ، وأن بعضهم كان يتخذ ذلك وسيلة لمناوأة الاستعمار الإنجليزي ، وهو يرى بعد ذلك أن التخلص من النفوذ التركي سهل ميسور .

وتكلمت في الفصل الثاني عن (الجامعة المصرية) ، فتتبعت تطور القومية المصرية التي كانت فكرة ناشئة في ذلك الحين ، انتقلت إلى مصر مع ما انتقل إليها من الأفكار الغربية ، فكانت صدى للاتجاه العام نحو تبلور القوميات في القرن التاسع عشر . وقد رددت بذور هذا الاتجاه نحو الجامعة المصرية إلى الثورة العرابية ، التي كانت تعبيراً عن شعور المصريين بالاضطهاد إزاء عنصر غريب عنهم هو العنصر الجركسي . ورأيت أن فكرة الوطنية في ذلك الوقت مختلفة بعض الاختلاف عما نعنيه منها اليوم ، وأنها كانت مختلطة بالفكرة

الإسلامية ، لا تدعو إلى الانفصال عن تركيا ، وإن كانت تدعو إلى مقاومة استبداد العنصر الجركسي والنفوذ الأوروبي. وقلت إن هذه الحركة كانت تستهدف إنشاء رابطة عاطفية بين المصري ووطنه ، تحفزه إلى الاهتمام بأمره والعمل على رفعته ، وأداء واجبه نحوه من جهة ، والمطالبة بحقه فيه من جهة أخرى . ثم تطورت الفكرة القومية على أيدي أصحاب الثقافات الأوروبية ، وبدأت تهاجم الرابطة الدينية وتعتبرها مصدر شر وتفرقة بين أبناء الجنس الواحد . فدعا هذا الفهم الجديد للوطنية إلى أن يهاجمها المتمسكون بالرابطة الدينية ويعتبروها خطراً يهدد وحدة الأقطار الإسلامية ويضعف تكتلها أمام الدول الأوروبية الطامعة في استعمارها .

ثم خفت صوت القومية وركدت الدعوة إليها زمناً بعد فشل الثورة العرابية حتى انبعثت من جديد في مختتم القرن التاسع عشر ، متأثرة بفكرة القوميات الأوروبية ، واتخذت شكلين متباينين ، أحدهما يتحدث عن الوطنية حديثاً عاطفياً ويتغنى بها كما يتغنى العاشق بمعشوقه ، محاولا أن يغزو قلوب المصريين بهذا الحب الجديد . والآخر يتحدث عن الوطن حديث العقل والمصلحة ، ولا يستهدف إثارة الناس ولكنه يحاول إقناعهم ، ولا يتغنى بالوطن المحبوب ولكنه يتحدث عن النفع المادي والمصلحة المشتركة التي تجمع بين ساكنيه . وكان الفريق الأول ممثلا في مصطفى كامل. وهو يدعو إلى جامعة مصرية إسلامية ، ولا ينكر الرابطة العثمانية ولكنه يتخذها وسيلة لمناوأة الإنجليز . وكان الفريق الثاني ممثلا في لطفي السيد كاتب حزب الأمة الأول . وهو يدعو إلى جامعة مصرية خالصة ، ولا يعترف بالرابطة العثمانية لأنها لون من ألوان الاستعمار ، كما أنه لا يعترف بالجامعة الإسلامية لأنها وهم لا سبيل إلى تحقيقه من الناحية العملية. وبينت أن الدعوة الأولى كانت أقرب إلى القلوب ، وأن كثرة الناس قد آزرتها والتفت حولها ، وان انصراف الناس عن الدعوة الثانية كان يرجع إلى أن دعاتها كانوا من كبار الملاك الذين

لا يعنون إلا مصالحهم الخاصة حين يتحدثون عن النفع المادي والمصالح المشتركة وإلى أنهم قد انصرفوا إلى الكلام عن الإصلاح ولم يهاجموا الاستعمار الذي كانوا يوادّونه حرصاً على مصالحهم .

وختمت هذا الفصل بالإشارة إلى ما صحب هذه الحركة المصرية من اتجاه تاريخي في الشعر نحو إحياء المجد الفرعوني والمجد العربي ، اللذين يمثلان النزعتين السابقتين : القومية المصرية والقومية الإسلامية ، واتخاذ ذلك وسيلة إلى استنهاض الهمم ، وبعث الأمل ، ومحاربة اليأس . ورد الثقة إلى الناس الذين تمكن منهم سوء الظن بأنفسهم حتى قتل فيهم روح الأمل والطموح .

وتكلمت في الفصل الثالث عن (محنة الجامعة المصرية) التي بدت في المؤتمر القبطي سنة ١٩١٠ والمؤتمر المصري سنة ١٩١١ . وبينت أن الأزمة ترجع في جوهرها إلى سوء ظن كل من الفريقين بصاحبه ؛ وإلى عدم توافر الثقة بين العنصرين اللذين يكونان الجامعة المصرية ، وإلى الجهل الذي يقود إلى عصبية عمياء لا تقوم على أساس من منطق أو دين ، وإلى التقاليد الفاسدة التي دعت القبط إلى أن ينطووا على أنفسهم ويقصروا اهتمامهم على مشاكلهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن تتحدث صحفهم عنهم وكأنهم أمة مستقلة لها كيان منفصل عن مصر . وهاجت الفتنة فبرزت عارية ، بعد قتل بطرس غالي رئيس الوزراء القبطي سنة ١٩١٠ . واعتبر القبط أن عنصرهم هو المقصود بالاعتداء . ودافع الفريق الآخر عن نفسه بأن الرجل لم يستحق القتل إلا بوصفه مصرياً خان وطنه وأعان عليه المستعمرين . وبلغت الخصومة قمتها حين تم انعقاد المؤتمر القبطي في أسيوط ٥ مارس سنة ١٩١٠ ، مطالباً ببعض المطالب التي كانت موضوع نقاش عنيف حاد في الصحف ، دعا إلى عقد مؤتمر مصري تم انعقاده في ٢٩ إبريل سنة ١٩١١ ، رد على مطالب المؤتمر القبطي التي لا تقوم على أساس من المواطنة المصرية ، ولكنها تقوم على أساس الدين وحده .

ثم تكلمت عما استتبعته هذه الخصومة العنيفة من محاولات صادقة للتوفيق بين عنصري الأمة وتصفية ما بين جيران الوطن من سوء الظن . وانتهيت إلى أن هذا الشقاق كان محنة امتحنت بها الدعوة الناشئة إلى الجامعة المصرية ، وأنه إن كان قمة الخلاف بين عنصري الأمة فقد مهد في الوقت نفسه للوحدة القومية المصرية التي بدت في أقوى مظاهرها في ثورة سنة ١٩١٩ .

وتكلمت في الفصل الرابع عن (تيارات سياسية) كانت تتنازع الناس في هذا العصر . وجعلت الثورة العرابية هي نقطة البداية في اهتمام الناس بالمسائل السياسية . فقد كثر فيها حديثهم عن الظلم والظالمين ، وعن حقهم في محاسبة السلطان ، وعن الدعوة إلى النظام النيابي وإلى العدالة الاجتماعية وإلى الحد من تغلغل النفوذ الأجنبي . وظهرت فيها آراء جريئة تدعو إلى التخلص من النظام الملكي مفضلة عليه النظام الجمهوري .

ثم تكلمت عن نشأة الصحافة الوطنية بعدما كان من ركود الحركة حيناً واستكانة الناس للهزيمة . فظهرت صحيفة المؤيد سنة ١٨٨٩ ، ثم صحيفة الأستاذ سنة ١٨٩٢ . وبينت أن ظهور الحركة الوطنية الحديثة بعد الاستعمار الإنجليزي قد اقترن بحكم عباس . فتكلمت عن وطنيته في أول حكمه ، مما جمع قلوب المصريين حوله ، وما كان من تأييده لقادة الحركة الوطنية وعدائه للإنجليز ، مما أدى إلى اصطدامه بكرومر . ثم تكلمت عما كان من تراجعه أمام الإنجليز ، وعدم صبره للكفاح ، وانصرافه إلى تنمية ثروته من كل طريق ، واستعرضت سياسته المضطربة المتقلبة التي أدت إلى انصراف الشعب عنه ، بعد أن ساد الوفاق بينه وبين الإنجليز ، حين أرضى جورست – خليفة كرومر – جوعه إلى السلطة وإلى المال .

وبذلك استنفدت الحركة الوطنية جهدها في مهاجمة عباس ، واستراح الإنجليز من اجتماع الشعب والخديوي على حربهم . وقدمت صوراً من شعر الشعراء الذين كانوا يمدحون عباساً في أول حكمه ، فانصرفوا عن ذلك إلى نقد سياسته ، منهم من يعنف في ذلك حتى يبلغ حد الهجاء الذي يعرضه للسجن ،

ومنهم من يرفق في ذلك فلا يتجاوز العتاب الهين الرقيق .

ثم تكلمت عن السلطتين اللتين كانتا تتنازعان تصريف الشؤون في ذلك الوقت : سلطة الاستعمار وسلطة الخديوي ، أو السلطة الفعلية والسلطة الشرعية ، كما كانت تسميها الصحف في ذلك الحين ، وعن انقسام الصحف بين مؤيد لعباس ومؤيد لكرومر . وتكلمت عن سعي الاستعمار لخلق بطانة له من المصريين ، تحقيقاً لسياسته التي رسمها لنفسه منذ الاحتلال ، وهي أن لا يحكم بطريق مباشر ، وأن ينفذ إرادته بأيد مصرية يقع عليها وزر أعمالها أمام الرأي العام ، فتواجه ثورته ، وبذلك يقع بأس المصريين بينهم ، ويستنفدون جهدهم في هذه الخصومة .

ثم بينت أن المصريين كانوا موزعين بين النفوذ التركي والنفوذ الفرنسي والنفوذ الإنجليزي والقصر . منهم من يلتمس العون على الاستعمار عند الخليفة التركي حامي المسلمين ، ومنهم من يلتمسه عند الفرنسيين المنافسين للاستعمار الإنجليزي . ومنهم من يحرص على وحدة الصفوف ويشفق من انشقاق المصريين فهو يدعو إلى الالتفاف حول القصر . ومنهم من يؤثر العاجلة ويعيش في حاضره ولا يطمح إلى خير منه فهو يهادن الإنجليز ولا يطمع في أكثر من دعوتهم إلى الإصلاح . ومنهم من يتعلق بسيد من هؤلاء السادة لأنه باع نفسه له فهو يؤيده بالحق وبالباطل .

ثم تكلمت عن تأسيس الأحزاب السياسية في سنة ١٩٠٧ : الحزب الوطني ومن ورائه الكثرة المثقفة من الشباب ، وهو عنيف في خصومته للاستعمار . بدأ عهده مؤيداً لعباس وانتهى إلى مخاصمته ، ولكنه لم يهاجم الخلافة العثمانية في الحالين . وحزب الأمة ومن ورائه أعيان مصر وكبار الملاك فيها ، وهو يهادن الإنجليز ولا يتجاوز جهده الدعوة إلى الإصلاح . وهو يرى أن ذلك هو الطريق الطبيعي إلى الاستقلال . وحزب الإصلاح وهو حزب قليل الأنصار يدعو إلى عباس ، فهو لسانه المعبر عن ميوله واتجاهاته . وحزب كان يسمي نفسه بالحزب الوطني الحر ، وما هو بوطني وما هو بحر ، فهو دخيل باع نفسه للمحتلين ، ويتمثل في صحيفة المقطم . وعرضت لما آل إليه أمر هذه الأحزاب من تطرف في

الخصومة وإسراف في الاتهام ضاق به المصلحون ، فارتفعت صيحاتهم منكرة هذه المهاترات ، داعية إلى الاتحاد وجمع الصفوف .

وتكلمت في الفصل الأخير عن (نزعات إصلاحية) لازمت هذا التطور الفكري والسياسي . وكان دعاتها خليطاً من المشتغلين بالسياسة ، وممن كرهوا أن يزجوا بأنفسهم في هذا المعترك العنيف وآثروا أن يسلكوا طريقاً لا يعرضهم لغضب السلطان. وكان بعض هؤلاء ينظر إلى علل المصريين الخلقية والاجتماعية. يحاول أن ينبه إليها ويرسم الطريق إلى معالجتها ، مستوحياً في ذلك الحضارة الغربية وأساليبها ونظمها . وكان فريق آخر ينبه إلى عيوب الأمم الإسلامية وسوء فهمهم للإسلام محاولا أن يقيم الإصلاح على أساس ديني . ثم بينت أن التفكير الأوروبي قد تجلى في دعوات كثيرة ، برزت من بينها ثلاث دعوات كبيرة ، شغلت الرأي العام في مستهل القرن العشرين ، وهي : الدعوة إلى الحرية الشخصية وإلى الحياة النيابية ، والدعوة إلى فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية وتحرير المفكرين من سلطة رجال الدين ، والدعوة إلى تحرير المرأة من الجهل والحجاب وتمكينها من المشاركة في الحياة . وبينت أن الدعوتين الأوليين كانتا متأثرتين إلى حد بعيد بما شاع في الحكم العثماني الفاسد من ظلم ومن استغلال لنفوذ رجال الدين .

ثم تكلمت عن حركة الإصلاح الإسلامي التي تزعمها محمد عبده ، وتابعه فيها بعض تلاميذه ومعاصريه . وقسمت جهوده فيها إلى قسمين ، اتجه في أولهما — أيام اتصاله بالأفغاني — إلى محاربة ما استولى على المسلمين من ضعف الهمم وفتور العزائم والانصراف عن جهاد الاحتلال . واتجه في الشطر الثاني إلى التوفيق بين الدين وبين المدنية الحديثة ، وإلى الرد على ما كان يوجه إلى الإسلام من شبهات ، وإلى تقريبه من نفوس الشباب الذين نفروا منه ، متوهمين أن الجمع بينه وبين المدنية والعلم غير مستطاع . وكان من أهم ما اتخذه لذلك من وسائل مشاريعه في إصلاح الأزهر ، وفتاويه التي كان يجيب بها على السائلين من مختلف

الأقطار الإسلامية ، ودروسه التي كان يحضرها عدد كبير من المثقفين والوجهاء.

ثم بينت أثر تجاور هذين التيارين في انقسام المفكرين والناس في مختلف نواحي الحياة إلى مجددين ومحافظين ، مما جر إلى احتدام الخصومة بين المتطرفين من الفريقين . فكان الفريق الأول يتهم الفريق الآخر بالجهل والتخلف والجمود . وكان الفريق الثاني يتهم الفريق الأول بالخروج على تقاليد الإسلام ، وربما ذهب في ذلك إلى اتهام أصحابه بالكفر وبأنهم أذناب المستعمر وأعوانه ، يساعدونه عن قصد أو عن غير قصد ، بتحبيب الناس فيه بدلا من تنفيرهم منه . وقد نشأ عن تجاور هذين التيارين تناقض في الحياة المصرية ، التي جمعت بين المحافظة المتزمتة وبين التطرف في الأخذ بأساليب المدنية الغربية ، في البيت الواحد في بعض الأحيان مما وضح أثره في شاعر كشوقي ، تجاور في شعره وصف المرقص والخمر ، مع مدائح الرسول وتمجيد الإسلام .

وانتهيت إلى أن هذه الصيحات المتباينة المتنافرة ، التي كانت تأخذ الناس من كل الجهات ، قد ساعدت على تنبيه الوعي القومي وإنضاج التفكير . فكانت أشبه شيء بالفوضى التي تمهد للنظام ، وبالسديم الذي يتكشف عن الإجرام ، وبالشك الذي يلد اليقين .

ولم يكن يعنيني في هذه الفصول أن أستقصي الأحداث ، وأن ألم بالتفاصيل. لكن عنايتي قد انصرفت إلى توضيح الخطوط الرئيسية ، والاتجاهات العامة ، والتيارات الأساسية ، التي ظهرت في هذه الفترة وسيطرت عليها ، مستنبطاً ذلك من النصوص الشعرية والنثرية ، مع مطابقتها بالأحداث التاريخية. وأرجو أن أكون قد عاونت بذلك على تصحيح بعض المعايير النقدية ، وتوضيح ما يكتنفها من لبس أو غموض .

ولا يفوتني في ختام هذا التقديم أن أشكر السيد ماهر حسن فهمي لما قدم لي

من عون في تأريخ كثير من قصائد شوقي بالرجوع إلى تاريخ نشرها في الدوريات وفي إعداد فهارس هذا الكتاب .

وعلى الله التوكل والاعتماد ، ومنه العون والتوفيق والسداد .

رمل الإسكندرية { ٢٩ شعبان سنة ١٣٧٣ / ٢ مايو سنة ١٩٥٤ .

محمد محمد حسين

الفصل الأول

الجامعة الإسلاميّة

كانت النزعة الإسلامية غالبة على العصبية الجنسية والرابطة القومية في مصر إلى أوائل القرن العشرين . ولذلك لم يكن المصريون يجدون غضاضة في الاعتراف بسلطة الخليفة التركي. وحين ثار عرابي على فساد أساليب الحكم في مصر وعلى تغلغل النفوذ الأجنبي لم يخطر بباله أن يخلع طاعة الخليفة أو يخرج عليه ، فهو يعرض عليه خطواته ، مستمداً منه السلطة في كل ما يفعل [١] . ويضع مستر بلانت في مقدمة برنامج الحزب الوطني الاعتراف بسلطة الباب العالي وبأن « جلالة السلطان عبد الحميد مولاهم وخليفة الله في أرضه وإمام المسلمين » [٢] . وهذا هو قرار الجمعية العمومية الذي صدر بتأييد عرابي عندما عزل الخديوي توفيق يختم بالاعتراف بالولاء للسلطان ، إذ ينص على وجوب « عرض القرار على الأعتاب العالية الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات [٣] . ويقول عرابي في مذكراته « وبعد إمضاء هذا القرار عرض مضمونه بواسطة التلغراف على الحضرة السلطانية ، وصار إبلاغه إلينا رسمياً وإلزامنا بالمداومة على الدفاع وإعطاؤنا لقب (حامي

---

١ – مذكرات عرابي ١ : ٧١ ، ٢٢٢
٢ – مذكرات عرابي ١ : ١١٧
٣ – الثورة العرابية ٣٩٠

البلاد المصرية) »[١] . وهذه هي المنشورات التي كان يصدرها الخديوي توفيق ، تستعين على تنفير الناس من عرابي بتصويره خارجاً على الخلافة ، عاصياً أوامر أمير المؤمنين [٢] . وقد كانت كل خطب العرابيين تدور حول الحض على الدفاع عن الدين الإسلامي[٣] . وظل عرابي يعتمد على مساعدة السلطان وتأييده ، حتى أعلن عصيانه تحت ضغط انجلترا ، فكان لهذا الإعلان أسوأ الأثر . كما يقول عرابي نفسه في مذكراته [٤] .

كانت المسألة الشرقية ملونة عند معظم الكتاب والمفكرين في هذه الفترة بلون ديني يكاد يكون امتداداً للنزاع الصليبي في العصور الوسطى. وقد ساعد على تجمع الشعوب الإسلامية حول راية الخلافة العثمانية ما كان يبدو بوضوح من مطامع الدول الأوروبية في هذه الشعوب جميعاً . فكانت روسيا لا تنقطع عن إثارة الفتن بين دول البلقان وتأليبهم على الحكم التركي ومدهم بالسلاح بدعوى التخلص من حكم المسلمين [٥] . وكانت العرائض تنهال على الملكة فكتوريا طالبة إنقاذ المسيحيين من مذابح المسلمين[٦] . وكان جلادستون زعيم حزب الأحرار بانجلترا يلقي الخطب الرنانة ، ويؤلف الرسائل المطولة ، ناسباً إلى تركيا اضطهاد المسيحيين مشيراً إلى السلطان عبد الحميد بقوله «الشيطان» و«عدو المسيح»[٧] . وهذا هو المستر بارنج (اللورد كرومر فيما بعد) سكرتير سفارة انجلترا في الآستانة يكتب تقريراً مطولا عن المسألة البلقانية ، يذكرنا بتقاريره المشهورة عن مصر ، ينسب فيه إلى المسلمين ارتكاب جرائم بشعة في الانتقام من المسيحيين ، مقترحاً أن يكون

---

١ — مذكرات عرابي ١ : ١٩٧

٢ — مصر للمصريين ٥ : ١٨٠ — ١٩٣ ، مذكرات عرابي ١ : ١٩٨

٣ — مصر للمصريين ٥ : ١٩٤ — ١٩٨

٤ — مصر للمصريين ٥ : ٢٠٠ — ٢٠١ ، مذكرات عرابي ٢ : ١٧ — ٢٠

٥ — عبد الحميد ظل الله على الأرض ٧٢ — ٧٣ ، تاريخ الدولة العلية ٣٤١ ، صداقة أربعين عاماً ص ٢٧٤

٦ — عبد الحميد ص ٧٤

٧ — عبد الحميد ص ٨٤ ، تاريخ الدولة العلية ٣٣٩

حكام هذه الأقاليم مسيحيين [١] . وقد بلغ من تعصب أحد كتاب فرنسا أن اقترح حلا للمسألة الإسلامية القضاء على المسلمين ونبش قبر الرسول الكريم ونقل عظامه إلى متحف اللوفر في باريس [٢] .

وحين تضطر تركيا إلى محاربة روسيا تنهال عليها الأمداد بالمؤن والرجال من سائر الأقطار الإسلامية ، وينبث الدعاة في كل مكان ، يحرضون الناس على الدفاع عن الإسلام ، حتى تبلغ دعوتهم الهند والصين ، بينما يعلن المسيحيون من رعايا الإمبراطورية العثمانية أنهم لن يقاتلوا الروس أو أي مسيحي آخر [٣] . وحين كان يتحدث القيصر عن تحرير النصارى من تركيا ، وحين كانت تتجاوب الصيحات في بلاد البلقان « اقذفوا بالمسلمين إلى البحر » كان السلطان يدعو إلى تحرير المسلمين من روسيا فتتجاوب صيحاتهم : « الآن سوف يسود الإسلام » [٤] .

ويغذي هذه الفتنة الدينية مايتردد من أخبار المجازر الوحشية الرهيبة في البلقان ، التي لم ينج من شرها أطفال المسلمين وفتياتهم [٥] . ويجيب السلطان عبد الحميد على هذه المجازر البشعة بمجازر أخرى أبشع منها في إخماد ثورة الأرمن سنة ١٨٩٤ م [٦] . ويكتشف السلطان عبد الحميد في مختتم القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين السياسة الرشيدة التي يستطيع بواسطتها أن يحفظ الإمبراطورية العثمانية المتداعية من الانهيار ويصون عقدها من الانفراط وذلك بالاتجاه إلى تقوية فكرة الجامعة الإسلامية ونشر شعاره المعروف « يامسلمي العالم . . اتحدوا » [٧] .

كل هذه الأحداث قد ساعدت على تنمية الشعور بالرابطة الإسلامية ،

---

١ – تاريخ الدولة العلية ٣٣٩ – ٣٤١

٢ – تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٨٠١

٣ – عبد الحميد ٩١ .

٤ – عبد الحميد ٩٣ ، صداقة أربعين عاماً ٢٧٤ .

٥ – عبد الحميد ٩٤ و ١٠٣ – ١٠٤ ، الدولة العلية ٢٦١ – ٢٦٢ ، صداقة أربعين عاماً ص ٢٦٨ – ٢٨٣ .

٦ – عبد الحميد ١٣٤ – ١٣٥ .

٧ – عبد الحميد ١٦٨ – ١٦٩ و ١٧٢ – ١٧٥ .

وتغذية الإحساس بالخطر الذي يهدد شعوبها أمام غول الاستعمار الغربي المتربص بها ، فيدعوها إلى التجمع حول تركيا ، بوصفها أقوى هذه الشعوب وأقدرها على قيادة المعركة ضد العدو المشترك .

والمتأمل لأدب هذه الفترة في مصر ، شعراً ونثراً ، يجد ذلك واضحاً كل الوضوح . فجريدة العروة الوثقى تكتب في سنة ١٨٨٤ . مجموعة من المقالات في الحث على اتحاد كلمة المسلمين ،منها مقال عنوانه (الجنسية والديانة الإسلامية) جاء فيه :

« وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية ، التي لا تميز بين جنس وجنس ، واجتماع آراء الأمة . وليس للوازع أدنى امتياز عنهم إلا بكونه أحرصهم على الشريعة والدفاع عنها . وكل فخار تكسبه الأنساب ، وكل امتياز تفيده الأحساب ، لم يجعل له الشارع أثراً في وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض . بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة ، فهي ممقوتة على لسان الشارع ، والمعتمد عليها مذموم ، والمتعصب لها ملوم . فقد قال صلى الله عليه وسلم (ليس منا مَن دعا إلى عصبية ، وليس منا مَن قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية). والأحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة على هذا . ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوى – اتّباع الشريعة – (إن أكرمكم عند الله أتقاكم). ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف في جنسه ، ولا امتياز له في قبيلته ، ولا ورث الملك عن آبائه ، ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه . وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه . . هذا ما أرشدتنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن ، لا يعتدّون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس ، والفارسي يقبل سيادة العربي ، والهندي يذعن لرياسة الأفغاني ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض . وإن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل ، مادام صاحب الحكم

حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذاهبها . . [1] » .

وفي مقال آخر عنوانه «التعصب» ، يرد جمال الدين الأفغاني[2] على من يمجدون التعصب للوطن ويحطون من شأن العصبية الدينية ، فيرميهم بالغفلة وبأنهم أبواق المستعمر الذي يحاول توهين العصبية الدينية ليقطع الرابطة التي تجمع بين شعوبها ، ويدلل على كذب المستعمرين وتدليسهم بأنهم أكثر الناس عصبية للدين في كل ما تجري عليه سياستهم [3]. ويقول في مقال ثالث له عنوانه (الوحدة الإسلامية) :

« لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم ، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة والسلاطين في جنس واحد . . . وجلب تنازع الأمراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا ، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم . . .ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان ، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل ، فانقلبوا مع الهوى ، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل ، وقنعوا بألقاب الإمارة وأسماء السلطنة ومايتبع هذه الأسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان ، واختاروا موالاة الأجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس ، ولجأوا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم ، استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل » [4] .

ويقول عبد الله النديم في مقال طويل له في مجلة (الأستاذ) سنة ١٨٩٣ عنوانه (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا) :

« لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التي هي جزء منها في الحقيقة . ولكن المغايرة وسعي أوروبا

---

١ – تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٢٣ – ٢٢٧

٢ – المعروف أن جمال الدين الأفغاني هو صاحب الفكرة في مقالات « العروة الوثقى » التي كانت تصدر في باريس ، وأن محمد عبده هو الذي كان يصوغ هذه الأفكار بعبارته .

٣ – تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٤٩ – ٢٥٨ .

٤ – نفس المرجع ٢ : ٢٧٦ – ٢٨٢ .

في تلاشي الدين الإسلامي أوجب هذا التحامل الذي أخرج كثيراً من ممالك الدولة بالاستقلال أو الابتلاع . وإننا نرى كثيراً من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الإدارة وقسوة الأحكام . ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتاً وأحسنها تبصراً وأقواها عزيمة . فإنها في نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدواني ، لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثمان عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا ، وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان ، وكثير من اللغات . والفتن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهباً أو يقرب منهم جنساً . وكل دولة طامعة في قطعة تحتلها باسم المحافظة على حدودها أو وقاية دينها ، مع اتساع أراضيها ، وعدم وجود السكك الحديدية المسهلة للتنقل والتجول ، وعدم وجود أنهر مستمرة الفيضان في غالب أراضيها ووجودها تحت رحمة الله تعالى ، إن شاء أمطرها فأخصبت أو منعها فأجدبت ، وهذه أمور لو ابتليت بها أعظم دول أوروبية ماقاومت هذه الصواعق أكثر من عام أو عامين وتسقط أو تتلاشى » [1]

ويقول مصطفى كامل في مقدمة كتابه (المسألة الشرقية) الذي ظهر سنة ١٨٩٨ «وإني أضرع الى الله فاطر السموات والأرض من فؤاد مخلص وقلب صادق، أن يهب الدولة العلية القوة الأبدية والنصر السرمدي ، ليعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر في سؤدد ورفعة ، وأن يحفظ للدولة العثمانية حامي حماها ، وللإسلام إمامه وناصره ، جلالة السلطان الأعظم والخليفة الأكبر الغازي عبد الحميد الثاني ، وأن يحفظ لمصر في ظل جلالته عزيزها المحبوب وأميرها المعظم سمو الخديوي عباس حلمي الثاني . إن ربي سميع مجيب » [2] .

ويقول : « اتفق الكتاب والسياسيون على أن المسألة الشرقية هي مسألة النزاع القائم بين دول أوروبا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها . وبعبارة أخرى هي مسألة وجود الدولة العلية نفسها في أوروبا . وقد قال كُتّاب

---

١ – سلافة النديم ٢ : ٦١ – الأستاذ، عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٤ .

٢ – المسألة الشرقية ص ٤ .

آخرون من الشرق ومن الغرب بأن المسألة الشرقية هي مسألة النزاع المستمر بين النصرانية والإسلام ، أي مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الإسلام وبين دول المسيحية » (١)

ويقول بعد ذلك ، في تصوير إثارة إنجلترا للأقليات المسيحية في الإمبراطورية العثمانية : « وأما العناصر التي كالأرمن ، تستعملها بعض الدول كإنكلترا ، فهي تثور بعوامل الدين وبدسائس دينية . وقد ثبت ذلك جلياً في المسألة الأرمنية ، وشوهد أن الأرمن الكاثوليك كانوا على سكينة تامة بينما كان البروتستانت يثورون ويدبرون المكائد ضد الحكومة العثمانية . فمسألة الدين في الدولة العلية هي الآلة القوية التي يستعملها أصحاب الدسائس والغايات . وأولئك الذين يثورون بدسائس أعداء الدولة إنما يثورون ضد أنفسهم ، ويقضون على حياتهم وسعادتهم بعبثهم وجنونهم واتباعهم لأوامر أعداء الدولة المحركين لهم . فالذين ماتوا من الأرمن في الحوادث الأرمنية إنما ماتوا فريسة الدسائس الإنكليزية . والذين ماتوا في كريت ماتوا فريسة الدسائس الإنكليزية . بل والذين ماتوا من جنود اليونان في تساليا ماتوا فريسة الدسائس الإنكليزية نفسها » (٢) .

ويقول في تمجيد السلطان عبد الحميد : « وإن أعظم سلطان جلس على أريكة ملك آل عثمان ووجه عنايته لإبطال مساعي الدخلاء وتطهير الدولة من وجودهم هو جلالة السلطان الحالي . فقد تعلم من حرب سنة ١٨٧٧ وما جرى فيها أن الدخلاء بلية البلايا في الدولة ومصيبة المصائب . فعمل بحكمته العالية على تبديد قوتهم وتربية الرجال الذين يرفعون شأن الدولة ويعملون لإعلاء قدرها » (٣) .

ويقول في ضرورة المحافظة على سلامة الإمبراطورية العثمانية وتصوير قوة نفوذها بين الأمم الإسلامية : « ولكن الحقيقة هي أن بقاء الدولة العلية ضروري

---

١ — المسألة الشرقية ص ٥
٢ — المسألة الشرقية ص ٨ ، ٩
٣ — المسألة الشرقية ص ١٠

للنوع البشري، وأن في بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق. .وقد أحس الكثيرون من رجال السياسة ومن رجال الأقلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن العام ، وأن زوالها (لا قدر الله) يكون مجلبة للأخطار ، أكبر الأخطار ، ومشعلة لنيران يمتد لهبها بالأرض شرقها وغربها ، شمالها وجنوبها ، **وأن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الإسلام يكون داعية لثورة عامة بين المسلمين وحرب دموية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صبيانية .** »

« وإن الذين يدّعون العمل لخير النصرانية في الشرق يعلمون قبل كل إنسان أن تقسيم الدولة العلية أوحلها يكون الضربة القاضية على مسيحيي الشرق عموماً قبل مسلميه .**فقد أجمع العقلاء والبصيرون بعواقب الأمور على أن دولة آل عثمان لا تزول من الوجود إلا ودماء المسلمين والمسيحيين تجري كالأنهار والبحار في كل واد »**[1] .

ويقول في سعي إنجلترا لهدم الخلافة التركية وتعضيدهم لكل خارج عليها :
« وقد علمت إنجلترا أن احتلالها لمصر كان – ولا يزال يكون مادام قائماً – سبباً للعدواة بينها وبين الدولة العلية ، وأن المملكة العثمانية لا تقبل مطلقاً الاتفاق مع إنكلترا على بقائها في مصر . . . ولذلك رأت إنكلترا أن بقاء السلطنة العثمانية يكون عقبة أبدية في طريقها ومنشأ للمشاكل والعقبات في سبيل امتلاكها مصر ، وأن خير وسيلة تضمن لها البقاء في مصر ووضع يدها على وادي النيل هي هدم السلطنة العثمانية ونقل الخلافة الإسلامية إلى أيدي رجل يكون تحت وصاية الإنكليز ، وبمثابة آلة في أيديهم .ولذلك أخرج ساسة بريطانيا مشروع الخلافة العربية مؤملين به استمالة العرب لهم وقيامهم بالعصيان في وجه الدولة العلية . . . ولذلك أيضاً كنت ترى الإنكليز ينشرون في جرائدهم أيام الحوادث الأرمنية مشروع تقسيم الدولة العلية – حماها الله – جاعلين لأنفسهم من الأملاك المحروسة مصر وبلاد العرب ، أي السلطة العامة على المسلمين . »

---

١ – المسألة الشرقية ص ١٣ – ١٤

« والذي يبغض الانكليز على الخصوص في جلالة السلطان الحالي هو ميله الشديد إلى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الإسلامية . . . ومن ذلك يفهم القارىء سبب اهتمام الإنكليز بالأفراد القليلين الذين قاموا من المسلمين ضد جلالة السلطان الأعظم وسبب مساعدتهم لهم بكل مافي وسعهم . . .فإن مشروع جعل الخلافة الإسلامية تحت وصاية الإنكليز وحمايتهم هو مشروع ابتكره الكثيرون من سواسهم منذ عهد بعيد . وقد كتب كتاب الانكليز في هذا الموضوع ومنهم المستر بلانت المعروف في مصر . فقد كتب كتاباً قبل احتلال الانكليز لمصر في هذا المعنى سماه (مستقبل الإسلام) وأبان فيه أغراض حكومة بلاده وأماني الإنكليز في مستقبل الإسلام . وقد كتب في فاتحة كتابه :

لا تقنطوا فالدرّ يُنثَر عِقدُه ليعود أحسن في النظام وأجملا

« أي أن هدم السلطنة العثمانية لا يضر بالمسلمين ، بل إن هذا العقد العثماني ينثر ليعود عقداً عربياً أحسن وأجمل . ولكن مالم يقله المستر بلانت هو أن قومه يريدون هذا العقد العربي في جيد بريطانياً لا في جيد الإسلام ! ! . . ويبين المستر بلانت أيضاً (أن مركز الخلافة الإسلامية يجب أن يكون مكة ، وأن الخليفة في المستقبل يجب أن يكون رئيساً دينياً ، لا ملكاً دنيوياً) أي أن الأمور الدنيوية تترك لإنكلترا لتدبر أمورها كيف تشاء ! ويعقب المستر بلانت ذلك بقوله (وإن خليفة كهذا يكون بالطبع محتاجاً لحليف ينصره ويساعده ، وما ذلك الحليف إلا إنكلترا ! !) وبالجملة فحضرة المؤلف لكتاب مستقبل الإسلام يرى — وما هو إلا مترجم عن آمال أبناء جنسه — أن الأليق بالإسلام أن ينصب إنكلترا دولة له. ولم يبق للمستر بلانت إلا أن يقول بأن الخليفة يجب أن يكون إنكليزياً ! ! »(١)

ويختم مصطفى كامل الفصل الأول من كتابه بالدعوة إلى الالتفاف حول الراية العثمانية بقوله « أما واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة انكلترا للدولة العلية فبين لا ينكره إلا الخونة والخوارج والدخلاء . فواجب العثمانيين أن

١ – المسألة الشرقية ص ١٩ – ٢٢

يجتمعوا جميعاً حول راية السلطنة السنية ، وأن يدافعوا عن ملك بلادهم بكل قواهم ولو تفانى الكثيرون منهم في هذا الغرض الشريف حتى يعيشوا أبد الدهر سادة لا عبيداً . وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة الإسلامية المقدسة، وأن يعززوها بالأموال والأرواح، ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفي بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية »[1] .

وكان محمد فريد خليفة مصطفى كامل متفقاً معه في أن مصلحة مصر في ذلك الوقت تدعو إلى موآزرتها لتركيا ، لأن ذلك هو السبيل الأمثل إلى مناهضة المستعمرين . يدل على ذلك اهتمامه بتأليف كتاب عن (تاريخ الدولة العلية العثمانية) يقول في مقدمته : «على أن الملك العثماني قد لَمّ من شعث الولايات الإسلامية وقطع من تقاطعها ما رَدّ على السيطرة الإسلامية كل السيطرة الشرعية. على أثر ذلك قامت قيامة التعصب الديني في الممالك الأوروبية ، واتفقت على اختلافها ، وتوحدت على تعددها ، وانسابت على الملك العثماني ، وأخذت تحاربه مثنى وثلاث ورباع لتقويض عرشه ورده إلى مهده الأول . . . فلما كانت هذه الدولة قد وقفت نفسها للذب عن حرية الشرق والذود عن حوضه ، ولما كانت هي الحامية لبيضة الدين الإسلامي زمناً طويلا . . رأيت من الواجب علي خدمة للحقيقة ونفعاً لأبناء البلاد، أن أدون هذا التاريخ . . . راجياً منه تعالى أن يوفقني لخدمة الوطن ونفع بنيه **وأن يديم ويؤكد ما بين مصرنا والدولة العلية من التابعية** ، وأن يحفظ خديوينا المعظم عباس حلمي الثاني ملجأ لمصر وأبنائها ومنقذاً لها من ورطتها إنه السميع المجيب » .

ومما يدل على حسن تقبل الرأي العام لهذا الكتاب أنه طبع للمرة الأولى سنة ١٨٩٣ ، فلم يمض على طبعه ثلاثة أعوام حتى أعيد طبعه سنة ١٨٩٦ ، مع قلة عدد القراء في ذلك الوقت . ومما يدل على ثبات مؤلفه على آرائه فيه أنه طبعه للمرة الثالثة سنة ١٩١٢ حين بلغ الخصام بينه وبين الخديوي عباس ذروته .

---

١ – المسألة الشرقية ص ٢٣

وقد صور كرومر في كتابه (مصر الحديثة) الذي ظهر عقب مغادرته مصر سعة انتشار فكرة الرابطة الإسلامية بين المصريين، واعترف بما تتمتع به الخلافة التركية من نفوذ واسع في مصر، فتكلم عن الحجاب الكثيف من التعصب الديني الذي يقوم بين الإنجليزي الراغب في إصلاح مصر — حسب زعمه — وبين المصريين[1]. كما تكلم عن تمسك المصريين بعقيدتهم الإسلامية المتغلبة على الوطنية بمعناها الإقليمي، والتي تؤمن بالوحدة الكاملة بين المسلمين في سائر أقطار الأرض[2]. وتكلم في موضع آخر من كتابه عن هيبة المصريين المركوزة في أعماق نفوسهم للترك المستعمرين[3]، وعن عطفهم على الخليفة التركي كلما وقع في محنة، مستشهداً على ذلك بما حدث سنة ١٨٩٢ حين عارضت إنجلترا صدور الفرمان التركي، وفي سنة ١٩٠٦ حين اختلفت إنجلترا وتركيا على حدود مصر الشرقية في سيناء. فقد أثار شعور المصريين — كما يقول — أن تذل دولة مسيحية خليفة المسلمين[4].

* * *

هذه النزعة الإسلامية التي رأيناها واضحة في كتاب العصر وقادته ومفكريه نستطيع أن نتتبعها في الشعر فنجدها في مثل هذا الوضوح. فليس بين الشعراء المعاصرين وقتذاك، على اختلافهم وتباين نزعاتهم، من يخلو ديوانه من شعر في مدح الخليفة التركي، والإشادة بفضله على المسلمين، وحرصه على إعلاء كلمة الدين. وليس فيهم من تخلف عن المشاركة بشعره في حروب تركيا وأحداثها الجسام، مثل حرب اليونان وحرب طرابلس وحرب البلقان والدستور العثماني وسقوط عبد الحميد. وهم يرون أن الخليفة هو الجامع لشمل المسلمين، وأنه حين يحارب إنما يحارب دفاعاً عن الإسلام وتمسكاً بإعلاء كلمته بين الدول

---

١ – Modern Egypt ٢ : ١٣٩
٢ – المرجع نفسه ٢ : ١٣٢ – ١٣٣
٣ – المرجع نفسه ٢ : ١٦٩
٤ – المرجع نفسه ٢ : ١٧٠

التي تتربص به . وهم يدعون إلى اتحاد كلمة المسلمين في ظل راية الخلافة ، محذرين من الإصغاء إلى دعوة التفرقة التي لا تصيب الأمم الإسلامية جميعاً إلا بالشر .

يقول شوقي (١) :

رَضِيَ المسلمون والإسلام ... فرع عثمان . دُمْ فداك الدوام
إيه عبدَ الحميد جلّ زمان ... أنت فيه خليفة وإمام
عُمَرٌ أنت ، بَيْدَ أنك ظل ... للبرايا وعصمة وسلام
ما تتوجت بالخلافة حتى ... تُوج البائسون والأيتام
ولأنت الذي رعيّته الأسْدُ ومَسْرَى ظلالها الآجام
أمة الترك والعراق وأهلو ... ه ولبنان والربى والخيام
عالَم لم يكن ليُنْظَمَ لولا ... أنك السِّلْم وسْطه والوئام

ويقول حافظ من قصيدة له أنشئت في عيد تأسيس الدولة العلية ١٩٠٦ :(٢)

لقد مكن الرحمن في الأرض دولة ... لعثمان لا تغفو ولا تتشعب
بناها فظنتها الدَّراريُّ (٣) منزلا ... لبدر الدجى تُبنى وللسعد تُنصب
وقام رجال بالإمامة بعده ... فزادوا على ذاك البناء وطنّبوا
وردوا على الإسلام عهد شبابه ... ومدوا له جاهاً يرَجّى ويرهب
أسود على البسفور تحمي عرينها ... وترعى نيام الشرقِ والغربُ يرقب

ويقول محرم (٤) :

يا آل عثمان من ترك ومن عرب ... وأي شعب يساوي الترك والعربا
صونوا الهلال وزيدوا مجده عاماً ... لا مجد من بعده إن ضاع أو ذهبا

---

١ ـ الديوان ١ : ٢٩٦
٢ ـ الديوان : ٢ : ١٧
٣ ـ الدراري : الكواكب المضيئة ، جمع دري (بضم ثم كسرة مشددة)
٤ ـ الديوان ٢ : ٤

أبو الخلائف ذو النورين [1] مورثنا ... ملك الهلال وهذا المجد والحسبا
يا تاج عثمان إن اليوم موعدنا ... فجدد العهد والتّق الحب والرّغبا
لو ضاع عهدك أو حام الرجاء بنا ... على سواك لقينا الحَيْنَ والعطبا

ويقول [2] :

لولا بنو عثمان والسَّنَن الذي ... شرعوا لما وضح السبيل الأقوَم
سطعوا بآفاق الخلافة فانجلى ... عنها من الحدَثان ليل مظلم
فهمُ ولاة أمورها وكفاتها ... وهمُ حماة ثغورها ، وهمُ هُمُ
تعتز آناً بالسلام وتارة ... بالحرب يزخر في نواحيها الدم
فبتلك يُكْفَى الملك ذا شحنائه ... ويصان من كيد الخصوم ويعصم

ويقول [3] :

إنا بني عثمان أعلامُ الورى ... والأرض تشرف فوقها الأعلام
إنا السنام إذا الأنام تفاخرت ... والناس فيهم مَنْسِم [4] وسنام
إنا يسوس أمورَنا ويقيمها ... ملكٌ بأمر إلهه قوّام
رَحْبُ الذراع كفى الذي نُعْنَى به ... رأيٌ له في المشكلات حسام
عبدُ الحميد أتاح في أيامه ... للملك ما ذهبت به الأيام
لولا حزامتُه وشدة بأسه ... ومضاوه لتضعضع الإسلام
ما زال يحمي حوضه مذ جاءه ... وكذاك يحمي غيله الضرغام
دُم يا أمير المؤمنين فما لمن ... عاداك بين العالمين دوام
لا زلت يا ركن الخلافة شامخاً ... تعنو لك الأعراب والأعجام

ويقول الكاشف ، من قصيدة له في عيد جلوس السلطان عبد الحميد

١ – ذو النورين هو عثمان الأول الذي تنسب إليه دولتهم المتوفى سنة ١٣٣٦ م
٢ – الديوان ٢ : ٤٣
٣ – الديوان ٢ : ٣٣
٤ – المنسم : خف البعير . أي أن في الناس الكبير والحقير

سنة ١٩٠٠ [١] :

يا ناصر الإســلام إن زماننا | بك صار في عز وفي استكبار
ومعزّ كل مسالم لك خاضع | ومِذلّ كل معاند جبــار
ومعيد أدوار الشباب لموطن | كم للحوادث فيه من أدوار

ويقول من قصيدة يرثي بها خاله ، مبيناً فضله عليه في إرشاده وتربيته تربية إسلامية صحيحة [٢] :

وقد كنتَ المُعينَ على صلاحي | ومرشديَ العظيم إلى الكمال
تعلمني الرمايــة والقوافي | وآداب الخطابــة والجــدال
وتلهمني المعـــاني باهرات | أسيل بهن كالسحر الحــلال
وتوضح لي المسالك والمساعي | فأبلغ كل ممتنــع المنــال
وتُشربني بعلمك حبَّ ديني | وقومي والخليفــةِ والهلال

ويقول نسيم من قصيدة له في تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد الفطر [٣] :

أقمت عرشك بين الحق والسدَدِ | فزاده الله تثبيتــاً إلى الأبــد
...فكيف نفزع في الدنيا لطارئة | وأنت تحمي ذمار الفازع الخضد[٤]
خليفة الله يا ابن الغر من نجُبِ | لله درك يوم الرَّوْع من عضد
جاهدت في الملك تحميه وتحفظه | جهاد طه مع الأنصار في أُحُد
والسيف يكتب آيَ الفتح محكمة | على البلاد بنفس من دمٍ جَسَدِ[٥]
وقد أعدت إلى الإسلام نضرته | حتى زهى بك واستذرى إلى سند

---

١ – الديوان ١ : ٨
٢ – الديوان ١ : ١٤٧
٣ – الديوان ١ : ١٦
٤ – الخضد : العاجز عن النهوض .
٥ – الجسد : الدم ، وهو توكيد .

ويقول في قصيدة أخرى [1] :

وقد أعدت إلى الإسلام نضرته   حتى ارتدى روضة باليانع الخضل
وبت ترعى الرعايا في مراقدها   وصرت تحمي ذمار الفازع الوجل
وكان قبلك قلب السيف مضطرباً   فقرّ بعدك قلب السيف في الخلل
فلا برحت لهذا الدين تكلؤه   حتى يعود إلى أيامه الأوَل

ويقول عبد المطلب من قصيدة له في تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد الدستور [2] :

يا عيدُ حَيِّ وأنت خير نهار   عبدَ الحميد بدولة الأحرار
ملك أقام على الخلافة منهمُ   حرماً وقاها صولة الأشرار
من بعد ما كان الزمان يحلها   بالجور دار مذلة وبَوار
عهد مضى – لا عاد – كبّل دولة الـ   إسلام في الأغلال والآصار [3]
فرمت مَقاتِلَها يدُ الأطماع من   دول كَلِفْنَ بحب الاستعمار
هذي تطالب بالدخول وهذه   تحتال في وَطر من الأوطار [4]
لولا أمير المؤمنين يحوطها   لرأيتها خبراً من الأخبار

ويقول من قصيدة له تزيد على مائتي بيت في الحرب العالمية الأولى، حين أعلنت إنجلترا الحماية على مصر سنة ١٩١٤ [5] ، وقد بدأ قصيدته بتحية العلم التركي :

هلالَ الهدى في دارة المجد أشرق   ودونك ليل الغيّ بالرشد فامحق
ويا علم الأعلام كم خفقت قلو   ب قوم إلى مَرْأى حِفافَيْك فاخفق

ثم مضى في تصوير سوء حال مصر وما يسام أهلها، إذ يساقون مرغمين إلى الموت، مقاتلين تحت الراية البريطانية، مخلفين وراءهم أرامل وأيتاماً وأمهات ثاكلات. ثم تكلم عن مهاجمة أساطيل الحلفاء للأستانة مقر خلافة المسلمين،

---

١ – الديوان ١ : ١٢٩
٢ – الديوان ٩٣ – ٩٤
٣ – الآصار : جمع إصر (بكسر الهمزة)، وهو الثقل والذنب .
٤ – الوطر : الحاجة، والجمع أوطار .
٥ – الديوان ١٥٩ – ١٧٤ .

مظهراً شماتته بعودة أساطيلهم خائبة مهزومة :

فأبلغ بني التاميز عنا وحلفَهم ... بباريس أنباء النذير المصدَّق
عشية يحدون الأساطيل شُرّعاً ... على اليم تحبو في الحديد المطبَّق
تشن على دار الخلافة غارة ... من البحر إن تقرع بها الدهر يفرق
...تألفْن بالعدوان ، يجرين باسمه ... إلى غرض من مُدْحَض الهُون مُزْلَق
فأقبلن في شمل من البغي جامع ... وعدن بشمل بالهوان مفرَّق
...ومن يتحرش بالردى يَكْرَع الردى ... زعافاً ومن يستنبث النار يُحْرَق(١)

وشعراؤنا المعاصرون في هذه الحقبة يعلقون على تركيا آمالا جساماً . فهم يعلنون ولاءهم لخليفة المسلمين في شتى المناسبات ، شاكين إليه ما نابهم من ضر وما نزل بهم من خطب ، راجين تدخله لإنقاذهم . بل إنهم ليرون ذلك واجباً على خليفة المسلمين الذي نيط بعنقه رعاية شؤونهم وحياطة دولهم ، يعاتبونه — وقد يقسون في العتاب — إن تخلف عنه :

يقول شوقي (٢) :

عاليَ الباب ، هُزّ بابُكَ منا ... فسعينا وفي النفوس مرَام
وتجليت فاستلمنا كما للنّـ ... ـاس بالركن ذي الجلال استلام
نستميح الإمامَ نصراً لمصر ... مثلما ينصر الحسامَ الحسام
فلمصر — وأنت بالحب أدرى — ... بك يا حامي الحمى استعصام
يشهدَ اللّه للنفوس بهـذا ... وكفاها أن يشهد العلاّم
وإلى السيد الخليفة نشكو ... جَوْرَ دهر أحراره ظلاّم
وَعَدُوها لنا وعوداً كباراً ... هل رأيت القرى علاها الجَهَام؟(٣)

---

١ — يكرع : أي يشرب . استنبث النار : كشف عنها التراب .
٢ — الديوان ١ : ٢٩٩
٣ — الجهام (بفتح الجيم) السحاب لا ماء فيه . يشبه وعودهم بالسحاب الذي لا يمطر .

ويقول في ختام قصيدته الطويلة في الوقائع العثمانية اليونانية [1] :

وإني لطير النيـــل لا طير غيره | وما النيل إلا من رياضك يحسبُ
. . فلازلت كهف الدين والهادي الذي | إلى الله بالزلفى له نتقرّب

ويقول حافظ من قصيدة له ، يشكو فيها نُوَب الزمان سنة ١٩١٠ ، ويبكي مجد الترك والعرب ، ويصور ما يلقى المصريون في ظل الاحتلال من هوان ، عاتباً على الترك إهمالهم أمر مصر وتركها لقمة سائغة في يد المستعمرين [2] :

فإن تكن نسبتي للشرق مانعتي | حظاً ، فواهاً لمجد الترك والعرب [3]
وقاضبات لهم كانت إذا اخترطتْ | تدثر الغرب في ثوب من الرَّهبِ
وجمرة لهم في الشرق ما همدت | حتى علاها رماد الختل والكذب
متى أرى النيل لا تحلو موارده | لغير مرتهب في الله مرتقب
فقد غدت مصر في حال إذا ذكرت | جادت جفوني لها باللؤلؤ الرطب [4]
. . يا آل عثمان ما هذا الجفاء لنا | ونحن في الله إخوان وفي الكتب
تركتمونا لأقــوام تخــالفنا | في الدين والفضل والأخلاق والأدب

ويقول الكاشف من قصيدة له في عيد جلوس الخديوي عباس سنة ١٩٠٣ ، مشيراً إلى سعي ممدوحه في توكيد صلات الود بين مصر وتركيا ، مبيناً نفع هذه السياسة في القضية المصرية [5] :

إن اتصالك بالخليفــة ضامن | رد المغــير مروّعاً مغلوبا
والحجة البيضاء في يدك التي | فتحت مجالا للجهاد رحيبا [6]

١ — الديوان ١ : ٤٧ .
٢ — الديوان ٢ : ١١٨ — ١١٩ .
٣ — واهاً : كلمة تعجب ، وتأتي للتحسر (فنقول واهاً على ما فات) أي : يا حسرتي على مافات .
٤ — اللؤلؤ الرطب : أي الدمع ، وهي استعارة في غير موضعها ، فليس هذا مكان تشبيه الدمع باللؤلؤ .
٥ — الديوان ١ : ٣٢ .
٦ — يقصد أنه حجتك الكبرى في عدم شرعية الاحتلال . لأنه نقض صريح لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، التي اعترفت فيها انجلترا مع سائر الدول باستقلال مصر وبقائها تحت السيادة العثمانية .

ويقول من قصيدة له في الثورة العرابية يختمها بالحسرة على احتلال انجلترا لمصر ، مترقباً اليوم الذي تجلو فيه عنها، فتعود إلى راية الإسلام ورعاية خليفة المسلمين [1] :

ويا بلادي مالي كلما نظرت	عيناي ما فيك من جند وأعوان
وسطوةٌ للدخيل المعتدي اضطربت	روحي وقَرَّحَ سكْبُ الدمع أجفاني
واحرّ شوقي إلى يوم أراك به	في مأمن منه بل واطول تحناني !
فلا نطيع سوى عبد الحميد ولا	نرضى أميراً سوى عباسك الثاني
هناك أهتف بالأشعار منتشياً	مهنئاً أطرب الدنيا بألحـــاني
يا مصر دام لك النيل الوفي ولا	أقلّني فيك غصن غير ريان

ويقول من قصيدة له في حرب طرابلس سنة ١٩١١ ، يحض فيها المصريين على التمسك بعرى العثمانية ، داعياً عباساً إلى العودة لأحضان الخلافة بعدما كان من جفاء [2] :

إن الذي جعل الخلافة فيكم	جعل المودة والمحبـــة فينا
إن ائتـــلاف قلوبكم وقلوبنا	لـيمدُّ أيديكم إلى أيـــدينا
يا آل مصر — وفي الحوادث عبرة —	فتصفحوها اليـــوم معتبرينا
فدعوا القضية للخليفـــة علّكم	بعد الوداد إليهم ناجونـــا
ما كان من حرج على مصر إذا	جربتُم بعد الجفاء اللينـــــا

ويقول من قصيدة يهنىء فيها عباساً بعودته من دار الخلافة بعد حادثة الحدود سنة ١٩٠٦ ، مستبشراً بوصل ما انقطع من حسن الصلات بالسلطان عبد الحميد مفنداً أقوال الذين زعموا أن الاستعمار الإنجليزي العادل خير من عودة مصر إلى أحضان الحكم التركي الظالم ، مهاجماً الإنجليز الذين استعدوا للحرب دفاعاً عن مصر فيما يزعمون ، وكأنها قد وكلتهم في الدفاع عنها . وليس معقولا أن

١ — الديوان ١ : ٥٤

٢ — الديوان ٢ : ٢٢

يستعين عباس بعدوه على أهله [١] .

تغدو تَبُوعاً للخليفة مخلصاً ... وتروح بالهِمَم العلى مشغولا
هل بعد ما حدثته وشهدته ... جذلان يحسبه العداة عليلا
...صف للرعية كيف مكّن عرشه ... في المشرقين وشيد الأسطولا
وانصح عباداً يزعمون الشرّ في ... أن يستعيد إلى الفرات النيلا
هم أرجفوا بالحرب يبتدرونها ... وتوقعوا التدمير والتقتيلا
قالوا استعان بنا على سلطانه ... من أن يمد يداً إليه طُولَى
هل تستغيث بضيفك المملول[٢] من ... أهليك والمولى الأعزّ قبيلا
...متباينون هم ونحن شرائعاً ... وطبائعاً ومنازعاً وأصولا

ويقول رداً على الذين يزعمون أنه بدعوته إلى الاتفاق مع تركيا إنما يريد أن يستبدل استعماراً باستعمار ، وأن تركيا قد لا تستطيع أن تمنع حليفتها ألمانيا احتلال مصر بعد طرد الإنجليز . وذلك من قصيدة له في عيد جلوس الخديوي عباس [٣] :

ولأي ذنب صد عني معشري ... يوم الحساب وخانني إخواني
لم أدر من أغضبتُه وأثرتُه ... قومي ؟ . . أم الخصم الذي أعياني؟
أو كلما سمعوا بمصر منادياً ... قالوا أجير الترك والألمان
قومان متحدان يومَهما على ... خصميهما وغداً سيختصمان
إن يرضيا ـ ومن المحال رضاهما ـ ... دَفْع المقيم، فمن لنا بضمان ؟
هل نبْدِلَنّ مسيطراً بمسيطر ... ونفرّ من نَهِم إلى غرثان

يجيب الشاعر على دعواهم هذه بقوله :

ماذا ينال الترك من مصر إذا ... سلمَتْ وساورها مغيرٌ ثاني

---

١ – الديوان ٢ : ٣٧
٢ – يقصد بالضيف المملول الاستعمار الإنجليزي ، وبالأهل : تركيا .
٣ – الديوان ٢ : ٤٠

أنقول : غير صحيحة دعواكم فينا ، وإن شقّت على الآذان ؟

ويقول من قصيدة كتبها في عيد جلوس السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٣ ، وقسا فيها على الترك حين عاتبهم على تخليهم عن القضية المصرية ، بعدما وقع من جفاء بين السلطان عبد الحميد والخديوي عباس بسبب جزيرة طاشوز [١]:

كنتم إذا ما شكونا جورَ غالبنا كذّبتُمُ وادّعيتم أنه بَطَرُ
واليوم لانشتكي حكماً ولا حَكَماً ولا نعوذ بكم مما أتى القَدَر
ولا نكلفكم حرب الطبيعة إذ لا بيضكم عندها تغني ولا السمر [٢]
ولا سألناكمُ مالا يكون لنا عوناً ، فلسنا إلى ذي الفقر نفتقر
لكننا نرتجي منكم مجاملة نسلو بها وعلى الأهوال نصطبر
بكى بنو الصين من أخبارنا جزعاً وما استفزّكم من أمرنا خبر
...هلا ذكرتم لنا صنعاً ومأثرة إن كان للذكر في ألبابكم أثر ؟!
فكم جهرنا وأعلنا محبتكم رغم الذين بقاسي بغضكم جهروا
وأنذرونا [٣] فزدناكم مظاهرة حتى اكتفيتم وما أغنتهم النُذُر
ولا نمن عليكم أو نفاخركم بطائلات أيادينا ونفتخر [٤]
فالقوس منكم ومنا السهم والوتر والأسْدُ أنتم ونحن الناب والظفر
...يا آل عثمان ، والدنيا مولّية عنا وعنكم إذا لم تنفع العبَر
وإن بقيتم على هجر فشملكُم وشملنا شَذَر بين العدى مَذَر
عودوا بلاداً أصيبت في عزائمها ومالها وبنيها فهي تُحتَضَر
فلم يقم شعراء النيل موسمهم ولا استفزّتهم الألقاب والبِدَر
قد كان ينظم درَّ التهنئات فمي فاليوم تُنثَر من أجفاني الدرر

١ – الديوان : ١٠٥ وتراجع تفاصيل مشكلة طاشوز في: مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٩٥ وما بعدها .
٢ – البيض : السيوف ، والسمر : الرماح .
٣ – الضمير في أنذرونا مقصود به الإنجليز الذين يحاربون النفوذ التركي في مصر .
٤ – يشير إلى مساعدات مصر لتركيا في حروبها .

...إني وإن كنت في سخط لمعترف بأنكم لو نصرتم مصر تنتصر
وإن تغير ما ضيكم بحاضركم فلن تحل بقلبي المخلص الغيَّر
أضعت أيامي الأولى سُدىً فغدت تلومني فيكم أيامي الأخر [1]

ويقول علي الغاياتي ، من قصيدة له وجهها إلى السلطان عبد الحميد في عيد الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ [2] .

أميرَ المؤمنين مضت قلوب إليكَ يحثها الحب المكين
تؤمل أن تراك لها معيناً وأنت لها على الدهر المعين
رأتك أمامها الأمل المرجَّى وفيك لدائها البرء المبين
فيا أمل القلوب ، إليك مصر تشير وبين جنبيها حنين
تحن إليك يا رب المعالي وقد حلت بساحتها الشجون
رمتها الحادثات بشرّ قومٍ لهم في كل مظلمة شؤون
قضت في عصرهم مصر ، ولولا رجاء فيك ما قرّتْ عيون
فأعززْ يا حِمَى الإسلام شعباً بعزك لا يذل ولا يهون

* * *

وكان الشعراء يؤيدون ما يذهب إليه كثرة المصريين من أن الدول الأوربية حين تتذرع بالدين في طلب حماية الأقليات المسيحية في البلقان ، فتثير فيها الفتن التي لا تنقطع ، إنما تفعل ذلك طمعاً في اقتسام الإمبراطورية العثمانية ، فهم يخفون مطامعهم السياسية تحت ستار الدين .

---

١ – كان من آثار عنف الكاشف في هذا العتاب وخشونته أن لامه صديقه الشاعر محرم ، إذ توهم أنه انصرف عن العثمانية إلى موالاة الإنجليز فأجابه بقوله :

أتـدري بعـذري في شكاتي وتعلم وتكثر لومي ؟ .. إنك الآن تظلم
توهمت أني حلت عن مبدئي الـذي نشأت عليـه .. بئس ما تتوهم
فآخـذتني بالعتب عند وجـوبه وعتبي على الترك انصراف إليهم

٢ – وطنيتي ص ٥٥

يقول شوقي من قصيدة له في الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ [١]:

هب النسيم على مقدونيا بَرَدا ... من بعدما عصفت جمراً سوافيها[٢]
تغلي بساكنها ضغناً ونائرةً ... غَلْيَ الصدور إذا ثارت دواعيها
عاثت عصائب فيها كالذئاب عَدَتْ ... على الأقاطيع لما نام راعيها
خَلا لها من رسوم الحكم دارسها ... وغرها من طلول الملك باليها
فسامر الشرّ في الأجبال رائحُها ... وصبّح السهلَ بالعدوان غاديها
مظلومة في جوار الخوف ظالمة ... والنفس مؤذية من راح يؤذيها
رثت لها وبكتْ من رقة دولٌ ... كالبوم يبكي ربوعاً عزّ باكيها

ويقول الكاشف، من قصيدة له في حرب البلقان سنة ١٩١٣، مشيراً إلى ما ارتكبت فيها أمم البلقان المسيحية من جرائم بشعة في التنكيل بجيرانهم من المسلمين. [٣]:

صليبية يا قوم أم عنصرية ... حروبكم؟ والدين هذا أم الشِّرْك؟
وجيرانكم أعداؤكم أم حماتكم؟ ... وأعداء عيسى المسلمون أم التّرك؟
فهل كان عيسى يطلب الثأر بالخنا ... وهل كان من أخلاقه البغي والفتك[٤]؟
أقرّ بأضغان النفوس ملوككم ... ومن كان في شك فقد ذهب الشك

ويقول من قصيدة أخرى في الموضوع نفسه [٥]:

أأصبر حتّى يسقط العرش بينهم ... وتلتهم النيران تلك الحمائلا؟

---

١ – الديوان : ١ : ٣٦٠

٢ – السافية : الريح التي تسفي التّراب أي تثيره وتذروه، والجمع سوافي. يشير إلى هدوء الفتن بعد الدستور.

٣ – الديوان ٢ : ٢٣

٤ – الخنا : الفحش. يشير إلى هتك أعراض المسلمات. وقوله « أم الترك » كذلك هي في الديوان. والأصحّ أن يقول « أو الترك »

٥ – الديوان ٢ : ٢٤.

حياني لمغلوبين عانوا مكايــداً صليبية قبل الوغى وحبائلا
إذا استنجدوا بالمسلمين تخلفوا وكم وجدوا من قوم عيسى مُخاتلا
فيا آل عثمان اتّعاظاً فإنها تجاريب أيقظن الشعوب الغوافلا

ويقول عبد المطلب من قصيدة له في عيد الدستور [١] :

عهد مضى – لاعاد – كبّل دولة الـ إسلام في الأغلال والآصار [٢]
قرمت مقاتلها يد الأطماع في دول كَلِفْنَ بحب الاستعمار
هذي تطالب بالدخول ، وهذه تحتال في وَطَر من الأوطــار
لولا أمير المؤمنين يحوطهــا لرأيتها خبراً من الأخبــار

* * *

وذلك الذي أشرنا إليه منذ قليل من مهاجمة مصطفى كامل لمشروع الخلافة العربية الذي يراه إحدى دسائس الإنجليز للتفريق بين المسلمين ووضع خلافتهم تحت النفوذ البريطاني . له نظائر في الشعر .

يقول شوقي ، من قصيدة « ضجيج الحجيج » التي رفعها إلى السلطان عبدالحميد سنة ١٩٠٤ ، شاكياً فيها اضطراب الأمن في ربوع الحجاز بسبب تمرد شريف مكة ، مما أدى إلى تهديد الحجاج ، طالباً إليه ألا يَهِنَ في تأديب الثائرين ، وأن لا تأخذه بهم رحمة [٣] :

ضج الحجاز وضج البيت والحرم واستصرخت ربها في مكة الأمم
قد مسها في حماك الضر فاقض لها خليفةَ الله ، أنت السيد الحكَم
لك الربوع التي ريع الحجيج بها أللشريف عليها أم لك العَلَمُ ؟
أدّبْه أدب أميرَ المؤمنين ، فما في العفو عن فاسق فضل ولا كرم
لا ترج فيه وقاراً للرسول فما بين البُغاة وبين المصطفى رَحِمُ
.. في كل يوم قتال نقشعر له وفتنة في ربوع الله تضطرم

١ – الديوان ٩٤ .
٢ – يشير إلى عهد الدسائس والجواسيس الذي سبق منح الدستور .
٣ – الديوان : ١ : ٢٦٣ – ٢٦٦ .

أزْرَى الشريفُ وأحزابُ الشريف بها ... وقسموها كإرث الميْتِ واقتسموا
لاتجزهم منك حلماً واجزهم عَنَتاً ... في الحلم ما يَسِمُ الأفعالَ أو يصم
كفى الجزيرةَ ما جرُّوا لها سفهاً ... وما يحاول من أطرافها العجم (١)
تلك الثغور عليها — وهي زينتها — ... مناهل عذبت للقوم فازدحموا
في كل لج حواليها لهم سفن ... وفوق كل مكان يابسٍ قدم
والاهمو أمراءُ السوء واتفقوا ... مع العداة عليها ، فالعداة هم
فجرد السيف في وقت يفيد به ... فإن للسيف يوماً ، ثم ينصرم

ويقول حافظ ، من قصيدة يهنىء فيها السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه سنة ١٩٠٨ ، ويشير فيها إلى ما كان يضمره شريف مكة من عصيان السلطان : (٢)

مني على دار السـلام تحيـة ... وعلى الخليفـة من بني عثمان
وعلى رجال الجيش من ماش به ... أو راكب أو نازح أو داني
وعلى الأولى سكنوا إلى الحسنى سوى ... ذاك الذي يدعو إلى العصيـان
والي الحجاز الخارجيِّ وما به ... إلا اقتناص الأصفر الرنـان
ما للشريف المنتمي حسباً إلى ... خير البرية من بني عـدنان
أمسى يمالئـه وينصر غَيَّه ... وضلاله بحثـالة العربـان
تالله لو جنّدتمـا رمل النقا ... ونزلتمـا بمواطن العقبان
وغرستما أرض الحجاز أسنّة ... وأسلتما بحراً من النيران
وأقمتما فيها المعاقل منعـة ... من أرض نجـد إلى خليج عمان
لدهاكما ورماكما وذراكما ... ماحي الحصون وماسح البلدان
إن تأتيا طوعاً ، وإلا فأتيـا ... كرها بلا حول ولا سلطان

---

١ — يشير إلى مطامع الدول الأوروبية في بترول العراق الذي أصبح موضع تنافسهم منذ أول القرن العشرين . كما يشير إلى تسربهم للمحميات في جنوب جزيرة العرب ، ولشواطىء الخليج العربي في شرقها واصطناعهم أولياء من أمراء هذه البلاد .

٢ — الديوان ١ : ٤٩ .

ويقول محرم من قصيدة له في حرب طرابلس سنة ١٩١٢ [١] .

ألا إن مَن شقّ العصا لمذمَّمٌ … وإن الذي يبغي الفساد لآثم
ومن كان يأبى أن يوالي إمامه … طواعيةً والاه والأنف راغم
سيعلم من خان الخليفة أنه … مُواقِــعُ أمرٍ شرُّه متفاقم
أطاع هواه واستزلته فتنة … عَضوض تَلَوَّى في لهاها الأراقم
له الويل ، ماذا هاج من نزواته … فثــار يرامي ربه ويراجم ؟
أيطلب ملكاً أم يريد خلافة … تقام لها في المشعَرَين المواسم ؟
تباركت ربي ، كيف يعصيك مسلم … فيوقع بالإسلام ما أنت عالم ؟
تباركت ، إن المسلمين كما ترى … تفاريق ، منها مستطير ورازم

ويقول مشيراً إلى قوة الترك وحسن بلائهم في الدفاع عن الإسلام ، بما يجعلهم أحق من العرب في القيام على خلافة المسلمين ورعاية شعوبهم [٢] :

أسْد الخلافة إن دبّ الضراءَ لها … عادي الثعالب أو ضاري السراحين [٣]
صانوا محارمها بالبأس فامتنعت … على المبيح وعافت خُطّة الهُون
وألبسوها ثياب العز ضافية … تمشي تجرّرها فوق العرانين
حاكوا سوابغها من نافذ ذرِب … وقاطع من سيوف الله مسنون
شدوا دعائمها من بعدما اضطربت … وداركوها بتأييــد وتمكين
تمر بالدهر والأحداث هازئة … تخوض أهوالها شتى الأفانين
ما للخلافة إلا الترك تحرسها … الله يحرسهم في آل ياسين
وللأعــاريب حق لا نضيّعه … وإن رُمينــا بتفريط وتهوين
بنو أبينا وإخوان الزمان على … ما كان من شدة يوماً ومن لين
منا ومنهم حماةُ الملكِ ، يجمعنا … عند اللواءين عهد غير موهون

---

١ – الديوان ٢ : ٣٧ .   ٢ – الديوان ٢ : ٥٩ .
٣ – دب الضراء : أي مشي مستخفياً . السراحين : الذئاب .
٤ – استطار الشيء تفرق . رزم البعير لم يستطع النهوض من الإعياء .

ويقول الكاشف ، من قصيدة له في عيد الدستور العثماني [1] يهاجم فيها الثائرين على الخلافة من أهل الحجاز وأهل اليمن ممن يدعون إلى الخلافة العربية ويقول : إن تعاليم الإسلام سوّت بين المسلمين ، ولم تختص بخلافتهم أمة دون أمة ، فأحقهم بها هم أقدرهم على القيام بحقها والنهوض بأعبائها :

ما اختص أحمد بالخلافة أمــة · علمـاً بأن الدائرات تدور
أولى بها مَن صانها من بعد ما عبثت مقادير بها وعصور
وجلا السماءَ السيفُ وهي دجى كما ملأ السريرُ الأرضَ وهي تمور
شقيت بما تتوهم الأعداء من هذا التراث ، وإنــه لعسير

ويقول ، من قصيدة أخرى هنأ بها الخديوي عباس في عودته من الأقطار الحجازية حين زارها حاجّاً سنة ١٩١٠ [2] :

يا ناصر الإسلام كيف مكانه من عُرْب تلك البيد وهو العادل؟
أينازعون على الخلافة قــادة لولاهم غال الخلافةَ غائل ؟
الله قــدرها لهم وأعزهم ما دام فيهم قانتٌ ومقاتل
فليسكن العرب الكرام إليهمُ وليرْبأنَّ بنفسه المتطــاول
هل يفتديها والخطوب جلائل من لم يصنها والخطوب قلائل ؟

ويقول نسيم [3] :

خليفة الله ، يا خير الورى ملكاً له الظُّبا والوغى والجحفل اللّجب
إن المنابر ـ والعبّادُ تكنفها ـ تختال باسمك ماقيلت بها الخُطَب
تتلى عليها عظات النسك مرشدةً حتّى تزول بها الأحقاد والرّيب
مولاي مافي ملوك الشرق قاطبةً سواك بينهم للملك منتخب

---

١ — الديوان ٢ : ٢٨ — ٢٩ .
٢ — الديوان ٢ : ٦١ .
٣ — الديوان ١ : ٧٥ .

وليس فيهم سواك الدّهرَ ذو لَجَبٍ تعنو له التّرك والأعجام والعرب
فهل يضرك غوغاء خليفتهم في كل مأثرة يروونها الكذب ؟!

* * *

وكان الشعراء يثورون لكل ما يمس شعباً إسلامياً حيثما كان ، ويرتفع صوتهم في كل نازلة تلم بموطن الخلافة .

ينتصر التّرك في حربهم مع اليونان سنة ١٨٩٧ ، فيرتفع صوت شوقي بملحمته الحماسية الرائعة التّي تفيض قوة ، والتّي جاوزت مائتين وخمسين بيتاً (١) :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب ويُنْصَرُ دينُ الله أيّان تضرب

يشيد فيها بانتصار التّرك الذين أعلوا راية الإسلام وصانوا خلافته ، فارتفعت رؤوس المسلمين وكانوا من قبل ينكسونها خجلا (٢) :

رفعنا إلى النجم الرؤوس بنصركم وكنا بحكم الحادثات نصوِّب
ومن كان منسوباً إلى دولة القنا فليس إلى شيء سوى العز ينسب

وقد ردت هذه الحرب إلى الناس ثقتهم بتركيا بعد أن كانوا يعتقدون ـ تحت تأثير الصحف الموالية للاستعمار كالمقطم ـ أنها قد صارت إلى حال من الضعف والانحلال ، لا تستطيع معها مناهضة اليونان ، حتى لقد غلا بعضهم بعد هذا النصر فتصور أنها من أقوى الدول وأنها تقدر على تدويخ أي دولة أوروبية (٣) .

ويعلن السلطان عبد الحميد الدستور ، الذي سوى بين الشعوب العثمانية على اختلاف أجناسها وأديانها سنة ١٩٠٨ ، فيرتفع صوت شوقي بقصيدته (٤)

---

١ ـ الديوان ١ : ٧٥
٢ ـ الديوان ١ : ٣٠
٣ ـ تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٩١١
٤ ـ الديوان ١ : ٣٥٨

بشرى البرية قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميها

وفيها يبين ما أغاض الدستور على البلاد العثمانية من أمن ، وما كان له من أثر في إطفاء الفتن التي لم تنقطع ، بعد ان سكنت اليه الشعوب العثمانيه على اختلاف أديانها وأجناسها ، لأنه سوى بينها بتمثيلها في المجلس النيابي. ويختم قصيدته بالحث على السلام ، وبأن اختلاف الأديان لا ينبغي أن يكون داعياً إلى الخصام ، فكلها يدعو إلى الله ، ويحث على الخير ، وينهى عن الشر .

ويسكت حافظ ، ولكنه يتكلم في العيد الأول للدستور بعد عام ، ويلقي قصيدة في حفل أقيم في الأزبكية سنة ١٩٠٩ بعد عزل السلطان عبد الحميد ، ممجداً الجيش التركي الذي تم على يده هذا الانقلاب الذي عم خيره كل البلاد العثمانية كما توهم (١) :

أجل هذه أعلامه ومواكبه هنيئاً لهم فليسحب الذيلَ ساحبُه
هنيئاً لهم فالكون في يوم عيدهم مشارقه وضاءة ومغاربه
رعى الله شعباً جمّع العدلُ شملَه وتمت على عهد الرشاد رغائبه (٢)
تحالف في ظل الهلال إمامه وحاخامه ـ بعد الخلاف ـ وراهبه

ويختم القصيدة بتهنئة السلطان محمد رشاد :

ليهنِىءْ أميرَ المؤمنين محمداً خلافتُه فالعرش سعدٌ كواكبه
ستملك أمواجَ البحار سفينُه كما ملكت شُمَّ الجبال كتائبُه
ممالكه محروسة وثغوره ركائبه منصورة ومراكبه

ويذيع محرم قصيدته (٣) :

من يمنع الليث أن يعتز أو يثبا ما قيمة السيف إن جردتَه فنبَا

وفيها يحث على تضامن الشعوب العثمانية من ترك ومن عرب في سبيل رفع

---

١ – الديوان ٢ : ٤٨

٢ – السلطان محمد رشاد هو الذي خلف السلطان عبد الحميد بعد عزله .

٣ – الديوان ٢ : ٤ .

راية الإسلام .

ويقول الكاشف قصيدته [١]:

دار الخلافة حاطك البسفور وأجلّ قَدْرك في الورى الدستور

يشير فيها إلى فتن العراق واليمن التي يثيرها المنادون بالخلافة العربية فيضيفون إلى متاعب الدولة في البلقان متاعب جديدة ، منادياً بأن خلافة المسلمين لمن يحميها وأن أعباءهم لا ينهض بها إلا أقواهم ، وبأن العصبية ليست من الإسلام ، مؤكداً حبه وولاءه لدولة الإسلام وخليفة المسلمين ، الذي تتجه إليه وحده أبصارهم في سائر بقاع الأرض .

«حوران» مزدجر و«مقدونية» ثكلى وقد راع «العراق» نذير
وتنصلت «صنعاء» من فجّارها وأبى على المتطاولين «عسير»
لن يخلوَ «البلقان» من شر وإن ملأت ثراه جماجمٌ ونحور
مَن لم يطعك موفقاً مستغفراً فليبق وهو المرغم المقهور
المسلمون على اختلاف بقاعهم في الأرض مالهم سواك نصيرُ

ويرتفع صوت عبد المطلب بقصيدته [٢] :

يا عيدُ حيٍّ وأنت خير نهـار عبدَ الحميد بدولة الأحـرار

ويرتفع صوت الغاياتي بقصيدته [٣] :

أميرَ المؤمنين مضت قلوب إليك يحثها الحبّ الكمين

ويقول عبد الحليم المصري [٤] :

تهلل الحج والدستور في رحب وطلعةُ العيد لاحت ثم لم تغب

١ – الديوان ٢ : ٢٧
٢ – الديوان ٩٣
٣ – وطنيتي ص ٥٥
٤ – الديوان ١ : ٤٣

عيد الخلافة عيد الدين ، زانهما — عيد الممالك من عجم ومن عرب
إن قيل في مصر إن الترك قد ظلموا — فمرُّ ظلمهم أحلى من الضَرَب [1]
ماأعذب القتل من سيف الصديق وما — أمره إن يكن من غير مصطحب
بلوت يامصر من ظلم الحبيب ومن — عدل العدو ، فما يحلو لك اطّلبي

ثم يلغي عبد الحميد الدستور الذي أصدره كارها ، بعد حملة صحفية شنعت بزعماء الاتحاديين وبينت فساد دينهم . ويلجأ زعماء الاتحاديين في الجيش إلى العنف ، فيقتحمون الآستانة ويحاصرون يلدز ، ويشتبكون مع رجال عبد الحميد في معركة كبيرة تنتهي بالتسليم . ثم يقبضون على أنصاره ويعدمون منهم عدداً كبيراً يزيد على الألف . وتجتمع الجمعية العمومية - وكان الاتحاديون هم المسيطرين عليها - فتقرر عزل السلطان عبد الحميد وتولية السلطان محمد رشاد في ٢٧ إبريل سنة ١٩٠٩ . وعند ذاك ترتفع أصوات الشعراء في مصر ، بين مشفق على عبد الحميد يرثي له في بلواه ، وعاتب عليه سوء سياسته التي انتهت به إلى هذا المصير ، وشامت به يشنع بما لقي خصومه على يديه من نكال .

أما شوقي فقصيدته في هذه المناسبة مشهورة [2] :

سَلْ يَلْدِزاً ذات القُصُور — هل جاءها نبــأ البدور

وهو يرى فيها أن السلطان عبد الحميد في موقفه أجدر بالرثاء ، لما آل إليه من ذل بعد عز ، فهو يعطف عليه في محنته ، ويحله من نفسه محلا كبيراً ، بين شماتة الشامتين ولوم اللائمين :

شيخ الملوك وإن تضعـ — ـضع في الفؤاد وفي الضمير
نستغفر المــولى لــه — والله يعفو عن كـــثير
ونراه عنــد مصابه — أولى ببـــاك أو عــذير

---

١ - الضرب « بفتح الضاد والراء » العسل .
٢ - الديوان ١ : ١٣٦

ونصونـــــه ونجـــلـّه بين الشماتة والنـــــكير
عبــدَ الحميد ! حساب مثـ ـلك في يد الملِك الغفور

ولكن ذلك لايمنعه من أن يلومه لتمسكه بالحكم الفردي ، ومحاربته نظام الشورى الذي :

هو حكمة المَلِكِ الرشـيـ ـــد وعصمة المَلِكِ الغرير

كما لا يمنعه من الإشادة بالثوار الذين هبوا – كما يقول – لنصرة الحق ، وعرضوا أنفسهم في سبيله للهلاك :

يا أيهـــا الجيش الـــذي لا بالـــدّعِيِّ ولا الفخور
يخفى فإن ريع الحمى لفت البريـــة بالظهور
كالليث يسرف في الفعـــا ل وليس يسرف في الزئير
الخاطب العليـــــاء بالـ أرواح غاليـــة المهور
عنـــد المهيمن مـــا جرى في الحق من دمك الطهور

أما حافظ فهو شديد العطف على عبد الحميد في بلواه ، وقصيدته تفيض بالحزن على مصيره المؤلم [1] :

لا رعى الله عهـــدها من جدود كيف أمسيت يا ابن عبد المجيد [2]
كنت أبكي بالأمس منك ، فمالي بت أبكي عليك عبدَ الحميـــد
فرح المسلمون قبـــل النصارى فيكَ قبل الدروز، قبل اليهود
شمتوا كلهم ، وليس من الهمّـ ـة أن يشمت الورى في طريد
أنت عبدُ الحميد والتاج معقو دٌ وعبدُ الحميد رهنَ القيود
خالدٌ أنت رغم أنف الليالي في كبار الرجال أهل الخلود

١ – الديوان ٢ : ٤٣
٢ – الجدود : الحظوظ ، جمع جد « بفتح الجيم » وهو الحظ . عبد المجيد : هو أبو السلطان عبد الحميـــد .

وهو يتناسى سيئاته ، ولا يذكر له إلا الحسنات ، قائلا إن الكمال في الدنيا محــال :

لك في الدهر — والكمال محال — صفحات ما بين بيض وسود
حاولوا طمس ما صنعتَ وودوا لو يطيقون طمس خط الحديد (١)
وَلِيَ الأمرَ ثلث قرن ينادي باسمه كلّ مسلم في الوجود
كلما قامت الصلاة دعــا الداعي لعبد الحميد بالتأييــد
فاسم هذا الأمير قد كان مقرونًا بذكر الرسول والتوحيــد

ولكن حافظاً يعود فيهاجمه بعد أن يفيق من هول المفاجأة في قصيدته التي ألقاها في الاحتفال بعيد الدستور العثماني في الأزبكية بعد عزله بثلاثة شهور (يوليو سنة ١٩٠٩) فيقول (٢) :

ولم يغنِ عن عبد الحميد دهاؤه ولا عصمتَ عبدَ الحميد تجاربُه
ولم يحمه حصن ولم ترْمِ دونَه دنانيرُه والأمرُ بالأمر حــازبه
ولم يخفه عن أعين الحقّ مخدع ولا نفق في الأرض جمّ تسَاربه (٣)
وأصبح في منفاه والجيش دونه يغالب ذكرى ملكه وتُغالبه
يناديه صوت الحق : ذق ماأذقتهم فكل امرىء رهن بما هو كاسبه
مضى عهد الاستبداد واندك صرحه وولت أفاعيه وماتت عقاربه

أما الشاعر محرم فالوفاء يغلب عليه في قصيدته . وهو يرى الناس الذين كانوا

١ — يشير إلى سكة الحديد التي أنشأها السلطان عبد الحميد بين دمشق والمدينة سنة ١٩٠٠ وتمت سنة ١٩٠٨ وكان المشروع وقتذاك حديث المسلمين لضخامته ولتكاليفه الباهظة التي نهض بها عبد الحميد دون أي عون خارجي ، مع سوء الظروف المالية التي كانت تقاسيها تركيا . وطول الخط ١٢٠٠ ميل . وقد قدرت تكاليفه بثلاثة ملايين من الجنيهات ، اكتتب فيها المسلمون في سائر بقاع الأرض .

٢ — الديوان ٢ : ٤٨ .

٣ — يشير إلى ما عرف عن عبد الحميد من شدة حذره ، وكثرة ما أنشأ في قصوره من مخابىء وسراديب .

يتزلفون إلى عبد الحميد بالأمس ولا يرونه إلا خيراً خالصاً يأكلون لحمه اليوم ولا يرونه إلا شرّاً صرفاً . وكأنه يردد قول الشاعر القديم :

والناسُ ، من يَلْقَ خيراً قائلون له ما يشتهي ، ولأمِّ المخطىء الهَبَل

يدافع عن عبد الحميد ، فيلقي تبعة ما يتهمه به خصومه من تهم على عاتق بطانته [1] :

ثوى عاثر الآمال يؤنسه الأسى وتوحشه أوطـارُه ومآربه
كأن جلال الملك لم يبدُ حوله مهيباً ولم تُضرَب عليه مضاربُه
كأن السرايا والفيالق لم تسر إلى الموت تَثْـني دونه من يحاربه
كأن رؤوس الصِّيد لم تَكُ خشّعاً لدى بابه المرجوّ بالأمس حاجبه
كأن بغاة الجود والمجد لم تَفِدْ عليه ولم تهطل عليهم مواهبه
كأن بناة الشّعر لم تغش بابه بمستعليات تزدهيهـا مناقبه
كأن الأُولىَ زانوا المنابر باسمه أحلوُّا بدين الله مالا يناسبه
طووا ذكره واستودعوا الله عهده وكل امرىء رهن بما هو كاسبه

* * *

أرى الناس من يقعد به الدهر ينقموا عليه وإن كانت قليلا معايبه
ألم يكُ ظلُّ الله بالأمس بيننا نلوذ به والخطب ضَنْكٌ مذاهبه[2]
أنطريه قهاراً ونؤذيـه مرهَقاً كفى الليثَ شرا أن تُفَل مخالبه
ألا راحم ؟ هل من شفيع ؟ أما كفى ؟ أكلّ بني الدنيا عدو يغاضبه ؟
أكان يريد السوء بالملك ؟ أم يرى مَسَرّته في أن ترنّ نوادبه ؟
أكلُّ مآتيـه ذنوب ؟ أكله عيوب ؟ ألا مِنْ منصف إذ نحاسبه ؟
أكلُّ ذوي التيجان بالعدل قائم ؟ أما فيهمُ من لا تُعد مثالبُه ؟
أليس الأُولىَ غشُّوه أجدر بالأذى ؟ وأَوْلى الورى بالشر من هو جالبه

---

١ – الديوان ٢ : ٨

٢ – ظل الله على الأرض : لقب الخليفة التركي .

أما ولي الدين يكن – وهو ينتمي إلى حزب الاتحاد الذي قام بالثورة – فهو لا ينسى مطاردته لهم ، وما ذاقوا على يديه من نكال . فقصيدته كلها تشنيع بعهده الذي اقترن ـ حسب زعمه ـ بسيادة الجواسيس والجواري وغلبة الهوى على الإنصاف . فهو شامت لا تختلج في قلبه خلجة من رحمة ، ولا تفيض عينه بدمعة رثاء . ويزيد في ثورة نفسه عليه أنه لا ينسى السنين الحالكة التي قضاها منفياً في « سيواس » ، فلم يفرج عنه إلا بعد صدور الدستور . فقد كانت ذكرى هذا الاضطهاد عالقة لم تبرح ، وهو قريب عهد بها لم يمض عليها غير شهور . ولذلك فقد كان حنقه شديداً على شوقي في قصيدته التي أشرنا إليها منذ قليل ، فنقضها عليه بقصيدة من نفس البحر والقافية ، يقول فيها : إنك تذكر آلام سكان القصور ولكنك تنسى آلام سكان القبور ، وتذكر ما وهب ، ولكنك تنسى ما نهب . وتبكي عليه اليوم ، وتنسى أنه أبكى بالأمس كثيراً من الأبرياء . فهو لا يذكر للرجل حسنة واحدة ، ولا يراه إلا شراً خالصاً . بل لا يرى الذين يبكونه إلا من عباد الملوك ، الذين يندبون ما ضاع من هبات ذلك الطاغية المفسد [1] .

هاجتـك خالية القصور ... وشجتك آفلـة البـدور
وذكرت سكان الحمى ... ونسيت سـكان القبور
وبكيت بالـدمع الغزيـ ... ـر لباعث الدمع الغزير
ولواهب المـال الكثيـ ... ـر وناهب المال الكثير
حامي الثغور البـاسما ... ت مضيع آهلة الثغور [2]
أهدى الفتورَ لقلبـه ... ما باللواحظ من فتور
واستنفرته عن الرعـا ... يا كلُّ آنسة نفور
والجنـد عارية منـا ... كبها مقصّمة الظهور

---

١ – الديوان ص ٣٠ .

٢ – الثغور الأولى : أفواه الحسان ، والثانية : البلاد التي على الحدود . يقول إنه كان يحمي النساء ، ولكنه كان يضيع الملك .

خُمْصُ البطون من الطوَى دقت فعادت كالسيور
لله أجساد ثوت بين الجنادل والصخور [1]
باتت على خَشن الثرى من بعد مضجعها الوثير
كانت زهور شبيبة لهفي على تلك الزهور
كم خلفها من صبية يَتِمَتْ ومن شيخ كبير
يترقبون مآبها إن المآب إلى النشور
من كان يستحلي الشرو ر يموت من تلك الشرور
لما أديل من السري ر بكاه عبّاد السرير
نذروا النذور لعوده هيهات يرجع بالنذور
أسفوا عليه وإنما أسفوا على المال الدرير
طلبوا له عفو الغفو ر وشَذّ عن عفو الغفور
قَلّصْ ظلالك راحلا ودع البرية في الهجير

* * *

وتغير إيطاليا على طرابلس سنة ١٩١١ ، فتشتبك في حرب مع تركيا التي استنجدت بالدول الأوروبية ، فلم تجد منها إلا فتوراً. وتتألف في مصر اللجان ، وتقام الأسواق الخيرية لجمع التبرعات وإرسال البعوث الطبية ، وينشيء الشيخ علي يوسف جمعية الهلال الأحمر في ٧ نوفمبر سنة ١٩١١ . ويتطوع في الحرب كثير من المصريين بدافع من الحمية الإسلامية ، رغم معارضة الإنجليز [2] .

وترتفع أصوات الكتاب والشعراء ، تثير الحمية في النفوس . فيلقي شوقي قصيدة في حفل جماعة الهلال الأحمر يحث فيها الشعوب الإسلامية التي تجمعها الرابطة العثمانية على التعاون والاتحاد [3] .

---

١ – يشير إلى ما كان يشنع به الاتحاديون ويروجونه بين الناس من أنه كان يتخلص من خصومه بربطهم بالأصفاد والأثقال وإلقائهم في مياه البسفور . وهي شائعات لم تثبت صحتها .
٢ – مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٢٦٥ ، ٢٦٧
٣ – الديوان ١ : ٣٠٣

يا قوم عثمان والدنيا مداولَـةٌ تعاونوا بينكم ياقوم عثمانا
كونوا الجدار الذي يقوى الجدار به فالله قد جعل الإسلام بنيـانا
البِرّ من شعَب الإيمان أفضلها لا يقبل الله دون البِـرّ إيمانا
هل ترحمون لعل الله يرحمكم بالبيد أهلا وبالصحراء جيرانا
في ذمة الله ، أوفَى ذِمّةٍ ، نفر على طرابُلُسٍ يقضون شجعانا

ويقول حافظ قصيدته [1] :

طمعٌ ألقى عن الغرب اللثاما فاستفق يا شرق واحذَر أن تناما

يستثير فيها حمية المسلمين بتصوير ما ارتكبت الجيوش الإيطالية من جرائم وما استحلت من محارم :

كبّلوهم ، قتّلوهم ، مثّلوا بذوات الخدر ، طاحوا باليتامى !
ذبّحوا الأشياخ والزّمنَى ولم يرحموا طفلا ولم يبقوا غلاما [2]
أحرقوا الدور ، استحلوا كل ما حرّمت لاهاي في العهد احتراما [3]
باركَ المطران في أعمـالهم فسلوه : باركَ القومَ علاما ؟!
أبهـذا جاءهم إنجيلهم آمراً يُلقي على الأرض سلاما ؟!

ويسخر من الجيوش الإيطالية هازئاً ، وقد وردت الأخبار الأولى بهزيمتهم :

خبّروا فكتور [4] عنا أنه أدهش العالم حرباً ونظاماً
أدهش العالم لما أن رأوا جيشه يسبق في الجرْيِ النعاما
حاتِمَ الطليان قد قلّدتنـا منّةً نذكرهـا عاماً فعاما
أنتَ أهديت إلينـا عدّةً ولبـاساً وشراباً وطعاما
وسلاحاً كان في أيـديكم ذا كَلالٍ فغدا يفري العظاما

١ – الديوان ٢ : ٦٦
٢ – الزمنى ذوو العاهات ، جمع زمن (على وزن كتف) .
٣ – مؤتمر لاهاي سنة ١٨٩٩ انعقد للقضاء على أسباب الحرب وتخفيف ويلاتها .
٤ – ملك إيطاليا .

أكثروا النزهة في أحيائنـــا وربانا إنهـــا تشفي السّقاما
وأقيموا كـــل عام موسماً يشبع الأيتام منا والأيامى [١]
لست أدري ، بتّ ترعى أمّةٌ من بني التليان أم ترعى سواماً [٢]

وينشيء محرم ثماني قصائد في مناسبات مختلفة من هذه الحرب ، [٣] تفيض بالغيرة على الإسلام واستنهاض الهمم للذود عن حياضه ومدافعة أعدائه . يقول في إحداها :

رويداً بني روما فللحرب فتية تهيج الظُّبَا أطرابهم واللّهاذم [٤]
أولئك أبطال الخلافة تحتمي بأسيافها إن داهمتها العظائم
هم المانعوها أن يُقَسَّمَ فَيئُها وأن تُستبىَ بَيضاتها والمحـــارم
أنذعن للباغي ونعطيه حُكمَه وفي الترك مقدام وفي العرْب حازم
هما أخوا العز الذي دون شأوه تخر الصياصي خشعاً والمخارم [٥]
أقمنا على عهدَيْ وفاء وأُلْفة فما بيننا قالٍ ولا ثَمّ صارم [٦]
على طول ماقال الوشاة وخَبّبَتْ حقود الأعادي بيننا والسخائم [٧]

ويقول الكاشف [٨] :

المؤمنون إليـــــك مستبقونا لذمارهم وديـــارهم حامونا
فاحشد كتائبك التي أعددتها للحق أبلجَ والرجاء متينـــا

ويقول فيها لإيطاليا : أبهذا العدوان الوحشي أوصاكم المسيح عليه السلام ؟

---

١ – جمع أيم (بتشديد الياء وكسرها) وهي من لا زوج لها .
٢ – السوام : الإبل التي ترعى .
٣ – الديوان : ٢ : ١٨ – ٣٩
٤ – اللهاذم : الأسنة القاطعة ، جمع لهذم (على وزن جعفر) .
٥ – الصياصي : الحصون . المخارم : المسالك في الجبال .
٦ – قلاه : كرهه . صرمه : قاطعه وخاصمه .
٧ – خببوا : أفسدوا . السخائم : جمع سخيمة وهي الحقد والبغض .
٨ – الديوان ٢ : ١٧

يا آل عيسى ما لعيسى لم يقم مستنكراً ما أنتُمُ جانونا ؟
أوصاكم بالمعتدين ، فما لكم بالآمن المأمون فتّاكينا
ماذا جناه المسلمون عليكُمُ وهم عَلى الأمصار غَلاّبونا ؟

ويهاجم فيها سياسة الإنجليز التي أكرهت مصر على الحياد :

ما للحيود وما لمصر ؟ وما بها إلا شجون تستثير شجونا
ما كان للمتطوع المختـــار أن يشكو قيوداً أو يخاف ظنونا

ويذيع عبد المطلب قصيدتين طويلتين تزيد كل منهما عن مائة بيت . كتب الأولى في ليلتين كما يقول ، حين وردت الأنباء بهجوم الجيوش الإيطالية على طرابلس فجاشت نفسه حزناً على أهلها (١) :

بني أمنا ! ! أين الخميس المدرّب وأين العوالي والحسام المذرب ؟
إذا اهتز في نصر الحنيف تساقطت نفوس العدا في حده تتحلّب
خليلي ! ! مالي إذ تذكرت برقة بجنبي نيران الأسى تتلهّب ؟ !
نعم . . راعني من نحو برقة صارخ يُهيب بأنصار الهلال : ألا اركبوا
دعا صارخ الإسلام يا بَني الهدى أغار العدا أين الحسام المشَطّب ؟
كأني به يدعو الخلافةَ مسمعاً كأني به في المسلمين يثوِّب (٢)

وهو يعجب للبابا إذ يبارك الجيوش الإيطالية متسائلا : أين هذا من تعاليم المسيح؟ ويسخر منهم قائلا : إن كنتم راغبين حقاً في الجنة التي وعدكم البابا فنحن خليقون أن نقرّبكم منها :

إذا وقف البابا يبارك جندكم فما كل بابا للمسيح مقرّب
سلوه : أفي الإنجيل للحرب آية ؟ إذا كان في إنجيله ليس يكذب
لكم جنة البابا مآب . فإنما مفاتحها في أرض برقة تُطلب

١ – الديوان ٢٥ – ٤٠١
٢ – ثوب الداعي : لوح بثوبه طلباً للإغاثة .

سلوا جنة البابا بماذا تزينت لتلقى الأولى في لجة البحر غيبوا
هلموا نقربكم إليها فإنما صوارمنا تدني لها وتقرب

ثم أردف هذه القصيدة بالقصيدة الثانية ، بعد أن احتدم القتال بين الجيشين [١] :

هي الهيجاء كم طحنت قرونا وكم سحنت حوادثها قرونا

وهو يعجب فيها لسكوت الدول الأوروبية عن عدوان إيطاليا ، ورضاهم عن مسلكهم ، في الوقت الذي يهيجون فيه ويموجون حين يرتفع صوت من مستعمراتهم بالشكوى من ظلمهم :

وأهلُ الغرب في لعب ولهو على ما بينهم يتغامزونا
دعونا المقسطين فما وجدنا وأشهدنا الملوكَ فأنكرونا
وهمنا ، حين خلناهم عدولا بما شاء الهوى ، لا يحكمونا
بغت روما فلم نسمع نكيراً ولو شاءوا سمعنا المنكرينا
وإن نغضب ، ذياداً عن حياض لنا هدمت ، إذا هم يسخطونا
ملوكَ الغرب !.. ماهذا التعامي ؟ وما للحق بينكم مهينا ؟

أما ولي الدين يكن فهو يذيع قصيدة قصيرة في ستة وعشرين بيتاً عنوانها (لبيك أماه دعوت الكرام » [٢] :

من أين جد اليومَ هذا الخصام يا أممَ الغرب نقضت الذمام

وقصيدته تختلف عن سائر القصائد السابقة في أنها تخلو من كل إشارة للإسلام فهو لا يستنهض الهمم فيها باسم الدين ، ولكنه يستنهضها باسم الحمية لأرض الوطن . وذلك لأنه ينتمي إلى جماعة «تركيا الفتاة» أو حزب الترقي كما كانوا

---

١ – الديوان ص ٢٨٥

٢ – الديوان ص ٤٨ .

يسمونه في بعض الأحيان، الذي كان يدعو إلى القومية التركية الطورانية، والذي كان يستبعد الإسلام من مقومات الوطنية .

* * *

ويضطرب البلقان في أواخر سنة ١٩١٢ ، حين تقوم بلغاريا والصرب والجبل الأسود مطالبة باستقلالها الإداري عن تركيا ، مهاجمة أساليبها الإدارية في الحكم وتقوم اليونان مطالبة بجزر الأرخبيل . وتعلن تركيا الحرب على هذه الدول في ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١٢ . فتنشأ اللجان والجمعيات في مصر لجمع التبرعات. وينعقد مؤتمر لندن في أوائل ديسمبر للنظر في المسألة البلقانية . ويظل يوالي جلساته حتى ٢٣ يناير . وينتهي إلى قرارات تقبلها الوزارة التركية القائمة وقتذاك ، أهمها التنازل عن أدرنة وعن جزر الأرخبيل . ويثور حزب الاتحاد على الوزارة فيسقطها ويستأنف القتال . وترد الأخبار الأولى إلى مصر بانتصارهم ، فتقوم مظاهرات الفرح والابتهاج بهذا النصر . وتقبض سلطات الاحتلال على بعض المحرضين عليها [١] . ولكن هذا الفرح لا يلبث أن يتحول سريعاً إلى وجوم ، حين ترد الأنباء بتقهقر الجيوش وسقوط أدرنة بعد حصار دام خمسة شهور أبلت فيه حاميتها أروع بلاء . ويفزع المسلمون حين تتوالى الأنباء بتقدم جيوش البلقان ، وقد انفتح أمامهم الطريق إلى الاستانة بعد سقوط أدرنة حتى أصبحوا على أبوابها . ويرتكب جنود البلقان جرائم بشعة في الانتقام من سكانه المسلمين [٢] .

وعند ذلك يرتفع صوت شوقي بقصيدة من أروع قصائده ، تزيد على مائة بيت ، يندب فيها مجد الإسلام الزائل ، وقد ذكره تقلص ظله عن شرق أوروبا وقتذاك بضياع سلطانه في غربها حين طرد العرب من الأندلس . ولذلك سمى قصيدته « الأندلس الجديدة » [٣] :

١ — مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٢٨٨ وما بعدها .
٢ — حرب البلقان ص ١٧٧ وما بعدها ، صداقة أربعين عاماً ص ٢٧٣ وما بعدها
٣ — الديوان ١ : ٢٨٧ — ٢٩٥

يا أخت أندلس عليك سـلام هوَتْ الخلافة عنك والإسلام
نزل الهلال عن السماء فليتها طويَتْ وعمّ العالمين ظلام
أزرى به وأزاله عن أوْجِهِ قَدَرٌ يحط البدرَ وهو تمام
جُرحان تمضي الأمتان عليهما هذا يسيل ، وذاك لا يلتام
بكما أصيب المسلمون ، وفيكما دفن اليراع وغيّب الصّمصام
لم يُطْوَ مأتمُها . وهذا مأتم لبسوا السواد عليك فيه وقاموا
مابين مصرعها ومصرعك انقضت فيما نحب ونكره الأيـام
خلت القرونُ كليْلَةٍ وتصرّمت دول الفتوح كأنهـا أحلام

ويخاطب شوقي في هذه القصيدة دعاة الهزيمة من ساسة الترك — وهم من الاتحاديين — الذين كانوا ينادون بأن البلقان مصدر متاعب للدولة ، ويرون الخير في أن تتخلى عنه وتكفي نفسها هذه المتاعب التي لا قبل لها بها ،قائلا : إن هؤلاء الذين يفكرون على هذا النحوهم الذين يؤثرون الراحة على الكفاح ، ويحلون المشاكل بالهروب منها بدل أن يواجهوها. وقد كان أولى بهم أن يتجهوا لإصلاح الإدارة في البلقان بدل التفكير في التخلي عنه :

زعموك همّاً للخلافة ناصباً وهل الممالك راحة ومنَام ؟
ويقول قوم : كنتِ أشأم مورِدٍ وأراك سائغة عليك زحـام (١)
ويراكِ داءَ المُلْك ناسٌ جهالةً بالملك منهم علّةٌ وسقام
لو آثروا الإصلاح كنت لعرشهم ركناً على هام النجوم يقام
وَهْمٌ يقيّد بعضُهم بعضاً به وقيود هذا العالم الأوهام
صُوَرُ العمَى شتى ،وأقبحها إذا نظرَت بغير عيونهن الهام (٢)
ولقد يقام من السيوف وليس من عثرات أخلاق الشعوب قيام

١ – يشير إلى تزاحم الدول الأوروبية وتنافسها على مناطق النفوذ في البلقان .
٢ – يقول : إن من أقبح العمى أن يسيطر الوهم على الإنسان، فيرى الأشياء كما يصورها له وهمه، لا كما تراها عينه التي في رأسه وكما هي في الواقع .

ويندد شوقي بالذين استغلوا اسم الدين في الانتقام من المسلمين الآمنين ، والتنكيل بالأبرياء من المدنيين ، فارتكبوا باسم المسيحية أبشع الآثام ، والمسيحية منهم براء ، فما كان المسيح عليه السلام سفاكاً للدماء ، ولا كان داعياً لإباحة الحرمات ، وإنما كانت دعوته رحمة ومحبة وسلاماً :

أخذ المدائنَ والقرى بخناقهــا ... جيشٌ من المتحالفين لُهَامُ (١)
غطّت به الأرض الفضاء وجوهها ... وكست مناكبَها به الآكام
تمشي المناكر بين أيدي خيله ... أنّى مشى ، والبغي والإجرام
ويحثه باسم الكتاب أقِسّةٌ ... نَشَطوا لما هو في الكتاب حرام
ومسيطرون على الممالك سُخّرتْ ... لهم الشعوب كأنهــا أنعام
من كل جزّار يروم الصدرَ في ... نادي الملوك وجدّه غَنّام (٢)
سكّينه ، ويمينُه ، وحزامُه ... والصولجان ، جميعُهــا آثام
عيسى ! سبيلك رحمة ومحبة ... في العالمين وعِصْمة وسلام
ماكنت سفاك الدماء ولا امرءاً ... هان الضعاف عليه والأيتام
يا حاملَ الآلام عن هذا الورى ... كَثُرَتْ عليه باسمك الآلام
أنت الذي جعلَ العبادَ جميعَهم ... رَحِماً وباسمِكَ تقطع الأرحام
واليوم يهتف بالصليب عصائب ... هم للإله وروحِه ظُلاّم (٣)
خلطوا صليبك والخناجر والُمدَى ... كلٌ أداةٌ للأذى وحِمَــام

ثم يقدم صوراً من الجرائم المنكرة التي دفع اليها التعصب الذميم الذي يبرأ منه كل دين فيقول :

كم مرضَــع في حجر نعمته غدا ... وله على حد السيوف فطام
وصبيّةٍ هُتِكت خميلة طهرها ... وتناثرت من نَوْرِه الأكمام

١ ــ لهام (بضم اللام) : أي عظيم كأنه يلتهم كل شيء .
٢ ــ الغنام : راعي الغنم .
٣ ــ روح الله : هو المسيح عليه السلام .

وأخي ثمانين استُبيح وقـــاره		لم يغْن عنه الضّعف والأعوام
وجريح حرب ظامىء وأدوه لم		يعطفهم جرحٌ دمٍ وأوام
ومهاجرين تنكّرت أوطانهم		ضلوا السبيل من الذهول وهاموا
السيف إن ركبوا الفرارَ سبيلُهم		والنّطْع إن طلبوا القرارَ مقام [١]
يتلفتون مودعين ديـــارهم		واللحظ ماء ، والديارُ ضِرام [٢]

ويحمّل الشاعر التّركَ في ختام القصيدة تبعة تفريطهم في هذا الملك الذي أسسه أجدادهم فضيعوه بتفرقهم وتخاذلهم وما تملكهم من غرور ، وبتفريطهم في نشر العلم وإقامة العدل .

ويكتب الكاشف في هذه الحرب ثلاث مقطوعات قصار [٣] :

أولهـــا :

خطوبكُمُ يا آل عثمان جمة		ولكنكم أقوى عليها وأقدر

والأخرى :

صليبيةٌ يا قوم أم عنصريـــة		حروبكم ؟ والدين هذا أم الشِّرْك

والثالثة :

بأية عيد أنت يا عيد عائـــد		تفيض تباريحاً لنا أم شمائلا

أما عبد المطلب فقد عبر عن حزنه ونفّس عن ثورته وصور ما عانى مسلمو البلقان من اضطهاد في قصيدته [٤] :

صريف المنايا أم صليلُ الصوارم ؟		وليل الرّدى أم نقع تلك الملاحم

* * *

وترد الأنباء بعـــد هذه الكوارث المتلاحقة ، المثبطة للهمم ، والداعية إلى

---

١ – النطع (بكسر النون وفتحها) : قطعة من الجلد كانت تفرش لمن يضرب عنقه .
٢ – الديار ضرام : لأن جيوش البلقان أشعلت فيها النار انتقاماً .
٣ – الديوان ٢ : ٢٣ – ٢٤ .
٤ – الديوان : ص ٢٧١

اليأس بقدوم طيارين تركيين إلى مصر في سنة ١٩١٤ قبيل الحرب العالمية **الأولى** . وتسقط بهما طائرتهما في الطريق ويموتان فيعاود المحاولة زميلان آخران يصلان سالمين . فيستبشر المصريون ويستيقظ في نفوسهم الأمل بصعود نجم الإسلام وقيام دولته . ويستقبل الشعراء هذا الحادث الجديد السعيد ويذيعون الشعر مهنئين ومعزين .

يقول شوقي [١] :

يا راكب الريح حيِّ النيل والهرما ... وعظِّم السفح في سيناء والحَرَما
عاد الزمان فأعطى بعدما حَرَما ... وتاب في أُذن المحزون فابتسما
فيا رَعَى الله وفداً بين أعيننا ... ويرحم الله ذاكَ الوفد ما رحما
هم أقسموا لتدينَنَّ السماء لهم ... واليومَ قد صدقوا في قبرهم قَسما

ويقول حافظ : [٢]

أهــلا بأول مسْلِمٍ ... في المشرقين عــلا وطــار
النيــل والبسفور فيــ ... ـك تجاذبا ذيلَ الفخــار
يوم امتطيت بُراقَكَ الـ ... ـميمون واجتزت القفــار

وفيها يدعو إلى الأخذ بأسباب القوة في عالم ليس فيه للضعفاء مكان :

والظلم من طبع النظــا ... م فإن ظلِمْتَ فلا تمار [٣]
خُلِقَ الضعيف لخدمة الـ ... أقوى ، وليس له خيــار
فتقوَّ يرهبْــك القوِ ... يّ وهُنْ يلازمْكَ الصَّغارْ
في الأرض ما تبغون من ... عز وآمــال كبــار
فيهــا الحديد وفيه بأ ... س يوم يُمتَهَن الذمــار

---

١ — الديوان ١ : ٢٦٧

٢ — الديوان ٢ : ٧٦ .

٣ — لا تمار : أي لا تجادل ولا تنازع . يقول : إن نظام الكون كما خلقه الله ، يقوم على وجود القوي والضعيف ، وعلى التنافس في طلب السيادة ، فلا تجادل في ذلك .

فيها الكنوز الحـافلا ت لمن تبصّر واستنار
منها استمد قواه مَن قَهَرَ الممالك واستعار
وبما احتوت ردّ الحصيـ فُ الرأي غارةَ مَن أغـارْ

ويقول عبد المطلب[1] :

وقَفَت لك الدنيا فسيري مَسْرَى الضياء من الأثيرِ
يا أخت سابحة النجو م وبنت سابحة الضمير
من عهد آدم لم تزل عذراءَ مسبَلَة السُتور

وهو يذكر مجد الإسلام في أكثر من موضع من القصيدة حيث يقول :

طير السـلام بطائر الـ إسـلام والأسـد المزير

وحيث يقول :

يا طائر الإسـلام سِرْ نحو بالعواصم والثغور

وحيث يقول :

يا دولة الإسلام هِـدّ ي يا كواكبـه أنيري

* * *

كانت العاطفة الدينية إذن غالبة مسيطرة . وكان الدين والوطنية توأمين متلازمين ، كما قال مصطفى كامل في خطبة له سنة ١٩٠٠[2]. وقد أعان على تعلق الناس بالفكرة الإسلامية مهاجمة كرومر الدائمة للمسلمين في بعض تقاريره وفي كتابيه اللذين ظهرا بعد مغادرته مصر « مصر الحديثة » و « عباس الثاني » [3] ، وتصويرهم في صورة الهمج المتخلفين ، ومهاجمته للإسلام وتصويره ديناً رجعياً لا يصلح لأن يقوم على أساسه نظام اجتماعي راق . كما أعان على تقوية فكرة الجامعة الإسلامية مهاجمة الدول الأوروبية للإمبراطورية العثمانية باسم الدين ، حميّةً لدول البلقان المسيحية [4]، مما أثار شعور العطف على تركيا ودعا إلى الالتفاف

---

١ – الديوان ص ٩٥ . هد البعير (كضرب) هدر .
٢ – مصطفى كامل ص ١٢٢
٣ – Modern Egypt ٢ : ١٢٩ – ١٥٤ ، عباس الثاني ص ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٩
٤ – تاريخ الدولة العلية ٣٣٧ – ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ – ٣٥٠

حول الخلافة، حتى رأينا الشعب على اختلاف طبقاته يسارع إلى مد يد المعونة لها في كل حروبها ومحنها، بالمال وبالرجال، وتقوم فيه مظاهرات الفرح والابتهاج كلما وردت عليه الأنباء بانتصار جيوش المسلمين[1].

والواقع أن المنادين بفكرة الجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية لم يكونوا جميعاً من المؤيدين للنفوذ التركي في مصر. فمن بين هؤلاء الترك المستعربون، أمثال شوقي ويكن والكاشف، الذين تدفعهم إلى تأييده رابطة الدم وعاطفة الحنين للأصل، والشعور بالانتماء للسادة الحاكمين. فالكاشف يقول في العيد الفضي للسلطان عبد الحميد[2]:

تفانيت في حبِّكم؛ إنني لكم   على النفس والأهلين والخلق مؤْثِر
ولا غرو إن غاليت فيكم فجامعي   وإياكم دين وطبع وعنصر

أما ولي الدين يكن — مع ما هو معروف من مشايعته للاحتلال الإنجليزي الذي كان يحمي أعضاء «تركيا الفتاة» من الاتحاديين في مصر، كما سنبين فيما بعد، فهو ينتمي إلى ذلك الحزب المشهور بعصبيته الطورانية. ولذلك فهو يرد على كاتب هاجم الترك في جريدة المقطم بمقال يبدؤه بالبيتين العربيين القديمين:

مهلاً بني عمنا!.. مهلا موالينا   لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم   وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

ثم يقول «شهد الله وكل عثماني حر يكون قرأ لي شيئاً أني لا أتعصب للدين ولا للجنس. أنا تركي وأبغض عباد الله إليَّ تركي يعتدي. أحب العناصر العثمانية كلها، وآخذ بناصر المستضعف منها. ثم أحب العرب حباً خالط الروح وجرى مجرى الدم من العروق. وأنا عربي الأدب والقلم، عربي النزعة. ومن

---

١ — راجع في الحرب اليونانية التركية سنة ١٨٩٧ مذكراتي في نصف قرن ٢: ٢٣٩ — ٢٤٣ وفي الحرب الطرابلسية سنة ١٩١٢ نفس المرجع ٢ب: ٢٦٥ — ٢٦٦. وفي حرب البلقان (سنة ١٩١٢) ٢ ب: ٢٨٩

٢ — الديوان: ١: ٤٦

أبغض العرب فأنا مبغضه . أولئك إخواني الذين آغنيهم فيطربون ، وأحدثهم فيقبلون علي بالسمع . هكذا عهد العرب الكرام بأخيهم هذا . »

«غير أني لا أكذبهم . إني كذلك لا أحب من يسب الترك ولا من يكون لهم عدواً . وكذلك العرب لا يحبون من لا يحب إخوانهم . وإذا جرى بين العرب والترك شر أكون يومئذ بمعزل عن كليهما داعياً عليهما بالفشل جميعاً . »

«زعم عزت الجندي أن الذين خانوا الدولة هم أتراك. ثم ذكر رجالا منهم محمد علي الأول مؤسس الأسرة الخديوية بمصر. سامحه الله . إن محمد علي خالي، جدتي شقيقته ، لا تصح شهادتي له . فأنا أدع الحكم في وفائه وخيانته لأهل الإنصاف . » .

«ولكن مصطفى فاضل قائد كتائب الحرية ومدحت أبا الدستور تركيان ، الصقوللي والكوبريلي أيضاً تركيان . وغير هؤلاء كثير إن شاء الجندي ذكرت له أسماءهم وعددت ما تيسر من أعمالهم . (١) »

أما شوقي فهو الذي يقول في مقدمة ديوانه الأول « أنا إذن عربي تركي يوناني جركسي » وهو الذي يقول في الحرب العثمانية اليونانية (٢) :

وزينب إن تاهت وإن هي فاخرت ... فما قومها إلا العشير المحبب
يؤلف إيلام الحوادث بيننا ... ويجمعنا في الله دين ومذهب

وشعره بعد هذا يفيض بالحنين الصادق والحماسة الحارة لكل ما يمت للترك بسبب .

ومن بين المعتنقين لفكرة الرابطة العثمانية والمؤيدين للنفوذ التركي علماء الدين من المسلمين ومن ذهب مذهبهم وأحس إحساسهم ممن يؤيدون هذا النفوذ بدافع من الغيرة الدينية ، تحت تأثير الظروف المختلفة التي سادت العصر ، والتي أشرت إليها فيما سلف. وهؤلاء لا يهتاجون إلا لما يمس دينهم. ولا يرون بين الأقطار الإسلامية

١ – الصحائف السود ١٠٧ – ١١١
٢ – الشوقيات طبعة سنة ١٩١٢ ص ١٥

من يستطيع أن ينهض بعبء الذود عن الإسلام والمسلمين غير تركيا ، لأنها أقواها وأقدرها على مواجهة مطامع الدول المسيحية . ومن هؤلاء عبد المطلب الذي يلقب نفسه بشاعر الإسلام ، حيث يقول في انتصار الترك على اليونان :

هــذا مقامك شاعر الإســلام   فقف القريض على أجلّ مقام [1]

ومن بين المؤيدين للنفوذ التركي وقتذاك نفر من الزعماء المصريين الذين يؤمنون بأن لمصر كياناً مستقلا ، ولكنهم يتخذون ذلك سبيلا لمناوأة الاستعمار ، ويرون أن التخلص من النفوذ التركي بعد ذلك أمر سهل ميسور ، وأن النفوذ التركي في حقيقته لم يكن قبل الاحتلال إلا نفوذاً إسمياً . ومن هؤلاء مصطفى كامل ومحمد عبده وعبد الله النديم والبكري ومحرم والغاياتي .

أما مصطفى كامل فهو يجيب الأمير لاي بارنج « شقيق كرومر » حين لقيه في لندن سنة ١٨٩٥ فسأله عن جنسيته بقوله « مصري عثماني » ، ثم يجيب على تعجبه لجمعه بين الجنسيتين بقوله : « ليس في الأمر جنسيتان بل في الحقيقة واحدة لأن مصر بلد تابع للدولة العلية » . ولكنه يقول من خطبة له في الإسكندرية في سنة ١٨٩٧ : « إن مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هي مظاهرة قوية ضد الاحتلال الإنجليزي ، واشتراك أفراد الأمة على اختلافهم في الاكتتاب للجيش العثماني هو اقتراع عام ضد الإنجليز في مصر . [2] » ويقول في خطاب له إلى مدام جولييت في هذا العام : « إنك تعلمين خطتي نحو تركيا . وما أراه واجباً نحوها . فقد أفصحت عن ذلك في خطبي . واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأن من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلائق مع تركيا ما دام الإنجليز محتلين وطننا العزيز » [3]

أما محمد عبده فهو يقول أثناء إقامته في بيروت سنة ١٨٨٦ م : « إن المحافظة

١ – ديوان عبد المطلب ص ٢٥٣

٢ – مصطفى كامل ٨٢

٣ – مصطفى كامل ص ٨٣ وراجع كذلك الفصل الثامن عشر من نفس المرجع (مصطفى كامل وتركيا) .

على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله . فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته . وليس للدين سلطان في سواها . وإنا على هذه العقيدة والحمد لله ، عليها نحيا وعليها نموت »[1]

ولكنه كان يصرح بعد عودته إلى مصر بأنه يرى للبلاد العثمانية أن تنصرف إلى ترقية نفسها بنفسها ، من غير معاداة ولا مباراة لتركيا ، وأن تنتظر الفرص للاستقلال.

وقد سافر للآستانة ثم عاد منها كارها للترك مشنعاً بفساد الإدارة وباستبداد السلطان عبد الحميد. ولكنه لم يكشف عن عدائه لتركيا ، بل ظل - على العكس - يصرح بأن الخلاف بين مصر وتركيا ، أو بين العرب وبين تركيا ، لا تستفيد منه إلا الدول الأوربية ، وخصوصاً إنجلترا . ولذلك فهو يقول لرشيد رضا في حديث جرى بينهما عقب انتصار الترك في حرب اليونان سنة ١٨٩٧ : « إن كثيراً من وجهاء المصريين يكرهون الدولة العثمانية ويذمونها — وإن كان أكثرهم يحبها — وأنا أيضاً أكره السلطان. . .ولكن لا يوجد مسلم يريد بالدولة سوءاً ، فإنها سياج في الجملة . وإذا سقط نبقى نحن المسلمين كاليهود بل أقل من اليهود. فإن اليهود عندهم شيء يخافون عليه ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم ، وهو المال . ونحن لم يبق عندنا شيء ، فقدنا كل شيء » .[2]

أما عبد الله النديم فهو الذي يقول سنة ١٨٩٣ : « يا بني مصر. . . ليعد المسلم منكم إلى أخيه المسلم تأليفاً للعصبية الدينية . وليرجع الاثنان إلى القبطي والإسرائيلي تأييداً للجامعة الوطنية . وليكن المجموع رجلا واحداً يسعى خلف شيء واحد ، هو حفظ مصر للمصريين »[3]

أما محمد توفيق البكري فهو يقول في حديث له مع مراسل النيويورك هرالد سنة ١٨٩٣ إن مبدأه هو « مصر للمصريين » وهو ضد أي احتلال فرنسي أو إيطالي أو تركي ، كما أنه ضد الاحتلال الإنجليزي ، وأنه يعتقد أن البلاد قادرة على حكم

---

١ — تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٩٠٩

٢ — تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٩١٣ — ٩١٥ .

٣ — سلافة النديم ٢ : ٧٨

نفسها [١] . وهو بعد هذا صاحب القصيدة المشهورة التي بعثها للسلطان عبد الحميد بعد حرب اليونان ، فقرئت في محفل حافل وحفظت في المكتبة السلطانية [٢] .

ومن المؤيدين للنفوذ التركي بعد كل هؤلاء وهؤلاء عامة الناس الذين لا يعرفون لهم رابطة غير رابطة الدين ، ولا يعرفون لهم راعياً غير الخليفة إمام المسلمين ، ولا يعرفون ما الوطن وما الوطنية . فقد كانت هذه الكلمات وأمثالها وقتذاك من مستحدثات الشباب الذي تعلم في أوروبا ، حتى إن رشيد رضا ليقول في مناسبة ذكر محاسن الخديوي عباس : « أول ماعرف الناس من محاسنه ما يسمى في عرف هذا العصر « بالوطنية » [٣]

١ — مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٧٤ .

٢ — شعراء العصر ١ : ١٩٥

٣ — تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩٢

الفصل الثاني

الجامعة المصريّة

إلى جانب ذلك الصوت القوي الغلاب الذي كان ينادي بوحدة الشعوب الإسلامية ، ويستنهض الهمم باسم الإسلام ، ويرى أن النهضة الوطنية لاتتم إلا عن طريق الدين ، أو بمساعدته واستغلال سلطانه على النفوس على أقل تقدير ؛ إلى جانب ذلك الصوت القوي الغلاب ، كانت هناك دعوة ناشئة تنادي بالقومية المصرية ، وتبث الشعور بالوطنية الإقليمية في الأمة ، التي تقوم — حسب تصورهم — على الجنس لا على الدين ، منادية بقصر الاهتمام على المصالح المصرية ، ومعالجة مشكلاتها مستقلة عن مشاكل الدولة العثمانية والأقطار الإسلامية .

كانت هذه الدعوة صدى للاتجاه العالمي نحو فكرة القومية في القرن التاسع عشر . وكان المبشرون بهذه الدعوة في مصر متأثرين تأثراً واضحاً بالتفكير الأوربي كما يبدو من خطبهم وكتاباتهم . وقد نشأت هذه الفكرة الجديدة نتيجة للتوسع الاستعماري الذي تلا اكتشاف مساحات واسعة جديدة لم تمسها يد في أمريكا وأواسط أفريقيا ، أصبحت ميداناً للتنافس الاستعماري بين الدول الأوربية . وكانت حرب أمريكا في سبيل استقلالها ، والثورة الفرنسية من بعدها في مختتم القرن الثامن عشر ، هي نقطة البداية لهذه الحركة التي اتخذت شكلا عنيفاً ،

وأصبحت العقيدة التي تدين بها الشعوب الأوربية الصغيرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر [1] . فقد رفضت هذه الدول أن تربط نفسها بعجلة وزارات الخارجية في الدول الكبرى التي تنطوي تحتها ، لتسوقها إلى الحروب حين تشاء ، وتحملها تبعاتها من دماء ومن أموال .

نشأت مجموعات من الكتل البشرية ، تقوم كل كتلة منها على أساس الاعتقاد بأنهم شعب واحد . وكان ذلك نتيجة للتقسيم الصناعي الذي قسمت فيه الجماعات البشرية في دول أوروبا الصغرى حسبما رأت الامبراطوريات الكبرى أنه محقق لمصالحها . وتعصبت كل مجموعة من هذه المجموعات لفكرة الوطن والقومية ، واندفعت في حماس عاطفي بالغ لتحقيقها ،واستنقاذها من الدائرة الكبيرة التي كانت تنطوي تحتها ، مطالبة بحقها في الاستقلال الكامل بتدبير شؤون نفسها داخل حدود ذلك الوطن . والمتدبر لحروب القرن التاسع عشر يجدها في مجموعها صادرة عن أصل واحد هو ظهور الروح القومية ، التي كانت سبباً في تقويض الإمبراطوريتين النمسوية والعثمانية ، والتي قامت على أساسها الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية ، والتي ارتفعت على أساسها أصوات جديدة تنادي بالوطنية والقومية بين التشيك والسلوفاك والرومانيين والبولنديين.[2] وكان الكتاب والشعراء والصحف والدعاة يغذون فكرة القومية الجديدة التي تستند إلى ما غرسته الثورة الفرنسية في النفوس من تعاليم الديمقراطية ، وما نشرته من الدعوة إلى الحرية التي أيقظت الشعور القومي وروح التمرد في الشعوب ، حتى أصبح التغني بمجد الوطن والتضحية في سبيله هو الأغنية (الرومانسية) المحببة التي ترددها الجماعات ويترنمون بها ترنمهم بالتراتيل الدينية . وارتفعت قيمة التضحية بالجهد وبالمال وبالروح في سبيل مجد هذا الوطن الذي اتجهت إليه عواطف الناس ، وكأنما هو معبود جديد هداهم إليه نبي جديد .

كان المبشرون بهذه الدعوة الجديدة في مصر متأثرين تأثراً واضحاً بالتفكير

---

١ – معالم تاريخ الإنسانية ٤ : ٩٢٠ – ١٠٦٣

٢ – عصر الخرافة ٢ : ٢٦ – ٢٧

الأوربي كما يبدومن خطبهم وكتاباتهم وشعرهم . ولعل من أوضح الشواهدعلى ذلك ما جاء في مقال لعبد العزيز جاويش نشره في صحيفة العلَم سنة ۱۹۱۰ وعنوانه « الحركات الوطنية في مصر » حيث يقول [١] :

«سألني قوم أن أشرح لهم ما علمتهمن أمر الحركة الوطنية ومبتدأ خبرها وسر سياستها . وقد نبههم إلى ذلك ما قرأوه من الحوادث الخطيرة التي جرت لهذه الأيام الأخيرة في القطر وما رددته الجرائد من توقع حدوث أمور ذات بال ربما غيرت من أسلوب حكومته وبدلت من أوضاع سياسته » .

« إن الشعور بالوطنية اصطلاح افرنكي انتقلت بذوره إلى الشرق من مطاوي العلوم العصرية وأصول المدنية الحديثة التي اهتدى إليها أهل الغرب » .

ونستطيع أن نقول إن هذه الحركة الجديدة قد نشأت قبيل الثورة العرابية . وكانت هذه الثورة صوتها القوي ويدها الباطشة وقوتها المنفذة . وتمثلت هذه الدعوة في جمعية « مصر الفتاة » السرية ، التي تألفت في الإسكندرية [٢] ، والتي أصدرت صحيفة باسمها للدعوة إلى الحرية [٣] ، وفي بعض الصحف الثائرة التي برزت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تنتقد سياسة الحكومة وتندد بتفريطها في حقوق البلاد ، مثل صحيفتي « مصر » و « التجارة » لأديب إسحق [٤] ، وفي « الحزب الوطني » الذي تألف قبيل الثورة العرابية من الرجال الذين تزعموها بعد ذلك [٥] .

---

١ – صحيفة العلم : العدد الأول ٧ مارس سنة ۱۹۱۰ .

٢ – زعماء الإصلاح ١١١ ، ٢١٢

٣ – الثورة العرابية ٧٢

٤ – المرجع نفسه ٦٩ .

٥ – المرجع نفسه ٧١ ، ٧٢ والتشابه بين جمعية (مصر الفتاة) التي حركت الثورة العرابية وكانت نواتها ، وبين جمعية « تركيا الفتاة » التي حركت الثورة التي انتهت بخلع السلطان عبد الحميد، والتي كان الانقلاب الكمالي بعد الحرب العالمية الأولى امتداداً لها . هذا التشابه بين الاسمين ، وبين الأهداف الثورية لكل منهما ، مع الاتفاق الزمني ، لأن مؤسس « تركيا الفتاة » ، على ما هو معروف ، هو « مدحت » المعاصر للثورة العرابية ، يوحي بوجود صلة . ويؤيد وجود هذه الصلة أن عدداً كبيراً من أعضاء الحزبين التركي والمصري كانوا=

وخير ما يصور هذه الدعوة في ذلك الوقت مقال لمحمد عبده نشرته الوقائع المصرية في ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١ ، تحدث فيه عن الوطن وعن وجوب التفاني في حبه والذود عنه ، بدأه بتعريف الوطن فقال[١] :

« تقرر مما سلف أن لابد لذوي الحياة السياسية من وحدة يرجعون إليها ، ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلداً ، وأن خير أوجه الوحدة الوطن ، لامتناع النزاع والخلاف فيه . ونحن الآن مبينون بعون الله ماهيّة هذا الوطن وبعض ما يجب على ذويه . »

«الوطن في اللغة محل الإنسان مطلقاً ، فهو السكن بمعنى : استوطن القوم هذه الأرض وتوطنوها ، أي اتخذوها سكناً . وهو عند أهل السياسة مكانك الذي تنسب اليه ، ويُحفظ حقك فيه ويُعلم حقه عليك ، وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك . ومن أقوالهم فيه : لا وطن إلا مع الحرية . وقال لابروير الحكيم الفرنساوي : لاوطن في حالة الاستبداد ، ولكن هناك مصالح خصوصية ومفاخر ذاتية ومناصب رسمية . وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين : المكان الذي فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية . »

ثم يقول : « أما السكن الذي لاحقّ فيه للساكن ، ولا هو آمن فيه على المال والروح ، فغاية القول في تعريفه أنه مأوى العاجز ومستقر من لا يجد إلى غيره سبيلا. فإن عظم فلا يسر ، وإن صغر فلا يسوء . قال لابروير السابق الذكر : ما الفائدة من أن يكون وطني كبيراً إن كنت فيه حزيناً حقيراً ، أعيش في الذل والشقاء خائفاً أسيراً . »

«على أن النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداب الشرف

= من الماسون. وأن الحزبين كليهما كانا متأثرين بمبادىء الثورة الفرنسية التي كان بعض زعمائها ومفكريها من الماسون أيضاً . ولكن الأدلة المادية القاطعة تعوز المؤرخ . وإذا قدر للماسونية أن ينكشف عنها الغطاء ويتضح ما يحيطها من غموض، فسوف يساعد ذلك كثيراً على كشف الغموض الذي يحيط بهذه الحركات وبأمثالها . وسوف يغير ذلك كثيراً من الآراء السائدة المقررة عن بعض رجال العصر وأحداثه .

١ — تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ١٩٤ — ١٩٦ .

الذاتي ، فهو يغار عليه ويذود عنه كما يذود عن والده الذي ينتمي اليه ، وإن كان سيء الخلق شديداً عليه . ولذلك قيل في مثل هذا المقام : إن ياء النسبة في قولنا مصري وإنجليزي وفرنسوي ، هي من موجبات غيرة المصري على مصر والفرنساوي على فرنسا والإنجليزي على إنجلترة. . . فإذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه ، فهو سكنه الذي يأكل فيه هنيئاً ، ويشرب فيه مريئاً ، ويبيت في الأهل آمنا . وهو مقامه الذي ينسب إليه ، ولا يجد في النسبة عاراً ولا يخاف تعييراً . وهو الآن موضع حقوقه وواجباته التي حصلت له بما أوضحناه من دخوله في دور الحياة السياسية . »

ويختم محمد عبده مقاله ببث الأمل في نفوس المصريين والرد على المثبطين للهمم ، الذين لا يزالون ينعقون بأن المصري قد ألف الذل وتعود احتمال الظلم ، بما لا يدع مجالا للأمل في بث الشعور بالوطنية فيه ، ضارباً المثل بفرنسا التي كان شعبها يعاني الرق في ظل النظام الإقطاعي ، ثم لم يمنعه ذلك أن ينال حقه . وفي هذه الفقرة يبدو أثر حركات الاستقلال والمطالبة بالحرية التي سادت أوروبا في القرن التاسع عشر . إذ يقول :

« ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطني عن ذوي الحقوق والواجبات في مصر وإلباسهم جميعاً لباس الجهالة والذل ، ولكن أبت الحوادث إلا أن تثبت لنا وجوداً وطنياً ورأياً عمومياً ولو كره المبطلون . على أن منهم فئة لا يزالون يؤلمون أسماعنا بما يكررون من سفاسف القول من مثل : إننا تعودنا احتمال الظلم والحيف ، وألفنا الخدمة والرق ، فلن يستقل لنا رأي ؛ ولن نهتدي سبيل الحرية . كأنما هم لا يعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصاراً ، وكانوا في قديم الأيام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح ، وأن العالم بأسره كان فريقين : أحراراً يظلمون ، وعبيداً يطيعون . أو لم يكن في بلاد الفرنسيس من قبل هذا العهد صنوف من الرقيق يشتغلون في الأرض لغيرهم ، ويباعون كما تباع العجماوات . أولَم يقل كاتبهم فولتير في وسط المائة السابقة : لا يزال في بلادنا ستون ألفاً أو سبعون ألفاً عبيداً للرهبان؟ »

«فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيين من الوصول إلى ما أدركوه من رفعة المقام ، وأن يروا أمثال ثيارس وجريفي وغامبتا في أبناء الذين كانوا من قبل عبداناً أرقاء ؟ »

« ولئن كان فضل هذه المائة أن يكتب في صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف ، فلقد رجونا ـ وحقق الله هذا الرجاء ـ أن يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء في هذا العصر ، وحسن ذلك ابتداء ، وحسن ذلك ختاماً »

ولكن الذي يبدو من مراجعة كتابات محمد عبده التي تلت ذلك أن المقصود بكلامه عن الوطن في هذا المقال يختلف بعض الاختلاف عن مدلول هذه الكلمة في أذهاننا اليوم . فقد كتب بعد ذلك بسنوات ثلاث مقالا في صحيفة العروة الوثقى عنوانه : « ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عللها » . تكلم فيه عما آل إليه أمر المسلمين من تأخر وانحطاط ، واستعرض آراء المصلحين ، فقال : إن بعضهم يظن أن أمراض الأمم تعالج بنشر الصحف ، وأنها تكفل إنهاض الأمم وتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق . وفريق آخر يرى أن شفاءها من هذه العلل القاتلة يتم بإنشاء المدارس على الطراز الجديد المعروف في أوروبا حتى تعم المعارف جميع الأفراد . وبعد أن فند الرأيين أثبت رأيه الذي يذهب فيه إلى أن انتشال الأمة الإسلامية مما هي فيه من ضعف لا يتم إلا عن طريق الدين [1] .

يقول محمد عبده في تفنيد آراء الذين يذهبون إلى الإصلاح عن طريق الاستكثار من إنشاء المدارس على الطريقة الأوروبية :

« شيد العثمانيون والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل ما يسمونه تمدنا . فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟... نعم ، ربما يوجد بينهم أفراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها في عبارات متقطعة بتراء ، لا تُعرف غايتها

---

١ ـ تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٢٧ ـ ٢٣٦

ولا تُعلم بدايتها . وسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون . ووقفوا عند هذا الحد . ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم ، فقلبوا أوضاع المباني والمساكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون ، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم ، وعرضوها معرض المباهاة ، فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره . . . وهذا جدعٌ لأنف الأمة، يشوه وجهها ويحط بشأنها . وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيها على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها . »

وهذا المقال يدعونا إلى تعديل فكرتنا عن مدلول الوطن والوطنية في مقال محمد عبده الأول في الوقائع المصرية . وهو — مع ما سبقه وما تلاه من كتابات محمد عبده — يدعو إلى التفكير في تعليل ما يسود آراء محمد عبده من تباين واختلاف يبلغ حد التناقض في بعض الأحيان . ومهما يكن من أمر ، فهذا المقال الأخير يدل على أن الدعوة إلى الوطنية بمعناها المتعارف عليه الآن كانت قد نشأت ، وكان لها دعاة من أصحاب الثقافات الأوروبية ، المعادين لفكرة الرابطة الإسلامية . وهم الذين عناهم محمد عبده بالفقرة التي اقتطفناها من مقاله . وهم الذين يهاجمهم أيضاً في مقال آخر له عنوانه « التعصب » حيث يقول [1] :

« أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير . فقلما تكون عبارة إلا وهو فاتحتها أو حشوها أو خاتمتها ، يعدّونَ مسماه علة لكل بلاء ، ومنبعاً لكل عناء ، ويزعمونه حجاباً كثيفاً وسداً منيعاً بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح ، ويجعلونه عنواناً على النقص وعلماً للرذائل . والمتسربلون بسرابيل الإفرنج ، الذاهبون في تقليدهم مذاهب الخبط والخلط ، لا يميزون بين حق وباطل ، هم أحرص الناس على التشدق بهذا البدع الجديد . فتراهم في بيان مفاسد التعصب يهزون الرؤوس ويعبثون باللحى ويبرمون السبال ، وإذا رموا به

١ — تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٤٩ — ٢٥٨

شخصاً للحط من شأنه أردفوه للتوضيح بلفظه الإفرنجي « فانا تيك ».

ثم يبين أن التعصب هو الرابطة التي شكل الله بها الشعوب ، ويقول إن الشعوب تظل بخير ما بقيت قوة الربط بين أفراد الأمة ، فإن ضعفت تداعى بنيانها للانحلال . ثم يقول :

« التعصب كما يطلق ويراد به النعرة على الجنس ، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد . كذلك توسع أهل العُرْف فيه ، فأطلقوه على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً . والمتنطعة من مقلدي الإفرنج يخصون هذا النوع بالمقت ، ويرمونه بالتعس . ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل . فإن لُحْمَةً يصير بها المتفرقون إلى وحدة ، تندفع عنها قوة لدفع الغائلات وكسب الكمالات ، لا يختلف شأنها إذا كان مرجعها الدين أو النسب . وقد كان تقدير العزيز الحكيم وجود الرابطتين في أقوام مختلفة من البشر . وعن كل منهما صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الإسلامي . »

« ثغثغ جماعة من مترندقة هذه الأوقات في مفاسد التعصب الديني . وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به إخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف ، هو الذي يصدهم عن السير إلى كمال المدنية ، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ، ويرمي بهم في ظلمات الجهل ، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم . ومن رأى أولئك المثغثغين أن لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها ، وتخليص العقول من سلطة العقائد . وكثيراً ما يرجفون بأهل الدين الإسلامي ، ويخوضون في نسبة مذام التعصب إليهم . »

ثم يبين أن الدين أعظم مقوّم للخلق ، وأن الغلو الذي يطرأ على العصبية الدينية فيدعو إلى إذلال المخالفين في الدين ، كالغلو الذي يطرأ على العصبية الجنسية فيدعو إلى إذلال المخالفين في الجنس واستعبادهم . ويبين أن الدعوة إلى التعصب في الجنس الذي يسمونه « الوطنية » إنما يروجه الإفرنج الذين

يريدون أن ينقضوا بناء الملة الإسلامية ، ويفرقوا بين شعوبها،ليسهل عليهم استعمارها . وأن المغفلين من المسلمين الذين تبعوا هذه الدعوة الخبيثة قد هدموا العصبية الدينية ، ثم لم يستطيعوا أن يقيموا مكانها العصبية الجنسية التي يسمونها الوطنيـــة .

كانت هناك دعوة جديدة للوطنية بالمعنى الأوروبي . ولكن هذه الدعوة كانت مختلطة بالدين في أذهان كثير من الناس ، كما يبدو من كلمات محمد عبده ، وكما يبدو من قول البارودي وهو في منفاه [1] :

لم أقترف زلّة تقضي عليّ بمـــا أصبحتُ فيه، فماذا الويل والحرَب[2]
فهل دفاعيَ عن ديني وعن وطني ذنبٌ أدان به ظلماً وأغترب ؟ !

ومن قوله في قصيدة يهنىء فيها الخديوي توفيق بعيد جلوسه قبيل الثورة ، مثنياً عليه لسنّه نظام الشورى استجابة لرغبات الأمة ، حيث يشير إلى المصريين بقوله « أمة أحمد » [3] :

وتمتعَتْ بالعـــدل منك رعيـــة كانت فريسة كل باغ معتد
فحباك ربّك بالجميـــل كرامةً لجزيل ما أوليتَ «أمة أحمد»

* * *

تصور هذه المقتطفات التي قدمناها أن الدعوة إلى نوع من الوطنية كان قد بدأ في الظهور قبيل الثورة العرابية ، وأن هذه الوطنية كانت فيما يبدو نتيجة تسلط العنصر التركي واستئثاره بكل خير ، وأنها كانت تستهدف إنشاء رابطة عاطفية بين المصري ووطنه ، تحفزه على الاهتمام بأمره والعمل على رفعته وأداء واجبه نحوه من جهة ، والمطالبة بحقه فيه من جهة أخرى . وربما كانت الناحية

---

١ — الديوان : ٣٧
٢ — الحرب « بالتحريك » الويل والغضب
٣ — الديوان ١ : ٧

الأخيرة هي المقصودة بالتنبيه بنوع خاص ، لأن المصريين كانوا من قبل يؤدون الواجبات دون أن يعرفوا أن لهم في مقابلها حقوقاً . ولكن أصحاب هذه الدعوة لم يفكروا على كل حال في أن يستبدلوا هذه الرابطة بالرابطة الدينية أو يضعوها في مقابلها .

وشعر البارودي من أصلح الأمثلة لهذا اللون من التفكير الذي يستهدف رفع الظلم عن الشعب المستعبد الذي لا يقام لمصلحته وزن .

يقول من قصيدة يحض فيها الناس على المطالبة بحقوقهم والجهاد في سبيل الحصول عليها ، مذكراً بمجد مصر القديم ، وذلك في حكم إسماعيل [١] :

حلبتُ أشطُرَ هذا الدهر تجربة ... وذقت ما فيه من صابٍ ومن عسل
فما وجدت على الأيام باقيةً ... أشهَى إلى النفس من حرية العمل
لكننا غرض للشرّ في زمن ... أهلُ العقول به في طاعة الخَمل [٢]
قامت به من رجال السُوء طائفةٌ ... أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه ... بغضاً ويلفظه الديوان من ملل [٣]
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت ... قواعدُ المُلك حتى ظل في خلل
وأصبحت دولة الفسطاط خاضعة ... بعد الإباء وكانت زهرةَ الدول
بئس العشير ، وبئست مصر من بلد ... أضحت مناخاً لأهل الزور والخطل [٤]
أرض تأثّل فيها الظلم وانقذفت ... صواعق الغدر بين السهل والجبل [٥]
وأصبح الناس في عمياء مظلمة ... لم يَخْطُ فيها امروٌ إلا على زَلل [٦]

١ – الديوان ٢ : ٢٢٦ – ٢٥٠
٢ – الغرض : الهدف . الخمل : جمع خامل
٣ – الدست : صدر البيت والمجلس ، والمقصود به هنا الديوان ومجلس الوزارة والرياسة . وهي كلمة فارسية الأصل .
٤ – الخطل : فساد الرأي .
٥ – تأثل : أي تأصل وعظم .
٦ – أصبح الناس في عمياء ، أي في فتنة عمياء مظلمة .

لم أدرِ ما حلَّ بالأبطال من خَوَرٍ ... بعد المراس وبالأسياف من فلل (١)
أصوّحت شجراتُ المجد أم نضبتْ ... غُدْرُ الحمية حتى ليس من رجل (٢)
لا يدفعون يداً عنهم ولو بلغت ... مَسَّ العَفافة من جبن ومن خزَل
هيهاتَ يلقى الفتى أمناً يَلَذُّ به ... ما لم يخضْ نحوه بحراً من الوَهَل (٣)
فما لكم لا تعاف الضيمَ أنفسُكم ... ولا تزول غواشيكم من الكسل (٤)
وتلك مصر التي أفنى الجلادُ بها ... لفيفَ أسلافكم في الأعصُر الأوَل
قوم أقرّوا عِمادَ الحق وامتلكوا ... أزمّة الخلق من حافٍ ومُنتعل
جنوا ثمار العلا بالبيض واقتطفوا ... من بين شوك العوالي زهرةَ الأمل
فأصبحت مصر تزهو بعدَ كدْرتها ... في يانع من أساكيب الندا خَضِل
لم تُنْبت الأرض إلا بعد ما اختمرت ... أقطارُها بدم الأعناق والقُلل (٥)
حتى إذا أصبحت في معقل أشب ... يرد عنها يد العادي من الملل (٦)
أخنى الزمان على فرسانها فغدت ... من بعد مَنْعتها مطروقةَ السبل (٧)
فأي عار جلبتم بالخمول على ... ما شاده السيف من فخر على زُحل

ويقول في قصيدة أخرى من قصائد المنفى (٨) :

أبى الدهر إلا أن يَسُود وضيعُه ... ويملك أعنــاقَ المطالب وغدُه
تداعت لدَرْكِ الثأر فينا ثُعالةٌ ... ونامت على طول الوتيرة أُسْده (٩)

---

١ – الخور (بفتحتين) الضعف . المراس « بكسر الميم » البأس والشدة . الفلل « بفتحتين » تثلم حد السيف .

٢ – صوحت : يبست . نضبت : جفت . الغدر : جمع غدير وهو ما يغادر السيل من ماء .

٣ – الوهل : الفزع .

٤ – الغواشي : جمع غاشية وهي الغطاء .

٥ – القلل : جمع قلة « بضم القاف » وهي الرأس .

٦ – أشب : حصين .

٧ – مطروقة السبل : أي أنها أصبحت تطأها الأقدام وانتهك الناس حرمتها بعد منعتها .

٨ – الديوان ١ : ٧٢

٩ – تداعى القوم : دعا بعضهم بعضاً . ثعالة : علم لأنثى الثعالب لا ينصرف . الوتيرة : الثأر .

فحتّامَ نسري في دياجير محنة | يضيق بها عن صحبة السيف غمده
إذا المرء لم يدفع يدَ الجورْ إن سطت | عليه فلا يأسفْ إذا ضاع مجدُه
ومن ذلّ خوف الموت كانت حياته | أضرّ عليه من حِمَامٍ يَؤُدُّه
وأقتلُ داء رؤيةُ العين ظالماً | يسيء ويُتْلى في المحافل حمده
علام يعيش المرء في الدهر خاملا؟! | أيفرح في الدنيا ليوم يعده ؟ !
يرى الضيم يغشاه فيلتذ وقْعَه | كذي جرب يلتذ بالحك جلده

كذلك نشأت فكرة الوطنية وقتذاك ، فكرةٌ تحاول أن تجمع الناس حول المطالبة بحقوقهم، ودعوةٌ إلى الحرية وإلى هدم صرح الظلم والاستعباد . ثم تطورت الفكرة على أيدي أصحاب الثقافة الأوروبية ، وبدأت تهاجم الرابطة الدينية وتعتبرها مصدر شر وتفرقة بين أبناء الجنس الواحد . فدعا هذا الفهم الجديد للوطنية إلى أن يهاجمها المتمسكون بالرابطة الدينية، ويعتبروها خطراً يهدد وحدة الأقطار الإسلامية ويفرق كلمتها ويهدم تعاطفها ويضعف تكتلها، بما يعرّضها للسقوط تحت أقدام الدول الأوروبية الطامعة ، واحدة تلو الأخرى .

وربما كان صالح مجدي [1] من أسبق الشعراء في العصر الحديث إلى ترديد كلمات الوطن والوطنية في شعره ، بعد أستاذه رفاعة الطهطاوي . وله في آخر ديوانه خمس عشرة مزدوجة سماها «الوطنيات»، امتدح فيها سعيد باشا والي مصر ، وعُرِضَتْ عليه فأمر بتلحينها والتغني بها بمصاحبة الموسيقى العسكرية في المحافل والمواسم . وهو في هذه الوطنيات يشيد بالوطن محاولا أن يغرس حبه في القلوب ، ويتغنى بأمجاد الأجداد ، ويفاخر بجيش البلاد، مبرزاً قوته ، معتداً بشدة بأسه . ولكنه يربط كل ذلك بشخص سعيد ، ويجعله سبباً للتعظيم من شأنه ، وتحبيبه إلى أبناء جنسه .

---

١ – السيد صالح مجدي : شاعر مصري المولد مكي الأصل ولد سنة ١٨٢٥ م وتوفي ١٨٨١ م. تقلب في عدة مناصب بين عسكرية وتعليمية وهندسية وإدارية . وخلف كثيراً من الكتب بين مترجم ومؤلف في الرياضة والهندسة والميكانيكا والفنون العسكرية . وترجمته الكاملة في الخطط التوفيقية . ونستطيع أن نجد أمثلة لهذه النزعة الوطنية في كتابات رفاعة الطهطاوي الذي تتلمذ السيد صالح مجدي عليه – الاسلام والحضارة الغربية ص ٢١ .

فمن ذلك قوله في الوطنية التاسعة :

بامتـــداح الصـــدر غنوا فهو للأوطـــان حصن
وهو للإيمـــان ركن ولكُمْ في الخوف أمن
في ميـــادين الوقـــائع

في الوغى أنتم أُسـودٌ يـــا بني الأوطـــان سودوا
ولهـــا بالرّوح جودوا وادخلوا الأحْيا وصيدوا
صِيْدَهَا يَوْمَ الزّعَـــازِع

واســـتعدوا للكفـــاح في مَساها والصبـــاح
واطلقوا خيلَ الفـــلاح في ميـــادين النجـــاح
وادفعوهـــا في المعـــامع

وانشروا للعز بنـــداً وانصروا الصـــدْر المفدّى
واسلكوا الدربَ الأسدّا واقمعوا الخصم الألـــدّا
واقطعوا منـــه المطـــامع

يا بني الأوطـــان هيا خيِّمُوا فوق الثريـــا
واهجروا النوم مليـــا واطعنوا الضـــد الأبيـــا
واجـــدعوا أنفَ المـــانع

ومن ذلك قوله في الوطنية الخامسة عشرة :

فالصارمُ في أثر المـــدفع لعـــدو مخذول يَصْدَع
وعن الأوطان به نـــدفع من جـــاء بلا عقل يطمَع
فيهـــا لبـــلاء مَقـــدورِ

لبَـــلاء فيهـــا يرصده بأليم عـــذاب يقصـــده
وهَوَانِ هوانٍ يحصـــده منْ طوبجيّ ترْمي يدُه
لعـــدو الله المغـــرورِ

من طوبجيٌ بالـدانات يغتـال زعيم القادات [1]
أو خيـال في الهَيْجـات يستأصل غصن الهـامات
بحسام ماضٍ مشـهور

أو زنجي بالمزراق لا يطعن غير الأحـداق
أو أوجيٍّ سـام راق ما يـدفعه أبـداً راقي
عن مهجـة خصم شرير

أو زرخ تهجـم بالخيل للكبسـة في جنـح الليل
فتزعزع أركـان القول وترد الصـاغ إلى الصول
وتعود بنصر مأثورِ

أو قراب بين الصف يرمي برصاص للحتف
فيصيب الرأس مع الأنف ويشوش تنظيم الصف
في موقف هول منـكور

أو ذي لغم بالصلقوم لا يطعم غـير الزَّقُّوم
ويسد .بوغـاز الحلقوم من جيش بـاغ مذموم
مطرود عنـا مـدحور

أو كوبريٌّ فوق البحر لا يُنْصَب إلا بـالأمر
وإذا ما سـاروا في البر حملوه كـأثقال الجَـرِّ
مطويـاً طيَّ المنشـور

أو ذي عِلْم عنـد الخطب بدقـائق هندسـة الحرب
يتصـدى في يوم صعب لاستكشاف الوضع الخصب
في غفلة جيش محصـور

---

١ - الشعر - كما هو ظاهر - مليء بالمصطلحات الأعجمية وبالكلمات الجارية على ألسن العامة . وأكثرها يرجع إلى أصل تركي .

ومن الواضح أن الصياغة أو الألفاظ ليست هي الّتي تلفت النظر في شعر صالح مجدي . فهو قليل الحظ من هذه الناحية ، لا يقارن بشاعر كالبـــارودي . ولكن الذي يلفت النظر في شعره هو هذا الوضوح المبكر للفكرة الوطنية ، الّتي تعتز بمصر وبجيش مصر ، وتمتلىء حماساً للحرب وللقتال في سبيل مجد الوطن ورفعته . وذلك في وقت لم يكن للشعراء فيه همٌّ أو موضوع إلا التافه الرخيص من الأغراض .

* * *

ثم انشغل الناس بما كان من فشل الثورة العرابية واحتلال مصر ، ففترت الحركة زمناً وركدت ريحها ، وقد دها الناس ذلك الخطب الجديد ، فامتلأت قلوبهم رهبة من السياسة ، وهيبة من الاشتغال بها ، ومن مثل مصير عرابي وصحبه ، وقد أصبح الأمر كله بيد الإنجليز .

ولم يزل الناس في دهشتهم حتّى أفاقوا على صوت المنادين الذين ينبهونهم من غفلتهم في أوائل القرن العشرين . وكان قادة هذه الحركة الجديدة طائفة من الشباب المثقف ، اختلفوا في مناهجهم وأساليبهم . فمنهم من أسلفنا ذكرهم ممن يتخذون الدين والتعلق بالجامعة الإسلامية سبيلا إلى ذلك . ومنهم من نهج نهجاً جديداً جريئاً فنادى بالجامعة المصرية ، محارباً فكرة الجامعة الدينية والرابطة العثمانية . وكان الفريق الأول – ممثلا في الحزب الوطني ، وعلى رأسه زعيمه الشاب مصطفى كامل – يتحدث عن الوطن والوطنية حديثاً عاطفياً ، ويتغنى به كما يتغنى العاشق بمعشوقه ، محاولا أن يغزو قلوب المصريين بهذا الحب الجديد ، ليُحِلّ الوطن منها محل الدين كما يقول شوقي في قصيدته الّتي حيا بها الوطن بعد عودته من منفاه :

ولو أني دُعيتُ لكنتَ ديـــني عليه أقابل الحتْمَ المجابـــا
أدير إليـــك قبل البيت وجهي إذا فُهتُ الشهادةَ والمتـــابا

وكان الفريق الآخر – ممثلا في حزب الأمة ، أو في شبابه المثقف بتعبير

أدق – يتحدث عن الوطن حديث العقل والمصلحة . فهو لا يستهدف إثارة الناس ، ولكنه يحاول إقناعهم . وهو لا يتغنى بالوطن المحبوب ، ولكنه يتحدث عن النفع المادي والمصلحة المشتركة التي تجمع بين ساكنيه . وكلا الفريقين كان متأثراً تأثراً واضحاً بالتفكير الأوروبي وبالدعوات القومية التي أصبحت بِدْعَ العصر في القرنين التاسع عشر والعشرين . بيد أن الفريق الأول قد حور ما نقل بما يلائم الظروف السائدة وقتذاك ، وأحسن تقديمه لجمهور الناس الذين كانوا يؤمنون بالجامعة الإسلامية إيماناً شديداً ، بينما نقل الفريق الآخر هذه الدعوة الأوروبية نقلا أميناً – أو أعمى إن شئت – لا تحريف فيه ولا تبديل ، ففجأ به السامعين .

يقول مصطفى كامل ، من خطبة له في حديقة الأزبكية سنة ١٨٩٧ : [١] .

« إن الوطنية هي أشرف الروابط للأفراد ، والأساس المتين الذي تُبْنَى عليه الدول القوية والممالك الشامخة . وكل ما ترونه في أوروبا من آثار العمران والمدنية ، ما هو إلا ثمار الوطنية . أصبح اليومَ الوطنُ المصري ينتظر منكم ومن بقية أبنائه عدلا وإنصافاً . أصبحت مصر تؤمل منكم أن ترفعوها إلى منصة الحرية والاستقلال ، وأن تردوا إليها حقوقاً وهبها إياها الخالق عز وجل . ولا ريب أنكم معشر المتعلمين ، مَعْشَرَ النابغين في المعارف والآداب ، أولُ من يسأل عن خدمة مصر وتأييد مبدأ الوطنية الحقيقية . فإنكم قرأتم في التاريخ الأمثال الكثيرة للوطنيـــة ، وعرفتم سير أناس عديدين ماتو محبة لبلادهم ، وإخلاصاً لأوطانهم فحيوا بموتهم . وأدركتم أن الحياة سريعة الزوال ، وأن لا شرف لها بغير الوطنية والعمل لإعلاء شأن الوطن وبنيه . »

ويقول من خطبة له في الإسكندرية ١٩٠٠ [٢] :

« قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية ، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء . ولكني أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ،

---

١ – مصطفى كامل ص ٩٤

٢ – مصطفى كامل ص ٢٢ .

وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حباً صادقاً ، ويفديه بروحه وما تملك يداه . ولست فيما أقول معتمداً على أقوال السالفين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة ، ولكني أستشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة بسمارك أكبر ساسة هذا العصر ، وهو رجل خدم بلاده ورفع شأنها . فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى صوته : « لو نزعتم العقيدة من فؤادي لنزعتم معها محبة الأوطان . »

من هذه المقتطفات يستطيع القارىء أن يتبين مدى التأثير الأوروبي في تفكير رائد الوطنية الحديثة في مصر من ناحية ، وربطه بين الوطنية والدين من ناحية أخرى . أما حديثه العاطفي عن الوطن ، الذي هو أشبه الأشياء بحديث العاشق عن معشوقه ، والذي يصور هياماً روحياً صادقاً هو أقرب الأشياء شبهاً بهيام المتصوفة ، فهو جلي واضح في خطبه وفي كثير من كتاباته ، ويكفي أن أقدم عليه مثلا واحداً من خطبته في الإسكندرية سنة ١٩٠٧ [1] ، وهي أكبر خطبه وأروعها على الإطلاق .

« تقولون يا أعداء مصر : إننا لو أفلحنا لما نلنا هذا الاستقلال إلا بعد حين طويل ، فنجيبكم أنا لو سلمنا بقولكم لما جاز لنا أن نتأخر لحظة واحدة عن العمل ، لأننا لا نعمل لأنفسنا ، بل نعمل لوطننا ، وهو باق ونحن زائلون . وما قيمة السنين والأيام في حياة مصر ، وهي التي شهدت مولد الأمم كلها ، وابتكرت المدنية والحضارة للنوع الإنساني كله ؟ »

« إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع . ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصري ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة ، وسيكون كذلك لامحالة . »

« فمهما تعددت الليالي وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروق شروق ، وأعقب الغُروبَ غروبٌ ، فإننا لا نمل ولا نقف في الطريق ، ولا نقول أبداً : لقد طال الإنتظار . »

---

١ – مصطفى كامل ص ٣٩٢ – ٣٩٣ .

« إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم في ماضي البلاد وحاضرها ، وأعلى مطلب ترمى إليه في مستقبلها . فلا الدسائس تخيفنا ، ولا التهديدات تَقِفُنا في طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزعجنا . ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية . »

« نعم ! .. إنا لو تخطَّفَنا الموتُ من هذه الديار واحداً بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا : كونوا أسعد حظاً منا ، وليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد ، للمطالبة بالحق الوطني والحرية الأهلية والاستقلال المقدس . »

« بلادي ! . . بلادي ! . . لك حبي وفؤادي . . لك حياتي ووجودي... لك دمي ونفسي . . لك عقلي ولساني . . لك لُبِّي وجَنَاني . . فأنتِ الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر . »

« يقول الجهلاء والفقراء في الإدراك إني متهور في حبها . وهل يستطيع مصري أن يتهور في حب مصر ؟ إنه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التي يدعوه إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها . »

« ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها ، واقرأوا صحف ماضيها ، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض : هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً ، وأسمى شأناً ، وأجملَ طبيعةً ، وأجلَّ آثاراً ، وأغنى تربة ، وأصفى سماء ، وأعذب ماء ، وأدعى للحب والشغف ، من هذا الوطن العزيز ؟ »

« اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد : إن مصر جنة الدنيا . وإن شعباً يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها وسلم أزِمَّتها للأجنبي . »

« إني لو لم أولَدْ مصرياً ، لَوَدِدْتُ أن أكون مصرياً » .

« قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصري مما لا يليق بإنسان . ولكن أي شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة

التي سبقت الأمم كافة في العلم والمدنية والأدب ؟ . . أي رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذاً لشعوبِ البشرية ومربياً للعالم كله ؟ . . أي سؤدد ترمي النفوس الأبية إليه أعلى من إخراج الوطن المصري من الظلمات إلى النور ، وإحلاله المحل الأول بين الأوطان الأخرى التي كانت في الدُجُنَّة الحالكة يوم كانت بلادنا مَشْرِقاً للعرفان ؟ . . »

« ليت شعري ، أي لذة وسعادة ومكافأة يطلبها الوطني المصري أكبر من اشتراكه في هذا العمل الخطير الذي هو أجَلّ عمل يراه العالم في القرن العشرين ؟ إن المكسب الأدبي للوطني المصري من هذه الخدمة يُرْبِي على أتعابه ومجهوداته بكثير . »

هذه كلمات تمثل لنا صدق تصوير شوقي له حين قال في رثائه :

يا صبَّ مصر ويا شهيد غرامها هـــذا ثرى مصر فنم بأمان

* * *

وسرعان ما سرى أثر مصطفى كامل في الشعر ، وظهر صداه في الشعراء المعاصرين ، وكان الغاياتي ومحرم في طليعة شعراء الوطنية الذين يصدرون في شعرهم عن الهيام بحب الوطن ، ويستهدفون بعث العاطفة الوطنية وإثارتها في قوة دفاقة ، بما يجعلهما أشبه الناس في شعرهما بمصطفى كامل في خطبه . أما الغاياتي فاسم ديوانه والضجة التي اقترن بها ظهوره يغنيان عن كل تعليق . سمّى ديوانه « وطنيتي ».واشترك في تقديمه إلى القراء محمد فريد وعبد العزيز جاويش. وقد صودر الكتاب عند ظهوره في يوليو سنة ١٩١٠ [١] ، وأحيل مؤلفه وكاتبا مقدمته إلى محكمة الجنايات متهمين بتحبيذ الجرائم والتحريض على ارتكابها وإهانة هيئات الحكومة . وكان محمد فريد في أوروبا وقتذاك فأجلت محاكمته إلى ما بعد عودته . وأما الغاياتي فقد نجح في الهرب إلى سويسرا قبل المحاكمة ، وحوكم غيابياً فأدانته المحكمة وحكمت عليــه بالحبس سنة مع الشغل .

١ ــ محمد فريد ص ٢٢٧

وحكم على عبد العزيز جاويش بالحبس ثلاثة أشهر مع النفاذ ، ونفذ فيه الحكم فوراً [١]. وحوكم محمد فريد بعد عودته من أوروبا وحكم عليه بالحبس ستة أشهر مع النفاذ [٢] .

قدم الغاياتي لديوانه بمقدمة طويلة تقرب من ثلاثين صفحة ، تكلم فيها عن واجب الشعراء في بث روح الوطنية والغيرة القومية ومحاربة الظلم والاستبداد ، وعن حاجة مصر إلى نشيد وطني . وترجم بعض قطع من المارسيليز « نشيد الثورة الفرنسية » واختارها مما يناسب ظروف مصر في ذلك الحين . ثم قدم ترجمتين لنشيدين فرنسيين آخرين هما « فرنسا » و « الوطن » . واختتم المقدمة بقوله : « فحيا الله فرنسا ، فقد أفاضت على الأمم من معين الحرية عذباً زلالا ، وجاهدت في سبيل الوطن جهاداً وعت القلوب ذكره ، وأشربت النفوس حبّه ، فعسى أن نكون على آثارها مهتدين ، وعلى منوال شعرائها ناسجين ، حتّى نغدو بنصر الله فائزين . والله مع الصابرين » . والمقدمة تدل على أثر الشعر الوطني الأوروبي ، والفرنسي منه خاصة ، في دعاة الوطنية الناشئين من شعراء مصر . أما الديوان فهو يفيض بالحماسة والثورة وحب الوطن وتقديسه . ويكفي في هذا المقام أن نقدم منه أمثلة ثلاثة . فمن ذلك قصيدته « طيف الوطنية » التي يقول فيها [٣] :

في سلام الليل حاربت المناما	فسلاماً أيهـــا الطيف سلاما
مرحباً بالزائر الساري إلى	مضجع الحب يحيي المستهاما
ليت شعري ، هل رأى في مضجعي	شبحاً يشكو إلى الله السقاما ؟
وهـــل الدمـــع الذي أغرقني	كان عند الطيف دمعاً أم ضراما ؟

---

١ – كانت المحكمة مؤلفة برياسة أ . . مجدي وعضوية كل من علي ذو الفقار ومسيو سودان . وكان ممثل الاتهام محمد توفيق نسيم ، وممثلا الدفاع أحمد لطفي ومحمد علي علوبة .

٢ – كانت المحكمة مؤلفة برياسة المستر دلبر وجلي وعضوية كل من أحمد ذي الفقار وأمين علي . ومثل النيابة محمد توفيق نسيم . ورفض محمد فريد أن يستصحب أحداً من المحامين للدفاع عنه .

٣ – وطنيتي ص ٤٥ .

وهل النجم الـــذي أرصده أبصر الزائر في عيني فهاما
لست أشكو الهجر من فاتنة تشتكي مثلي وَلوعاً وهِيامـــا
نحن صِنْوان قضينا حقبــة في ربوع النيل نستذري الغماما
نبصر الفيض بمصر جـــارياً بَيْدَ أن القوم يشكون الأُواما
ظمأ قاض ونيـــل فائض ودموع جارت السحب انسجاما
وعِـــداة ملكوا الأمر ولم يحفظوا للشعب في حق زماما
وولاة أقسموا أن يسجدوا كلما رام العدا منهم مراما
إنما الشعب الذي يرجو العلا ليس يرضى من أعاديه اهتضاما
كتب النصر لشعب ناهض في سبيل المجد لا يخشى الحِماما

ومما يلفت النظر في هذه القصيدة كثرة كلامه عن الشعب، وهي كلمة برزت في قاموس الشعر ، واقترن ظهورها بظهور الحركة الوطنية الجديدة ، فأصبح شعراؤها يستعملونها في مقابل مرادفها القديم « الرعيَّة » .

ومن الشعر الذي يصور هذه الروح الجديدة في ديوانه قصيدته « آهة مصري ينوح على مصر » وفيها يقول [١] :

آه ! ! كم أنةٍ وكم حسرات آهِ ! ! كم زفرةٍ وكم عبرات
طال ليل البلاد والشعب سار لا يرى غير هذه الظلمات
ظلمات من المظـــالم أودت بضياء الحيـــاة بعـــد الحياة
يشتكي الشعبُ ، والقضاة خصوم فلمن يُشتكى خصام القضاة
أوشك القلب أن يطير انتقاماً بَيْدَ أن الصدور ذاتُ أناة
ليس للصبر موطن في فؤاد أضرمته لواعج الزفرات
بين جنبيَّ مُسهَّد مستهام ليس يشكو هوى فتى أو فتاة
همُّهُ مصر خيرُ أرضٍ أقلّتْ بعد خير الهداة شرَّ البُغاة
طلع النحس بالشقاء عليهـــا ودهاها الزمان بالويـــلات

١ – وطنيتي ص ٩١

قهرتها يد الطغاة وكانت مصر أولى بقطع أيدي الطغاة

ومن هذا الشعر في ديوانه « النشيد الوطني » الذي يقول فيه [1] :

نحن للمجد نسير ولنا الله نصير
ليس يثنينا نذير عن بلاد تستجير
وعِبَادٍ في حداد
كيف نرضى بالممات وزمان الموت فات
إنما الدستور آت فعلينا بالثبات
عند آمال البلاد

نحن للمجد نسير .. الخ

نحن شعب لا نضام قبل أن نلقى الحِمام
فعلى النيل السلام من فَتَاهُ المستهام
يوم يقضي في الجهاد

نحن للمجد نسير .. الخ

في هوى النيل السعيد ميّتُ القوم شهيد
ذكره حيٌّ جديد يومه للشعب عيد
فيه ذكرى للرشاد

نحن للمجد نسير .. الخ

مرحباً بالفوز لاح وانجلى ليل الكفاح
وشدا طير الصباح : أدرك الشعبُ الفلاح
وقضت مصر المراد

نحن للمجد نسير .. الخ .

أما محرَّم ، فشعره في حب مصر والهيام بها، لا يَعْدِلُه في صدقه وفي حرارته

---

١ – وطنيتي ص ١٣١

إلا خطب مصطفى كامل . يقول في قصيدته « إيمان المخلصين »[1] :

أَلِي في الهوى مالي ؟ . . ، وللائم العذر ... أما يعلم اللوّام أن الهوَى « مصر » ؟
فإن يسألوا : ما حب مصر ؟ . . فإنه ... دمي وفؤادي والجوانح والصدر
لنفسي وفائي إن وفيتُ بعهدها ... وبي - لا بها - إن خنت حرمتها الغدر
أخاف وأرجو ، وهي جهد مخافتي ... ومرمى رجائي ، لا خفَاءٌ ولا نُكرُ
هي العيش والموت المبغّض والغنى ... لأبنائها والفقرُ والأمن والذعر
هي القدَر الجاري ، هي السخط والرضى ... هي الدين والدنيا ، هي الناس والدهر
بذلك آمنّا . فيامن يلومنا ... لنا في الهوى إيماننا ، ولك الكفر
تدفّقَ فيها الوحيُ شعراً ، وإنما ... سقانا بها النيلُ الذي كله شعر
تحير فيه الواصفون نفَاسَةً ... فأوصافه شتى وألقابُه كُثْرُ
رئيس ، وذو تاج ، وشاعرُ أمة ... ونابغة غَمْرٌ ، وداهية نُكر
إذا جال ماء النيل في جوف شارب ... فليس له إن خان أبناءه عذْر

ويقول في قصيدته « مصر في تاجها الجديد »[2] :

وهبتُ الصبّا والشيْبَ والشوقَ والهوى ... لمصر وإن لم أقْضِ حقّ الهوى مصرا
بلادٌ حبَتْني أرضُها وسماؤها ... حياتي ، وأجرَى نيلها في فمي الدُرّا
وما حادثٌ يوماً وإن راع وقعه ... بماحٍ هواها أو يطاولها ذكرا
هي الدهر ، أو شيء يشابه صرْفَه ... وإبرامه والنقض والطيّ والنشرا
تمر بها الدولات شتى ، وترتمي ... عظاتُ الليالي حول أهرامها تترى
كأني بها صحفَ الخلود . وكلّها ... يخط عليها من أحاديثه سطرا
كأن رُباها للممالك منبر ... يقوم عليه الدهر يوسعها زجرا
كأن ثراها للشعوب تميمة ... تقي من جنون الجهل أن تبطل السحرا

---

١ – ديوان محرم ٢ : ١١٦

٢ – ديوان محرم ٢ : ١٣١

كأن بماء النيل سراً محجّباً يرد إلى حكم الأناة من اغترا
خذي من عظات الدهر يا مصرُ ، واشهدي
عليه وزيدي في أعاجيبه صبرا

ويقول في قصيدته « تفرق المذاهب » [1] :

رويدكما يا لائميَّ فإن بي على مصرَ وجداً جل أن يتثلما
بلاد سقتني الحبّ عذباً ووكلت بصافيه قلباً بين جنبيّ أهْيَمَا
يزيد هواها كلما زاد بؤسُها وتنمو تباريح الجوى كلما نما
حفظت لها عهدين : عهد شبيبة تصرمّت اللذات لما تصرما
وآخر يكسوني المشيبَ مفوّفاً ويلبسني منه الرداء المسهَّما
وما المرء إلا قومُه وبلادُه فإن يذهبا يلق الأذى حيث يمما

* * *

أما الفريق الآخر من دعاة الوطنية ، الذي كان يحارب فكرة الجامعة الإسلامية ، ويدعو إلى أن يقصر المصريون اهتمامهم على مصالح مصر ويحصروا تفكيرهم فيما يعود عليها بالنفع ، والذي كان يصور الوطنية على أنها المصلحة المشتركة التي تجمع بين المواطنين ، فقد كان مشتملا على قسمين : قسم تمثله صحيفة « المقطم » التي تعمل لحساب الإنجليز ، وقسم آخر تمثله صحيفة « الجريدة » التي تنطق بلسان حزب الأمة .

أما صحيفة « المقطم » فقد كانت صريحة في تأييد المحتل وتصويره في صورة إنسانية رفيعة . فالإنجليز — في زعمهم — لم يجشموا أنفسهم مشقة الإقامة في مصر إلا لرفع الظلم وإحياء العدل . وإليهم وحدهم يرجع الفضل في إنقاذ مصر من الإفلاس ، وإقامة اقتصادها على أساس سليم متين [2] . وإليهم وحدهم

---

١ — الديوان ٢ : ٩٠

٢ — كان هذا هو زعم كرومر ، الذي لم ينهض أحد لتفنيده على أساس اقتصادي علمي يستند إلى الإحصائيات والأرقام . فكان الذين يهاجمونه يندددون باستبداده وسياسته الاستعمارية ويسلمون =

يرجع الفضل في رفع الظلم عن الفلاح المصري المسكين ، الذي كان مستعبداً لطائفة الباشوات من الترك . وهم الذين يحدّون من شره الحاكم التركي « الخديوي » ويحولون بينه وبين ابتلاع أرزاق الناس وأقواتهم .

كان كل ما تكتبه صحيفة « المقطم » وكثير مما تكتبه مجلتهم العلمية « المقتطف » يدور حول هذه الآراء، ويحاول إقرارها في أوهام الناس ، وجَمْعَ أكبر عدد حولها من المصريين ، أو المقيمين في أرض مصر بتعبير أدق ، من وطنيين ودخلاء ، زاعمين أن هذا هو الاتجاه الوطني الحق الذي لا ينظر إلا إلى خير مصر ومصلحتها المادية ، وأن المخالف له إنما هو رجل يفكر بعقول الترك ، ويقدم مصالحهم على مصلحة وطنه مصر . وقد نجحت الصحيفة في أن تغوي قلة من أعيان البلاد استهوتهم المصالح الشخصية فانضموا إلى دعوة « المقطم » تقرباً من ساكن قصر الدوبارة الذي يمثل الدولة المحتلة. وسمت هذه القلة نفسها بـ « الحزب الوطني الحر » ، وأعلنت الحرب على « الحزب الوطني » الذي كان يتزعمه مصطفى كامل ، متهمة إياه بالتدليس وبالتهريج وبالزج بالبلاد إلى هاوية الخراب ، مرجعة إليه وحده ما كانت تعانيه مصر من أزمة اقتصادية، مَرَدُّها في رأيهم إلى حالة القلق التي أوجدها هؤلاء المهيجون ،

= بفضله على الاقتصاد المصري . وغاية ما يبلغون أن يحقروا من شأن هذه الناحية قائلين إن المال ليس كل شيء في حياة الأمم . كما يقول حافظ :

تشعبت الآراء فيــك فقــائل   أفاد الغنى أهل البــلاد وأسعدا
رأى العز كــل العز في بسطة الغنى   فحارب جيش الفقر حتى تبددا
. . . وآخر لم يقصر على المال همه   يرى أن ذاك المــال لا يكفل الهدى
يناديك قد أزريت بالعلم والحجا   ولم تبق للتعليم يالورد معهــدا
وأنك أخصبت البــلاد تعمــداً   وأجدبت في مصر العقول تعمــدا

ولم يزل الأمر كذلك ، حتى نهض روتشتين للرد على ما يدعيه كرومر لنفسه من فضل على الاقتصاد المصري ، مفنداً مزاعمه بالإحصائيات والأرقام . وجعل ذلك محور كتابه Egypt's Ruin الذي نشره في إنجلترا سنة ١٩١٠ ، والذي ترجم إلى العربية ونشرته لجنة التأليف في مصر سنة ١٩٢٣ بعنوان « تاريخ المسألة المصرية » كما ترجمه بعد ذلك علي أحمد شكري سنة ١٩٢٧ بعنوان « تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده » .

فكانت سبباً في أن يكف أصحاب رؤوس الأموال من الأجانب عن استثمار أموالهم في مصر ، وأن ترفض البيوت المالية تقديم القروض . ولم يكن هذا « الحزب الوطني الحر » في حقيقة أمره شيئاً غير « محمد وحيد » الذي كان ينشر بعض مقالات باسمه ، ابتداءً من سنة ١٩٠٧ بإمضاء « رئيس الحزب الوطني الحر » ، ونفر قليل لا يكاد يتجاوز عدده أصابع اليد ، ممن يدعون أنهم « أصحاب المصالح الحقيقية » في مصر .

ومن أمثلة ما كان يكتب هذا النفر من الناس كلمة لمن يُدْعَى « مصطفى عمار » عنوانها « أصحاب المصالح الحقيقية » جاء فيها : [١]

« يظهر أن اللواء يقصد بتكراره ذكر « دنشواي » اتخاذ ذلك وسيلة للتعريض بسعادة الفاضل فتحي باشا زغلول وحك حزازاتٍ في الصدور ، مع أن فضل سعادة باشا وفضل أخيه سعادة الفاضل سعد باشا مشهور ومعلوم عند الأمة المصرية كلها وعند غيرها أيضاً . فجدير بصاحب اللواء أن يترك هذه الخطة الممقوته وينضم إلى الحزب الوطني الحر ، ويسعى في تفريج هذه الأزمة التي كادت تخرب البلاد . وما شدَّد وطأتها علينا إلا هو وأمثاله الهجّاصون ، كما أوضح ذلك حزب أصحاب المصالح الحقيقية في المقطم الأغر . وإلا فالواجب على كل مؤمن أن يقاتل فئة اللواء الباغية بقلمه ولسانه حتى تفيء إلى أمر الله . ويلتمسُ العقلاء من جناب عميد الإصلاح [٢] وضع حد لهذه الفوضى لإنقاذ مصر من الخراب فيشكرونه . كما نشكر المقطم الصادق لنشره أفكار أصحاب المصالح الحقيقية خدمة للأمة » .

وفي مقال آخر لمحمد وحيد عنوانه « سلامة المصريين في سلامة المحتلين » يتكلم عن الأزمة الاقتصادية . ويرد أسبابها إلى أن أصحاب الأعمال المالية قد امتنعوا عن توظيف أموالهم في مصر بسبب تهييج المهيجين على الاحتلال ، مما زعزع ثقتهم في مصر . ويحض المصريين على مسالمة المحتلين ، ويزعم أن

١ — المقطم ٢٥ يونيه سنة ١٩٠٧

٢ — المقصود بجناب عميد الإصلاح هو اللورد كرومر

بعض الماليين يفكرون في العودة إلى توظيف أموالهم بعد أن سمعوا عن حركة الحزب الوطني الحر (١).

وقد نشر محمد وحيد هذا سلسلة من المقالات تحت عنوان « أصحاب المصالح الحقيقية » هاجم في أحدها مصطفى كامل وصحيفته « اللواء »، ثم قال : « فواجباتنا الوطنية ومصالح أمتنا تقضي علينا في هذا المقام أن نتقدم إلى جميع الأجانب على اختلاف نزعاتهم وأجناسهم بلسان الحزب الوطني الحر ، الذي يمثل أصحاب المصالح الحقيقية في البلاد ، وبلسان سائر عقلاء الأمة الأحرار ، ونقول لهم : إن الأمة ضربت بتلك الصحيفة الساقطة أمس عُرْضَ الحائط ، فلم يقع عدد من أعدادها في يد عاقل أو ذي شأن إلا استاء من قراءتها وصب عليها جام غضبه واشتد سخطه على صاحبها . ثم يورد صوراً من رسائل تأييد من طالب رجا أن لا يذكر اسمه ، ثم من حضرة الوطني الغيور السري الوجيه حافظ بك ذهني ، ومن فلان من أبناء ذوات مصر ، ومن فلان من أصحاب الأملاك في العاصمة ، ومن فلان من أرباب الأطيان في المنوفية (٢) .

كان « المقطم » إذن صريحاً في ولائه للإنجليز ، لا يستخفي ولا يداري . فهو يهاجم الخديوي عدو كرومر في صراحة . وهو يمجد الإنجليز في صراحة أيضاً . ويكتب في ذلك المقالات الصارخة العارية من كل حياء ، لا يكلف نفسه مشقة إخفائها تحت ثوب من الرياء أو النفاق أو المجاملة للشعور الوطني . وكان الموالون له من المصريين الذين قدمنا أمثلة من كتاباتهم في مثل صراحته أيضاً . وهم حين يتحدثون عن الجامعة المصرية لا يرون مصر التي يريدون أن يجمعوا عليها الناس إلا سوقاً ، ولا يرون الوطنية إلا العمل على ملء البطون وتوفير المال من كل طريق وبأي وسيلة . ثم هم لا يقيمون للعواطف وللقيم الخلقية أو الوطنيـــة وزناً . فليست الوطنية عندهم كرامة ، وليست غَيْرةً على عِرض . وإنما الوطنية عندهم هي المصالح، وهي المال . ولذلك

---

١ – افتتاحية المقطم ٢١ يونيه سنة ١٩٠٧

٢ – المقطم ١٨ يونيه سنة ١٩٠٧

فقد كان حديثهم عن « أصحاب المصالح الحقيقية » لا ينقضي . وهم حين يتحدثون عن أصحاب المصالح الحقيقية هؤلاء ، إنما يعنون بهم أصحاب رؤوس الأموال من ملاك الأراضي الزراعية ومن الأعيان . ولم يكن هؤلاء الكتاب على شيء من الثقافة أو عمق التفكير أو سمو الأسلوب . ولم تكن بضاعتهم إلا سباباً رخيصاً يكفي أن نقدم منه صورة من خطابين نشرهما المقطم [١] :

وقد جاء في أولهما « ومما يضحك الحزب الوطني الحر ، حزبَ أصحاب المصالح الحقيقية في مصر ، ما يكتبه غراب أولئك الهجّاصين من الآراء المالية عن الأزمة الحالية . فإنها آراء تدل على أن ذلك الغراب الذي شاب وما تاب ، يحسب هذه الأزمة مثل أزمته الخصوصية التي نتفت ريشه ، وقضت عليه قضاء مبرماً في آخر أيامه . »

وجاء في تقديم « المقطم » للخطاب الثاني « ورد الكتاب التالي على حضرة الوجيه الهمام محمد بك وحيد بقلم وطنيين من أرباب الأطيان في المنوفية . وهاك صورته بعد الديباجة » . ثم أتت على نص الخطاب . وهو :

« أعجبتنا خطة الحزب الوطني الحر كثيراً . ووافقت تصريحاته آراءنا وأميالنا . وتأكدنا من إخلاصه في أقواله أنه يقصد خير الوطن وأبنائه ، فملنا إليه قلباً وقالباً ، وجئنا سعادتكم بكتابنا هذا راجين قبولنا ضمن رجاله . ونحن مستعدون لكل خدمة ترقى بها مقاصد الحزب الشريف حباً لوطننا وأمتنا . فليحيا أحرار مصر الصادقون وأصحاب المصالح الحقيقية فيها . وليسقط الهجاصون والخناسون والحشاشون الذين يضرون بوطنهم لقضاء مصلحتهم ويقولون كذباً إنهم ينوبون ويتكلمون بلساننا » .

أما حزب الأمة فقد كان قوامه جماعة من الباشوات أو كبار ملاك الأرض ، مثل : محمود سليمان ، وحسن عبد الرزاق ، وحمد الباسل ، وفخري عبد النور ، وسليمان أباظه وعبد الرحيم الدمرداش وعلي شعراوي ومحمد

---

١ — المقطم ٢٥ يونية سنة ١٩٠٧

الحفني الطرزي ومحمد الشريعي [١] . وقد رأى هؤلاء أن السلطة الفعلية قد آلت كلها إلى كرومر الذي يمثل سلطة الاحتلال ، وأن مصالحهم الشخصية تقضي عليهم أن يكونوا على وفاق معه . فألفوا حزبهم بصفة رسمية في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧ برياسة محمود سليمان باشا [٢] . ولم يكن تفكيرهم السياسي وقتـذاك يتجـاوز مصالحهم الشخصية . ولكنهم لم يجدوا بدآً من أن يضموا إليهم جماعة من المثقفين على رأسهم لطفي السيد ، ليكونوا لسانهم في صحيفة« الجريدة »، التي اكتتبوا لإنشائها بمبلغ عشرين ألف جنيه ، والتي ظهر العدد الأول منها في ٩ مارس سنة ١٩٠٧ [٣] . وبذلك كان الحزب منذ نشأته مكوناً من فريقين تختلف أهدافهما ومراميهما اختلاف تكوينهما العقلي . أما الأعيان فقد انحصر تفكيرهم في مصالحهم ، ولم يرتفع هدفهم عن هذه المصالح الشخصية . وأما المثقفون من محرري الجريدة فقد كانوا أصحاب مذهب سياسي واجتماعي ، حاولوا جهد استطاعتهم أن يوفقوا بينه وبين رغبات فريق الأعيان الذي أُنشئت الصحيفة بأمواله .

أما مذهبهم ذاك فهو يتلخص في الدعوة إلى التحرر الفكري ، وإلى التعاون مع الأوروبيين في كل ميادين الحياة ومجالات النشاط : ثقافياً واقتصادياً وسياسياً . وكان اللورد كرومر يسميهم « حزب الشيخ محمد عبده » ويعقد عليهم الآمال في مستقبل مصر السياسي ، ويوصي ممثلي الاحتلال بأن يمنحوهم كل عون وتشجيع » [٤] .

كانت الجريدة تصور الاحتلال على أنه حقيقة واقعة ، وترى أن عدم الاعتراف بشرعيته لا يعني عدم وجوده ، ولا يقلل من سلطته أو نفوذه ،

---

١ – راجع افتتاحية العدد الأول من صحيفة الجريدة ٩ مارس سنة ١٩٠٧

٢ – مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٢٩

٣ – الدولة العربية المتحدة ٣ : ١٠٣

٤ – راجع الفقرة ٣ من تقرير كرومر السنوي عن سنة ١٩٠٦ ص ٨ تحت عنوان Egyptian Nationalism ويؤيد رشيد رضا ما ذهب إليه اللورد كرومر « تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩١ »

وكانت ترى أن هؤلاء المحتلين ماضون في طريقهم ، مستقلون بتصريف الأمور رَضِيَ المصريون بذلك أم كرهوه. ومن الواضح - في نظرهم - أن التخلص من الاحتلال يحتاج إلى قوة لم تتوافر للمصريين . فالذين يهيجون الناس عليه إنما ينفقون الوقت فيما لا طائل تحته ، ويصرفون الجهد إلى ما لا ينفع . فهم أصحاب خيال أو تهريج — حسب زعمهم — ، والأوْلَى عندهم أن تنفق هذه الجهود فيما يعود على الأمة بالنفع ، وفيما يرفع مستواها الاجتماعي والاقتصادي . وما دام الإنجليز هم المستقلين دون غيرهم بتصريف الأمور فلا سبيل إلى العمل على الإصلاح أو تنفيذ أي مشروع يرمي إلى النهضة بمصر إلا بالاتفاق معهم . فالخير إذن — في رأيهم — هو أن ينصرف المصريون عن حربهم إلى إقناعهم بالإصلاح .

هؤلاء قوم يتحدثون إلى العقول ولا يناجون القلوب . ويُسِفُّون إلى الواقع ولا يُحَلِّقون مع الخيال . فهم — كما يسمون أنفسهم ، وكما يسميهم خصومهم حين يتهكمون بهم — « عقلاء الأمة » . وخصومهم الذين يحاربون الاحتلال دون أن يملكوا من أدوات الحرب إلا الكلام هم المتهوِّسون أو المهرِّجون أو المتطرفون كما كان يحلو لهم أن يسموهم . فالوطن عندهم ليس شيئاً يُعْشَق ، ولكنه مصلحة مادية مشتركة ، أو هو مركز المصلحة العامة أو آلتها كما يقول كاتبهم الأول أحمد لطفي السيد في مقال له عنوانه « الوطنية في مصر » (١) . ولذلك فهم يشتركون مع « المقطم » في كثرة الكلام عن « أصحاب المصالح الحقيقية في مصر » . وهم يطلبون أن يكون هؤلاء هم الممثلين للمصريين في إدارة شؤون البلاد (٢) . وهم يهاجمون الحزب الوطني القديم « حزب عرابي » الذي أدى تطرفه - كما يقولون - إلى نكبة مصر بالاحتلال الذي لا يزال باقياً . ويقولون إن عرابي هذا لم يكن له في مصر « ناقة ولا جمل » ، فمصلحة مصر لا تهمه ولا تعنيه ، لأن النفع لا يصيبه ولأن الضرر لا يقع عليه . وقد كان

---

١ — افتتاحية العدد الثاني من الجريدة ١٠ مارس سنة ١٩٠٧

٢ — راجع افتتاحية الجريدة عدد ١٣ يونية سنة ١٩٠٧ « أعيان الأمة هم أجدر الناس بالنيابة عنهـا » .

عليه – في رأيهم – أن يدع تصريف الأمور لأصحاب النوق والجمال ، أو من يسمونهم « أصحَاب المصالح الحقيقية » [1]

وربما كانت بعض المقالات التي أشرنا إليها في «الجريدة » قد كتبت لإرضاء أصحاب رأس المال في شركة الجريدة من أعيان حزب الأمة . أما لب مذهب هذا الفريق من مثقفي حزب الأمة ومفكريه فخلاصة آرائهم فيه هي « أن الوطنية لا ينبغي أن تكون اندفاعاً عاطفياً أعمى ، يتخبط على غير هدى من المنطق السليم والتفكير الهادىء المتزن . ولا ينبغي أن تقام على أساس من الأوهام التي لا سبيل إلى تحقيقها ، من مثل التعلق بالجامعة الإسلامية أو الرابطة العثمانية . والأحرى بالمصري أن يفكر في نفسه أولا ، وفي مصلحته قبل كل شيء ، وهي مصلحة يتفق فيها سائر المصريين – وهم يعنون بهم المقيمين في مصر ممن استوطنوها [2] – على اختلاف نحلهم ومذاهبهم ، ولا يشاركهم فيها غيرهم من المسلمين .

وربما كانت افتتاحية العدد الأول من « الجريدة » التي كتبها لطفي السيد مصورة لأهم اتجاهاتها . وإليك نصها :

« ما الجريدة إلا صحيفة مصرية ، شعارها الاعتدال الصريح ، ومراميها إرشاد الأمة المصرية إلى أسباب الرقي الصحيح ، والحضُّ على الأخذ بها ، وإخلاصُ النصح للحكومة والأمة ، بتبيين ماهو خير وأولى . تنقد أعمال الأفراد وأعمال الحكومة بحرية تامة أساسها حسن الظن ، من غير تعرض للموظفين والأفراد في أشخاصهم أو أعمالهم التي لا مساس لها بجسم الكل الذي لا ينقسم ، وهو الأمة » .

« ولقد اختلف القوم في أمر الجريدة منذ وضع مشروعها ، وقدر بعضهم لها مذهباً ، مالهم به من علمٍ إلا اتّبَاعَ الظن . ولو أنهم صبروا حتى تخرج

---

١ – الجريدة ٢٣ مارس سنة ١٩٠٧

٢ – راجع مقالين للطفي السيد عن « الجامعة المصرية » نشرا في الجريدة في ٥ أكتوبر ، ٩ أكتوبر سنة ١٩٠٩ ج ١ ص ١٧٠ – ١٧٣ من «المنتخبات للطفي السيد »

إليهم لكان خيراً لهم وأجدر بحفظ الكرامة لكبراء رجال وطنهم ، وأدنى إلى عدم الفتِّ في أعضاد الجامعة الوطنية . ولكنهم لا يصبرون » .

« ولو وقف الأمر عند غير العالمين لهان . ولكن بعض الكتّاب أبى إلا أن ينتقص الجريدة قبل ظهورها . فخلق لها نسباً لا تعرفه ، إذ يقول : إنها أنشئت بوحي من جناب اللورد كرومر ، أو أنها متحيزة إلى طرف دون آخر . على أنها من كل ذلك براء . »

« ومهما يكن من الأمر فإنا نمر بتلك المغامز مراً ، إذ لا نقصد درء شبهة، ولا أن نقف بأحد موقفاً أظهَرُنا فيه على صاحبه أخسَرُه لوقته . وكلٌّ في حِلٍّ مما قال . »

« هنيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مُخَامِر »

« لا يكون أهل الوطن الواحد أمة إلا إذا ضاقت دائرة الفروق بين أفرادها واتسعت دائرة المشابهات بينهم . وإن أظهر المشابهات في حال الأمة السياسي هو التشابه في الرأي بين الأفراد . وهذا ما يسمونه بالرأي العام . »

« والناس بطبائعهم أشتات في الرأي ، كما قيل : (للناس عدَدَ رؤوسهم آراء) . وهم في البلاد الحديثة العهد بالرقي ينصرف كل منهم غالباً عن التفكير في الأمور العامة إلى تدبير حياتهم الخاصة ، حتى ترشدهم الصحف كل يوم أن لهم فوق وجودهم الخاص وجوداً عاماً هو غير الأول ، وأن لهذا الوجود العام كمالا يجب أن يُرْقَى إليه بعمل الأفراد . »

« وإن أثر هذا الإرشاد في النفوس مدعاة إلى تقريب الآراء المتباينة بعضها من بعض ، فيحصل بها الرأي العام . وعلى هذا تكون الصحافة هي الآلة الأولى للإرشاد والرقابة ، تتبعها في طورها الاجتماعي ، وتترقى برقي الأمة ، حتى تنتقل كغالب الأعمال العامة من يد الفرد الذي قد يعرض له الميل أو الهوى إلى أيدي الجماعات ، لأن الجمع المتضامنين أحكم من الفرد أمراً ، وأثبت رأياً ، وآمن هوى ، وأعسر على عواصف الحوادث منقلَباً . »

« وإن أوْلىَ الجماعات بواجبات الخدمة القومية ومراجعة الأحوال العامة وأقدرَها على العمل لتكوين الرأي العام جماعةُ أُولي الرأي ، وهم الذين نَبهوا ذِكراً بعلو النسب أو بالعلم والفضل . كل أولئك إذا انصرفوا عن الاشتغال بحاجات الأمة ، من نشر التعليم العام ، والعمل لترقية الصناعة والزراعة والتجارة ، والأخذ بنصيب من الرقابة العامة ، وقفت الأمة عن التدرج في مَرَاقي المدنية الصحيحة ، خصوصاً في حالها النظامي ، وصار الأمر فيها مفوضاً إلى رغائب الحكام ، يميلون بها إلى حيث يشاؤون . »

« وما كان أعضاء شركة « الجريدة » المصرية لينشئوها إلا لتحقيق هذه المبادىء الراسخة . »

« ولِمَا أنهم كثيرو العلاقات بالحكومة بسبب مراكزهم ، واشتراكهم معها في كثير من الأعمال العامة ، وأن أمثالهم لا يجتمعون لعمل ذي أثر سياسي إلا أحاطت به الشكوك ، رأوا أن يكاشفوا الحكومة في أمر المشروع ، دفعاً لتلك الشكوك المحتملة وأخذاً بأقوم الطرق إلى نيل ما عساهم يطلبونه من تقويم معوج أو إصلاح خطأ ، لأن الحكومة قد تجيب الطلب مما يهون عليها إذا اقتنعت بأنه لمصلحة الأمة . »

« وإن أسهل سبل الإقناع وآكدها في الوصول إلى الغرض هو سبيل المُحاسنة التي لا تجر إلى ترك حق أو تزيين باطل . وهي أجلى مظاهر الاعتدال الذي يجب أن يكون دعامة العلاقات بين أمة وبين حكومة ، كلتاهما في طور التكوين ، لئلا يقع بينهما من الجفاء ما يحجب الحكومة عن الوقوف على مواطن المصلحة وآمال الأمة ، ويحجب الأمة عن الاطلاع على مقاصد الحكومة ، فتعطل بذلك أسباب الرقي التي يتوقف حلها على اشتراك الطرفين . »

ثم ختم المقال بذكر أسماء أعضاء شركة الجريدة وهم من أعيان البلاد وكبار الملاك .

وقد عالج هذا المقال موضوعات شتى :

أولها : رد الصحيفة على من يتهمونها بأنها إنجليزية الميول ، أُنشئت بوحي

من اللورد كرومر ، وهو رد يثبت وجود التهمة وذيوعها . ويبدو اعتراف الجريدة بسلطة الاستعمار وحرصها على حسن الصلة به بشكل واضح في مقال آخر عنوانه « حالتنا السياسية » جاء في آخره [1] : « الأمة المصرية أمة تحب السلام والطاعة ، كما تحب الإخلاص لحكومتها . وهي تحترم السلطة الشرعية ولا تنكر السلطة الفعلية. فنظن أنه قد حان الوقت لأن تسمح لها السلطتان جميعاً بأن يكون لها حياة مستقلة بالذات ، لكي لا تبقى ضائعة المركز بين السلطتين ، ولتفكر حقيقة فيما ينفعها من حيث هي أمة مستعدة لأن تؤهل لحكم نفسها بنفسها ، ولتقوم بواجبات الأمم في السعي في تحسين أحوالها الزراعية والصناعية والتجارية » .

والأمر الثاني الذي نلاحظه في هذا المقال هو دعوة الصحيفة إلى تقريب الفروق بين المواطنين حتى يوجد رأي مصري عام ، وهي فكرة جديدة على مصر وقتذاك متأثرة بالتفكير الأوروبي والنظم السياسية الغربية . وإن كنا قد رأيناها من قبل في مقال محمد عبده عن « الحياة السياسية » الذي نشر في الوقائع المصرية سنة ١٨٨١ قبيل الثورة العرابية ، والذي أشرنا إليه في صدر هذا الفصل .

والشيء الثالث الذي نلاحظه هو اعتراف الصحيفة بصلات كبار رجال الحزب بالحكومة ، لاشتباك مصالحهم معها ، والدعوةُ إلى محاسنتها ، لأن هذا الطريق هو خير السبل المؤدية للإصلاح . وهذه الحكومة التي تدعو الصحيفة إلى محاسنتها وتعترف بحسن صلاتها بها هي حكومة مصطفى باشا فهمي الذي عرف بولائه التام للإنجليز ، والذي وصفه كرومر بأنه كان مؤمناً بأن مصلحة وطنه في الولاء للإدارة الإنجليزية لا في معارضتها [2] .

أما الشيء الرابع والأخير فهو تعريفه أولي الرأي في الأمة بأنهم هم الذين نبهوا ذكراً بعلو النسب أو العلم والفضل . وهو تفكير تبدو فيه المجاملة

---

١ – الجريدة ٢٣ مارس سنة ١٩٠٧

٢ – Modern Egypt ٢ : ٣٤٦

لأعيان حزب الأمة . وهو يصور أن الحزب قام أولا على أساس المصالح الشخصية بما يجعله أشبه بالنقابات التي ينحصر تفكيرها في المصالح الطائفية أو المهنية .

ومما يصور مذهب الجريدة في الوطنية مقال عنوانه « الوطنية في مصر » (١) جاء فيه :

« الوطن في لغة العامة مقر المرء أو مسقط رأسه . وليس في مثل هذا الحد يخوض المتكلمون في الوطن والوطنية بلغة السياسة وعلم الاجتماع . وإنما يخوضون في حد الوطن الجامع الذي يجمع بين المختلفين . وفي هذا اختلف العلماء لاختلاف الجهات التي نظر كل منهم إليها . »

ثم يورد رأي الاشتراكيين في أن الأرض كلها وطن واحد ، ورأي علماء الأديان الذين يطلقونه على مساكن الذين يدينون بدينهم ، ورأي بعض علماء الاجتماع الذين يرون لكل شعب وطناً قديماً ويعتبرونه أحق به . وينتهي إلى إيراد رأيه في أن الوطن هو مركز المصلحة العامة للجماعة فيقول :

« لكلٍّ ممن ذكرنا جهة في تعريفهم للوطن الجامع . والحقيقة مجمع الجهات كلها وترجع لها . فنرى الوطن عندها عبارة عن مركز المصلحة العامة لجماعة متضامنين يشعرون بحاجتهم إلى التعاون في دفع المضار وجلب المنافع . ومتى تعطلت الوظيفة في هذا المركز أو هذه الآلة فُقِدَ هذا الاسم وبطل التشبث بذكراه . »

« فمسقط الرأس ليس لأحد بوطن إذا صار بلقعاً وخوى ، أو استحوذ عليه العدو وبغى ، ولم يبق للمرء فيه أهل ولا مُلْكٌ ولا جدوى ، ولحق بما هو خير منه وأولى . مثال ذلك البراري التي هاجر منها أسلاف آل عثمان ، فإنها لم تعد لهم وطناً بعد أن ظهر فيها العدو ولحقوا بغيرها ، فكان ما كان من تأسيسهم هذا الملك . أرأيت أحداً سمعهم من بعد يذكرون تلك البراري ويتغنون بها كما يتغنى الواحد بذكر وطنه الذي لا يزال متعلقاً به ؟ »

« والبلادُ المملوكة إذا تمادى فيها التمرد لا تصير وطناً للحكومات المالكة.

---

١ — افتتاحية الجريدة ١٠ مارس سنة ١٩٠٧

بل قد تكون مُناخاً وبيلا لسلطتهم القاهرة يضرها أكثر مما ينفعها . ولذلك تتخلى الدول طوعاً أو كرهاً عن البلاد التي هذا شأنها ، كما تخلت حكومة آل عثمان كرها عن بلاد الصرب والجبل الأسود واليونان والبلغار ورومانيا ، ثم عن جزيرة كريت . وكما تخلت انجلترا طوعاً عن كورفو (من جزر اليونان) التي صرفت فيها خمسين سنة في تهذيب أهلها وتهدئة خواطرهم وكبح جماحهم . »

وواضح من هذه الفقرة التي قدمتها من المقال أنه يقيم الوطنية على أساس النفع والمصلحة . فصاحب المقال يفكر بعقول أعيان حزب الأمة الذين لا يهتمون إلا بمصالحهم وبالمشاريع التي تتصل بأراضيهم وأملاكهم . فهو يفلسف لهم آراءهم النفعية ، ويكسبها وجوداً قانونياً مشروعاً بإقامتها على أساس من المبادىء السياسية العامة . وواضح فيه كذلك تحامله على تركيا حين وصفها بأنها تخلت كرهاً عن بعض أملاكها ، ومجاملته لإنجلترا حين وصفها بأنها تخلت عن بعض هذه الأملاك طوعاً ، بعد أن بذلت الجهد في تهذيب أهلها .

ومما يصور مهاجمة « الجريدة » لفكرة الجامعة الدينية ، وتسفيه الداعين إلى هذا الوهم الذي لا يقوم على أساس من الواقع - حسب زعمها - والذي لا سبيل إلى تحقيقه ، مقالٌ في الرد على تقرير كرومر ، بدأه كاتبه بتفنيد ما جاء فيه عن الجامعة الإسلامية فقال [1] :

« إن فكرة الجامعة الإسلامية قد تجول أحياناً بخواطر بعض الناس الذين لا يزالون بعيدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر في الأمور العامة بشيء من التدقيق . ولكن تلك الفكرة لم تخرج عن حيز الخواطر ، تظهر وتختفي تبعاً للحوادث . فكلما رأى المصريون اتفاق رجال السياسة الأوروبية على شيء يضر بمصلحة مصر أو يبعد ميعاد استقلالها أو يفيد استمرار الاحتلال إلى الأبد ، قارنوا بين مصر وغيرها من ولايات البلقان التي استقلت ، واستنتجوا من ذلك أن ذنب مصر أنها أمة إسلامية ، وأن أوروبا لا تساعد في الشرق إلا

---

١ - الجريدة ٧ مايو ١٩٠٧ .

الأمم المسيحية، فتمنى بعضهم أن لو كان للمسلمين وحدة، كما للمسيحيين في أوروبا هذه الوحدة التي يتخيلون وجودها ، وأنها كانت الحامل لأوروبا على التداخل في أمر ولايات البلقان وأرمينية . نقول هذا ونحن لا نعرف أنه يوجد في اللغة كلمة جامعةمسيحية« بَانِيكْرِ يسْتيانِزْم » كما خلقت كلمة جامعة إسلامية « بَانِسْلامِزْم » . على أن عقلاء المصريين لا يرون لكلتيهما وجوداً في العالم ، ولكن السياسة تخلق ما تشاء . فليس لأوروبا أن تتوجس خيفة من فكرة ساذجة كهذه ، بعيدةٍ عن أن تؤدي إلى اعتداء من جهة المصريين ، ولا أن تسبب قلق المستعمرين من الأوروبيين . بل يرى هؤلاء العقلاء أن الذي خلق هذا الخاطر الساذج هو مظاهر السياسة الأوروبية في الشرق . »

« أما كون الجامعة الإسلامية موجودة وجوداً حقيقياً ، أو أنها مقصد من المقاصد التي يسعى المسلمون لتحقيقها ، فهذا لا دليل عليه مطلقاً . كما أنه لو حووِلَ إيجادها لاستحال ذلك بالمرة على طلابه . فقد علمنا التاريخ وطبائع البشر أنه لا شيء يجمع بين الناس إلا المنافع . فإذا تناقضت بين قبيلتين استحال عليهما أن يجتمعا لمجرد قرابة في الجنسية أو وحدة في الدين . »

ومما يصور هذه المهاجمة لفكرة الجامعة الإسلامية مقال آخر لعبد الحميد الزهراوي (١) عن السنوسية والجامعة الإسلامية جاء فيه (٢) :

---

١ – عبد الحميد الزهراوي سوري من دعاة الثورة العربية السابقين . هاجر إلى مصر سنة ١٩٠٠ وهو وقتذاك في الثانية والثلاثين من عمره . فساهم في تحرير « المؤيد » . ثم تولى رئاسة تحرير « الجريدة » . ثم عاد إلى سوريا بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ، واشترك في تأسيس « الجمعية القحطانية » وهي جمعية سرية تهدف إلى جمع كلمة العرب . ورأس المؤتمر العربي الذي عقد في باريس سنة ١٩١٣ م . ثم عين مع بعض رجالات العرب سنة ١٩١٤ في مجلس الأعيان العثماني، للإشراف على تطبيق الاصلاحات التي وعدت الحكومة التركية بتنفيذها . وعاد إلى دمشق عند إعلان الحرب العالمية الأولى ، فأعدمه جمال باشا مع من أعدموا شنقاً من الثوار في ٦ مايو سنة ١٩١٦

٢ – الجريدة ١٠ سبتمبر سنة ١٩٠٧

« ما الجامعة الإسلامية إلا اتفاق في كلمة واحدة ، وهي أن القرآن كتاب الله جاء به محمد رسول الله . ولكن المطلع على تاريخ المتفقين هذا الاتفاق ، يعلم أنه لم يَدْفع عنهم الاختلافَ الذي لا اتفاق معه بَعْدُ. فمنذ اختلف المسلمون ثُلِّبَت جامعتهم، ولم يتفقوا اتفاقاً سياسياً بعد عهد عمر، ولا اتفاقاً دينياً بعد عهد علي. فما هي جامعة قوم مختلفين منذ ثلاثة عشر قرناً اختلافاً سياسياً واختلافاً دينياً ، يقتل بعضهم بعضاً ، ويستعين بعضهم على بعض بأهل الملل المخالفة من الأساس ؟ ما هي جامعة قوم لم يخل يوم من أيامهم من قتال فئة منهم فئةً أخرى منذ مقتل خليفتهم الثاني إلى يومنا هذا ؟ . . ما هي جامعة قوم يُسَرّ ملوكُهم المختلفون بذهاب ممالك ملوك آخرين منهم ؟ . . ما هي جامعة قوم حدثنا التاريخ من حديثهم أن أجنبياً شرقياً « هولاكو » اكتسح بلادهم وهم في عزّهم ، فلم تتَضَامّ أيديهم على مقاتلته ، وكانت لا تزال قوية على قتال بعضها بعضاً ؟ . . وحدثنا التاريخ من حديثهم أن أجنبياً غربياً « الصليبيين » هاجم بلادهم ، فلم يجتمعوا كلهم على طرده ، حتى حركت الهمة طائفة منهم قَوِيَت وحدها على صده ؟ »

* * *

كان حديث مصطفى كامل عاطفياً مثيراً . وكان حديث هؤلاء هادئاً عاقلا . فهم ينزعون عن الوطن صفة القداسة التي يحاول مصطفى كامل أن يغرسها في قلوب الناشئة والمواطنين . هم ينزعون عن المواطنين صفة الأخوة في الدم أو الدين ، وينظرون إلى الوطن نظرة مادية خالصة . فالمواطنون مجموعة من الناس جمعتهم هذه السوق التي تسمى « وطناً »،وعليهم أن يحرصوا على أن تظل هذه السوق قائمة لا تركد ولا تكسد ، وعليهم أن يتجنبوا النزاع العنيف ، حتى لا يفزعوا البائع والمشتري على السواء ، فتقف سوقهم ، وتبور تجارتهم ، ويقل ربحهم .

فدعوة الحزب الوطني تستمد قوتها من الاندفاع العاطفي الذي تولده في النفس فيحفز صاحبه إلى الثورة من ناحية ، ومن ارتباطها بالدين الذي يدعو

المؤمنين إلى كفاح يفوزون فيه بإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، من ناحية أخرى .

أما دعوة حزب الأمة فهي لا تقيم وزناً للعاطفة ولا تخاطب ضمائر المتدينين ، بل لا يبدو أن المتكلمين باسمها يصدرون عن إيمان مستقر في ضمائرهم يدعوهم إلى تدبر عاقبة أمرهم فيما وراء الموت، بحيث يكون ذلك موجهاً لسلوكهم أو مؤثراً في تفكيرهم. فهم يدعون إلى توفير أسباب المتعة في هذه الحياة الدنيا . ومن كان هذا مذهبه كان خليقاً أن يتسم بالهدوء الذي يعتبر تعريض النفس للهلاك ضرباً من الحماقة .

فالوطنية بالمعنى الذي يدعو إليه كتاب حزب الأمة ومفكروه واضحة التأثر بمذهب التحرر Liberalism من ناحية ، وبالمادية Materialism من ناحية أخرى . وكلا المذهبين كان له دعاة أقوياء من المتفرنجين ، يروجون له في العالم الإسلامي .

فكتّاب حزب الأمة ومفكروه يحصرون جهودهم ومساعيهم فيما يحقق للناس وسائل المتع الجسدية . ولا تستهدف حضارتهم الفكرية إلا توفير هذه المتع . وهم إن اعترفوا ببعض القوانين الأخلاقية لا يعترفون بها إلا باعتبارها لازمة لتنظيم توزيع هذه المتع بين الناس في هذه الحياة الدنيا .

* * *

كان المقطم والجريدة يشتركان في مبدأين أساسيين ، أولهما مهادنة الاستعمار والاقتصار على المطالبة بالتدرج في الإصلاح . وثانيهما محاربة فكرة الجامعة الإسلامية والدعوة إلى الانفصال التام عن تركيا ، وإنشاء دولة مصرية موالية للإنجليز . واشتراكهما في هذين المبدأين قد دعا إلى الخلط بينهما عند أوليائهما وأعدائهما على السواء . فقد توهمت صحيفة «المقطم» أن «الجريدة» تتفق معها في المبادىء ، فدعتها إلى الاتحاد معها بانضمام حزب الأمة إلى الحزب الوطني الحر . وردت «الجريدة» على هذه الدعوة بمقال عنوانه «تعالوا نتفق أو

مختلف » (١) عرضت فيه مبادىء صحيفتي « اللواء » و « المقطم » ثم قالت رداً على « المقطم » :

« . . وأما المقطم فإنه يتحيز إلى سلطة قصر الدوبارة ، ويزين أعمال المحتلين ولو كان ملؤها الخطل ، ويقول بالرضى عن الاحتلال . أما الجريدة فإنها لا تقول بالرضى عن الاحتلال مطلقاً . وإنها لاتناقش الآن في أصل الاحتلال لأن الوقت لم يحن بعد . ولا تتحيز لجهة ، لأنها تنقد أعمال الحكومة والمحتلين بالحرية الكاملة ، وتبين صالحها من طالحها ، وتقول الحق في الحالتين من غير محاباة . وبهذا لا يمكن أن تكون الجريدة والمقطم متفقي المذهب . نعم إنا نشكره على أنه شرفنا باعتبار خطتنا خطته ومطالبنا مطالبه أو مطالب حزبه ، كما أسدى لنا العُرْف في تنبيه حزبنا بلطف إلى أن ينضم لحزبه حتى لا تتفرق الأحزاب . ولكنا نأسف أنه لا يمكننا أن نوفق بين روحَيْ الخطتين ، كما لا يمكننا أن نعد الجريدتين متفقتين في شيء من مذهبهما . »

وكان الحزب الوطني يختلف عن حزب الأمة في مبدأين أساسيين : أولهما هو عنفه في مهاجمة الاستعمار وتكريسه حياته لغرس بغضه وكراهيته في في نفوس المصريين ، وثانيهما هو إقامة دعوته الجديدة إلى الوطنية وإلى القومية المصرية على أساس من الدين ومن الدعوة إلى التضامن بين الأمم الإسلامية ، والتمسك بمعاهدة سنة ١٨٤٠ ، التي تمنح مصر استقلالا داخلياً وتعترف بالسيادة التركيـــة .

أما المبدأ الأول فهو الذي دعا خصوم مصطفى كامل إلى وصفه بأنه متطرف أو مجنون . وأما المبدأ الثاني فقد كان داعياً إلى اتهامه بأنه يعمل لاستبدال الاستعمار التركي بالاستعمار الإنجليزي . ولذلك كان همّ « المقطم » أن يوازن بين ظلم الترك وعدل الإنجليز . وقد ظل مصطفى كامل ينفي عن نفسه هذه التهمة طول حياته السياسية ويوضح وجهة نظره بأنه إنما يتمسك بالسيادة التركية ، لأنه إن جحدها فقد جحد معاهدة سنة ١٨٤٠ ، وهي حجته الوحيدة

١ – الجريدة ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠٧

في عدم شرعية الاحتلال . على أن السيادة التركية لم تكن إلا سيادة اسمية . ينحصر مظهرها في أداء الخراج للحكومة المركزية في مقر الخلافة بالآستانة ، وفي تعيين قاضي القضاة التركي . فهو يطلب لمصر الاستقلال . وهو إن أخلص الود لأمة أو لدولة فإنما يجري على السياسة التي تجري عليها كل الدول ، القاضية بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون . ودافع عن دعوته إلى الجامعة الإسلامية والربط بين الوطنية والإسلام بأن الدين والوطنية توأمان لا يفترقان ، وبأن من الخطأ أن يتصور إنسان أنه لا يكون وطنياً إلا إذا تخلى عن الدين ، متسائلا: « لماذا يكون الإنجليزي وطنياً وبروتستنتياً في آن واحد ، ولا يكون المصري المسلم وطنياً ومسلماً ؟ »

كان الداعون إلى الجامعة المصرية إذن قسمين : قسماً يدعو إليها وإلى الجامعة الإسلامية في آن واحد ، ولا يرى تعارضاً بينهما ، فاهتمام الفرد بمصالح أخيه وابن عمه لا يعني تفريطه في مصالحه [1]. وقسماً ينكر الجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية ويهاجمهما في عنف ، ويقيم الجامعة القومية على أساس من المصلحة المشتركة وحدها . وهؤلاء يعنون بالمصريين القاطنين في مصر، كما يقول «المقطم» في مقال له عن «الجنسية المصرية » [2] وكما يقول لطفي السيد في مقال له عن « الجامعة المصرية » [3]

وقد كان هذا الفريق الأخير موضع رضا الاحتلال وتأييده . فقد كان الاحتلال يتحدث عن الوطنية بهذا المعنى . ومن ذلك ما جاء في خطبة اللورد كرومر في حفلة توديع إلدون غورست سنة ١٩٠٤ ، حين قال مثنياً عليه : « إن السير إلدون غورست من الفئة الصغرى من أولئك الأوروبيين الذين

---

١ – راجع مجموعة مقالات مصطفى كامل وخطبه في سنة ١٩٠٦ « دفاع المصري عن بلاده – مصطفى كامل باشا والإنجليز » وخصوصاً مقاله « وطنية وجامعة إسلامية– مصر للمصريين » الذي نشرته الطان الباريسية في ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ (ص ٦٦ – ٨٠ من هذه المجموعة)

٢ – افتتاحية المقطم ٢٩ أبريل سنة ١٩٠٧

٣ – الجريدة ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٩ (المنتخبات ١ : ١٧٠)

قضوا الأعوام والسنين وهم ينفــذون السياسة التي شعار أهلها « مصر للمصريين » [1] . ولكن اللورد كرومر لم يكن يعنى بالمصريين إلا القاطنين في مصر . وقد وضح ما يعني بسياسة « مصر للمصريين » بقوله : « وهذه السياسة ليس مضمونها أن حكام مصر لا يكونون إلا من المصريين الوطنيين، بل مضمونها أن المحك الذي تحك به كل مسألة مصرية للكشف عن جوهرها ومعرفة كنهها ، هي البحث والاستعلام لمعرفة قدر ما فيها من الموافقة لمصالح السكان في مصر على اختلاف أجناسهم وأديانهم ونحلهم ومللهم » . وهو كما ترى كلام يقرب جداً مما يدعو إليه « المقطم » و « الجريدة »، فالوطنية عنده هي المصالح .

كان من أهداف الإنجليز وقتذاك إضعاف النفوذ التركي وإذبال شوكة العصبية الدينية ، التي كانوا يتصورون أنها أكبر العقبات التي تقف في طريقهم ، والتي تحول دون اطمئنان الشعب إليهم وتغلغلهم فيه وإنشاء صلة مطمئنة مستقرة بينهم وبينه . ومن الأمثلة على ذلك أن الإنجليز حين أعادوا في مصر تجربتهم التي نجحت في الهند، وهي نشر اللغة الإنجليزية حتى تكون لغة تخاطب، ففرضوا التدريس بها، لم يقف في طريقهم إلا الإسلام الذي يقدس اللغة العربية ، في حين أن الطريق كان ممهداً في الهند التي لم يكن لها لغة مقدسة[2]. كانت دعوة العقلاء من المنادين بالجامعة المصرية إذن تتفق مع مصالح الإنجليز الذين كانوا يحتضنون كل مناهض للسلطان التركي ، خليفة المسلمين ، وكل معارض للخديوي الذي يستمد وجوده الشرعي من ذلك السلطان ، وكل داع إلى الإصلاح الداخلي . كان الإنجليز يحتضنون مثل هذه الآراء لأنهم يريدون أن يضعفوا أثر العصبية الإسلامية في مستعمراتهم من ناحية ، ولأنهم

---

١ – المقتطف سنة ١٩٠٤ ص ٤٥٣ . وراجع كذلك ص ٧ من الفقرة ٣ من تقرير كرومر السنوي عن سنة ١٩٠٦، وهي الفقرة التي جاءت تحت عنوان Egyptian Nationalism

٢ – راجع تقرير أحمد شفيق عن حالة التعليم في مصر سنة ١٨٩٣ في كتابه : مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٨٨ – ٩١

من ناحية أخرى يريدون أن يشغلوا الناس عن التفكير في المسألة الأساسية التي كان ينادي بها الحزب الذي يتزعمه مصطفى كامل ، وهي الجلاء .

كانوا يحتضنون الدعوة إلى الخلافة العربية التي يتزعمها شريف مكة الهاشمي[١] وقد اتهم محمد فريد الخديوي عباسا في مقالات نشرت بجريدة السيكل الفرنسية سنة ١٩١٢ بالتآمر على الخلافة العثمانية والطمع في أن يكون خليفة للمسلمين تحت الحماية البريطانية[٢] . وكانت صحيفتا الاستعمار « المقطم » و « المقتطف » تهاجمان الخديوي والدولة العثمانية [٣] ، وتشجعان الثوار والمطالبين بالإصلاح في تركيا على نشر المقالات العنيفة في مهاجمتها والتشهير بها ونبش سيئاتها وبيان انحلالها وفساد الحكم فيها [٤].وقد أيد كرومر أعضاء حزب « تركيا الفتاة » من الاتحاديين الذين لجأوا إلى مصر وأصدروا فيها صحفاً تهاجم السلطان عبد الحميد ، وتدخل لحمايتهم حين طلب السلطان من الخديوي عباس تسليمهم ،فمنع ذلك [٥] . كما تدخل لحمايتهم حين ضُبِطت المطبعة السرية التي تطبع فيها منشوراتهم ، فأمر بكسر الأختام وأخذ ما فيها من أوراق ، منتهكاً بذلك حرمة القضاء ، معتدياً على سلطته [٦] . بل لقد تدخل الإنجليز لحماية رجال هذا الحزب المناوىء للسلطان، ضدّ الخديوي عباس نفسه،

---

١ – المرجع نفسه ٣ : ٦٥ وسنعود إلى مناقشة هذه المسألة في شيء من التوسع في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

٢ – المرجع نفسه ٢ ب : ٢٦٩

٣ – تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٨٣ ، ٩١١ والأمثلة كثيرة على ذلك في الصحيفتين المذكورتين لا نحتاج للإشارة إليها .

٤ – راجع المقالات التي نشرها ولي الدين يكن في المقطم،ثم جمعها في كتاب « الصحائف السود » ص ٥٧ ، ٧٢ ، ٨٦ .

وكان ولي الدين يكن أحد أعضاء « تركيا الفتاة » المناوئة للسلطان عبد الحميد . وكان هذا سبب ولائه للانجليز . .

٥ – مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢٣٣

٦ – المرجع نفسه ٢ : ٣٩٤ – ٣٩٥

حين بدا له في بعض فترات حياته أن يجامل السلطان ويتقرب إليه باضطهادهم[1]. وكان ساسة الإنجليز يحاولون دائماً صرف الخديوي عن زيارة الآستانة[2]. كما حاولوا قطع هذه الصلات باستبدال قاض مصري من علماء الأزهر بقاضي القضاة التركي الذي كانت تعينه الآستانة من بين علماء الترك[3]. وكان الإنجليز يعارضون اكتتاب المصريين للمعاونة في حروب تركيا، في الوقت الذي يؤيدون فيه الدعوة إلى الاكتتاب في حرب السودان وفي المشروعات الخيرية[4].

ومن الأمثلة الحية على ما كان يبذل الإنجليز من جهد في سبيل محو اسم تركيا من أذهان المصريين ما يروي الكاشف عن نفسه في مقدمة الجزء الأول من ديوانه، حين تقدم لامتحان الشهادة الابتدائية، فألقى رئيس الامتحان على الطلبة هذا السؤال: «اذكروا دول أوروبا العظمى وعواصمها وثغورها ومستعمراتها، وإن زاد أحدكم دولة أخرى سقط وضاع». وكان واضحاً أن المقصود بالفقرة الأخيرة هو أن لا تدخل تركيا بين دول أوروبا العظمى المقصودة بالسؤال. ولكن هذا التحذير لم يمنع الكاشف من إدخال تركيا بين الدول العظمى، فكان جزاؤه أن رسب في الامتحان. وقد شكا وزارة المعارف وقتذاك وهاجمها في جريدة المؤيد فلم يجده ذلك نفعاً.

أما تأييد الإنجليز للمعارضين للخديوي فالأمثلة عليه كثيرة. منها تأييدهم لمحمد عبده الذي وصفه كرومر بأنه كان – لبغض عباس له – لا يستطيع أن يباشر سلطاته بوصفه مفتياً إلا بتأييده[5]. وتأييدهم كذلك لأصدقائه أمثال مصطفى فهمي ورياض

---

١ – المرجع نفسه ٢ : ٣٦٨

٢ – المرجع نفسه ٢ : ١٤١

٣ – تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٧٦، ٥٧٧، ٨٣٤ . وقد أعادوا ذلك وكروره بعد ذلك في السودان، توسلا إلى قطع العلاقات بينه وبين مصر .

٤ – المرجع نفسه ١ : ٨٣٣، مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢٤٣ «في حرب اليونان» و ٢ ب : ٢٦٦ «في حرب طرابلس» .

٥ – راجع الفقرة ٧ من تقرير كرومر سنة ١٩٠٥ تحت عنوان **Sheikh Mohamed Abdou** وراجع كذلك **Modern Egypt** ٢ : ١٧٩ – ١٨١ .

وسعد زغلول وفتحي زغلول وقاسم أمين ، لأنهم كانوا يهاجمون الخديوي ، ولأنهم كانوا يدعون إلى إصلاح داخلي في حدود ضيقة لا تتعارض مع مصالح الإنجليز ، بل إنها تؤيد دعواهم فيما يزعمون من أنهم يعملون لخير المصريين ، ويناصرون كل صاحب حق وكل مصلح مخلص [1] . ومنها تعضيد كرومر لحزب الأمة عند إنشائه سنة ١٩٠٧ ، لما كان يتوسم فيه من مناهضة الخديوي عباس — وكان كثير من رجاله البارزين أصدقاء لمحمد عبده [2] . ومنها تدخل كرومر لحماية السيد محمد توفيق البكري حين قدم للمحاكمة سنة ١٨٩٧ بتهمة العيب في الخديوي [3] .

* * *

كان للإنجليز من وراء كل ذلك هدف واحد ، هو إضعاف العصبية الدينية وتقطيع أوصال المسلمين في مستعمراتهم حتى يستطيعوا أن يواجهوهم واحداً واحداً . فالمصريون أحفاد الفراعنة ، واللبنانيون أحفاد الفينيقيين ، والعراقيون أحفاد البابليين والآشوريين ، والحجازيون أحفاد العرب الأمجاد وأحق الناس بالقيام على خلافة الإسلام الذي نبع من أرضهم المقدسة . وكانت العثمانية قوة روحية عظيمة . مع كل ما ابتليت به من انحلال ومن فساد . فقد كانت قادرة على جمع كلمة هذه الشعوب باسم الدين ضد بريطانيا وضد الدول الاستعمارية .

وكان كرومر يدرك ما تنطوي عليه تعاليم الإسلام من الحث على الجهاد، وإعلاء مرتبة المجاهدين في سبيل الله ، والحط من شأن القاعدين عن القتال ،

---

١ – تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥١٦ ، ٥٩١ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٧٩ و ٢ ب : ٣٩ ، ١١٢ – ١١٣ ، Modern Egypt ٢ : ١٧٩ وهامش ١٨٠ ، ١٨١

٢ – مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٢٩ ، ١٤٣ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩١ وتراجع كذلك الفقرة ٣ ص ٨ من تقرير كرومر السنوي عن سنة ١٩٠٦ تحت عنوان : « Egyptian Nationalism »

٣ – مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢٤٨

والدعوة إلى الأخذ بأسباب القوة . حتى لقد وصف المسلمين بأنهم من أنصاف الهمج المحبين للحروب ، الذين لا تتسع صدورهم لأي تسامح . ووصف الإسلام بأنه قد جعل فكرة الانتقام والبغض أساساً لعلاقة الإنسان بالإنسان ؛ مستشهداً على ذلك بدعاء خطباء المساجد في ظهر كل جمعة على الكفار بخراب الديار ، وبالآية : « فإذا لقيتُم الذينَ كَفَروا فضَرْبَ الرقاب . حتى إذا أثخَنْتُمُوهُم فشُدُّوا الوَثاقَ ، فإمّا مَنّاً بَعْدُ وإما فِداءً حتى تَضَعَ الحربُ أوزارَها . ذلكَ ولو يشاءُ اللهُ لانتصَرَ منْهم . ولكن لِيَبْلُوَ بعضَكُمْ بِبَعْض . والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالَهم . سيَهْديهم ويُصلِحُ بالَهم ، ويُدخِلُهم الجنّةَ عرّفَها لهم . يا أيها الذين آمنوا إنْ تَنْصُروا اللهَ يَنصُرْكُم ويُثَبِّتْ أقدامَكم »[1] .

لذلك عمل الإنجليز على إخماد جذوة العاطفة الدينية الإسلامية ، حين أيقنوا أنها مصدر خطر محقق ، وأنها المعين الذي لا ينضب ، الفياض ببغضهم والدعوة إلى قتالهم . وظلوا يتهمون المصريين بالتعصب الديني ، ويكررون هذه التهمة في كل مناسبة ، وفي غير مناسبة ، حتى توهم المصريون أن التعلق بالدين عيب ذميم يجب أن يبرأوا منه . وظلت صحفهم وكتابهم يتحدثون عن التسامح وعن الإنسانية ، حتى توهم بعض السذج أن من سمو الخلق وسعة الأفق ورحابة الصدر أن تحب الناس جميعاً ، حتى المعتدين منهم ، وحتى المغتصبين الذين يحتلون ديارهم بغير حق . ولم يزالوا يحدثون المصريين عن المصلحة ليتزلوا بالوطنية عن مرتبة العقيدة إلى درجة مادية تزيل عنها كل قداسة ، وتجعلها سعياً وراء القوت ، ومحاولة لتحسين الحال .

وكان عباس — على كل ما فيه من عيوب — قوة لا يستهان بها ، وقد وصفه كرومر بأنه قد أثبت على توالي الأيام — رغم ما آل إليه من فساد —

---

١ — Modern Egypt ٢ : ١٣٧ — ١٤٠ وقد أورد كرومر ترجمة الآيات في سورة « محمد » من ٤ إلى ١٢ بعد أن أسقط بعضها .

٢ — Modern Egypt ٢ : ١٩٣

قدرته على جمع الشعب المصري وتكتله . فعمل على إذلاله وإسقاط هيبته وتصويره في صورة العاجز الذي لا يملك من الأمر شيئاً . وأوجد من المصريين من ينبش عيوبه وينشر سيئاته ، بعد أن أملى له فيها وأرخى له العنان ليتورط في المزيد منها .

كانت سياسة الإنجليز تدور حول خطتهم السياسية المشهورة « فَرِّقْ تَسُدْ » . « Devide in order to conquer » .

* * *

كان هذا الاتجاه الأخير الذي يمثله حزب الأمة ضعيف الأثر في الشعر . فلا نكاد نجد بين المقدَّمين من الشعراء المعاصرين من شايعه غير « نسيم » و « يكن ».وقد كان كل منهما مشايعاً للإنجليز ولممثلهم في مصر «كرومر» ، يتغنى بعدله وإصلاحه، ويهاجم الخديوي عباسا ، ويسفه مبادىء الحزب الوطني التي يدعو أصحابها إلى الفتنة حسب زعمهما . وذلك نفسه هو ما كان يزعمه « كرومر » وصحيفته « المقطم » . أما نسيم فقد شايع الإنجليز رغبة في مالهم ، ولم يعدل عن مذهبه هذا إلا بعد أن رحل كرومر عن مصر وأصدر كتابه المشهور عن مصر الحديثة فهاجمه نسيم حميّة لدينه كما يقول . وأما ولي الدين الدين يكن فقد ألجأه إلى الإنجليز بغضُه الشديد للسلطان عبد الحميد ، وحمايةُ كرومر له مع من حماهم من أعضاء حزب « تركيا الفتاة » الفارين من عبد الحميد إلى مصر . هذا إلى أنه أحد أعضاء حزب الاتحاد الذي كان يضم متفرنجي الترك ، والذي كان واقعاً تحت سيطرة اليهودية العالمية عن طريق الماسون و « الدونمة » من يهود سلانيك المتسترين بالإسلام والمتظاهرين باعتناقه .

وليس بمستغرب أن يكون أثر هذا الاتجاه العقلي ــ أو المادي النفعي إن شئت ــ ضعيفاً في الشعر . فالشعر تعبير عن عاطفة . وقلما يتخذ وسيلة للتعبير عن التفكير المنطقي الذي يجد النثر أكثر مطاوعة وملاءمة . هذا إلى أن أسلوب

مصطفى كامل في الدعوة الوطنية كان أكثر موافقة لطبائع الشعراء والجماهير الذين كانت كثرتهم وقتذاك من أنصار الجامعة الإسلامية .

ولا نريد في هذا المقام أن نطيل في الاستشهاد بشعر نسيم ويكن ، لأننا سنعود إليهما عند الكلام عن التيارات السياسية في الفصل الرابع من هذا الكتاب . ولذلك فنحن نكتفي بتقديم مثالين من شعر نسيم ومثال ثالث من شعر يَكَنْ .

يتغنى نسيم في قصيدته « نور العدل » بعدالة الإنجليز ، وينسب إليهم الفضل في إنقاذ مصر من ظلم الترك ، ثم يهاجم المهيجين من رجال الحزب الوطني فيقول : (١)

وما غرّ قومَ الغرب إلا صحائف ... لها الغَيّ والبُهتان دينٌ ومذهب
أبرىء منها بعضها غير جاهلٍ ... ففيها - ولم أكذب - خبيث وطيب
وشيخ مُسنٌّ رامَ إشعالَ ثورة ... يخوض لَظَاها والأسنّةُ مَرْكبُ(٢)
وكيف يقود الآمنين لفتنة ... لها وجه مصرٍ يكفهر ويقطب
صغائر فيها للغبيّ دعابة ... يُسَرّ بها من شاء يلهو ويلعب
ولو كان يدري ما عواقب أمرها ... لبات حسير الطرف يبكي ويندب
بني مصر ! ! إياكم وكيد عدوها ... فما هو إلا الأرْقَم المتقلّب
خذوا مصر من أيدي العدو لترتقي ... ويعنو لها بالعلم شرق ومغرِب
فلو حلها أهل الفساد لأصبحت ... بلاداً يُعفّيها الفسادُ فتخرب

---

١ – الديوان ١ : ٦

٢ – لعل المقصود بهذا الشيخ المسن هو السيد حسن موسى العقاد الذي كان من أعيان القاهرة ، والذي ناصر الثورة العرابية منذ بدايتها وحكم عليه بالنفي إلى «مصوع» عشرين سنة . وقد عاد بعد الإفراج عنه إلى الاشتغال بالسياسة ومناصرة القضية الوطنية . وقد نشرت صحيفة « مصر » القبطية في عدد يوليو سنة ١٩١٠ مقالا في مهاجمته عنوانه (اقرأ وتعجب . أهكذا تكون الوطنية ؟ قلب الحركة الوطنية إلى دينية واتهام هذا الزعيم في مذبحةالاسكندرية) . والمقال يهاجم العقاد ويتهمه بتحبيذ مبادىء الحزب الوطني الذي هو في نظر الصحيفة امتداد للثورة العرابية – يراجع نص محضر استجواب حسن موسى العقاد في « مصر للمصريين ج ٧ ص ١٧٩ – ٢٠٠)

وتمسي كما كانت ربوعاً هضيمة ... عليها وفيها أبْقَعُ اللون يَنْعب[1]
هنالك نحْسُوَ اُلمرّ من كفّ ظالم ... يدور بكاسات الهوان فنشرب
وفيما مضى من غابر الظلم عبرة ... لقوم أذلّتهم عُصور وأحقُب
نكالٌ وجَوْرٌ وانتقام وسخرة ... وهضم حقوق من يد الشعب تغصب[2]

ويختم القصيدة بقوله :

أُحِبّ لقومي كل خير ونعمة ... وأرجو لهم أسمَى الذي يُتَطلّب
فإن عشقوا هجوي عشقت مديحهم ... ورحت ولي آيٌ من الحمد تُكتَب
ومن يجفني منهم جزيتُ جفاءه ... بود وهَمّي قُربُه لا التجنّبُ
على كل حالٍ أحسَنَ اللهُ حالهَم ... وجاد مغانيهم من الخير صيّب
إذا قيل لي مَن أنت؟ قلتُ أخو نُهىً[3] ... إلى النيل يعزى أو إلى مصر ينسب

ويبدأ الشاعر قصيدته « اختلاف الأحزاب »[4] بمهاجمة من يسميهم « المغالين » من رجال الحزب الوطني فيقول :

لا توقدوا جمرات البغض إيقادا ... من الهموم بنا ما جلّ تعدادا
حِزْبَ المغالين إن الدارَ آمنة ... فلا تثيروا بها للشر أحقــادا
هذي هي الدارُ دار الأمن زاهرةٌ ... تجني من العدل نَعْماءً وإسعادا

ثم يعرض أسباب تفوق الغربيين فيقول :

هم معشر أبدعوا في سيرهم طرقاً ... للمجد صاروا بها غُرّاً وأمجادا

---

١ — أبقع اللون : الغراب ، يقصد به الذين يدعون إلى الثورة . نعب الغراب : صاح .
٢ — يشير إلى حال مصر قبل الاحتلال الذي رفع هذه المظالم حسب زعمه .
٣ — النهى : جمع نهية « بضم النون » وهي العقل . أخو نهى : أي عاقل . وكذلك كانت هذه الطائفة تسمي نفسها . وكذلك كان يسميهم خصومهم متهكمين « العقلاء »
٤ — الديوان ١ : ٨٥

شقوا البحار وخاضوها على سفن تـُزْجَى كما حاولوا في الجو إصعادا
جابوا الفيافيَ حتى ملّهم قتَب من كل جائلة تجتاب أنجادا
هبُّوا إلى العلم والدنيا تراودهم عنها ! وما أخلفوا للدأب ميعادا
إن صوب الدهر فيهم سهم كارثةٍ كانوا على الدهر أجبالا وأطوادا
أو قيل سيروا فما في الجدّ من وصب ساروا ،ولو أجهدوا ، للقطب إجهادا
حتى إذا بلغوا القطبين ما وقفوا ولا أبى عزمهم في السعي إسآدا
ولا رأيتَ سوى ماض يشقهما حتى يجوب جميع الأرض مرتادا
هم معشر رغبوا في الدأب عن كسل وفككوا فيه أغلالا وأصفادا

ثم يتجه إلى بني وطنه في آخر القصيدة بالنصح طالباً إليهم أن يحتذوا بالغرب ويتجنبوا الخلاف . وهو يقصد بتجنب الخلاف أن يكف المهيجون عن التهييج ، وينصرفوا عن مخاصمة الإنجليز إلى التعاون مع الذين يعملون للإصلاح فيقول :

هذي فضائلهم ياقوم فانتجعوا مناهل المجد إصداراً وإيرادا
خير النصيحة أسديها إلى وطني لعلني مرشدٌ من رامَ إرشادا
كونوا أحبّاء خيراً من تنافركم ولا تكونوا عبادَ الله أضدادا

ويقول ولي الدين يكن من قصيدة استقبل بها الخديوي عباسا عند عودته من إحدى رحلاته إلى أوروبا سنة ١٩١٢ ، معرِّضاً برجال الحزب الوطني الذين كانوا يخاصمون عباساً وقتذاك (١) ، مؤيداً مذهب الذين ينادون بأن ينصرف الناس إلى نشر التعليم وتنمية الثروة (٢) .

---

١ – كان الحزب الوطني يخاصم عباساً وقتذاك لميله إلى مهادنة الانجليز أو إلى سياسة الوفاق كما كانوا يسمونها . وقد انتهى عهد الوفاق بين عباس والانجليز بوفاة إلدون غورست في ١٢ يوليو سنة ١٩١١ ،وتعيين خلف عنيف له جمع في يده السلطة كلها ،وهو اللورد كتشنر ، الذي وصل إلى مصر على بارجة حربية بريطانية في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١١ .

٢ – الديوان ص ٧٨

تَسَامَ بمصرٍ ربَّ مصْرٍ إلى العُلا وإن وقفتْ في سيرها فتقَدّمِ
أحاطتْ بآمالٍ لــديكَ فَتيّــةٍ فإن تَنتهزْها مصرُ بالرأي تَغْنَمِ
وما مصرُ إلّا دولةٌ في شبابهــاً فإن تبتــذلْه في الغوَايَة تَهرمِ
وإن لم تفِق في نومها يبْقَ نومُها وإن لم تُكرِّم نفسَها لا تــكرَّمِ
وإن لم يقوّمْها إذا اعوَجّ عودُها فتى صادقٌ في نُصحــه لم تقوَّمِ
وإن لم يُنزِّهْــا بالمعــارف أهلُها إذا حلكت فيها الجهالة تُظلِمِ
وإن لم يُفيدوها الثراء بجِــدّهمْ وإن كثُرتْ فيها النفائس تُعْـدَمِ
وعُصبَةُ شرّ قد أتت بعدَ مثْلِها كذلك يأتي أشــأمٌ بعد أشأمِ
تشاهد أفراحَ البــلاد عميقَــةً فتغدو لأفراح البــلاد بمــأتمِ
وإن تَبْتسم مصر تبَكّى من الأسى وإن تبكِ مصر من أسىً تتبسّمِ
فويل لزُورٍ عنــدها متكشّف وويلٌ لحقّ عنــدها متلثمِ
لحَا الله هاتيكَ النفوسَ فإنهــاً وإن تتجبّر عُرْضةُ المتهضِّمِ
فمــا بينهــا من ناظر متأمِّل ولا بينهــا من سامع متفهِّمِ

* * *

وصاحَبَ هذه الحركة التي تستهدف الجامعة المصرية اتجاهٌ قوي خصب نحو استخراج صور البطولة من تاريخ مصر القديم ، وبعث الشعور بالعزة ، بإحياء المجد الفرعوني ، بينما صاحَب الحركة الأولى التي تدعو إلى الجامعة الإسلامية بعث التاريخ الإسلامي وعرض صور من بطولات العرب وأمجادهم . وجمع كثير من الشعراء بين الاتجاهين ، بمثل ما ألف الحزب الوطني بين النزعتين ولم ير فيهما تعارضاً . وكان هذا الأدب المعتمد على التاريخ ـ شعرُه ونثره ـ من أقوى الأدوات في استنهاض الهمم ، وبعث الأمل ، ومحاربة اليأس ، ورد الثقة إلى نفوس تمكن منها سوء الظن بنفسها حتى قتل فيها روح الأمل والطموح .

وبدت طلائع هذا الاتجاه في شعر البارودي الذي يقول : (١)

١ ـ الديوان ١ : ١٤٩

سل الجيزة الفيحاء عن هَرَمَيْ مصر — لعلكَ تَدري غَيْبَ مالم تكن تدري
بناءان رَدا صَوْلَةَ الدَّهرِ عنهما — ومن عجبٍ أن يَغْلبا صَوْلة الدهر!
أقاما على رغم الخطوب ليشهدا — لِبانيهما بين البَرِيَّةِ بالفخْرِ
فكم أمَمٍ في الدهر بادت وأعصُرٍ — خلت ، وهما أعجوبة العين والفكر
تلوح لآثار العقول عليهمـــا — أساطيرُ لا تنفكَ تُتْلَى إلى الحَشْرِ

ثم جاء شوقي من بعده فتوسع في هذا الاتجاه الجديد حتى أصبح شاعره الفذ ، فحق له أن يقول في القصيدة التي وجهها إلى روزفلت عقب زيارته لمصر سنة ١٩١٠ [١] :

وأنا المحْتَفِي بتـــاريخ مِصْرٍ — مَن يَصُنْ مَجْدَ قومِهِ صانَ عِرْضا

وأن يقول بعد ذلك في قصيدته في تو ت عنخ آمون سنة ١٩٢٤ : [٢]

هـــذا المقَـــامُ عرفتُهُ — وسبقتُ فيـــه القائلين
ووقفتُ في آثـــاركم — أزِنُ الجـــلالَ وأستبين
وبَنيْتُ في العشرين من — أحجـــارها شعري الرصين
كنتم خيـــالَ المجد يُرْ — فَـــعُ للشباب الطـــامحين

وشوقي هو صاحب الهمزية الطويلة المشهورة التي تبلغ مائتين وسبعة وستين بيتـــاً : [٣]

همّت الفُلْك واحتواها الماء — وحدَاها بمن تُقِـــلُّ الرجاء

وقد ألقاها في مؤتمر المستشرقين سنة١٨٩٤ ، وسنه لم تتجاوز السادسة والعشرين . وعرض فيها تاريخ مصر منذ أقدم العصور . يقول فيها مستنهضاً همم الشباب :

---

١ – الديوان ٢ : ٦٦
٢ – الديوان ٢ : ١١٠٦
٣ – الديوان ١ : ١

وانتهتْ إمْرَةُ البحار إلى الشّر ... ق وقام الوجودُ فيما يشاءُ
وبنينا فلم نُخلِّ لبـــان ... وعَلَوْنا فلم يَجُزْنا عَلاءُ
وملكنـــا فالمـــالكون عبيـــد ... والبرايـــا بأسْرِهِمْ أُسَرَاءُ
قُلْ لبانٍ بَنَى فشاد فغَالَى ... لم يجُزْ مصرَ في الزمان بنَـــاءُ

فإذا وصل إلى غزو الرعاة لمصر عام١٦٧٥ قبل الميلاد ، توقف قليلا ليصور تجبّر المحتل واستذلاله أهل البلاد ، وتقريبه طائفة من المنافقين الذين يؤثرون النفع القريب ، يغدق عليهم خيره ويغمرهم بنعمه . ثم يحذر المحتلين من عاقبة الجور ومن ثورة الضعيف :

وإذا مصرُ شاةُ خيرٍ لراعي السو ... ءِ تُؤْذَى في نسلها وتُساء
قد أذل الرجالَ فهي عبيـــد ... ونفوسَ الرجالِ فهي إماء
فإذا شاء فالرقاب فـــداه ... ويسيرٌ إذا أراد الـــدماء
ولِقَوْمٍ نَوالُـــه ورضاه ... ولأقوامٍ القِلَى والجفـــاء
ففريقٌ مُمَتّـــعونَ بمصْرٍ ... وفريق في أرضهم غُرَبـــاء
إن ملكتَ النفوس فابغ رضاها ... فلها ثورة وفيهـــا مَضَاء
يسكن الوحشُ للوثوب من الأسْ ... رِ ،فكيف الخلائقُ العُقَلاءُ ؟!
يحسب الظالمونَ أنْ سيَسُودو ... نَ وأنْ لنْ يؤيَّدَ الضعفَاء
والليـــالي جوائر مثلما جـــا ... روا ، وللدهر مثلهم أهواء

وإذا بلغ غزو قمبيز ملك الفرس لمصرسنة ٥٢٥ ق . م ، وأسْرَه ملكهـــا أبسمتيك آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين بعد أن انهزمت جيوشه ، لم يفته الوقوف ليصور موقف فرعون الأسير وابنتِه في إبائهما العَصِيِّ وكبريائهما المترفّع ، إذ يقول :

جيءَ بالمـــالكِ العزيزِ ذليـــلا ... لم تزلزِلْ فؤادَه البأســـاءُ
يُبْصِرُ الآلَ إذْ يُراحُ بهم في ... موقف الذل عَنوةً وَيُجاءُ
بنتُ فرعونَ في السلاسل تمشي ... أزعجَ الدهرَ عُرْيُها والحفَاءُ

فكأنْ لم ينهضْ بِهَوْدَجها الدّهـ ـرُ ولا سارَ خلفها الأمَرَاءُ
وأبوها العظيمُ ينظرُ لمّا رُدِّيَتْ مثلما تُرَدَّى الإماءُ
أُعْطيَتْ جرَّةً وقيل : إليكِ النّهرَ قومي كما تقومُ النساءُ
فمشَتْ تُظهِرِ الإباءَ وتحمي الدّ مْعَ أن تسترقّه الضّرّاءُ
والأعادي شَوَاخِصٌ ، وأبوها بيَدِ الخَطْبِ صخرَةٌ صمّاءُ

فإذا بلغ فتح العرب مصر قال :

مَنْ كَعَمْرِو البلادِ ، والضّادُ ممّا
شاد فيها ، والملّةُ الغرّاءُ (١)
شادَ للمسلمين ركناً جُساماً ضَافِيَ الظلِ دأبُهُ الإيواءُ
طالما قامت الخلافةُ فيه فاطمأنّتْ وقامت الخُلَفَاءُ
وانتهَى الدّين بالرجاء إليه وبنو الدين إذ هُمُ ضُعَفَاءُ

ويقفز بعد ذلك إلى تمجيد بطولة صلاح الدين الأيوبي في الحروب الصليبية فيقول :

واذْكُر الغرّ آلَ أيوبَ وامدح فمن المدح للرجال جزاء
هُمْ حُماة الإسلام والنفر البيـ ـض الملوك الأعزّة الصُلحَاء
كلّ يوم بالصالحيّة حِصْن وببلْبيسَ قلعَةٌ شَمّاء
وبمصر للعلم دار وللضّيفان نار عظيمة حَمْراء
ولأعداء آلِ أيوبَ قَتْلٌ ولأسْرَاهُمُو قِرىً وثَوَاء
يومَ سارَ الصليب والحاملوه ومشى الغرب : قَوْمُه والنساء
بنفوس تجول فيها الأماني وقلوب تثور فيها الدماء
يضمرونَ الدمار للحق والنا سِ ودين الذين بالحق جاءوا
وَيهُدّون بالتلاوة والصُلبانِ ما شادَ بالقَنَا البنّاء

١ – يشير بالضاد إلى اللغة العربية . يقول : إن العربية التي تتكلمها مصر ، والإسلام الذي تدين به ، هما من آثار ذلك الفتح الأغر .

فتلقتهمو عزائم صِدْقٍ   نُصّ للدين بينهن خِبَاء
مزّقتْ جمعَهم على كل أرض   مثلما مزّق الظلامَ الضياء
هكذا المسلمون والعرب الخا   لُونَ ، لا ما يقوله الأعداء
فبهم في الزمان نلنا الليالي   وبهم في الورى لنا أنباء
ليس للذل حيلة في نفوس   يستوي الموت عندها والبقاء

وشوقي بعد هذا هو صاحب قصيدة «أنَس الوجود» التي خاطب بها روزفلت عندما زار مصر في مارس سنة ١٩١٠ (١) :

أيها المُنْتَحي بأسوان داراً   كالثريا تريد أن تنقضّا (٢)
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع   لا تحاولْ من آيةِ الدهر غضّا
قِف بتلك القصور في اليمّ غرقى   مُمسِكاً بعضُها منَ الذعر بعضا
مشْرِفاتٍ على الزوال وكانت   مشرفات على الكواكب نَهْضا

فإذا بلغ من تصوير الفن القديم وبراعته المعجزة ما أراد، قال يرثي مجد مصر

---

١ – زار «تيودور روزفلت» مصر عائداً من السودان . وألقى فيها خطابين، مجد في أولهما الاحتلال ، وعارض في الآخر حركة المطالبة بالدستور التي كانت على أشدها في ذلك الوقت فكان لخطابيه دوي قوي . وقد أثارا شعور السخط والاستنكار ، فتوالت عليه برقيات الاحتجاج ، ونادى المتظاهرون بسقوطه أمام فندق شبرد حيث كان ينزل ، وفي الإسكندرية عند سفره إليها ليستقل الباخرة عائداً . و «تيودور روزفلت» هذا هو رئيس جمهورية الولايات المتحدة من سنة ١٩٠١ – سنة ١٩٠٨ .وقد توفي سنة ١٩١٩ .وهو من أسرة «فرانكلين روزفلت» رئيس أمريكا في الحرب العالمية الثانية .

٢ – الديوان ٢ : ٦٨ والخطاب هنا لروزفلت . وقد نشرت القصيدة في مجلة الهداية بعدد أكتوبر سنة ١٩١٤ أي أنها نشرت بعد زيارة روزفلت بنحو من ستة شهور . بينما نشرت قصيدة لحافظ عقب إلقاء خطبة روزفلت الأول في الخرطوم، وقبل خطبة الجامعة في القاهرة ، وهي :

أي خطيب الدنيا الجديدة شنف   سمع مصر بقولك المأثور

وقد جاءت القصيدة في كتاب محمد فريد ص ١٦٤ ولم ترد في الديوان . وهي أكثر صراحة في مهاجمة روزفلت من قصيدة شوقي . ومن المعروف أن وظيفة شوقي في القصر كانت تقيده . بينما كان حافظ في ذلك الوقت حراً من كل قيد .

الزائل ، داعياً الله أن يرد على الوطن عزته ورفعته :

يا قصوراً نظرتُها وهي تَقْضِي فسكبتُ الدموعَ والحقّ يُقْضَى
أنتِ مجدٌ وسطرُ مصرَ كتابٌ كيف سام البلى كتابك فَضّا ؟ !
قل لها في الدعاء - لو كان يُجدي - يا سماءَ الجلالِ لاصِرْتِ أرضا

وشوقي هو صاحب المطولة المشهورة في النيل التي تزيد على مائة وخمسين بيتاً : [1]

مِنْ أيِّ عهدٍ في القُرَى تتدفق ؟ وبأي كفٍّ في المدائن تُغْدِقُ ؟
ومن السماء نزلْتَ ؟ أم فجرتَ من علْيا الجنان ، جداولا تترقرق ؟
وبأي عَيْنٍ ، أم بأية مُزْنَةٍ أم أي طوفان ، تَفيض وتَفْهَق [2]
وبأيّ نَوْلٍ أنت ناسجُ بُرْدةٍ للضّفّتَيْن جَديدُها لا يَخْلُقُ

وقد وجه قصيدته هذه إلى الأستاذ « مَرْجوليوث » أستاذ اللغة العربية في جامعة أكسفورد أثناء الحرب العالمية الأولى وقال في ديباجتها : « . . وهذه أيها الأستاذ الكريم كلمة قيلت والهموم سارية ، والأقدار بالمخاوف جارية ، والدماء والدموع متبارية ، وذئاب البشر يقتتلون على الفانية . نظمتها تغنياً بمحاسن الماضي ، وتقييداً لآثار الآباء ، وقضاء لحق النيل الأسعد الأمجد . ونسبتُها إليك عرفاناً لفضلك على لغة العرب ، وما أنفقت من شباب وكهولة في إحياء علومها ونشر آدابها » . وفيها يقول :

أين الفراعنة الأولى استذرى بهم عيسى ويوسفُ والكليم المُصْعَقُ [3]

---

١ — الديوان ٢ : ٧٧ .

٢ — فهق الإناء : امتلأ وفاض .

٣ — استذرى بهم : أي لجأ إليهم واستظل بظلهم . الكليم هو موسى عليه السلام الذي كلمه الله . المصعق : الذي صعق حين طلب من الله سبحانه وتعالى أن يراه . وهو يشير إلى قوله تعالى « فلما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك . قال لن تراني . ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً . فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » — الأعراف ١٤٣ .

الموردون الناس منهل حكمة أفضَى إليه الأنبيـاء ليستقوا
الرافعون إلى الضُحى آباءهم فالشمس أصلهم الوضيء المُعْرِقُ
وكأنما بين البِلى وقبورهم عَهْدٌ على أن لا مساس ومَوْثق
فحجابهم تحت الثرى في هيبة كحجابهم فوق الثرى لا يُخرَق
كم موكبٍ تتخايل الدنيـا به يُجلى كما تجلى النجوم ويُنْسَق
فرعون فيه من الكتائب مُقبل كالسحب قَرْنُ الشمس منها مُفتِق
تعنو لعزته الوجوه ووجهه للشمس في الآفاق عان مُطرق
آبت من السفر البعيد جنودُهُ وأتته بالفتح السعيد الفَيْلَق
ومشى الملوك مصفَّدين، خدودُهم نعْلٌ لفرعونَ العظِيم ونُمْرُق
مملوكةٌ أعنـاقهم ليمينه يأبى فيَضرِبُ أو يَمنّ فيعتِق

ويعدد الأديان التي شهدها هذا النهر العجوز فيقول :

تابوت موسى لا تزال جَلالَةٌ تبدو عليكَ له وريّا تُنْشَق
وجمال يوسف لا يزال لواؤه حَوْليك في أفق الجلال يرنِّق
ودموع إخوته رسائل توبـة مسطورهنّ بشاطئيك منَمَّق
وصلاة مريم فوق زرعك لم يزل يزكو لذكراها النبات وَيسْمُق
وخُطى المسيح عليكَ روحاً طاهراً بركاتُ ربّك والنعيمُ الغَيْدَق
وودائـع الفاروق عندكَ دينُه ولواؤه وبيانه والمنطق (1)
بَعثَ الصحابة يحملون من الهدى والحقّ ما يُحيِي العقولَ ويُفتِق
يبنون لله الكنـانَةَ بالقَنَا واللهُ من حول البناء موفِّق
في الحق سُلّ وفيه أُغمِد سيفُهم سيف الكريم من الجهالَة يَفرَق

ويختم قصيدته الرائعة متوجهاً إلى النيل بخطابه فيقول :

لي فيكَ مَدْحٌ ليس فيه تكلّف أملاه حبّ ليس فيه تملّق

---

1 – الفاروق هو الخليفة عمر رضي الله عنه . أودع مصر دين الإسلام ، وأودعها جيشه ، وأودعها لغة العرب التي أصبحت لسان المصريين .

مما يحمِّلُنا الهوى لكَ أفرخٌ سنطير عنها وهي عندك تُرْزَق[1]
تهفو اليهم في التراب قلوبنا وتكاد فيه بغير عرق تخفُق
تُرْجى لهم ، والله جلَّ جلاله منا ومنك بهم أبرّ وأرفق
فاحفظ ودائعك التي استُودعتَها أنت الوفي إذا اؤتمنتَ الأصدق
للأرض يومٌ والسماء قيامةٌ وقيامة الوادي غداة تُحَلِّق[2]

ومع ذلك كله فشوقي هو صاحب المدائح النبوية المشهورة « الهمزية » و« البائية » و« الميمية ». وهو صاحب الأرجوزة الكبرى التي نظمها في منفاه « دول العرب وعظماء الإسلام » . وهو أيضاً صاحب الشعر الإسلامي الغزير الذي قدمنا نماذج عديدة منه في الفصل السابق .

---

١ – يقصد بالأفرخ : الأولاد والذرية . نمضي ونترك من بعدنا في كنف النيل .
٢ – تحلق ، أي تجف . حلق ضرع الناقة ارتفع لبنها . يقول : إن الوادي باق ما بقيت أيها النيل وما جرى ماؤك الذي يحييه .

الفصل الثالث

محنة الجامعة المصرية

(المؤتمر القبطي والمؤتمر المصري)

في سنة ١٩١١ ظهرت أزمة فادحة كادت تودي بفكرة الجامعة المصرية ، وتهدم الوحدة الوطنية ، وهي تفاقم الخلاف بين عنصري الأمة : المسلمين والمسيحيين ، واتخاذ هذا الخلاف الخفي شكلا صريحاً سافراً عنيفاً في المؤتمر الذي انعقد بأسيوط في مارس سنة ١٩١١ [١] .

وليس من السهل تتبع هذا التصدع لرده إلى أسبابه الأولى ، وليس من موضوع هذا البحث أن يتتبعه . ولكن المتتبع لهذه الكارثة منذ نشأت الدعوة إليها في الصحف القبطية سنة ١٩٠٩ ، ولما سبق ذلك من أحداث ، يستطيع أن يدرك في يسر أن الأزمة ترجع في جوهرها إلى سوء الظن وفقدان الثقة . فقد كان المسلمون يسيئون الظن بالأقباط ، ويتهمونهم بموالاة الإنجليز المستعمرين لما يجمع بينهما من رابطة المسيحية . وكان المسيحيون يسيئون الظن بالمسلمين ، ويتوهمون أنهم يتحينون الفرص للانتقام منهم ، ولا يحول بينهم وبين ذلك إلا الإنجليز . وقد لعب الجهل الذي يقود إلى عصبية عمياء لا تقوم على أساس من منطق أو دين دوراً خطيراً في هذا الانشقاق .

---

١ — راجع تفاصيل المؤتمر القبطي وما ألقي فيه من خطب في إعداد صحيفة « مصر » من الأحد ٥ مارس إلى الأربعاء ٨ مارس سنة ١٩١١

كان كثير من المسلمين ينزلون أنفسهم منزلة خاصة من القبطي وينظرون إليه نظر السيد إلى المولى ، حتى انتهى الأمر بالقبط إلى أن يوزعوا أنفسهم بين الأسر الإسلامية الكبيرة في قرى الصعيد ، يضعون أنفسهم تحت حمايتهم [1] .

وليس يعنينا هنا أن نرد هذه الحالة إلى أصولها الأولى ونتتبعها في تاريخها الطويل ، ولكن الواقع هو أن هذه التقاليد كانت ثابتة مقررة في العصر الذي نؤرخ له ، وأنها كانت تجد تشجيعاً من بعض الحكام الذين أساءوا فهم تعاليم الإسلام السمحة العادلة . ونسي هؤلاء أن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز : (ولا تجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هي أحْسَنُ إلا الذين ظَلَموا منهم. وقولوا آمنّا بالذي أُنزل إلينا وأُنزِل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحدٌ ، ونحن له مُسلمون » [2] ويقول جل شأنه : « إن الذين آمنوا والذين هادُوا والنَّصارَى والصابئين مَنْ آمَنَ بالله واليَوْم الآخِرِ وَعَمِلَ صالحاً فلَهُمْ أجرُهُمْ عند رَبِّهِمْ ولا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنونَ » [3] . . ويقول :« وإنَّ من أهل الكتاب لَمَنْ يُؤْمِنُ بالله وما أُنزِل إليكم وما أُنزِل إليهم خاشعين لله لا يَشْتَرُونَ بآياتِ الله ثمناً قليلا ، أولئك لهُمْ أجرُهُمْ عند ربِّهم . إن الله سريعُ الحِسَاب » [4] . . ويقول : « لَيْسُوا سَواءً . مِنْ أهلِ الكتاب أمةٌ قائمة يَتْلُون آياتِ الله آناءَ اللَّيْلِ وُهمْ يَسْجُدُون » [5]. وقد سبق في علم الله أن يكون الناس طوائفَ وشيعاً لحِكْمَةَ تُراد . « ولَوْ شاءَ اللهْ لجعَلَكُمْ أمَّةً واحدة . ولَكِنْ لِيَبْلوَكُمْ فيما آتاكُم . فاستَبِقُوا الخيراتِ . إلى الله مَرْجِعُكم جميعاً فيُنَبِّئُكُمُ بما كنتم فيه تختلفون » [6] . « ولو شاءَ ربُّكَ لآمَنَ مَنْ في الأرض كلُّهُم جَمِيعاً . أفأنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حتى يكونوا مُؤمنين ؟ ! » [7] .

ذلك هو الإسلام في عدله وسماحته ، وإنصافه وإنسانيته، ولكن الكثرة

---

١ – مجموعة أعمال المؤتمر المصري الأول ص ٤٨

٢ – العنكبوت ٤٦

٣ – البقرة ٦٢

٤ – آل عمران ١٩٩

٥ – آل عمران ١١٣

٦ – المائدة ٤٨

٧ – يونس ٩٩

الجاهلة — من المسلمين والقبط على السواء — كانت قد نشأت على تقاليد فاسدة اعتبرها الأولون حقاً لهم ، وأذعن لها الآخرون على أنها أمر واقع ، يتحينون الفرص للخلاص منه . وكانت الجامعة الوطنية فكرة ناشئة لم تستقر كما رأينا في الفصل السابق ، وكانت الجامعة الغالبة على تفكير العصر هي الجامعة الدينية . لذلك كان من الطبيعي أن يختلف موقف القبط من الاحتلال الإنجليزي المسيحي عن موقف المسلمين من المصريين ، فهم إن لم يطمئنوا اليه لا يتحمسون لمحاربته تحمس المسلمين . فقد كانوا يتوقعون أن ترتفع مكانتهم في ذلك العهد الجديد كما يقول اللورد كرومر [١] . من أجل ذلك استشعر المسيحيون القوة ، وانفتح أمامهم باب الأمل في تحسين حالتهم . وبدأ كثير منهم يضيق بالأوضاع السائدة التي قبلوها من قبل على أنها أمر مقرر وحقيقة واقعة . ونظر المسلمون من ناحيتهم إلى هذه الروح الجديدة على أنها تمرد وانتهاز للفرص وخيانة للبلد الذي يطعمهم ويكسوهم ، والذي تتكون كثرته من المسلمين . واتجه القبط إلى استمداد القوة من مصدر جديد ، فأقبلوا على التعليم ، وحرصوا على جمع المال حرصاً شديداً [٢] . وكان إقبالهم على التعليم — وعلى الأجنبي منه بنوع خاص — بالإضافة إلى ما عرف من تهافتهم على بعض الوظائف التي زهد فيها المسلمون ، وتوارثهم الوظائف المتصلة بالأعمال المالية والحسابية منذ زمن طويل ، كان كل ذلك سبباً في أن تجاوز نسبتهم في الوظائف الحكومية نسبتهم العددية في السكان بمقدار كبير [٣] . وكان حرصهم على جمع المال سبباً في اضطراد الازدياد في ثرواتهم . وكان نجاحهم هذا يغريهم بالمثابرة ، ويزيدهم أملا وطموحاً . بينما كان في الوقت نفسه يزيد من سوء ظن المسلمين بهم ويقوي الشبهة القائمة في نفوسهم من أنهم لم يبلغوا ما بلغوا إلا بتحيزهم

١ – Modern Egypt ٢ : ٢٠٩

٢ – مجموعة أعمال المؤتمر المصري الأول ص ٨٤ – ٨٧

٣ – راجع جداول الإحصاء في المصدر السابق في صفحات ٣٤ و ٩٢ و ٩٣ و ٩٤ و ١٩٦ – ٢٠٤ وراجع كذلك Modern Egypt ٢ : ٢٠٨ و ٢١٠ و ٢١١

للمستعمر واحتضانه لهم . ولما زاد عدد المتعلمين من القبط وارتفعت نسبة ما يدفعه أغنياؤهم من ضرائب ، بدأوا يحسون أنهم مظلومون ، وأن من حقهم أن يكون لهم من الوظائف والمرافق بمقدار من فيهم من المتعلمين وبمقدار ما يدفعون من الضرائب . ونظر المسلمون فإذا عدد القبط في الوظائف يتجاوز نسبتهم العددية بكثير ، بل لقد وجدوا أنهم يكونون الكثرة الغالبة في بعض المصالح والوزارات . فرأوا أن تذمرهم هذا ينطوي على الشطط والجشع وتجاوز الحد في الإنصاف ، وأنهم إنما يريدون أن تتحكم القلة القليلة في مصائر الكثرة الكثيرة ، اعتماداً على حماية المستعمر المسيحي ، وعلى خوف المسلمين من أن يتهموا بالتعصب الديني . وزاد في سعة الهوة بين الفريقين أن العصبية سرت بين القبط ، وصار بعضهم يؤثر البعض الآخر بالخير ، وصار الموظف منهم يسعى إلى زيادة عدد الموظفين من طائفته ما وسعه ذلك .

ولم يكن من المستغرب أن يكره المسيحيون الحكم التركي الذي لم ينالوا منه خيراً ، ولم يذوقوا على يديه إلا الذل . وكان طبيعياً أن يكرهوا كل دعوة إلى الجامعة الإسلامية أو الرابطة العثمانية ، وأن لا يتحمسوا للدعوة الوطنية الدينية الموالية للترك ، والتي كان يمثلها الحزب الوطني وقتذاك .

فانطووا على أنفسهم متوهمين أن مصلحتهم تختلف عن مصلحة الكثرة الكبيرة من المسلمين الذين يحيطون بهم من كل جانب ، وأنشأوا لهم صحافة تعبر عن مصالحهم ورغباتهم . فصدرت جريدة الوطن سنة ١٨٧٧ [١] ، ثم صدرت صحيفة مصر سنة ١٨٩٥ ، [٢] وصدرت صحف أخرى اختفت بعد ظهورها بمدد قصيرة ولم يكن لها أثر كبير .

وأخذت هذه الصحف اليومية تقصر اهتمامها على معالجة مشاكل القبط ، وتطالب برفع ما توهمته من ظلم . ولم تزل تسير في طريقها هذا حتى انتهى

١ ــ أصدرها ميخائيل عبد السيد . وهي أقدم الصحف القبطية . توقفت حيناً بعد الاحتلال ، ثم عادت إلى الظهور سنة ١٩٠٠ «تاريخ أدب اللغة العربية لجورجي زيدان ٤ : ٦٦»

٢ ــ أصدرها تادرس بك شنودة المنقبادي .

بها الأمر إلى أن تتحدث عن القبط وكأنهم أمة مستقلة لها كيان منفصل عن مصر ، وتقول إنهم سلالة الفراعنة وأصحاب البلاد ، وأنهم هم المصريون الخلص الذين لا تشوب دمهم شائبة أجنبية [1] . وبدأت هذه الصحف تتحدى الرأي العام باستحسان ما أجمع المصريون على استنكاره . تصدر وزارة بطرس غالي في ٢٥ مارس سنة ١٩٠٩ قراراً بإعادة العمل بقانون المطبوعات القديم الصادر في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ إبان الثورة العرابية ، وكان قد بطل العمل به منذ زمن بعيد ، فتستنكره الأمة ، وتقوم مظاهرات الاحتجاج من مختلف الطوائف، وتصطدم للمرة الأولى برجال الشرطة تحت قيادة «حكمدار» العاصمة الإنجليزي هارفي باشا [2] . ولكن صحيفة مصر تنشر مقالا في تأييد القانون الجديد الذي يحد – حسب زعمها – من سفه السفهاء الذين يدعون إلى الفتنة [3] .

ويقدم تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة السابق إلى مصر في مارس سنة ١٩١٠ عن طريق السودان ، بعد أن ألقى بالخرطوم خطبة سياسية مجد فيها الاحتلال ، فيلقي في الجامعة المصرية بالقاهرة خطبة يعارض فيها حركة المطالبة بالدستور التي كانت على أشدّها ، ويقول : إن تربية الشعب لكي يصبح صالحاً لحكم نفسه هي مسألة أجيال متتابعة ، وأن سبيل ذلك لا يمكن أن يكون بإصدار دستور يصبح حبراً على ورق . ويقابل المصريون خطبته بالاستنكار الشديد . وترسل الاحتجاجات على إدارة الجامعة لسماحها بإلقاء

---

١ – راجع أمثلة لذلك في صحيفة « مصر » عدد ١ فبراير سنة ١٩٠٩ في مقال « إلى الأمة القبطية » وعدد ٣ فبراير سنة ١٩١٠ في مقال « طريق التقدم في الهيئة الاجتماعية القبطية » وعدد ١٩ فبراير سنة ١٩١٠ في الدعوة باسم بشرى حنا إلى عقد مؤتمر قبطي عام في مدينة أسيوط ، وعدد ٢٨ فبراير في مقال « إلى أي طريق نحن ذاهبون »، ومرثية وهبي بك ناظر المدارس القبطية لبطرس غالي في عدد ٢ إبريل سنة ١٩١٠ التي يؤرخ فيها وفاته بالتاريخ القبطي (١٦٢٦ قبطية) :

ثم أنشد بين القبور وأرخ   مات وامصر بطرس مقتولا

وراجع كذلك صحيفة « العلم » عدد ٧ أغسطس سنة ١٩١٠ في مقال (آلام القبط) .

٢ – محمد فريد ص ١٠٠

٣ – راجع صحيفة « مصر » عدد ٢٦ مارس سنة ١٩٠٩ في مقال (لماذا قيدت الصحافة)

هذه الخطبة في دارها ومنحها الخطيب لقب الدكتوراه الفخرية بعد إلقائها ، وينادي المتظاهرون بسقوطه أمام فندق « شبرد » في القاهرة حيث كان ينزل، وفي الإسكندرية عند سفره إليها ليستقل الباخرة عائداً [١] . ولكن صحيفة مصر تكتب في تأييده وفي الرد على من يهاجمه فتطالع القراء بافتتاحية عنوانها « الخطاب العظيم — المستر روزفلت في الجامعة المصرية » [٢] تبدأها بقولها : « لم يدو في جو مصر خطاب أبلغ من الخطاب الذي ألقاه جناب المستر روزفلت رئيس جمهورية أمريكا سابقاً في الجامعة المصرية أمس ، ولا أصرح منه عبارة، ولا أنفع لها في الحال والاستقبال . وقد قوبل من جميع الطبقات بالإعجاب التام ، لأنه كان صادراً عن إخلاص صحيح ، ورغبة تامة في خير البلاد » . وتتمادى الصحيفة في التحدي فتعود إلى الحديث عن خطاب روزفلت بعد أيام في مقال عنوانه (فلنصف الحساب) [٣] تبدأه بقولها : « كثر الحدس والتخمين ، وزادت الشكوك وقل اليقين ، وترك روزفلت الناس حيارى لا يدرون من الذي نبهه إلى سياسة مصر ودخيلتها ، وأعلمه أسرارها ، وكشف له عن عوراتها . قال روزفلت حكمته وخطب خطبته ، فلم يهتم القوم لموضوع الخطاب اهتمامهم بالبحث عن مصدر علم الرئيس بمجاري الأحوال . ومن هم الواشون على البلد ، ومن ذا الذي أوصل إليه الأخبار حتى قال ما قال . بحثوا ليعلموا بلا تأن ولا اعتدال ، فنسبوا القول لأكبر الأعداء الماكرين ، وهم في عرفهم الإنجليز البريطانيون ، وتلاهم في شرعهم مبعوثو الأمريكان ، مكدرو صفاء الأديان ببلاد السلطان . ثم عطفوا على أولاد سوريا وسكان الشام ، وأشبعوهم سفاهة وتأنيباً ، ووصفوهم بالخائنين اللئام . وأخيراً ساحوا إلى أبناء وطنهم وأساءوا الظن بالقبط إخوانهم » . ثم تدافع الصحيفة عن خطاب روزفلت قائلة : « ومع ذلك لو سلمنا جدلا

---

١ — محمد فريد ص ١٦٠

٢ — عدد ٢٩ مارس سنة ١٩١٠

٣ — عدد ٧ ابريل سنة ١٩١٠

وافترضنا أن الرجل استقى المعلومات من الإنجليز والأمريكان والسوريين والأقباط ، فما الذي أتاه بخطبته يخالف واجب الضيافة ؟ . . وما هي الإهانة التي أهان بها المصريين حتى تقوم الجرائد بهذه القيامة؟..إن هذا الرئيس العظيم والرجل المهاب (١) الذي تنازل أن يلقي علينا الخطاب لم يرم المصري بخسة أو دناءة ، ولم يحكم علينا بعدم الأهلية ولا بقلة الكفاءة ؛ بل خطب خطاباً كله مواعظ وحكم وإرشاد ، وبين لنا ما هي السبيل المؤدية إلى إسعاد البلاد . . . »
وتمضي الصحيفة إلى آخر المقال في بيان أن الرجل قد دل مصر على ما فيه خيرها مخلصاً لها النصح .

* * *

كان كل ذلك داعياً إلى تنمية سوء ظن كل من الفريقين بصاحبه ، وتوسيع الهوة التي تفصل بينهما ، حتى دفع العناد والمكابرة والشعور بالعزلة والانسلاخ من الجامعة المصرية بعض القبط إلى التخلي عن جنسيتهم ،والتماس العزة في ظل بعض الجنسيات الأوروبية،التي كانت تكسبها الامتيازات الأجنبية حصانة خاصة،وتضعها في مركز ممتاز لا تمتد إليه يد القانون.(٢) وأخذ بعض أعيان القبط في الصعيد يدعون سراً لعقد مؤتمر يبحث حالتهم ويؤيد مطالبهم ، ويبثون روح السخط بين المواطنين الأقباط ، ويصورون أنهم مغبونون في الوظائف وفي الحقوق العامة . وكانت الصحيفتان القبطيتان « مصر » و « الوطن » تنفخان في هذه الروح . وأوجس الناس خيفة من عواقب هذه الحركة الوخيمة . ولكن

١ – كذلك جاء في المقال وهو خطأ . وصوابه « المهيب » بفتح الميم .

٢ – راجع صحيفة « العلم » عدد ٧ مارس سنة ١٩١١ في مقال « وطنيون أم أجانب ؟ . . والسياسة أم للدين ؟ » وفي ختامها أن فخري عبد النور كان متجنساً بالجنسية الألمانية ، وأن بشرى حنا بك كان وكيل قنصل روسيا في أسيوط ، وكان سينوت حنا بك وكيل قنصل الروسيا في المنيا . وكان جورجي ويصا بك وكيل قنصل أمريكا في أسيوط . وكان الخواجة تادرس مقار وكيل قنصل فرنسا بأسيوط . وكان يسى اندراوس بك وكيل قنصل إيطاليا في الأقصر . وقد أصبح هؤلاء فيما بعد من أساطين حزب الوفد .

بطرس غالي – وكان رئيساً للوزارة وقتذاك – كان يطمئنهم بأنه مالك لزمام الموقف . وقد أنذر صحيفة « الوطن » وهددها بتعطيلها إذا لم تكف عن المضي في التهييج .

وفوجىء الناس بقتل بطرس غالي في ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ فتفاقم الخلاف وصرح الشر ، وبرزت الفتنة عارية عمياء . تخبط خبط عشواء . كان قاتله ، إبراهيم ناصف الورداني ، شاباً في الرابعة والعشرين من عمره ، تلقى علوم الصيدلة في لوزان وفتح بعد عودته صيدلية . وكان من المتحمسين لمبادىء الحزب الوطني المناوىء للخديوي عباس وقتذاك ، بعد أن مال إلى مهادنة المستعمرين والاتفاق مع ممثلهم الذي خلف كرومر في مصر ، إلدون جورست. وكان الحزب الوطني يرى أن بطرس غالي هو عضد الخديوي الأيمن في سياسته الجديدة . فهو الذي سافر معه إلى لندن في صيف سنة ١٩٠٨ حين كان وزيراً للخارجية في وزارة مصطفى فهمي ،وتفاهم مع الإنجليز على السياسة الجديدة .وقد كان من قبل مستشاره وسفيره فيما كان ينشب بينه وبين كرومر من خلاف [١]. وقد رشحه الخديوي عباس لرياسة الوزارة ، وضمنه عند جورست عندما سأله : ألا يحصل انتقاد من الأهالي بتعيين رئيس قبطي ؟ فرد عليه عباس قائلا : إنه قبطي ولكنه مصري ، أما نوبار فلم يكن مصرياً [٢] . ثم إن تاريخ الرجل السياسي فيه من الأخطاء ما ينزل إلى درجة الخيانة الوطنية.فهو الذي وقع اتفاقية السودان في سنة ١٨٩٩ بالنيابة عن الحكومة المصرية بوصفه وزير خارجيتها [٣]. وقد فوجىء الناس وقتذاك بتوقيعها ، ولم يذع أمرها إلا بعد إبرامها . وكانت الصحف تجهل الخطوات التي سبقتها فلم تنشر شيئاً عن مقدماتها أو المفاوضات

١ – راجع أمثلة مختلفة لذلك في مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٤٤ ، ٥٦ – ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ١٠٢ ، ١١٠

٢ – مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٥٩

٣ – وهي الاتفاقية التي خولت لانجلترا رسمياً حق الاشتراك في إدارة شؤون الحكم في السودان ، ورفع العلم الإنجليزي إلى جانب العلم المصري في أرجائه كافة ، وتعيين حاكم عام للسودان بناء على طلب الحكومة الإنجليزية .

بشأنها [١]. ثم إن بطرس غالي هو الذي أصدر قراراً بتشكيل المحكمة المخصوصة في حادثة دنشواي سنة ١٩٠٦ حين كان وزيراً للعدل بالنيابة، ورأس هذه المحكمة بنفسه [٢]. وقد استهل عمله في الوزارة التي رأسها بكبت الحريات، فأعاد العمل بقانون المطبوعات القديم في مارس سنة ١٩٠٩ [٣]. وأصدر قانون النفي الإداري الذي يضع في يد السلطة الإدارية حق نفي الأشخاص الذين ترى أنهم خطرون على الأمن العام إلى جهة نائية بالقطر المصري [٤]. وختم حياته السياسية بدخوله مع شركة قناة السويس في مفاوضات لمد امتيازها أربعين سنة مقابل أربعة ملايين من الجنيهات [٥].

كان الحزب الوطني إذن يرى أن الرجل قد خان وطنه وآذاه. ولكن الصحف القبطية، ومعها كثير من القبط، كانوا يرون أن هذه الجريمة الفذة التي لم يسبقها نظير في تاريخ مصر الحديث لم ترتكب إلا بدافع من التعصب

١ – مصطفى كامل ص ١٠٩

٢ – مصطفى كامل ص ١٦٨

٣ – صدر قانون المطبوعات القديم في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ إبان الثورة العرابية. وهو يخول وزير الداخلية حق إنذار الصحف وتعطيلها دون محاكمة. وقد حوكم بمقتضى هذا القانون كثير من الصحفيين وحكم عليهم بالسجن. فسجن الشيخ عبد العزيز جاويش ثلاثة شهور لكتابته مقالا عن ذكرى دنشواي في صحيفة اللواء، هاجم فيه بطرس غالي وفتحي زغلول في يونيه سنة ١٩٠٩. وسجن في هذا العام أحمد حلمي صاحب جريدة « القطر المصري » ستة شهور مع الشغل، وعطلت صحيفته ستة شهور، لترجمته مقالا نشر في إحدى الصحف التركية وتعليقه عليه. ثم توالت العقوبات بعد ذلك على كل مناوىء للاستعمار أو الحكومة.

٤ – كان المبعدون ينفون عادة الى الواحات الداخلة.

٥ – فعل ذلك اتباعاً لرأي المستشار المالي الإنجليزي، الذي اقترح هذه الوسيلة لسد حاجة الخزانة الحكومية للمال. وقد بدأ امتياز القناة منذ افتتاحها في سنة ١٨٦٩ لمدة ٩٩ سنة تنتهي في سنة ١٩٦٨ وكان المشروع يهدف إلى مد مدة الامتياز أربعين سنة أخرى تنتهي في سنة ٢٠٠٨ وقد ظل مشروع المد في طي الخفاء زهاء سنة، وكان في عزم الوزارة مفاجأة الرأي العام بإنفاذه، لولا تسرب أنبائه وهياج الشعب ومطالبته بعرضه على الجمعية العمومية. وقد رفضته الجمعية العمومية بعد مناقشات طويلة رغم تأييد ممثل الحكومة له « سعد زغلول ». وقتل بطرس غالي أثناء نظر الجمعية لمشروع المد (راجع محمد فريد ص ١٣١ – ١٥٤)

الديني ، وأن بطرس غالي لم يقتل إلا لأنه قبطي . واتهموا الحزب الوطني بأنه هو الذي هيج الرأي العام عليه بكتاباته واحتجاجاته على معاهدة ١٨٩٩ ودنشواي وقانون المطبوعات وقانون النفي الإداري .

وعند ذاك انحرفت حركة القبط انحرافاً خطيراً ، فزادوا على الكتابة في الصحف القبطية الشكوى إلى الصحافة الإنجليزية والنقل عنها في صحفهم ، وسافر بعض رجالهم إلى إنجلترا شاكين مستنجدين . فهذه هي صحيفة « العَلَم » تروي ما نشرته جريدة « الديلي نيوز » من شكوى أحد الأقباط الموجودين في إنجلترا من سوء وضع القبط في مصر . ويعرّف الزائر القبطي القبط بأنهم سلالة قدماء المصريين ، ويقول : إنهم كانوا يتمتعون بمراكز مهمة نزعت منهم شيئاً فشيئاً . ويرد « العَلَم » على ذلك بمناشدة أمثال هذا الرجل أن يتقوا الله في وطنهم [١] . وهذه هي صحيفة « مصر » تنشر سيلا من البرقيات بعنوان « قلق الأقباط العظيم » و « ما يجب على الأقباط » ، منها ما يطالب « بالالتجاء إلى دولة قوية لتكون عضداً لهم في المستقبل » ومنها ما يطالب بعدم منح المصريين الدستور « والإلتجاء إلى عموم الدول الأوروباوية للنظر فيما آلت إليه حالتهم » ، ومنها ما يلجأ إلى وزير خارجية إنجلترا وإلى « جناب المعتمد البريطاني بمصر » [٢] وتنقل هذه الصحيفة عن « الإجيبشيان كازيت » افتتاحيتها التي هاجمت فيها مدارس الشعب التي كان يديرها الحزب الوطني وقتذاك ، متهمة إياه ببث روح التعصب الديني ، وإثارة الفتنة « وإيغار صدور العامة ضد الحكم الحالي وضد المحتلين والنصارى » [٣] . وتدعو الصحيفة إلى إرسال وفد قبطي لوزارة الخارجية الإنجليزية للدفاع عن حقوقهم [٤] .

---

١ - صحيفة « العلم » عدد ٧ أغسطس سنة ١٩١٠ مقال « آلام القبط » .

٢ - صحيفة « مصر » عدد ٢٥ فبراير سنة ١٩١٠ .

٣ - صحيفة « مصر » عدد ٤ مايو سنة ١٩١٠ مقال « معاهد الفتنة أو مدارس الشعب » .

٤ - صحيفة « مصر » عدد ٢ يوليو سنة ١٩١٠ مقال « تخرصات جريدة العلم واستهانتها بكرامة الأقباط » .

على هذا النحو راحت الصحف القبطية تكيل التهم للحزب الوطني ورجاله وصحافته في عنف بالغ ، وراح هؤلاء يردون على هذا العنف بعنف مثله [١]

ونشطت الدعوة لعقد المؤتمر القبطي في أسيوط بعد أن ضاعت مساعي العقلاء من الفريقين ، مثل إسماعيل أباظة وواصف غالي ، في الحد من عنف الثائرين وكبح جماحهم . وترددت الحكومة في التصريح به خشية الفتنة واضطراب الأمن ، طالبة أن يعقد في العاصمة حتى يمكن تلافي ما قد ينجم عنه . ثم أذنت آخر الأمر بعقده في أسيوط ، فتم انعقاده في يوم الأحد ٥ مارس سنة ١٩١٠ ، بدعوة من مطران أسيوط وبرياسة بشرى حنا بك . واستمرت جلساته إلى يوم الأربعاء ٨ مارس سنة ١٩١٠ [٢] . وانحصرت مطالبه في :

١ ــ طلب العطلة يوم الأحد بجانب الجمعة .

٢ ــ أن تكون قاعدة التوظف هي الكفاءة وحدها دون نظر إلى نسبة الأقباط العددية في السكان .

٣ ــ وضع نظام لمجالس المديريات يكفل للأقباط تمتعهم بالتعليم حتى لا يقتصر التعليم على الدين الإسلامي وحده في المدارس الأولية .

---

١ ــ راجع أمثلة ذلك في مقالات عبد العزيز جاويش (الإسلام غريب في دياره) و (علام هذه الضجة؟) مجلة (الهداية) عدد مارس سنة ١٩١١ وصحيفة (العلم) عدد ٧ مارس سنة ١٩١١ في مقال (وطنيون أم أجانب ؟ ! وللسياسة أم للدين ؟ !) وعدد ١١ أبريل سنة ١٩١١ (على من تبعة هذه الارتباكات ؟) وعدد ٥ إبريل سنة ١٩١١ في مقال (فلنحاسبكم فقد انقضى زمن المجاملة) وصحيفة مصر عدد٧أبريل سنة ١٩١٠ في مقال(سهم آخر من كنانة الحزب الوطني) . وعدد ٣ مايو سنة ١٩١٠ (حزب الثورة والأقباط) ، ٤ مايو سنة ١٩١٠(معاهد الفتنة أو مدارس الشعب) وعدد ٢ يوليو سنة ١٩١٠ (تخرصات جريدة العلم واستهانتها بكرامة الأقباط) وراجع كذلك ديوان علي الغاياتي (وطنيّ) ص ١٠٨ (الحادث الخطير ــ قتل رئيس النظار السابق) ، ص ١١٥ (يوم القضاء على إبراهيم ناصف الورداني) .

٢ ــ راجع قرارات المؤتمر وما ألقي فيه من كلمات في أعداد صحيفة مصر من الإثنين ٦ مارس إلى الخميس ٩ مارس سنة ١٩١٠ . وراجع كذلك افتتاحية (العلم) عدد ٣ إبريل سنة ١٩١١ (المؤتمر القبطي) .

٤ – وضع نظام يكفل تمثيل كل عنصر مصري في المجالس النيابية .
٥ – جعل الخزينة العمومية مصدراً للإنفاق على جميع المرافق المصرية [١] .

وتولى مصطفى رياض باشا الدعوة إلى مؤتمر مصري ينظر في شؤون المصريين جميعاً – أقباطاً ومسلمين – وسماه « المؤتمر المصري » ، ولم يسمه « المؤتمر الإسلامي » توكيداً لوحدة الأمة ، وتجاهلا للأساس الطائفي الذي قام عليه « المؤتمر القبطي » . وتم انعقاد المؤتمر برياسة مصطفى رياض في يوم السبت ٢٩ أبريل سنة ١٩١١ ، وظل منعقداً إلى يوم الأربعاء ٤ مايو سنة ١٩١١ [٢] وقد رجا الرئيس المجتمعين في مفتتح المؤتمر أن يحكموا روح العدل وتأييد الروابط الوطنية في مداولاتهم ، وأن يكون التسامح الذي عرف عن الإسلام رائدهم فيما يقولون . وتلاه لطفي السيد بتلاوة تقرير اللجنة التحضيرية ، فأكد أن المؤتمر يبحث في المصلحة العامة ، وينظر في التوفيق بين العنصر المؤلفة للوحدة المصرية التي كاد يتصدع بناؤها من جراء المؤتمر القبطي ، وأكد أن الأقلية والأكثرية في الأمم لا تقوم على أساس الدين ، ولكنها تقوم على أساس المذاهب السياسية ، وأن الأمة باعتبارها كائناً سياسياً أو نظاماً سياسياً إنما تتألف من عناصر سياسية كذلك . فأيمًا مذهب من المذاهب السياسية اعتنقه أفراد أكثر عدداً وأثراً كان أكثرية ، وكان الآخر أقلية . وعلى هذا يمكن فهم الأكثرية والأقليات في كل أمة ، وليس للدين في ذلك دخل . وبين ما تنطوي عليه الاستعانة بالإنجليز من خطر على الوطن وعلى الجامعة القومية ، مما يدعو إلى الاسترابة في حسن نية القائمين به ، الذين أرادوا أن يصلوا بمعونة إنجلترا المسيحية إلى أن يكون لهم في مصر – وهم أقلية – حق السيادة على الأكثرية ، اعتماداً على الاحتلال المسيحي ، وعلى أن المصريين أخوف ما يكونون من أن

١ – مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٢٤٤ – ٢٤٥ ، صحيفة (مصر) عدد ٢٢ مارس سنة ١٩١١ (الأقباط في مصر – الجمعية العمومية في أسيوط) ، مجموعة أعمال المؤتمر المصري الأول

٢ – توفي مصطفى رياض بعد المؤتمر بقليل في ١٧ يونيه سنة ١٩١١ (مذكراتي في نصف قرن ٢ب : ٢٤٩) .

يرموا بالتعصب الديني . وأعلن أن المؤتمر سيبحث في عمل الأقباط وتقديره ، ليزن مطالبهم بميزان العدل ، وليبين النافع من الضار ، والممكن وغير الممكن ، ويقرر لهم ما يراه حقاً من غير أن يحوجهم إلى السعي بإخوانهم وشكايتهم إلى غيرهم . كما أعلن أن اللجنة التحضيرية رأت أن يتناول المؤتمر البحث أيضاً في المسائل الاجتماعية والاقتصادية وكل ماله علاقة بسعادة الأمة ، ما عدا المسائل السياسية، داخليةً كانت أو خارجية ، لأن ظروف مصر لا تسمح بدخول المؤتمر في السياسة . ثم تتبع مطالب المؤتمر القبطي بالرد واحداً واحداً ، مدعماً رده بإحصائيات تبين أن نسبة القبط في الوظائف الحكومية ، وفي مجالس المديريات التي تدل نتائج انتخاباتها على تسامح المسلمين ، تفوق نسبتهم العددية بمقدار كبير ، وأن الموظفين منهم كثرة في بعض الوزارات .

وبعد أن انتهى لطفي السيد من تلاوة تقرير اللجنة التحضيرية تتابعت البحوث في شتى النواحي الاجتماعية والاقتصادية موزعة بين أيام انعقاد المؤتمر ، ابتداءً من الجلسة الثانية في مساء اليوم الأول لانعقاده .

* * *

لم تكن هذه المحنة شراً خالصاً كما يبدو من هذا العرض . فقد وضعت هذه الخصومة السافرة حداً لسوء الظن المتبادل بين الفريقين ، وكانت تنفيساً شفى النفوس من الكره الكامن الدفين ، وفرصة لتصفية ما بين جيران الوطن من خصومة وعلاجه بطريقة صريحة . وقد بث كل منهما شكواه ، وعبر عما يجد ، وعاتب صاحبه عتاباً ، إن يكن عنيفاً قاسياً خشناً في بعض الأحيان ، فقد انتهى باعتذار كل منهما لصاحبه على كل حال . ونهض عقلاء كل من الطائفتين لتخفيف حدته وإقامة الأدلة على أنه لا يقوم إلا على أساس من الوهم وسوء الظن ، وأنه لا يفيد أحداً من المتخاصمين ، وأنه لا يعود إلا بالشر عليهما جميعاً ، ولا يستفيد منه إلا المحتل الدخيل الذي يمتص دماء الفريقين دون تمييز بين مسلم وقبطي . فقد أفاض كل من الفريقين المتخاصمين في

الكلام عن الجامعة المصرية وعن خطر تفاقم الخلاف بين عنصريها [١].وصرح القبط بهواجسهم التي انطوت عليها نفوسهم خلال قرون طويلة، ودلوا المسلمين في صراحة على موطن الداء،فاتجهوا إلى علاجه في صراحة أيضاً،واستطاعوا أن يقيموا الدليل المادي الواضح على أن ما ذاع بين القبط من الشعور بالظلم والحرمان ليس إلا وهماً روجته طائفة من المغالطين سيئي النية ، الذين امتلأت جيوبهم وضعفت فيهم العاطفة الوطنية بانتمائهم إلى دول أجنبية ، فلم يبالوا حين أيقظوا هذه الفتنة ليستفيدوا منها أن تقع أوزارها على الوطن الذي برئت قلوبهم من حبه والوفاء له . كما استطاعوا أن يقيموا الدليل على أن ما يطلبه القبط تحت ضغط المضللين المغررين ممن تزعموا حركتهم ، يتعارض مع مصلحتهم هم أنفسهم ويناقضها أشد المناقضة [٢] .

ولذلك نستطيع أن نقول إن هذا الشر المستطير كان نقطة تحول في تاريخ الفكرة القومية . وإذا كان من الحق أن هذه الخصومة كانت قمة العنف في النزاع الذي ينذر بتصدع الجامعة المصرية، فمن الحق أيضاً أنها كانت في الوقت نفسه الميلاد الحقيقي لفكرة الوطنية المصرية ، ونقطة البداية الصحيحة في الجامعة القومية ، التي بدت بعد ذلك في أكمل مظاهرها في ثورة سنة ١٩١٩ . ذلك بأن تفاقم الخصومة قد أفزع الفريقين كليهما ، ونبههما إلى ما ينطوي تحته من خطر داهم ، فتولدت من ذلك رغبة صادقة في جمع الكلمة ، ساهم فيها المصريون من قبط ومسلمين . فهذا هو مرقص فهمي يلقي خطبة في اجتماع عقده القبط

---

١ – راجع أعداد صحيفة مصر في ١٥ فبراير سنة ١٩١٠ (تضامن العنصرين العظيمين في مصر) ، ٧ فبراير سنة ١٩١٠ «الاتحاد قوة – توحيد عناصر الوطن الواحد لخدمة الوطن» . وراجع كذلك في أعمال المؤتمر المصري الأول كلمات: حافظ رمضان وصالح حمدي حماد « الجلسة الثانية » وأحمد عبد اللطيف « الجلسة الثالثة » .

٢ – راجع في أعمال المؤتمر المصري الأول كلمات: صالح حمدي حماد في الجلسة الثانية « تمحيص مطالب الأقباط وإزالة موجبات الشقاق » وأحمد عبد اللطيف في الجلسة الثانية « الأقلية الدينية ومجالسنا النيابية » والشيخ علي يوسف في الجلسة الرابعة « التعليم العام وحظ المسلمين والأقباط منه » . وراجع كذلك جداول الإحصاء المختلفة الملحقة بأعمال المؤتمر .

بحديقة الأزبكية ، ينفي فيها عن المسلمين تهمة التعصب ، مسفهاً أقوال الذين يتهمون طائفة من الأمة بالاشتراك في اغتيال بطرس غالي جملةً ،ويحصر عمل الورداني في شخصه ، مؤكداً أن الجريمة التي راح ضحيتها رئيسُ الحكومة يأسف لها كل مصري مسلماً كان أو قبطياً . فيجيبه الغاياتي بقصيدته « إلى خطيب السلام »[1] :

خطبتَ فلم تجنح إلى شرعة الهوى ... ولم تتخذْ نهجَ الخلاف سبيلا
وأنصفتَ قوماً أنت منهم ، وإن عدا ... عليهم جهولٌ أو أعانَ جهولا
فما أنت قبطي يبيع بلاده ... ويرضى بذين الجاهلين بديلا
وما أمةُ القرآن في مصر أمةً ... ترى أمة الإنجيل أبغض جيلا
فإنا وأنتم إخوةٌ في بلادنا ... أقمنا على دين السلام طويلا
نذود عن الأوطان إن طمَّ حادث ... ونحمي حماها بكرةً وأصيلا

ويختم قصيدته بتحية مرقص فهمي قائلا :

فسرْ في سبيل الصدق يا خير قائل ... أقام على صدق الولاء دليلا
ففي ذمة الأهرام موقفك الذي ... روى النيلُ والأهرامُ منه غليلا

وهذا هو واصف غالي – والقتيل أبوه – يكتب إلى إسماعيل صبري ، يرجوه التوسط في الصلح بين الطائفتين ، فيقول[2] :

سعادة سيدي المفضال إسماعيل باشا صبري :

قيل إن الشعراء أنبياء ، إذ هم ساسة الأفكار وقادة الشعوب . فعسى أن يتبعك شعب مصر فتسلك به مسلك الحق والشرف .

والآن يجب على كل عضو من أعضاء هذه العائلة المصرية أن يعمل لما فيه التوفيق بين جميع العناصر ، وقد رفعتُ صوتي الضعيف منادياً بالاتحاد والوئام . على أني لست ذلك الرجل الذي في استطاعته أن يحرك عواطف الأمة . فهل لك

١ – ديوان الغاياتي « وطنيتي » ص ١١٣
٢ – ديوان إسماعيل صبري هامش ص ١٨٠

يا سيدي أن تبذر بذور السكينة والوفاق ، لتثبت شجرة المحبة والصفاء ، فتثمر ثمار العز والمجد للبلاد . لعمري إن صوتك هو المسموع المجاب ، فنظمك سحر يجمع القلوب المتنافرة . وها نحن على مقربة من تاريخ ذكرى وفاة صديقك الحميم (٢١ فبراير) [١] . فهل تتفضل بنظم قصيدة تضمنها ما كنت ذكرته لي في كتابك الكريم (مثل الأقباط والمسلمين في مصر — وهما العنصران المكونان للأمة — كمثل العينين في الوجه ، يؤلم اليمنى ما يؤلم اليسرى » . وتكللها بالدعوة إلى أن يكون جدث الفقيد العظيم كعبة يقصدها الوطنيون الصادقون ، وصلة الارتباط المتين بين الأقباط والمسلمين . وإني أشكرك من أجل ذلك باسم والدي ؛ بل بصفتي ابن [٢] حنون على وطنه وأمته ، وتفضل بقبول احترام أخيك الحافظ لك وُدّ أبيه » .

٨ فبراير ١٩١١ واصف بطرس غالي

ويلبي إسماعيل صبري الدعوة فيكتب قصيدة يتحدث فيها عن مصاب المسلمين والقبط في بطرس غالي ، قائلا :

معشرَ القبط يا بني مصر في السّـ ـرّاء قد كنتُمُ وفي الضرّاء
قد فقدنا منا ومنكم كبيراً كان بالأمس زينـة الكبَراء
فأقمنا عليـه في كلّ نادٍ مأتمـاً داوياً بصوت البُكاء
ومزَجْنا دموعنـا بدموعٍ بذَلَتْهـا عُيونكم في سَخَاء
ورأينا فتكَ الرّزِيْئَة بالعقْـ ـل وفعْل المصاب بالعُقَلاء
باركَ الله فيكم أنتم النا سُ وفاءً إن عُدّ أهلُ الوفاء

ثم يقول : إن الإسلام والمسيحية كليهما يأمران بالإحسان ، وينهيان عن البغي والعدوان ، وأن مصر هي أم المسلم والقبطي على السواء ، خيرها لهما إن اتحدا وتماسكا ، فإن تفرقا فكلها للأجنبي الغريب .

---

١ — يقصد بصديقه الحميم : والده بطرس غالي .
٢ — كذلك جاءت في النص وهي خطأ . والصواب « بصفتي ابناً حنوناً »

دينُ «عيسى» فيكم ودينُ أخيه «أحمدٌ» يأمراننا بالإخاء
وبحكم ماكذا تكون النصارى راقبوا اللهَ بارىء «العَذْراء»
مصر أنتم ونحن ، إلا إذا قا مت بتفريقنا دواعي الشقاء
مصر ملكٌ لنا إذا تماسكْـ نا ، وإلا فمصر للغرباء

ثم يطلب إلى المسيحيين أن يصموا آذانهم عن دعاة الشقاق الذين يبذرون بذور الجفاء ، فيقول :

لا تطيعوا منا ومنكم أناساً بذروا بيننا بذور الجفاء
لا تولوا وجوهكم شطر من عكّـ رَ ما في قلوبنا من صفاء
إن دين «المسيح» يأمر بالعُرْ ف (١) وينهى عن خطة الجهلاء
لا يكُنْ بعضُنا لبعض عدواً لعنَ اللهُ مستبيحي العداء

وتواتر شعر الشعراء ، كلما سمحت مناسبة من المناسبات ، مؤكدين صلة المودة والجوار التي تقوم بين المسلم والقبطي ، مذكرين بما كان بينهم من ود قديم أكيد في مختلف عصور التاريخ ، مبينين أن الإسلام بريء من الذين يسيئون فهمه ويخرجون على تعاليمه السمحة ، فيسيئون إلى أنفسهم وإلى دينهم وإلى وطنهم جميعاً .

قُتِل بطرس غالي ، فرثاه شوقي بقصيدته :

قبرَ الوزير تحية وسلاما الحلمُ والمعروفُ فيكَ أقاما (٢)

وفيها يقول :

قد عشتَ تُحدث للنصارى ألفةً وتُجِدُّ بين المسلمين وئاما
واليومَ فوقَ مَشيدِ قبرِكَ ميّتاً وَجَدَ الموفّقُ للمقالِ مقاما
الحقّ أبلَج كالصباح لناظرٍ لو أنّ قوماً حكّموا الأحلاما

١ – العرف «بضم العين» : المعروف
٢ – الديوان ٣ : ١٤٤

أعَهِدتَنا والقِبْطَ إلا أُمَّةً | للأرض واحدةً تروم مَراما
نُعْلي تعاليمَ المسيح لأجلهم | ويُوَقِّرُون لأجلنا الإسلاما
الدِّين للدَّيّان جلَّ جلاله | لو شاء ربُّكَ وحّد الأقواما
ياقوم بانَ الرُشْد فاقصُوا ما جرى | وخذوا الحقيقةَ وانبذوا الأوهاما
هذي ربوعُكُمُ وتلك رُبوعُنا | مُتَقَابلِنَ نُعالجُ الأيّاما
هذي قُبُورُكُمْ وتلك قبورنا | متجاورِين جماجماً وعظاما
فبحرمة الموتى وواجبِ حقهم | عيشوا كما يَقضي الجِوارُ كِراما

وتوجه إلى القبط بقصيدته :

بني مصرَ إخوانَ الدُّهورِ رُويدكم | هَبوه يسوعاً في البريَّة ثانيا (١)

وفيها يقول :

تعالَوا عَسى نطوي الجفاءَ وعهدَه | ونَنْبُذُ أسبابَ الشقاقِ نواحيا
ألم تَكُ (مِصْر) مَهْدَنا ثم لَحْدنا | وبينهما كانت لكُلٍّ مَغَانيا (٢)
ألم نَكُ من قبل المسيحِ بن مريمٍ | ومُوسى وطهَ نعبُدُ النِيلَ جاريا
فَهلّا تساقينا على حُبِّه الهَوَى | وهَلّا فَدَيْناه ضفافاً ووادِيا
وما زالَ منكُم أهلُ وُدٍّ ورحمةٍ | وفي المسلمين الخَيْرُ ما زال باقيا
فلا يَثْنِكُم عن ذمّةٍ قَتْلُ بطرسٍ | فقِدْماً عرفنا القتل في الناس فاشيا(٣)

ورثاه إسماعيل صبري بقصيدته :

لِتَهْفُ الرِّياساتِ على راحِلٍ | قد كانَ مِلءَ العينِ والمَسْمَعِ (٤)

وفيها يقول ·

عَيْنيَ فيكَ اليومَ قِبْطِيّة | تَروي الأسى عن مسلِم مُوجَع
يَهِيمُ مِنْ وَجْدٍ ومِنْ لَوْعَةٍ | في الجانب الأيسر مِن أضْلعي

---

١ – الديوان ٤ : ٣٩
٢ – غني القوم بالمكان «على وزن علم» : أقاموا . والمغنى «بوزن اسم المكان» مكان الإقامة، والجمع مغاني .
٣ – الذمة : العهد . يقول لهم : لا يحملنكم قتل بطرس على العدول عما كان بينكم وبين المسلمين من تواصل وتراحم .
٤ – الديوان ص ٢١٨

ويأخُـذُ البِرّ وآيَ الوَقـا عن الكِتابِ الطيّبِ المَشْرَع [1]

ورثاه نسيم بقصيدته : [2]

إجعلْ عَزاءكَ في الوزيرِ جَميلا أعززْ علينـا أن يموت قتيـلا
أودى فغـادر للطوائف مُقْلَة تَبْكي الوزارة والـدم المطلولا
أجرتْ يد القدَرِ الرّهيب دماءه حَمْراء تحكي العَسْجَد المحلولا
لو كانَ في شعري أزاهِرُ تُجتَنَى لَقَطَفْتُها وجعلْتُها إكليلا
واللهِ لولا داءُ قلبي ما غَـدا قلَمي بغيرِ رثائه مشغولا

وقد تجاهل فيها الخلاف بين عنصري الأمة فلم يشر إليه ، وانصرف في معظم القصيدة إلى تهنئة محمد سعيد بالوزارة والإشادة بفضله وما يعلّق عليه المصريون من آمال .

ورثاه ولي الدين يكن بقصيدة تزيد عن ستين بيتاً بدأها بقوله :

أبَداً ترامي غـيرها وتُرَادِي أكذا أعادي الأكرمين تُعـادِي [3]

ولم يشر في قصيدته إلى خلاف المسلمين والقبط ، ولكنه هاجم بعض رجال الحزب الوطني في قسوة ، واتّهمهم بإثارة الفتنة وبسوء القصد . ورثاه من قبل ذلك في مقال عنيف نشر في صحيفة « المقطم » عنوانه « بطرس غالي في موكبه الأخير » [4] .

يقول فيه مهاجماً الحزب الوطني وصحفه :

« حَسْبُهُم الله . أقلقوا النيام في مضاجعهم ، وأتعبوا الرائحين والغادين في طرقاتهم ؛ ودوّت صيحاتهم في الآذان حتى كادت تُصمّها . أعولوا ثم أعْوَلوا : ليَحْيَ الدستور ! . . ليحيَ الدستور ! . . ليحيَ فلان ! . . ويسقطْ فلان !

---

١ – المشرع : المنهل . ويقصد بالكتاب الطيب المشرع القرآن الكريم .
٢ – الديوان ٢ : ٣٤
٣ – الديوان ص ٦٦
٤ – الصحائف السود ص ١٠١

أمن أجل هذا كانوا يريدون الدستور ؟ (١)

قام بالأمس أحد قراء سورة يوسف ، فأصدر جريدة دينية جديدة ليجعلها إحدى البلايا على الدين وبنيه(٢). ماذا تريد بطبلك يا هذا المطبّل ؟ . . . أنبيٌّ أنت أم إمام أم فقيه أم سياسي أم أديب ؟ ! . . . أم ثرثارة تريد النعيق على أطلال بلد لستَ من أهله(٣) ؟ . حسبك واحدة أرتنا نفثاتك. تلك نفثات ستفِر غداً منها ، وستظل هي على أثرك ، وإن الله لبالمرصاد » .

ودافع في آخر المقال عن بطرس غالي فيما اتهمه به الحزب الوطني فقال :

« ماذا جنى هذا الفقيد المظلوم ؟ . . صاح أكثرُهم مذكّرا بحادث دنشواي. وتشدق آخرون باتفاق إنكلترا ومصر على السودان . وشكا غيرهم من قانون المطبوعات . وهل كان للوزير هذا القَدْرُ من التفرد بالإدارة والخيار في الفعل ؟ . . ومن أهاج أهل دنشواي ؟ . . ومن أتى بقانون المطبوعات ؟ . . سائلوا تلك الجرائد التي تود أن توقع البلد في الهلاك ، عسى أن توافيكم بجواب سديد » .

ثم دافع عن القبط قائلا :

الأقباط هم أُولُو مصر قبل كل مصري . ما زال الجور يتصيدهم حتى قلّوا عدداً ووفرتم ، وخسروا وكسبتم . ثم مَنّ الله بعدله ، فقالوا « نحن إخوان » أفلا تريدون أن تكونوا لهم إخواناً ؟ . . فما لهذه البراثن إذن داميات !

وقصيدة الشاعر ومقاله ليسا علاجاً للموقف كما ترى . وربما خفف من وقعهما أنهما صدرا من شاعر مسلم . ولكن الرجل كان معروفاً بتحيزه للإنجليز كما سيجيء .

---

١ – كانت المطالبة بالدستور وقتذاك على أشدها . وكان الحزب الوطني هو المتزعم لهذه الحركة .

٢ – يعرض بالشيخ عبد العزيز جاويش ، ويقصد بصحيفته مجلة « الهداية » ، التي صدر العدد الأول منها في فبراير سنة ١٩١٠ ، فوافق قتل بطرس غالي .

٣ – يشير إلى أن عبد العزيز جاويش من أصل مغربي . والعجيب أن ولي الدين يكن تركي وليس مصرياً خالصاً ، وقد كان صديقاً للانجليز كما بينا في الفصل السابق . وصحيفة « المقطم » التي نشر فيها المقال صحيفة استعمارية كما هو معروف .

وأحجم كثير من الشعراء وقتذاك عن رثاء الرجل لما أحاط بموته من شُبَه وما اتّهم به من مشايعة الإنجليز ضد مصلحة الوطن. فسكت حافظ ومحرم والكاشف وعبد المطلب. ولكن بعضهم شارك بعد ذلك في مناسبات أخرى فساهم في رأب الصدع وجمع الصفوف.

وكان محرم أكثر الشعراء شعراً في هذه المناسبات، وأشدهم تحمساً في الدعوة إلى التوفيق، والتحذير من الكارثة التي توشك أن تحل بالمسلم والقبطي فتعمهما على السواء.

يقول في قصيدته «تفرق المذاهب» مخاطباً القبط [1]:

بَني وطني، مَن يَرْتَدِ الشرّ يُلْفِه ... وإن راقه يوماً رداءً مسمّماً
بني وطني، إن الأمور سِماتُها ... تَبينُ. وإن الرأيَ أن نتوسّما
بني وطني، مالي أراكُم كأنما ... تَرونَ السبيل الوَعْرَ أهْدَى وأقوَما
أئِنْ قامَ يَنْهاكم عن الغَيّ راشد ... غضِبْتُم وقلتم خائنٌ رامَ مَغنما؟
..تعالوا إلينا، إنما نحن إخوة ... وإن انبتاتَ الحبْل أن يَتَفَصّما
تعالوا إلينا، إنما نحن إخوة ... وإني رأيتُ الأخذَ بالرفق أحزَما
وإن سبيلينا سواء، وكلّنا ... بنو مصر نأبَى أن تُضَامَ وتُهْضَما
وما العارُ إلا أن تَظَلَّ أخيذَةً ... وتبقى مَدَى الأيام نَهْباً مُقَسّما

ويختم القصيدة بقوله:

تُفَرّقنا الأديانُ واللهُ واحدٌ ... وكلّ بَني الدنْيا إلى آدم انْتَمى
وَساوِسُ ظلّ الشرقُ فيها مصفّداً ... فما يملكُ الشرقيّ أن يَتَقَدّما
بني الشرق لا يَصْرَعكُمُ الدينُ إنني ... أرى الغرب لولا الجِدُّ والعلم ما سَمَا
سَلُوهُ إذا رامَ الفريسة فانْتَحَى ... أيَرْعَى مسيحياً ويَرحَم مسلما؟!
هو الموتُ أو تَسْتَجْفِلَ الشرقَ رَجفةٌ ... تزلزِلُ صَرْعَى من بَنِيهِ ونُوّما

ويقول في قصيدته «الحُلْفُ واللّجاج» [2]:

---

١ — الديوان ٢ : ٨٩ — ٩٤

٢ — الديوان ٢ : ١١٤

يا أمّةَ القِبْطِ ـ والأجيالُ شاهدةٌ … بما لَنَا ولكم من صادق الذمَمِ
هذي مواقفنا في الدّهْرِ ناطقَةً … فاستنبئوها ترِيحونا منَ التُهَمِ
لا تظلموا الدينَ . إن الدين يأمُرُنا … بما علمتُم من الأخلاق والشّيَمِ
منّا ومِنْكُم رجالٌ لا حُلومَ لهمْ … ولا يَفيئُونَ لِلأدْيان والحُرَمِ
أنتُم لنا إخْوَةٌ لا شيء يُبْعِدنا … عنكمْ ، على عَنَتِ الأقدار والقِسَمِ
ليس اللّجاجُ بِمُدْنٍ مِن رغائبنا … ولا الشّقاق بمُجْدِينا سوى النّدَمِ
يا وَيْحَ مصر لِخُلْفٍ لا رُكود لَه … إلا لِيَعْصِفَ بالأقطارِ والأمَمِ
ولَو تآلَف أهْلُوهَا لَمَا بَقيت … مِن حاجة في ضميرِ النيلِ والهرَمِ
يا قومُ ماذا يفيد الخلفُ ؟ فاتّفِقُوا … وقَوّموا أمركم بالحزْم يَسْتَقِمِ
صونوا العهود وكونوا أمة عرَفت … معنى الحياة فلم تعسفْ ولم تَهِمِ
يا قوم لا تَغْفلوا إنّ العدوّ له … عين تراقب منكم زلةَ القَدَمِ

ويقول في قصيدته « بين المأربين »(١) :

كَذبَ الوُشاةُ وأخطأ اللوّامُ … أنتم أُولُوا عَهْدٍ ونحنُ كِرَامُ
حُبّ تُجِدّ الحادثاتُ عهودَه … وتزيد في حُرُمَاتِه الأيّامُ
وَصَلَ المُقَوْقِسُ بالنّبِي حِبالَه … فإذا الحبالُ كأنها أرحام(٢)
وجَرى عليه خليفَةٌ فخليفة … وإمامُ عَدْلٍ بعدهُ فإمَامُ
لا تَنْشُدوا العهد المؤكّدَ بيننا … النّيل عهدٌ دائمٌ وذمامُ
. الدّينُ لله العليّ وإنما … دينُ الحياة تَوَدّدٌ وَوِئامُ
إن كان للواشي المفرّق مَأرَب … فَلَنَا كذلك مأرَبٌ ومرَامُ
أنَظَلّ صَرْعَى والشعوبُ حَثِيثَةٌ؟ … ونعيش فَوْضى والحياةُ نِظامُ ؟

---

١ – الديوان ٢ : ١١٩

٢ – يشير إلى هدية المقوقس للرسول صلوات الله عليه ، حين دعاه إلى الإسلام ، فرد عليه بإهدائه مارية القبطية التي تزوجها النبي وولدت له ولده إبراهيم .

ويقول في قصيدته «دنيا الممالك» (١) :

يا أمّة الإنجيل آمنّا به ... ما بالنبي ولا يسوغ جحود
الدين في أمر ونهي واحد ... والله جلّ جلاله المعبود
دنيا الممالك لا تحدّ . ودينها ... وقفٌ على ديّانها محدود
درج الزمان على المودة بيننا ... وأراه ينقص والإخاء يزيد
براً بمصر . ومصر أعظم حرمة ... من أن يضيع رجاؤها المنشود
شدوا القلوب على الإخاء فإنها ... مصر وإن بلاءها لشديد
أنرى الممالك كل يوم حولنا ... تسعى ونحن على الرجاء قعود ؟!
الأمر مشترك ومصر لنا معاً ... في العالمين منازل ولحود
والنيل ، إن حمل القذا وإذا صفا ... فهو الحياة وورده المورود
أنخون أنفسنا ونفسد أمرنا ... أن قال واش أو أراد حسود ؟
زعم العدى أنا نعق بلادنا ... زعم لعمرُ الأمتين بعيد

وينتهز حافظ عودة الخديوي عباس من دار الخلافة سنة ١٩١١ ، فيشير في قصيدته التي هنأه بها إلى خلاف المسلمين والقبط ، داعياً إياه إلى تلافيه حيث يقول (٢) :

مولاي !. . أمتك الوديعة أصبحت ... وعرى المودّة بينها تتفصّم
نادى بها القبطي ملء لهاته ... أن لا سلام وضاق فيها المسلم
وهم أغار على النهى وأضلها ... فجرى الغبيّ وأقصر المتعلّم (٣)

---

١ – الديوان ٢ : ١٢٠ – ١٢٣ . وراجع كذلك قصائده في (الإخاء الوطني ٢ : ١١٣) (العام الهجري الجديد ٢ : ١٢٤) .

٢ – الديوان ١ : ٢٩١ . وحافظ من أقل الشعراء مساهمة في هذا الباب . ليس له فيه إلا هذه الأبيـات .

٣ – يقول : جرى الأغبياء وقصار النظر إلى إشعال الفتنة ، بينما كف المتعلمون وذوو النظر عن إخمادها وتلافيها .

فهِمُوا من الأديان مالاَ يرتضي | دِينٌ ولا يرضى به مَن يَفْهَم
ماذا دَهَا قبطيّ مصرَ فصدّه | عن وُدّ مُسْلِمِها وماذا ينْقِمُ ؟
وعلامَ يخشى المسلمين وكيدَهم | والمسلمون عن المكايد نُوّم ؟
قد ضمّنا ألمُ الحيـــاة وكلّنا | يشكو ، فنحن على السواء وأنتمُ
إني ضَمِينُ المسلمين جميعِهم | أن يخلصوا لكُمُ إذا أخلَصْتُمُ
رَبَّ الأريكة إنّنا في حاجة | لجميل رأيك والحوادثُ حُوَّم[1]
فأفِضْ علينا من سمائك حكمة | تأسو القلوبَ فإن رأيكَ أحكَمُ
واجمع شتاتَ العنصرين بعَزْمة | تأتي على هذا الخلاف وتحسِمُ
فكلاهما لعزيز عرشكَ مُخلِصٌ | وكلاهما برضاك صَبٌّ مُغرَمُ

ويموت مصطفى رياض الذي رأس المؤتمر المصري سنة ١٩١١ بعد المؤتمر بشهر وبعض شهر في ١٧ يونيه سنة ١٩١١ ، فيرثيه كثير من الشعراء . ولا يفوت شوقي أن يشير في رثائه إلى سعيه المشكور في إطفاء الفتنة ، حيث يقول :[2]

طلعتَ على النّدَىّ « بعين شَمْس » | فوافتها بشمسَيْن الغداةُ
على ما كان يَنْدُو القومُ فيها | توافَى الجمعُ وائْتَمَرَ السَّرَاةُ
تَملّكتَهُمْ وَقارُكَ في خشوع | كما نظَمَتْ مُقيميها الصّلاةُ
رأيتُ وجُوه قومِك كيف جلّت | وكيف ترعرعَت مصرُ الفتاةُ
تقول : متى أرى الجيران عادوا | وضُمّ على الإخاء لهم شَتاتُ ؟
وأينَ أُولو النُهَى منا ومنهم ؟ | عسى يأسونَ ما جرَحَ الغُلاَةُ
مشتْ بينَ العشيرَة رُسْلُ شَرٍّ | وفرّقتِ الظنونُ السّيّئاتُ
إذا الثقة اضمحلّت بين قوم | تمزّقت الروابطُ والصلاتُ
بني الأوطان هُبّوا ثم هُبّوا | فبعضُ الموت يجلِبُه السُبَاتُ

---

١ ـ الحوادث حوم : أي تحوم حولنا وتطوف بنا .
٢ ـ الديوان ٣ : ٤٧ وقد تفرد شوقي بالإشارة إلى المؤتمر المصري بين الشعراء الذين رثوه وتعمدوا أن يهربوا من الموضوع ويتجاهلوه .

مشى للمجد خَطْفَ البرقِ قومٌ ونحن إذا مشينا السُلَحفَاةُ
يُعِيدّون القُوَى بَرّاً وبحـراً وعَدَّتُنا الأمــاني الكاذباتُ

ويموت جُرجي زيدان سنة ١٩١٤ . فينتهز شوقي هذه الفرصة ، ويشير في رثائه إلى أن الأديان إنما نزلت لهداية الناس . فمن فسادِ الرأي أن نجعلها باباً للشر . وإنما يتبع الناس آباءهم في أديانهم ، ويَرِثون العقيدة فيما يرثون من مخلفات الأجداد : (١)

مَمالكُ الشَرْقِ أم أدْراسُ أطلال؟ وتلكَ دُولاته أو رَسْمُها البالي ؟
أصابها الدهرُ إلا في مــآثرِها والدهرُ بالناس من حالٍ إلى حالِ
وصار ما نَتَغَنّى من محاسنهــا حديثَ ذي محنةٍ عن صَفْوهِ الخالي
إذا جفا الحقّ أرضاً هانَ جانبُها كأنّها غابةٌ من غير رِئْبــالِ
وإن تحكّم فيها الجهلُ أسلَمَها لِفاتكٍ من عَوادي الذلّ قَتّالِ
نوابغَ الشرْقِ هُزّوهُ لَعَلّ بهِ من الليالي جمودَ اليائسِ السّالي
إنْ تنفخوا فيه من روح البيان ومن حقيقة العلم ينهضْ بعدَ إعضالِ
لا تجعلوا الدين بَابَ الشر بَيْنَكُمُ ولا محــلّ مُبــاهاةٍ وإدلالِ
ما الدينُ إلا تُراثُ الناسِ قبلَكُمُ كل امرىء لأبيه تــابعٌ تالي
ليس الغُلوُّ أميناً في مشورته مَناهِجُ الرُشْدِ قد تخفَى على الغالي

ويترجم واصف غالي - ابن بطرس غالي - بعض الشعر العربي إلى الفرنسية ، وينشر الترجمة في باريس في كتاب سماه « روض الأزهار » ، ويلقي بعض المحاضرات هناك في الإشادة بفضل الشرق والشرقيين ، فيقيم المصريون حفلا بفندق « شِبَرْد » في مساء ٤ يونيه سنة ١٩١٤ برياسة إسماعيل صبري (٢) . ويساهم شوقي في هذه المناسبة بقصيدته « ياشباب الديار » . وفيها يقول (٣) :

---

١ — الديوان ٣ : ١٢٥
٢ — مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٣٢١
٣ — الديوان ١ : ٢٣٥

يا بَني مصر، لم أقُل أُمّةَ القبْـ ــطِ ، فهذا تشبّثٌ بمُحَالِ (١)
واحتيالٌ على خيالٍ من المجْـ ــدِ ، ودَعْوَى من العِراض الطِوال
إنما نحن – مسلمين وقِبْطاً – أُمّةٌ وُحِّدَتْ على الأجيال
سَبَقَ النيلُ بالأبُوّةِ فينا فهو أصْلٌ وآدَمُ الجدّ تالي
نحن من طينةِ الكريم على اللّـ ــه ومن مائه القَرَاح الزُلالِ
مرّ ما مَرّ من قرون علينا رُسّفاً في القيود والأغلال
وانقضى الدهرُ بين زغردة العُرْ سِ وحَثْوِ التراب والإعوال
ما تحلّى بكم يسوعُ ولا كُنْـ ــتُمْ لِطه ودينِه بِجَمَال (٢)
وتُضاعُ البلادُ بالنوم عنها وتُضاعُ الحقوقُ بالإهمال

ويتجه في آخر قصيدته إلى شباب مصر، مسلمين وقبطاً، يذكرهم بواجبهم نحو وطنهم، وبأنهم موضع الأمل في النهضة به، فيقول:

يا شبابَ الديار مصرُ إليكم ولِواء العَرين لِلأشْبال
كلّما رُوّعَت بشُبهَةِ يأسٍ جَعلَتْكُمْ مَعاقل الآمال
هيئوها لِمَا يَليق بِمَنْفٍ وكريمِ الآثار والأطلال
هيئوها لما أراد « عليٌّ » وتمنى على الظُبَى والعَوالي
وانهضوا نهضةَ الشعوب لدنيا وحياةٍ كبيرة الأشغال

١ – يشير إلى ما كان يردده القبط من أنهم هم سلالة الفراعنة، وما يزعمونه من أن القبط تطلق على المصريين جميعاً . فهناك قبطي مسلم وقبطي مسيحي . ويراجع في ذلك على سبيل المثال نص المحاضرة التي ألقاها شكري صادق في حفلة جمعية التوفيق ، وموضوعها « الفنون القبطية وعلاقتها بالفنون الأخرى ». وقد نشرتها صحيفة « مصر » في أعداد ٣٠ يناير ، ٣١ يناير ، وأول فبراير سنة ١٩١٠

٢ – يقول للمسلمين والقبط : لم هذا التعصب ، وليس أحد منكم هو خير أمة نبيه ، فليس القبط هم أخلص أتباع المسيح ، ولا هم خير من ينفذ شريعته . وليس المسلمون من المصريين هم خير أمة محمد ولا هم أحرص المسلمين على إقامة شعائر الإسلام . والأولى لكل منهما أن يقيم دينه ويمارسه بدل أن يتخذه أداة للشر وسبباً للنزاع .

وإلى الله من مشى بصليب ، في يدَيْهِ ومن مَشى بهلال

ويساهم حافظ في الحفل بقصيدته : [١]

ياصاحب الروضة الغناء هِجْتَ بنا ذِكرى الأوائل من أهلٍ وجيران

ويكتفي فيها بالإشارة إلى فضل المحتَفَل به وإخلاصه لمصريته .

ويساهم إسماعيل صبري – رئيس الحفل – في هذه المناسبة بقصيدة قصيرة [٢] :

أيّ صوتٍ حَيّتْه بالأمس باريـ س مَقَرُّ العلوم والعُلَمَاء

وهو فيها كصاحبه حافظ ، فضّل أن يتجاهل وجود الخلاف القائم بين عنصري الأمة ، واكتفى بالثناء على واصف غالي ، والإشادة بمجهوده الأدبي .

* * *

كان هذا الشقاق إذن محنة امتحنت بها الجامعة المصرية الناشئة فثبتت لها . وكان فرصة مواتية لكلام كثير قيل في تثبيت دعائم القومية المصرية . وليس من الإسراف في الاستنتاج ، ولا هو من الغلو في القول ، أن نقرر أن الوحدة الرائعة بين عنصري الأمة ، التي بدت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٩ ، لم تكن إلا ثمرة لهذه الجهود المخلصة التي بذلت في رأبِ الصّدع ، وتوثيق الصلات ، وإزالة الأوهام ، وتصحيح فهم التدين . الذي لم يزل الجهل يأخذ بزمامه ، والعصبية العمياء تركبه ، حتى تردتِ به في فتنة هوجاء ، يبرأ منها إلى الله كلُّ دين .

١ – الديوان ١ : ٦٣

٢ – الديوان ص ٨٤

الفصل الرابع

تيارات سياسية

كانت الثورة العرابية بداية تحول خطير في الوعي السياسي المصري ، فقد كثر فيها الكلام عن حقوق المصريين وعن الحياة النيابية وعن الحد من سلطان الحاكم ومراقبة تصرفاته . وكان أخطر ما تنطوي عليه من دلالة أنها مظهر لثقة المصريين بأنفسهم وبقدرتهم على فرض إرادتهم ، وبجيشهم وبقدرته على الصمود في وجه الأجنبي .

والواقع أن ثورة الأفكار والتطلع إلى الحرية والنظم النيابية كانت قد بدأت منذ أواخر عهد إسماعيل ، واتسع مداها في أوائل عهد توفيق . فأخذت مصر تتطلع إلى نظام جديد يضع حداً للإسراف وللنفوذ الأجنبي ، ويوطد أركان العدل والحرية والدستور »[1] .

وبدأت مظاهر هذه الثورة الكامنة التي تريد أن تعبر عن نفسها في صور مختلفة . فقد بلغت جرأة الصحف في معارضة الحكومة حداً لم يألفه الناس ولم يعرفه الحاكمون من قبل . وأصبحنا نسمع للمرة الأولى في تاريخ مصر الحديث عن تعطيل الصحف واضطهاد رجال الصحافة [2] . وكثر حديث الناس عن

---

١ – الثورة العرابية ص ١٩ .

٢ – مثل صحف : « مصر » و « التجارة » و « مصر الفتاة » – الثورة العرابية ص ٦٩ ، زعماء الإصلاح ٣٠٠ ، ٣٠١ .

الظلم والظالمين . وجهر الثوار بآرائهم الجريئة التي صادفت هوى في النفوس . وانطلق جمال الدين الأفغاني يشحن قلوب تلاميذه ومريديه بالثورة على الأوضاع السائدة ، ويوقظ فيهم روح الحميّة والأنفة بما يلقي إليهم من مثل قوله : (١)

« إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، وربيتم بحجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتّى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوَطْأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحَيْف والجور ، وتنزل بكم الخَسْف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم ، المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم ، بالمِقْرَعة والسوط ، وأنتم في غفلة معرضون . فلو كان في عروقكم دم فيه كريّات حياة ، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة ، ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ، ولما قعدتم على الرَّمْضَاء وأنتم ضاحكون . تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك والعلويين ، وكلهم يشق جلودكم بمِبْضَع نَهَمِة ، ويَهيضُ عظامكم بأداة عَسْفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة ، لا حس لكم ولا صوت . انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط ، شاهدةً بمَنَعَة آبائكم وعزة أجدادكم .

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرشيد فلاح

هبوا من غفلتكم . اصحوا من سكرتكم . انفضوا عنكم غبار الغباوة

١ – تاريخ الإمام ١ : ٤٦ . ومن المعروف أن جمال الدين الأفغاني أحد دعائم الماسونية في مصر . وأنه قد ضم إليها تلاميذه المقربين الذين لعبوا الدور الأول في تهييج الناس وعلى رأسهم محمد عبده وأديب إسحق . كما ضم إليها عدداً من الكبراء والوجهاء منهم ولي العهد توفيق باشا ، ومن المعروف أيضاً أن بعض زعماء الثورة مثل البارودي – كان ماسونياً . وأن المستر بلنت كان على صلة بزعماء الثورة كما هو ثابت في مذكراته . ولذلك فستظل صلة الثورة العرابية بالماسونية وبالصهيونية العالمية سؤالا يحتاج إلى جواب وتعوزه الأدلة الصريحة القاطعة . اما جمال الدين الافغاني فقد كان رجلا مريبا ، له أهداف خطيرة تختلف عما يتظاهر به من الغيرة على الاسلام . وفي كتابي « الاسلام والحضارة الغربية» تفصيل أكثر عنه .

الفصل الرابع

تيارات سياسية

كانت الثورة العرابية بداية تحول خطير في الوعي السياسي المصري ، فقد كثر فيها الكلام عن حقوق المصريين وعن الحياة النيابية وعن الحد من سلطان الحاكم ومراقبة تصرفاته . وكان أخطر ما تنطوي عليه من دلالة أنها مظهر لثقة المصريين بأنفسهم وبقدرتهم على فرض إرادتهم ، وبجيشهم وبقدرته على الصمود في وجه الأجنبي .

والواقع أن ثورة الأفكار والتطلع إلى الحرية والنظم النيابية كانت قد بدأت منذ أواخر عهد إسماعيل ، واتسع مداها في أوائل عهد توفيق . فأخذت مصر تتطلع إلى نظام جديد يضع حداً للإسراف وللنفوذ الأجنبي ، ويوطد أركان العدل والحرية والدستور »[1] .

وبدأت مظاهر هذه الثورة الكامنة التي تريد أن تعبر عن نفسها في صور مختلفة . فقد بلغت جرأة الصحف في معارضة الحكومة حداً لم يألفه الناس ولم يعرفه الحاكمون من قبل . وأصبحنا نسمع للمرة الأولى في تاريخ مصر الحديث عن تعطيل الصحف واضطهاد رجال الصحافة[2] . وكثر حديث الناس عن

١ — الثورة العرابية ص ١٩ .

٢ — مثل صحف : « مصر » و « التجارة » و « مصر الفتاة » —الثورة العرابية ص ٦٩ ، زعماء الإصلاح ٣٠٠ ، ٣٠١ .

الظلم والظالمين . وجهر الثوار بآرائهم الجريئة التي صادفت هوى في النفوس . وانطلق جمال الدين الأفغاني يشحن قلوب تلاميذه ومريديه بالثورة على الأوضاع السائدة ، ويوقظ فيهم روح الحميّة والأنفة بما يلقي إليهم من مثل قوله : [١]

«إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، وربيتم بحجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتّى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوَطْأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحَيْف والجور ، وتنزل بكم الخَسْف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم ، المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم ، بالمِقْرَعة والسوط ، وأنتم في غفلة معرضون . فلو كان في عروقكم دم فيه كريّات حياة ، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة ، ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ، ولما قعدتم على الرَّمْضَاء وأنتم ضاحكون . تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك والعلويين ، وكلهم يشق جلودكم بِمبْضَعِ نَهَمَة ، ويَهيضُ عظامكم بأداة عَسْفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة ، لا حس لكم ولا صوت . انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط ، شاهدةً بمَنْعَة آبائكم وعزة أجدادكم .

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ۝ إن التشبه بالرشيد فلاح

هبوا من غفلتكم . اصحوا من سكرتكم . انفضوا عنكم غبار الغباوة

١ – تاريخ الإمام ١ : ٤٦ . ومن المعروف أن جمال الدين الأفغاني أحد دعائم الماسونية في مصر . وأنه قد ضم إليها تلاميذه المقربين الذين لعبوا الدور الأول في تهييج الناس وعلى رأسهم محمد عبده وأديب إسحق . كما ضم إليها عدداً من الكبراء والوجهاء منهم ولي العهد توفيق باشا ، ومن المعروف أيضاً أن بعض زعماء الثورة مثل البارودي – كان ماسونياً . وأن المستر بلنت كان على صلة بزعماء الثورة كما هو ثابت في مذكراته . ولذلك فستظل صلة الثورة العرابية بالماسونية وبالصهيونية العالمية سؤالا يحتاج إلى جواب وتعوزه الأدلة الصريحة القاطعة . اما جمال الدين الافغاني فقد كان رجلا مريبا ، له أهداف خطيرة تختلف عما يتظاهر به من الغيرة على الاسلام . وفي كتابي « الاسلام والحضارة الغربية» تفصيل أكثر عنه .

والخمول . عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء ، أو موتوا مأجورين شهداء »

وغمر البلادَ سيلٌ من المنشورات السرية التي تصور سوء الحال وانتشار الظلم مطالبةً بوضع حد لما تعانيه مصر والمصريون [1] . ثم أسفرت جماعة الثوار من الساخطين عن وجهها وجهرت بوجودها . فكوّنوا حزباً سياسياً للمرة الأولى في تاريخ مصر الحديث ، سموه الحزب الوطني . ونشر الحزب برنامجه الرسمي في جريدة التيمس في أول يناير سنة ١٨٨٢ . وهو يدل على وعي وطني من نوع جديد ، يقوم على أساس القومية المصرية وحدها دون تفريق بين الأديان . فقد جاء فيه :

« الحزب الوطني حزب سياسي لا ديني . فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب . وأغلبيته مسلمون لأن تسعة أعشار المصريين من المسلمين . وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه ، لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات . ويعلم أن الجميع إخوان ، وأن حقوقهم في السياسة والشرائع متساوية » [2]

وظهر من الشعراء مَن يستطيع أن يقول عن إسماعيل أيام كان الجبروت في عنفوانه [3] :

رمَى بلادكمُ في قعْرِ هاويــة من الديون على مرغوب جوسيار [4]
وأنفق ... [5] لابخلاً ولا كـرَمَاً على بَغيٍّ وقوّاد وأشرار
والمرء يقنع في الدنيا بواحدة من النسا [5] وهو لم يقنع بمليار

١ – كان أول هذه المنشورات بيان سياسي في ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩ طبع منه عشرون ألف نسخة.ويروى أن مصطفى رياض رئيس الوزارة وقتذاك حاول معرفة ناشريه لإقصائهم إلى السودان فلم يستطع « الثورة العرابية ص ٧٠ » . وهذه الرواية تحتاج الى تحقيق دقيق ، لما هو معروف من صلة رياض بالافغاني صانع هذه الثورة .

٢ – الثورة العرابية ص ١٤٧ وقد قام المستر بلنت بنشر هذا البرنامج في جريدة التايمز .

٣ – ديوان صالح مجدي ص ١٧٩ .

٤ – لم أهتد إلى جوسيار هذا . ولعله أحد الأجانب ذوي النفوذ من مستشاري اسماعيل .

٥ – موضع هذه الكلمة بياض بطبعة الديوان . ولعل الكلمة الساقطة هي « المال » .

ويكتفي ببنـــاء واحد وله تسعون قصراً بأخشاب وأحجار
فاستيقظوا لا أقال الله عثر تكم من غفلةٍ ألبستكم ملبس العار

وصالح مجدي صاحب هذه الأبيات هو الذي يقول نادماً على ما أنفق من جهد ، وما سوّد من صحف في مدح طائفة من الملوك والرؤوس والوجهاء ، هم أحق الناس بالذم والهجاء [1] :

أستغفر الله من نظم القريض ومن وَسْمِ البغيض بما يُعْزَى لرئبال
ومن مديح غدا ذمّي به أبـــداً فرضاً على مؤمن عدل وتنبال
ومن أكاذيب ألفاظ بها انتشرت صحائفٌ طيّها قد كان أَوْلَى لي
ومن ثنـــاءٍ مجازيٍّ حقيقتـــه تهكم عند تفصيل وإجمـــال
ومن حماس خياليّ قد اندرجت به ذوو الجبن في تعداد أبطال
ومن زخارف أوزانٍ نظمت بها ركن الخنا والعنا في سلك أقْيَال [2]

وهذا الشاعر الذي توفي قبل قيام الثورة العرابية بشهور في نوفمبر سنة ١٨٨١ هو الذي يقول ، مستثيراً همم المصريين لمقاومة النفوذ الأجنبي الذي استفحل في مصر ، حتى غدت مرتعاً لكل أفاق [3] .

خليليّ ما للفضل والعلم قيمة مع الجهل في دار العنا والمغارم
وما صاحب العرفان فيها كجاهل أتاها ذليلا من بلاد الأعـــاجم
فلو كان فينا نخوة عربيـــة لملنا على أعدائنا بالصـــوارم
فإن نحن متنا قبل أن نبلغ المنى عُذِرنا ورحنا بالثنا والمكارم
وإن نحن أنقذنا من الجور أهلنا ظفرنا وفزنا بالثنا والمغـــانم
أما فيكمُ يا أهل مصر كغيركم نصيراً يرجّى للقنـــا والعزائم
فلو أن لي جيشاً به ألتقيهمُ لأفنيت أقصاهم برمح وصارم
وطهرت أرض الله منهم بقتلهم وأيدت دين المصطفى خيْرِ هاشم

١ - ديوان صالح مجدي ص ٢٣٤
٢ - الأقيال : جمع قيل « بفتح ثم سكون » : الملك . وأصله لقب لملوك اليمن في الجاهلية .
٣ - ديوان « صالح مجدي » ص ٢٧٥ . وراجع كذلك في هذا الغرض ص ٢٣ . من ديوانه

وأمسيت كالليث ابن أيوب مغرماً بضرب رقاب منهُم ومَعَاصم[1]
فيا آل مصر لا تنــاموا ودافعوا عن الدين والأوطان أهلَ المحارم
فأموالكم أضحت لديهم غنيمة وأبناؤكم ما بين عبــد وخادم
ومن بعد ماكنتم شموس معارف كسفتم وأصبحتمَ شبيه البهائم
وعشتم بذل بعد جاه وعزة ودارت عليكم دائرات المظالم
فلا تغفلوا عن قطع دابر نسلهم فقد ملأوا بالفسق كل الملاحم

وبدأ هذا الشعور الغامض بالسخط يتبلور ، وبدأت الآراء المختلطة تنضج وتأخذ أشكالا محددة واضحة المعالم والأهداف والمناهج . فهذا هو محمد شريف يؤلف وزارته الأولى سنة ١٨٧٩ في أواخر أيام إسماعيل على أساس مسؤولية الوزارة أمام مجلس شورى النواب. ويعود فيؤكد ذلك عندما دعاه توفيق - بعد عزل أبيه - إلى إعادة تأليف الوزارة ، ويصدر بعد تشكيلها « أمراً سامياً » يوضح فيه برنامج الحكم . وفيه يقرر مسؤولية الوزارة ، كما يقرر العمل على حل المشكلات المالية والحد من نفوذ الأجانب ، وذلك بهيمنة مجلس النواب على الميزانية وبعدم إشراك الأجانب في الوزارة [2] . وهذا هو محمد عبده يكتب مقالين في سنة ١٨٨١ يؤيد فيهما النظام النيابي ، ويدلل على وجوبه ولزومه للحاكم والمحكوم ، كما يتكلم عن قيمة الرأي العام في تقويم الحاكم ومراقبة تصرفاته ، وفي لمّ الشتيت المتفرق من الآراء والمصالح ، بما يصون مصالح الوطن ويحقق السعادة والرفاهية للمواطنين جميعاً [3] . يقول محمد عبده في وجوب الشورى على الحاكم « خلق الإنسان محاطاً بالشهوات ، مكتنفاً بالاميال ، مقيداً بالأغراض . فهو أسيرها ، تدفعه إلى مقتضياتها ، وتجذبه إلى لوازمها ، بحيث تكون جميع قواه آلات لها تحركها بما يناسبها ، وتستعملها فيما يلائمها . فلا

١ – ابن أيوب هو : « صلاح الدين الأيوبي » .
٢ – الثورة العرابية ص ٢٥ .
٣ – نشر المقالان في عددي ٢٤ ، ٢٥ ديسمبر من الوقائع المصرية – تاريخ الإمام ٢ : ١٩٧ – ٢٠٥

يتصور حسناً إلا ما تستحسن ، ولا يتخيل جميلا إلا ما تستجمل . وهذا أمر يكاد أن يكون طبيعياً فطرياً، لا يمكن الإنسان أن يغالبه، ولا أن يتخلص منه، وإن أمكن في بعض الأحيان تقليل سطوته وتحديد سلطته . على أن هذا أيضاً ليس في وسع كل أحد ولا في طاقة كل شخص . فلا يستطيعه إلا من كبرت همته ، ولا يقدر عليه إلا من ذكت فطنته ، حتى يتمكن من ردع تلك الدوافع وكبح تلك الجواذب ، بما يتخذه من الوسائل المختلفة ، حسب اختلاف المقاصد، والذرائع المتنوعة، حسب تنوع الغايات .

وحيث كانت هذه الدوافع والجواذب قوية لدى أولي الأمر لاقتدارهم على مقتضياتها وتمكنهم من لوازمها ، كانوا مضطرين إلى مغالبتها ومقاومتها بما يتيسر من الوسائل المؤدية إلى ذلك ، حتى يتمكنوا من النهوض بما وُسِدَ إليهم من رعاية مصالح العباد . وليس من وسيلة إلى ذلك إلا مشاورة العارفين العالمين بطرقها ، فإن للرأي العام في مغالبة الأهواء ما لا يخفى من القوة . ولذلك ترى أن الإنسان ربما مال إلى شيء ، ولكن يمنعه من معاطاته علمه بأن الرأي العام لا يستحسنه.وأيضاً فالإنسان الواحد قاصر وإن بلغ ما بلغ من اتساع نطاق الفكر عن أن يحيط علماً بالمصالح عامةً ، خصوصاً إذا كانت مصالح أمة كبيرة . فإنها حينئذ تكون بمنزلة الفنون المتنوعة المختلفة التي يعجز الإنسان الواحد أن يستوعبها ويستوفيها اطلاعاً » .

ويقول في وجوب الشورى على المحكوم : « قد علمت أن الواحد وإن بلغ من علو الفكر ورفعة الذكاء مكاناً علياً قاصرٌ عن الإحاطة بمصالح الأمة . وحينئذ يلزمها إذا ألقت إليه مقاليد مصالحها أن تمده من آرائها بما يقتدر به على النهوض بواجباتها والقيام بحقوقها . فليس من الإنصاف أن تلقى على كاهله أعباء هذه المصالح الجسيمة وتتخلى عنه ، ثم إذا رأت ما لا بد منه من التقصير وجهت إليه سهام اللوم. بل يجب عليها مساعدته بما تراه موافقاً لوجه الصواب . ثم إذا وجدت منه تقصيراً فيما اختص به كان لها حينئذ أن تلوم »

ويقول في نشأة الرأي العام ولزومه : « إن القانون الصادر عن الرأي العام

هو الحقيق باسم القانون المقصود بالبيان ليس إلا . وبيانه أن الاجتماع بين أمة من الناس من مبدأ أمره لا يكون له داعية سوى الصدفة ، أو أسباب أخرى قهرية لا تخرج عن الطوارق التي تلم بالإنسان فتلجئه الى ملجأ من نوعه يستعين به على دفعها . فإذا استتب الاجتماع وسكن الأمن في قلوب المجتمعين ، وانقطع كل منهم في الأسباب التي توصله إلى لوازم المعيشة ، نزع فيهم حب المسابقة في كل ما يتنافس فيه كل حي ، وتولد من ذلك حب الطمع والشرَه ، وجرّ الأمر إلى الحسد والبغض والبطر ، فأصبحوا وهم في مكان واحد متباعدي المقاصد، أشتاتَ القلوب، لا يبالي أحدهم بافتداء مصلحته بمصلحة الآخر بأي طريق سلك ، ونسي رابطة الاجتماع وواجب الاشتراك في الوطن، وتناول أشدُّهم عَضُداً مقاليد الحكم عليهم، وبث فيهم أعوانَه وأنصارَه بدون قاعدة تربط الأعمال وتبين الحدود . فحينئذ لا ترى لاثنين منهم رأيين متوافقين ولا قصدين متطابقين . بل لا ترى إلا نفوساً شاردة ، وأغراضاً متباينة ، تسوقهم عصا الظلم ، وتجمعهم دائرة الغُرْم . فهم في هذه الحالة ليس لهم وجهة تربط أعمالهم وتوحد مقاصدهم ، بحيث تكون محوراً لدائرة أفكارهم ، وغايةً تنتهي إليها حركاتهم في كافة أمورهم ، إذا ما نزل بهم من دواعي الاضطراب، وأسباب تبلبل الألباب، ما جعل لكل منهم شأناً خاصاً به ، فلا يفكر يوماً ما في حقوق الاجتماع ونسب الارتباط ، فكأنه أمة وحده، مقطوع العلائق بغيره. فلا يتصور أن يكون لهم حينئذ رأي عام يجمعهم. . فإذا توالت عليهم الحوادث ، وعلمتهم أسفار الأخبار طرفاً من سير الأمم ، تذكروا أنه قد كان من حقوق الاجتماع ما يسوقهم إلى العيش الرغد ، ويصون عناصرهم الشريفة من لَوْثِ الخسة ودناسة الاتضاع . فتهم نفوسهم بتقويم دعائم الاجتماع على أصولها التي تطالبهم بها طبيعته ، فتمانعهم تلك الأخلاق التي نشأوا بها ممانعة تُضْعِف منهم قوة العمل. فكلما قويت فيهم دواعي الاجتماع اشتدت كراهتهم للتقاعد عن الأخذ بالوسائل ، وطفقت نفوسهم تنفض عنها دَرَن الملكات الفاسدة ، وتوفرت فيهم بواعث الأعمال المختلفة ، وأصبحت

المقاصد متجهة إلى غاية واحدة ، وهي المعاضدة على حفظ الهيئة الاجتماعية . فعند ذلك ترى من لم تهزه الشفقة منهم على المنافع العامة ولم يفقه حقيقتها يوماً يفضلها على غاياته الخاصة ، ويعلمها حق العلم بدون أن يتلقى درسها من معلم ، فإن الحاجة هي الأستاذ الذي لا يضيع تعليمه ، ولا يخيب إرشاده . ومن هنا ينشأ بين الناس ما يعبر عنه بالرأي العام ، وهو الأساس الذي بدونه لا يمكن أن تتوجه الكلمة في أمر ما يراد التداول فيه ، ونقطة التلاقي التي تجتمع بها أطراف الأفكار المتشعبة ، وتنمحي فيها الأغراض المتعددة . . . فإذا بلغت أمة من الناس هذه الدرجة من التنوّر ، وأصبحوا جميعاً على رأي واحد في وجوب ضبط المصالح ، وتقييد الأعمال بحدود مقدسة ، تصان ولا تهان ، اندفعوا جميعاً إلى طلب هذه الحقوق الشريفة ، بدون أن يخشوا لومة لائم . ولا يكتفون دون أن يروا بين أيديهم قانوناً عادلا لائقاً بحالهم ، منطبقاً على أخلاقهم وعوائدهم ، كافلا بمصالحهم ، يرجعون إليه في أمر المساواة والأمن على البلاد والعباد » .

وهذا هو عرابي وصحبه يناقشون أنواع الحكومات وأساليب الحكم ، فيفضلون النظام الجمهوري ويهمون بتنفيذه ، فلا يحول بينهم وبين ذلك إلا ما يخشون من مفاجأة الرأي العام بنظام لم يستعدوا له . وفي ذلك يقول عرابي في خطاب له إلى بلنت : « ثم خُلِع اسماعيل فزال عنا عبء ثقيل . ولكننا لو كنا نحن قد فعلنا ذلك بأنفسنا لكنا تخلصنا من أسرة محمد علي بأجمعها ، ولم يكن فيها أحد جدير بالحكم سوى سعيد . وكنا عندئذ أعلنا الجمهورية » (١) ويقول البارودي « كنا نرمي منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر جمهورية مثل سويسرا . ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة ، لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم . ومع ذلك فسنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت » (٢) .

١ – البارودي « رسالة ماجستير مخطوطة للسيدة نفوسة زكريا أعدت تحت إشرافي » ص٢٨ نقلا عن بلنت في التاريخ السري للاحتلال البريطاني .
٢ – المرجع السابق ص ٤٠ .

وانتهت الثورة العرابية بسجن زعمائها وتشريدهم . واستولى اليأس على الناس، وفشا فيهم روح التخاذل ،ودب دبيب السعايات. وفقد الصديق ثقته في صديقه ، بعد الذي كان من شهادة بعضهم على البعض ، وإيقاع الواحد منهم بجاره وصديقه تحت ضغط المحققين وهول الإرهاب . وكره الناس السياسة وتشاءموا باسمها واستعاذوا بالله من شرها ، فانطووا على أنفسهم لا يرجون إلا السلامة ، ولا يطمعون إلا في حياة هادئة لا ينغصها الهم والفزع ، وقد تضافر عليهم الفقر والمرض ، فاجتاحت الكوليرا –أو « الشّوطة » كما كانوا يسمونها– مصر في السنة التالية للاحتلال ، وراح ضحيتها أكثر من ستين ألفاً من المصريين(١) . وأخذ الاحتلال في غَمْرةٍ من يأس الناس وموت الهمم وارتماء الخديوي في أحضان أولياء نعمته الذين يدين لهم بكيانه وسلطانه يثبت أقدامه ويدعم كيانه . فتسلط على الجيش بعد أن حله وأعاد تكوينه ضئيلا هزيلا أعزل ، لا يتجاوز عدده ستة آلاف ،في قبضة« سِرْدار »إنجليزي يعاونه نفر من كبار الضباط من بني جنسه . وأُغلقت جميع مصانع الأسلحة بعد أن بيعت أدواتها بأبخس الأثمان،وبيعت السفن الحربية أو حطمت وبيعت أجزاؤها، وصارت مهمات الجيش وأدواته تشترى من إنجلترا ولا يحملها الجنود المصريون إلا وقت التمرين(٢) . وتسلط الاحتلال الإنجليزي كذلك على الشرطة بوضع رجل إنجليزي على رأسها، وتعيين وكيل إنجليزي لوزارة الداخلية ، بلغ من غطرسته أن حضر يوماً تمثيل إحدى الروايات بمسرح زيزينيا في الإسكندرية فجلس في مقصورة الخديوي الخاصة(٣).وتسلط على الحياة الاقتصادية بإلغاء المراقبة الثنائية وتعيين مستشار انجليزي للمالية . وألغى الحياة النيابية ،وأغرق مصر وأرهقها بتعويضات الأجانب عما نالهم من ضرر مزعوم–وقد أربت على أربعة ملايين من الجنيهات(٣) –وبتكاليف جيش الاحتلال والموظفين الإنجليز

١ – مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ص ٣٢ ، مصر للمصريين ٦ : ٢٢٥ – ٢٢٦ .
٢ – مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ص ١٧ ، ١٩ .
٣ – المرجع نفسه ص١٥٩ .

وقد بلغت سنة ١٨٨٣ ما يقرب من نصف مليون جنيه [١] ، وبتكاليف حرب المهدي في السودان . وتوالت الوزارات المستسلمة للإنجليز ، المرتمية في أحضانهم ، نوبار ثم رياض ثم مصطفى فهمي . وأُخمِدت أنفاس الصحافة لأدنى شبهة يتوهم فيها التعريض بالاحتلال أو الخديوي . فمُنِعت « العروة الوثقى » التي كان يصدرها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في باريس من دخول مصر . وألغيت صحيفة « الوطن » وصحيفة « مرآة الشرق » وصحيفة « الزمان » وعطلت « الأهرام » شهراً [٢] كل ذلك والناس أشباه أموات ، لا تُسْمَعُ لهم نأمة ، ولا يرتفع صوت بمعارضة أو شكوى أو تذمر .

وكان أول صوت ارتفع باسم الوطن والوطنية بعد الاحتلال هو صوت صحيفة « المؤيد » التي ظهر العدد الأول منها في أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ . وقد جاء في فاتحته « وما لنا أن لا نقوم بشعائر تطالبنا بها الإحساساتُ الطبيعية والحاجاتُ الوطنية ودواعي الحياة الدينية والأدبية وكمالُ التحقق بحقيقة الوحدة الجامعة الجنسية . فنسألك اللهم أن ترشدنا إلى خير ما أردنا وأحسن ما نريد ، وأن تؤيدنا بعنايتك الصمدانية ، فإنك الفعال لما تريد » . ثم يقول : « خدمة الأوطان أوجب الواجبات وألزم الفرائض . من أضاعها قضت عليه شريعة الطبيعة بالحرمان الأبدي والشقاء الدائم . فمقصدنا من نشر المؤيد هو تأدية الفرض عن طهارة طَوِيّة وإخلاص نية . وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى . . . ومهما جدّ سوانا في خدمتنا واجتهد ، أو هجرت عينُه الغَمْضَ ، فلا تقوم النافلة مكان الفرض . وليس من المروءة أن لا نشارك من جاد علينا بخدمة الوطن ، وندع نواظرنا لفتور الوَسَن . »

« فما الناس إلا يقظة ، فإذا غَفَتْ عيونُهُمُ داستَهُمُ حُمُرُ الناس
فبالعين يُكفى المرء صدمةَ عاثر وفي العين يهوي مِن تَغافُلِه الناسي [٣] »

---

١ – المرجع نفسه ص ٦٤ .
٢ – المرجع نفسه ١٦١ – ١٦٣ ، مذكراتي في نصف قرن ١ : ١٩٠
٣ – العين الأولى مقصود بها العضو المبصر والثانية مقصود بها البئر .

وارتفع صوت « المؤيد » للمرة الأولى منذ الاحتلال بإثارة مسألة الجلاء. فأخذ يتساءل : « أحقٌ ما تقولون من أنكم ستتركون مصر عند تمام إصلاحها ؟ وما هو الصلاح الذي تعلقون عليه أمر انجلائكم؟ وهل بدأتم فيه أو تم شيء منه[1]؟ »

وارتفع صوته للمرة الأولى منذ الاحتلال ينشُدُ المصريين الاتحاد ويذكرهم بمجدهم القديم وينبههم إلى خطر الاستعمار الاقتصادي إذ يقول : « أيْ بني وطني الأعزاء علي ، الأصدقاء إلي . أيْ أفرادَ العائلة المصرية ، وأجزاءَ هيئتها المدنية . علمتم — ولا أخالكم تجهلون — حالة بلادنا في الأزمان الغابرة والقرون المتوسطة ، وما جناه اللاحق على السابق . . وهاهي الحالة الحاضرة تطالبكم بأداء الواجب عليكم ، مما يجعلكم رجالاً تبارون الرجال . وإن تيار هذا التمدن الحديث لا يجاريه إلا من عرف وجهة مجاريه ، ذوو القوة ممن هذبتهم التجارب ، فحافظوا على الأوقات وانتهزوا الفرصات . اعلموا بني أبينا أن هذا التمدن قد حُمِل إلى بلادنا على أكف أقوام أقوياء حرصاء ، لم يرضهم في ثمنه القليل ، ولم تكفهم في مقابلته القيمة ، يودون أن يضربوا بأيديهم على التجارة والصناعة ومصادر الثروة . ونحن ننظر إليهم بعين المتعجب الباهت ، مرسَلةً أيدينا إلى الجوانب ، كأننا لسنا جميعاً أبناء أب واحد وأم واحدة . إن هذا لشيء عجاب »[2]

وراح يستنهض الهمم ويوقظ النوام بمثل قوله :

« ألا قل لمن يظن أن مجد الأمة بالمال والحرية : إن المال لا ينهال من السماء ، والحرية لا تنبعث من الينابيع والجداول . وكلاهما لا يأتي إلا من طريق العزم والحزم ، ولا يغرس في الأمة إلا بأيدي كبار رجالها الذين يحبون أن يروا شعبهم متجلبباً بجلباب السعادة والرفاهية في أعين الشعوب . ولا يخفى أنه لا يُشَخِّصُ الأمةَ في عيون غيرها إلا حالُ القابضين على أزِمّة أمورها . فإن كانوا أشداء حرصاء على المنفعة ، عالمين بما يجب أن يكون ، لا تلجئهم الشدة إلى الترلف ، واللين إلى التفريط ،

١ — منتخبات المؤيد السنة الأولى — مقال عنوانه « متى تصلح مصر » ص ٣٠

٢ — منتخبات المؤيد السنة الأولى — مقال عنوانه « يا بني مصر » ص ٤٧

ظهرت الأمة هكذا ، فعظمتها القلوب وأكبرتها الأعين . ولكن إذا كانوا ضعافا أذلاء ، تلعب بأعطافهم الكبرياء على الضعفاء ، ويأخذهم الصَّغارُ لدى الأقوياء ، وقعت الأمة في بُحْران الفساد ، وظهرت وعلى وجهها غبار الذل ، منكسرةَ القلب ، لا تكاد تتحرك أو تخطو خطوة إلى مقصد . »[1]

وأخذ يستثير الحمية ويضرب للناس الأمثال بمثل قوله :

« قالت الحكماء إن الحياة هي مجموع الوظائف التي تقوم بها أعضاء الجسم . والموت هو بطلان تلك الوظائف . وهو أقرب التعاريف وأسلمها من التكلف . وعليه فلا بأس من إطلاق الحياة على الأمة ، فيقال هذه أمة حية ، إذا كان أفرادها الذين هم بمنزلة الأعضاء لجسمها قائمين بوظائفهم . ويقال تلك الأمة ميتة ، إذا أخلد أفرادها إلى النوم والكسل ، ولم يقوموا بواجباتهم التي يفرضها عليهم قانون البقاء في عالم الوجود . . . هل كان يُظَنّ أن عرب البوادي تقوم منهم أمة يتحرك فيها سبعون ألف فارس لامرأة صاحت : وامعتصماه ، أو أن الإنكليز يصبحون شعباً يقوم منه اثنا عشر ألف مقاتل للأخذ بثأر رجل منهم قتله بعض المتوحشين ، ويقوم منه رجال يجعلون لفظة بريطانيا لا تذكر إلا وعلى أثرها « العظمى » ؟ . . ويُحرِق فئةٌ منهم ثلاثين ألف مجلد من كتاب فرنساوي ذكر فيه غلادستون بغير ما يليق به من التعظيم ؟ . . بل من كان يظن أن الأمة الفرنساوية ، التي كانت بيوت أهلها مبنية من قبلُ على هيئة الحصون والقلاع ، لما كان متسلطاً عليهم من الفشل والانحلال ، تدرج منها أمة تطير أفئدتها عند ذكر الألزاس واللورين (مديريتان أخذتهما منها الألمان في الحرب الأخيرة) ،ويأبىَ الواحدُ من أفرادها أن يدخل خاناً ألمانياً أو يشتري بضاعة من ألمانيا ، متى أمكنه أن يشتريها من فرنساوي ؟ . . بل من كان يخطر على فكره أن البرتغال — على قلة عَدَدهم وعُددهم — تتوقف عَمَلَتُهم عن شحن المراكب الإنكليزية وتفريغها ، ويكتب تجارهم إلى وكلائهم أن لا يشتروا البضائع الإنكليزية ، ولا يشحنوا ما لديهم في مراكب إنكليزية ، ويطرحوا عن رؤوسهم البرانيط التي

١ — منتخبات المؤيد ص ٢٨ « الأمة برجالها »

صنعها الإنكليز، كل ذلك لأن الإنكليز عارضوا حكومتهم في بعض مستعمراتها؟ والأمثال على ذلك كثيرة ، لا يبعد على الأديب أن يأخذ مما بين طرَفيْ حالة كل أمة أطوارَها العديدة ، ويزن بذلك قوة حياتها . »

« ولقد قال بعض الحكماء : إنك إذا رأيت الغلام في المكتب يسمع سب أبيه ولا يتميز غيظاً ، فبشر الأمة التي سيكون عضواً منها بالانحلال والدمار . ولقد رأينا مصداق ذلك في بلادنا هذه. فقد نُقل إلينا في بعض التواريخ أنه كان يُسَبّ المصري بلفظة فلاح فيقول « قطع الفلاح ونهاره ». وإذ ذاك كانت مصر على ما لا يخفى من الانحلال والبوار . » (١)

وأخذ يحذر من كل ما يمس كيان الوطن ، أو يضعف الشعور بالقومية المصرية . فهو يوجه الأنظار إلى ما ينطوي عليه انتشار المدارس الأجنبية من أخطار ، إذ يقول :

« ما طمحت الدول الأوروبية إلى الاستيلاء على بلد وإقليم من قارة إفريقية ، أو بعبارة أخرى من الشرق عموماً ، إلا وسبقت إليه بافتتاح المدارس بمُرْسَليها الدينيين ومن تخلّق بأخلاقهم ، ليمهدوا لها طريق الافتتاح أو الاستعمار ، علماً منهم بأن مأمورية هؤلاء المعلمين ليست إلا عبارة عن بث أخلاق وعوائد وتعاليم ، دينيةً كانت أو فنية. وهم إذا دخلوا قرية وظهروا بهذا المظهر لا يلاقون معارضة أو ممانعة، لأن حجتَهم نشرُ العلم والتهذيب ، ورفعُ لواء التمدن . ومن لا يرضى بذلك فليس له من اسم الإنسانية نصيب ، تقوم عليه قائمةُ حربَ التعنيف والتنديد بلسان كل خطيب وقلم كل كاتب . فلا مناص من أن تقبل هذه الأقاليمُ الشرقية الوافدين إليها من المرْسلين الذين هم نُصراء الهداية والمعارف والتمدن في مظهر العين ، وسفراءُ الاستعمار والاستيلاء في الحقيقة ... وهل يُتصوَّر أن قوماً جازوا البحار ، وتجشموا الأخطار لمحض منفعة مَن وفدوا لديهم خدمةً للإنسانية كما يقولون ؟ كلا فالإنسان لا يتحرك حركة ولا يعمل عملا إلا وله غرض ذاتي فيه. لكن قد لا يكون الغرض الذاتي محض

١ — منتخبات المؤيد ص ٨١ « حياة الأمم » . « قطع الفلاح ونهاره » حكى الكاتب العبارة بالعامية . يدعو على نفسه فيقول : قطع الله الفلاح واليوم الذي كان فيه .

الباعث ولا مُضِراً في النتيجة . وقد يكون كذلك . وقد قيل : كلما عظم العمل كان الباعث أعظم . فلا ريب أن البواعث التي دعت الأجنبيين إلى مفارقة ديارهم والنهوض إلينا هي جليلة . ولا يمكننا أن نقول هي محض التكسب واستجلاب الدرهم والدينار . فإن بعض تلك المدارس يأخذ على التعليم ما لا يكاد يفي بنفقات التلميذ ، والبعض يقبل الفقراء مجاناً . بل إننا نعلم حق العلم أنه ما من مدرسة من هذه المدارس إلا ولها جمعية من الجمعيات الخيرية في مملكتها ، تنفق عليها النفقات الطائلة . ولا يكون ذلك عبثاً . ونرى بأعيننا من جهة أخرى أن كل مدرسة غربية ما وضعت يدها على أمة أو قبيلة تملكاً أو حماية ، إلا وقد جعلت مقدمة ذلك هذه المدارس . فبان أن المقصد العظيم والباعث القوي هو سياسي مِلّيٌّ في آن واحد كما قدمنا . » [1]

* * *

كان صوت « المؤيد » هو البشير بأن مصر لم يزل فيها بقية من حياة وإحساس . ولم يمض على صدوره أقل من ثلاث سنوات حتى ظهر العدد الأول من مجلة « الأستاذ » في ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢ [2] ، فحمل فيها عبد الله النديم على الاستعمار وأعوانه في عنف لا هوادة فيه ، مستأنفاً جهاده الذي بدأه مع عرابي رغم ما ذاق في سني اختفائه العشر من آلام . ولم يمض على ظهور « الأستاذ » خمسة شهور حتى أعلن الحرب الصريحة على الاستعمار وأذنابه ، واستهلها بمقال عنيف سافر لا غموض فيه ولا التواء ، جعل عنوانه العبارة التي كان يرددها الإنجليز كلما أظهر المصريون ضيقاً بمشاريعهم الاستعمارية : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » . [3] وكان هذا المقال العنيف رداً على إنذار كرومر لعباس حين أقال وزارة مصطفى فهمي باشا صديق الإنجليز في ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ .

---

١ – منتخبات المؤيد : السنة الأولى ص ٥٠ .

٢ – كانت « الأستاذ » مجلة أسبوعية تصدر في يوم الثلاثاء من كل أسبوع . وقد صدر العدد الأخير منها في ١٣ يونية سنة ١٨٩٣ .

٣ – الأستاذ عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٣

يقول عبد الله النديم في مقاله هذا عن أثر الاستعمار في الاقتصاد :

« قالت أوروبا إنكم متوحشون ، لكونكم لا تحسنون صنع الأثاث واللباس ، وأنكم في حاجة إلى مصنوعاتنا ، ولا تصلون إليه إلا بعقد المعاهدات التجارية . وبذا تمكنت من إدخال مصنوعها في الشرق لتحوّل الثروة إليها ، فأماتت ما كان يصنعه الشرقيون ، وحجرت على ما لا بد منه من صناعة الشرق الهندية وغيرها . فما يصنع في الهند والصين والعجم والأناضول وغيره ، إنما يَنفُق ويباع على يد الأوربي كما يَنْفُق ويباع مصنوع بلاده.فالشرقيون أجراء يزرعون ويحصدون ويصنعون ، ليروجوا تجارة أوروبا ، ويعظموا ثروتها ، ويؤيدوا قوتها الملكية بالإيرادات المالية.فلا حظّ لهم من الوجود ، ولا رغبة لهم في الملك ، كأنهم أمام أوروبا جنس خلق لخدمتها، لتقاعدهم عن مجاراة أهلهـــا » .

ثم أشار إلى إفساد الإنجليز أخلاق المصريين وتقاليدهم ، مما أدى إلى انحلال الشخصية وموت الكرامة ، فقال :

« قالت أوروبا : إن وقوفكم على عاداتكم الشرقية ، وتخلقكم بأخلاق آبائكم ،بقاء على الهمجية والتوحش. فلا بد من مجاراتنا في حركاتنا المدنية، لتساوونا في الرتبة . وفتحت لنا البِيرَ والخمارات والمقامر ، وأباحت الزنا والقمار ، ووسعت دائرة اللهو والخسران . فغفل الشرقيون عما وراء ذلك من ضياع الدين والملك والمجد والشرف ، وانكب الأغبياء والمغفلون على الخمور ، فساءت أخلاقهم ، وضعفت عقولهم ، وفسدت عقائدهم . وتحولوا إلى المومسات ، فارتكبوا الإثم بارتكاب المحرّم ،والعارَ باتخاذهم الوطنيةَ آلةً للفُحْش،وَجعلِها عُرْضَةً للأجنبي بعدم غيرتهم عليها،فهمفي رتبة القُوّاد (١) بل هم هم . ومال فريق إلى القمار ، فباع الغَيْطَ والدار ، واضطر لبيع حلي

١ – القواد : (بضم القاف) جمع قواد (بفتح القاف) وهو الذي يدل على بيوت الريبة ويقود الرجال للنساء .

زوجته برضاها أو بسرقته منها . والكل عطف على المرابين ، يقترض ويصرف في الملاهي ومتلفات العقل والجسم والملك ، حتى أسكنَ الأوروبي مكانه وصار له خادماً بعد أن كان عظيماً محترماً . وكلما تهالك الشرقيون على الخمور والملاهي،واصلت أوروبا رسائل الخمر ، وارتحل إليهم المومسات وأرباب الملاهي ،تحويلاللثروة وإزهاقاً لروح الدين ، حتى أصبح المتلبسون بهذه القبائح والفضائح لا شرقيين ولا غربيين ، واتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق.وهي تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية ، وما هي إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة . إذ لو كان الانغماس في الملاهي ومفسدات العقل والدين من المدنية لما تحاشته أوروبا وعدت مرتكبه همجياً جاهلا مجنوناً ، ولما وَضَعت القوانينَ الشديدة للمسكرات ومنع التلامذة منها ، ولما كتبت الرسائل العديدة في ذم الخمر والفسوق ، وحرمان ضعفاء العقيدة والمتقاعدين عن العبادة وحضور الكنائس . وإنما هذه أشْراك وفخاخ تُنصَب في طريق الشرقي ، حتى لا يخطو خطوة إلا وقع في حبالة أوروبا . ولما رأت أوروبا أن الشرقيين لا ينتبهون من غفلتهم،ولا يعقلون مقاصد الدول ، ولا يدركون مكايد الملوك ، ولا يسعون في صالح بلادهم ، ولا يحافظون على دينهم ، ولا يعرفون شرف لُغاتهم،ولا يحفظون كراسي ملوكهم ، ولا يهمهم ضياع أوطانهم ، اتخذتهم كرة تلعب بهم كيف تشاء ، وهي تقول لهم : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا . »

ثم قال مشيراً إلى أذناب الاستعمار من المصريين ؛ الذين يرتكب الاستعمار كل ما يرتكب من جرائم وآثام باسمهم وبأيديهم :

« كفَّت إنجلترا يدها عن الأعمال عند دخولها مصر ، وسلمتها إلى المصريين ظاهراً ، لتقيم الأدلة لأوروبا أنها ما دخلت إلا لتراقب المصريين وتشير عليهم بما فيه التوفيق بين مصالحهم ومصالح الدول . ولما لم تجد أمامها من يجعل هذا الظاهر باطناً ، بحصر السلطة في الذات الخديوية الفخيمة ، والإدارات في الوطنيين ، أخذت تقول وهم يفعلون ، حتى أصبحت تفعل وهم لا ينطقون .

وكانت تتّقي باسمهم المطاعن الأوروبية،حتى خلا الجو وأمنت الاعتراض. فأخذوا يذمونها ويرمونها بخُلْف الوعد ونكث العهد وعدم الصدق وطول الباع في الخداع ، وهم غير مُحقيّن، فإنها ما دخلت إلا لتعمل عملا أمام أوروبا،فلما فوضوا إليها الأعمال استلمتها بهمة ونشاط. ومَثَلُها ومَثَلُهم كمثل لص دخل دار قوم وقال لهم : حملوني ما عندكم من أثاث وحلي وآنية . فأخذوا يحملونه ما يريد من غير معارضة . فهل إذا دخل عليه البوليس وأهل الدار يحمّلونه بأيديهم يقول هذا لص ؟ . . كلا ، بل يقول إنه صاحب الدار وهؤلاء خدمه . أيرَوْن أن الإنكليز هم الذين نشروا منشور المومسات ، ورخصوا للنساء أن يخرجن للبغاء تحت حماية القانون ؟ . . أم هم الذين سنوا كشف الأطباء على البغايا وإعطاءهن شهادات بأنهن صالحات للزنا ، فهتكوا حرمة القرآن والإنجيل والتوراة بتحليل ما حرمه الله تعالى في كل كتاب ؟ . . . أم هل قالوا للمصريين : سننفق ملايين في المقاولات والأعمال الهندسية من غير أن نُسأل عما نفعل فيها ، فإياكم والسؤال عن مبالغ ستكونون عبيداً مكلفين بسدادها إلى رُوتْشِلْد وغيره؟ أم هم الذين أعطوا الالتزامات الوابورية والأرضية ، ووسعوا نطاق المعاهدات ، إلى أن ضيّقوا كل عمل مصري ؟ أم هم الذين منعوا المصريين من زراعة الدخان والحشيش لتروج مزارع أوروبا بخراب بيوت هؤلاء الضعفاء ؟ أم هم الذين باعوا مهماتهم وآلاتهم بغير ثمن ، وربما أعطوا من أخذها شيئاً يستعين به على نقلها ، حتى تركوا البلاد محتاجة لمن يحرسها بالعصا أو بالنبوت ؟ . . (١) أم هم الذين أبعدوا المصريين عن الخدمة وحشروا الغرباء (٢) في المصالح حتى أصبح ألوف من المصريين لا يجدون القوت ولا يعرفون لاستخدامهم مرة ثانية سبيلا ؟ . . أم هم الذين قللوا من

١ – يشير إلى تصفية المصانع الحربية عقب الاحتلال بعد أن فككت أجزاؤها وبيعت بأبخس الأثمان على أنها غير صالحة « خردة » . النبوت الفرع النابت من الشجر ، يطلق في اللهجة المصرية على العصا المستوية .

٢ – يقصد اللبنانيين ، والمسيحيين منهم خاصة ، الذين كثر عددهم وقتذاك في الوظائف الحكومية . وكان بعض هؤلاء الموظفون أعواناً للاستعمار كما سيجيء .

تلامذة المصريين في مدارسهم وأكثروا من استخدام الأجانب فيها ، وتدرجوا لإماتة لغتهم الوطنية بفرض المكافآت لمن ينبغ في الإنكليزية ، لتُنْسىَ لغة القرآن فيُنْسىَ بها الدين الواقفُ عقبةً أمام أوروبا ، كما يصرحون بذلك في مجالسهم وأندية شوراهم ؟ . . لا والله ، ما نالوا أملا ، ولا قارفوا عملا ، ولا أذلوا رجلا ، ولا خربوا بيتاً ، ولا هتكوا حرمة إلا بالمصريين » .

وأخذ يلقي تبعة ما صارت إليه مصر من سوء الحال على أمراء المصريين وزعمائهم حيث يقول :

« لماذا نتألم من أعمالها [1] وأمراؤنا اقتصروا على القعود في القصور وركوب العربيات للتفسح في المتنزهات ، وعقلاؤنا صامتون لا ينطقون بكلمة رجاء أو صوت استصراخ . وضعفاؤنا حيارى ينتظرون هؤلاء وهم عنهم لاهون ، ونبهاؤنا في المحافل يتحاورون ويتناظرون بما لا يفيد الوطن والمُلْكَ شيئاً ، متعللين بأن محافلهم لا تتعرض للسياسة ولا للدين . فإذا انصرف النبهاء عن وجهتي السياسة والدين ، فبمن تقوم الأعمال ، ويتقوم أَوَدُ الحكومة ، ويبقى عمود الدين قائماً كبقية الأديان ؟ . . أبالإخاء الذي ربطناه مع الأجنبي ، نتخلى له عن مرجع المجد وأصل الشرف ؟ . . وهل تريد أوروبا أن تنتصر علينا في حرب عوان بأكثر من صرف نبهاء البلاد عن النظر في المُلْك والدين ، ليَخْلُوَ لها الجو فتفعل ما تشاء وتغير ما تشاء ؟ . . مع أن النبهاء يمكنهم أن يستخدموا محافلهم في مصالح بلادهم ، فيتمكنوا بقواهم العقلية مما لا يمكنهم منه سيف ولا مدفع ، من غير إثارة فتنة أو إراقة قطرة دم ، ويصلحون ما أفسده الاغترار والانخداع ، ويحدثون في البلاد عصبية وطنية لا تردها أعظم أمة عن مشربها المصري وسعيها المؤيد ، بربط القلوب على عزيمة واحدة صادقة » .

وراح يذكر المصريين بما كان من تخلفهم عن عرابي وحسن استقبالهم للإنجليز ، مغترين بما أذاعه عليهم الخديوي توفيق وأعوانه من أنهم لم يدخلوا مصر إلا مصلحين منجدين ، فقال :

---

١ — الضمير في « أعمالها » راجع إلى انكلترا .

« مضت السنون العشر التي قابلتم غُرّتها بالأفراح والزِين ، وطرتم فيها حول الأوهام طرباً وسروراً ، وعميتم عن سوء العاقبة ، فأنشد شعراؤكم القصائد الطنانة الرنانة مدحاً وثناء [١] وشربتم الخمور جهاراً باسم من استعديتموه على بلادكم ، ونصرتموه بتثبيط إخوانكم ، وبذلتم أموالكم وأرواحكم في دخولهم البلاد ، والتخلي لهم عما بأيديكم من الأعمال . ولطالما طأطأتم الرؤوس وحنيتم الظهور وركعتم أمامهم تعظيماً وتسليماً ، وبصقتم على وجوه إخوانكم ولبستم أجمل ثيابكم تنتظرون يوماً يقتل فيه مائة ألف مصري . فهذه الأيام تريكم كيف تدور الدوائر ، وكيف تتقلب الأحوال بالأهوال ، على من لم يقرأ لعواقب ، ومن يلقي نفسه بين نيوب الصِّل خوفاً من العظاية « السحلية » . فقد أبدلت المصائبُ الولائم الأجنبية بالمآتم الفقْرية ودعتكم لتكسير أعواد الطرب والسرور ، وضرب دُفِّ الندب والرثاء . وهل تُجْزَون إلا ما كنتم تعملون ؟ . . »

ثم أخذ يعرّض بالمقطّم — صحيفة الاستعمار — متوقعاً ما ستهاجمه به ، وما سوف تدعيه من أنه يدعو إلى ثورة كالثورة العرابية فقال :

« وكأني بدخيل [٢] يوسوس للأجانب قائلا : إن « الأستاذ » يدعو إلى ثورة مصرية بهذه العبارة . فقد تعودنا سماع الأراجيف من الدخلاء ، وتسليط الأوربيين على كل بلد نودي فيه بالمحافظة على وطنيته . ونحن نضع حجراً في فم هذا الدخيل قبل أن يحرك شفتيه بكلمة إغراء . إن المصريين قد جربوا أنفسهم في التظاهر بالقوة ، فوقف شقاقهم بينهم وبين الظفر بالمقصود وهم شاكو السلاح كثيرو العَدد والعُدَد . والآن لا قوة بأيديهم ولا سلاح . وقادة الجند من الأجانب . ولا يحمل العسكري إلا بندقية فارغة حكمها حكم عصا

---

١ — يشير إلى القصائد التي قيلت في مدح « توفيق» بعد عودته ، وفي الترحيب به وبجيش الاحتلال ، وفي ذم العرابيين . وتراجع نماذج من هذه القصائد في كتاب «مصر للمصريين ٥ : ٢٣٨ — ٢٤٧

٢ — كان صاحب صحيفة « المقطم » هو فارس نمر . وهو لبناني الأصل .

الراعي . ولا موجب لحركة الأهالي حركة عدوانية بعد خضوعهم لأميرهم ، وانقيادهم إليه في السر والعلن . وقد تأدبوا وعلموا دسائس أوروبا ، وتنبهوا لمقاصد الدول وسعيهم في اتخاذهم آلة لبلوغ مآربهم ، لا لمصلحة المصريين — معاذ الله — ولا لمنفعة المسلمين — أستغفر الله — فما من مصري إلا وهو يعلم الآن أن أوروبا لا تَصْدُق في قول ، ولا تفي بوعد ، ولا تحب شرقياً ، ولا تسعى في خير مصري . وإنما هي مَلاعب سياسية يقدمونها بين أعين الجهلاء الذين لا خبرة لهم بدهاء الدول ومطامعها ، يستميلونهم بها استمالة الطفل بقطعة حلوى أو ثوب منقوش . ومن انتهى بهم الأمر إلى الوقوف على الغايات والمقاصد السيئة ، مع فراغهم من المعدات الآلية ، وعدم حاجتهم إليها ، يستحيل عليهم أن يكدروا صفو الراحة بشَغَبِ أصوات فضلا عن قعقعة سلاح . وما يدعوهم « الأستاذ » إلا إلى مجاراة الأوروباويين فيما هم فيه من معرفة قدر نفوسهم ، والمحافظة على حقوقهم ولغاتهم وأديانهم وعوائدهم ، والدأب خلف الاستقلال بأعمال بلادهم . »

ثم قال بعد أن تكلم عن وحدة عنصري الأمة من مسلمين ومسيحيين :

« فيا بني مصر . . ليعد المسلم منكم إلى أخيه المسلم تأليفاً للعصبية الدينية . وليرجع الاثنان إلى القبطي والإسرائيلي تأييداً للجامعة الوطنية . وليكن المجموع رجلا واحداً يسعى خلف شيء واحد ، هو حفظ مصر للمصريين . »

ويهاجم ذلك النفر الذين خوت قلوبهم من الوطنية ، ممن يلتمسون الجاه بالتزلف إلى المحتل الغاصب قائلا :

« نرى كثيراً من الشرقيين ، بل المصريين ، حول حمى الأجنبي ، لياذاً به وطلباً لمعروفه . فهل تناول منه إلا لقمة لو لم يجده لطرحها للكلب لكونها فضلةَ طعامه وفُتات خِوانه ؟ . . وهل جلس في حضرته إلا مهيناً مزدرى منظوراً إليه بعين الاحتقار بل الاستعباد ؟ . . وهل مكنه من أضعف الأعمال إلا ليستعمله آلة في تنفيذ آماله وتحقيق أمانيه ؟ . . وهل بشّ في وجهه مرة إلا ليُدْخِل عليه غفلة الرحمة والحنان ، ليصرف أنظاره عما يراه

من سلب الحقوق ؟ . . »

كان هذا المقال الجريء العنيف بداية لسلسلة من المعارك، تألبت عليه فيها الصحف الإنجليزية ، تؤيدها صحيفة « المقطم »، واتهمته بإثارة الفتنة ، حتى انتهى أمره إلى خضوع الخديوي عباس لما أملاه عليه كرومر من إبعاده عن مصر منفياً [١] . فودع قراءه وداعاً مؤثراً في العدد الأخير من الأستاذ ، في كلمة عنوانها « تحية وسلام » ، ختمها بقوله : « وما خُلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب . والعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظم والجلالة ، وإن كان المبدأ صعوبة وكدراً في أعين الواقفين عند الظواهر . وعلى هذا فإني أودع إخواني قائلا :

أودّعكم والله يعلم أنني أحب لقاكُمْ والخلودَ إليكمُ
وما عن قِلىً كان الرحيلُ، وإنما دواعٍ تبدّت فالسلام عليكمُ »

وبذلك طويت صحيفة الأستاذ ، ولمّا يحل الحول على صدور العدد الأول منهـــا [٢] .

* * *

وتلقف الراية من يد النديم مصطفى كامل ، الذي تلقى دروسه الأولى في الوطنية وفي السياسة على يديه . فقد اتصل به منذ عودته من منفاه ، وعرف منه كثيراً من أسرار الثورة العرابية ودسائس السياسة الإنجليزية . مما جعله يتجنب الخلاف مع الخديوي ، ويحاول قدر استطاعته أن يجعل من الشعب والقصر قوة

---

١ — زعماء الإصلاح ص ٢٤٠ ، مجلة الأستاذ العدد الأخير ص ١٠٢٩ ، ١٠٣٠

٢ — لم تطل حياة عبد الله النديم بعد ذلك ، فقد توفي في ١٠ أكتوبر سنة ١٨٩٦ غريباً في تركيا بعد حياة لم تتجاوز أربعة وخمسين عاماً ، كلها جهاد عنيف ، لم يذق فيه طعم الراحة والاستقرار. وقد ذكر الدكتور أحمد أمين في كتاب « زعماء الإصلاح » أنه لم يعقب ولداً ولكن الصدفة الحسنة قادتني إلى معرفة ابن له ولد بعد وفاة أبيه في تركيا ، وعقب عودة والدته إلى مصر ، وهو السيد محمد سعيد عبد الله النديم وكيل إدارة المنائر بالإسكندرية . وكانت والدته عند إصدار الطبعة الأولى من هذا الكتاب ١٩٥٤ على قيد الحياة .

واحدة تواجه الاستعمار [١] . وخطا مصطفى كامل خطوة جديدة إلى الأمام حين جاهر بطلب الجلاء في أول حديث له نشر في صحيفة الأهرام [٢] . وتابع بعد ذلك نشر المقالات الوطنية في صحيفتي « الأهرام » و « المؤيد » ثم في الصحف الأوروبية منذ بدأ رحلاته السنوية إلى أوروبا في مايو سنة ١٨٩٥ [٣] . حتى ظهرت صحيفة « اللواء » اليومية في ٢ يناير سنة ١٩٠٠ ، فكان يكتب مقالتها الافتتاحية في أكثر الأحيان .

* * *

وقد اقترن ظهور الحركة الوطنية بعد الثورة العرابية بظهور الخديوي عباس على مسرح السياسة حين جلس على عرش مصر في ٨ يناير سنة ١٨٩٢ ، بعد وفاة أبيه الذي كان سبباً في نكبتها بالاحتلال الإنجليزي .

والواقع أن عباساً كان محور الحياة السياسية والوطنية في ذلك الوقت . فقد تولى الحكم وهو شاب لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره . وكان جريئاً واسع الأمل ، يريد أن يكون ملكاً حقيقياً لا دمية في يد الإنجليز ، وكان مصرياً بحتاً كما حكم عليه كرومر منذ لقائهما الأول [٤] . فنفخ في مصر روحاً جديدة من الوطنية والشجاعة ، جرأت الأمة على مناهضة الاحتلال ، وقوت الآمال بالاستقلال [٥] وكان ينعىَ على أبيه ضعفه واستسلامه للإنجليز [٦] ولذلك كان أول ما فكر فيه عند تولي الحكم أن يغير رجال حاشيته الذين ورثهم عن أبيه ، والذين ألفوا أن يذلوا أنفسهم ويمتهنوا كرامتهم أمام الانجليز [٧] .

---

١ – مصطفى كامل ص ٣٠
٢ – الأهرام عدد ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥ مصطفى كامل ص ٣٧
٣ – مصطفى كامل ص ٣٩
٤ – عباس الثاني ص ٢١ ، ٢٨
٥ – تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٦٩
٦ – عباس الثاني ص ٢٧
٧ – مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٦

بدأ عباس حكمه كأحسن ما يبدأه ملك . فهو شديد الرغبة في التودد إلى الشعب ، يستقبل طوائفهم المختلفة مرتين كل شهر .[1] ويصدر عفوه عن عدد كبير ممن اشتركوا في الثورة العرابية في السنة الأولى لحكمه ، ويرد إليهم رتبهم وشاراتهم ويعيدهم للخدمة[2] . وهو يعرض الجيش المصري مرتين في ذلك العام[3] ، ويحيي شهر رمضان بتلاوة القرآن والاستماع إلى تفسيره مع رجال حاشيته[4]. وهو يطالب بخروج الجيش الإنجليزي من القلعة . ويتصل بالمديرين مباشرة دون الرجوع إلى كرومر كما جرت عادة والده من قبله[5] . وقد نجح نجاحاً مؤكداً في بث شعور الكراهية للإنجليز في قلوب المصريين ، كما نجح في إخراجهم عما ركنوا إليه من فتور واستسلام يشبه الموت ، ورسم لهم طريق المقاومة بجرأته في تحديهم ، فكان كسيال من الكهرباء طبق جو مصر وكهرب جميع أهلها ، فشعروا بأنهم أمة يجب أن يستقلوا بأمورهم[6] .

ولذلك لم يكن عجيباً أن يلتف المصريون حوله وأن يحبوه . وقد بلغ من حماستهم في استقباله أن يتقدم الشباب بجر عربته بعد أن نحوا عنها الجياد ، حين ذهب لصلاة الجمعة في مسجد الحسين رضي الله عنه[7].وقد أقر كرومر بنفوذ عباس حين قال إن الصعوبة الكبرى التي واجهت الإنجليز حين استهدفوا رفع مستوى الفلاح هي أن يصلوا إلى ذلك دون الاصطدام بالقصر ، الذي أثبت على توالي العصور – رغم ما آل إليه من فساد – قدرته على جمع الشعب المصري وتكتيله[8] . واعترف بزعامته حين قال إن المبادىء العرابية قد بدأت في الظهور

---

١ – المرجع نفسه ٢ : ٢٦
٢ – المرجع نفسه ٢ : ٣٥
٣ – نفس المرجع ٢ : ٣٧
٤ – المرجع نفسه ٢ : ٣٨
٥ – نفس المرجع ٢ : ٥٢
٦ – تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩٢
٧ – مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٧
٨ – Modern Egypt ٢ : ١٩٣

تحت اسم جديد هو لقب « خديوية » ، وأن الحالة أصبحت كثيرة الشبه بالتي كانت عليه عند بدء الثورة العرابية ، غير أن الفرق الوحيد هو أن الخديوي نفسه في هذه المرة كان هو قائد الحركة (١)،وحين قرر أن أنصار المبادىء الديمقراطية الحديثة ومن سماهم الغوغاء ، الذين لا يملون من التغني بها ، كانوا جميعاً في جانب الخديوي (٢) . وإلى ذلك أشار السيد محمد رشيد رضا في تاريخ الأستاذ الإمام حين قال « ومن إنصاف التاريخ أن أذكر هنا أفضل محاسن هذا الأمير الكبير — وقد ذكرت مساوئه — حتى لا تكون المساوىء هي التي تستقر وحدها في نفس قارىء هذا الكتاب ، وهو ظلم ، فأقول : أول ما عرف الناس من محاسنه ما يسمى في عرف هذا العصر بالوطنية (٤) » .

وقد كان من آيات هذه الوطنية احتضانه مصطفى كامل منذ ألقى أمامه خطبة يرحب فيها بمقدمه حين زار مدرسة الحقوق ، فشجعه على السفر إلى فرنسا لإتمام دراسته ، وقربه إليه بعد عودته ، فكان يجتمع به سراً في مسجد قريب من سراي القبة ، يدبر معه الخطط للتخلص من الاستعمار (٤) .وأمده بالنفوذ وبالمال ، فشجعه على تأسيس الحزب الوطني ، وأعانه على إصدار صحفه المختلفة (٥)

١ — عباس الثاني ٤٤ ، ٤٥

٢ — المرجع نفسه ص ٣١

٣ — تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩٢

٤ — عاد مصطفى كامل بعد إتمام دراسته في ديسمبر سنة ١٨٩٤ . وكان فيما اتفق عليه مع عباس وقتذاك أن تؤلف جماعة سرية من بعض الشباب الممتازين بالوطنية ممن تلقوا العلم في مصر وفي الخارج « تاريخ الإمام ١ : ٥٩٣ ، مصطفى كامل ٢٨ ، ٢٨١ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٩٠ ، ٢ ب : ١٤٠ » ويقول أحمد شفيق إن هذه الجماعة هي التي قررت القيام بالدفاع عن مصالح مصر ضد الإنجليز بالكتابة في الصحف الفرنسية وبالخطب التي كان يلقيها مصطفى كامل في مصر وفي أوربا .

٥ — أصدر اللواء سنة ١٩٠٠ . ثم أصدر في سنة ١٩٠٧ صحيفتين يوميتين، إحداهما بالفرنسية وهي ليتندار إجيبسيان ، والأخرى إنجليزية وهي ذى إجيبشيان ستاندرد . وأسس لذلك شركة مساهمة لإصدار الصحيفتين سنة ١٩٠٦ ،رأس مالها عشرون ألف جنيه . وقد حث عباس الأعيان على مساعدته بالاكتتاب فيهما، حتى احتج كرومر على هذا التدخل السافر في معاونة المشاريع المعادية للإنجليز — راجع مصطفى كامل ص ٢٠٢ ، تاريخ الإمام ١ : ٥٩٣ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٠٣

وكان عباس إلى جانب تشجيعه لمصطفى كامل ، يحاول أن يجمع حوله ضباط الجيش وأن يحثهم على عدم الاستسلام والخضوع لرؤسائهم من الإنجليز (١) . وكان يحض الموظفين على الاحتفاظ بكرامتهم والتمسك بحقوقهم واختصاصاتهم إزاء رؤسائهم من ممثلي الاحتلال . فظهرت روح المقاومة بين الموظفين ، واستحكم الخلاف في دواوين الحكومة ومصالحها بينهم وبين الإنجليز ، حتى قال كرومر إن الموظفين جميعاً من أكبر كبير إلى أصغر صغير كانوا تابعين لعصابة الحركة ضد الإنجليز ، التي يقودها عباس . وكان يعرض عن الذين يتوددون إلى الإنجليز ، ويبدي عداء صريحاً واضحاً لكل من يلوذ بهم من الأعيان والعمد والمشايخ ، ويسيء استقبالهم في القصر في مختلف المناسبات (٢) .

من أجل ذلك كله لم يكن هناك مفر من اصطدام عباس بكرومر ممثل الاحتلال ولم يكن هناك وسيلة لتجنب هذا الصدام المتوقع (٣) .

وظل كرومر يتصيد الفرصة المناسبة ليضرب ضربته دون أن يكون هو البادىء ، حتى يقطع السبيل على كل احتجاج ، وحتى لا يبدو أمام الرأي العالمي العام معتدياً (٤) . وسرعان ما وجد الفرصة المناسبة عندما انتهز عباس مرض

---

١ – كان من آثار ذلك فصل عدد من الضباط المصريين في السودان سنة ١٨٩٩ ، من بينهم حافظ إبراهيم الشاعر – راجع تاريخ الإمام ١ : ٥٩٢ ، عباس الثاني ٨٢ ، ليا لي سطيح ص ٨١ ، ١٠٩ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٢١ .

٢ – عباس الثاني ص ٥٧ ، مذكراتي في نصف قرن : ٨٠

٣ – بدأ هذا الاصطدام باستخفاف ضباط الجيش من الإنجليز بالخديوي وإهمال تحيته في الطرقات والمجتمعات العامة ، مما دعاه للشكوى إلى كرومر من سوء أدبهم – راجع مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١١٦ ، عباس الثاني ص ٢٩ .

٤ – يقول كرومر «أما أنا فقد عرفت أن لا مفر من وقوع نزاع شديد . ولكني اعتقدت أن البدء في النزاع لا ينطبق على السياسة الرشيدة . . . فالخطة التي كان يجب على اتباعها كانت

مصطفى فهمي فتخلص منه بإقالته في ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ ، وأصدر أمره إلى حسين فخري بتشكيل الوزارة ، مكتفياً في كل ذلك بإبلاغ كرومر بما تم . (١) وأبرق كرومر إلى وزير الخارجية البريطانية يقول : « إن وقوع نزاع شديد مع الخديوي — كما قدّرتُ منذ وقت طويل — أمر لابد منه. ولا أرى من الصواب تأخيره . وإني أرى وجوب انتهاز هذه الفرصة لوضع حد لهذه الأمور. وإني أرى أن لا فائدة من اقتصار فخامتكم على نصحه ، بل أقترح أن ترسلوا إلي برقية أستطيع أن أريها لسموه ، تذكرون فيها بكل جلاء أن حكومة جلالة الملكة تنتظر أن يؤخذ رأيها في المسائل الهامة مثل مسألة تغيير النظار . . . كذلك أقترح إعطائي السلطة بأن أتخذ الوسائل اللازمة التي أرى وجوب اتخاذها لمنع هذا التغيير . . . الخ » . وأصدر كرومر أمره في الوقت نفسه إلى الموظفين البريطانيين بأن لا يعترفوا بالوزارة الجديدة حتى يتلقوا أوامره (٢) .

وجد الخديوي الشاب نفسه وحيداً أمام السياسي العجوز . فالكتلة الشعبية لا تتجاوز قوتها كلاماً يقال ، أو مظاهرات تجتمع ثم تنفض . وقنصلا فرنسا وروسيا اللذان كانا يشجعانه على مقاومة الإنجليز قد تخليا عنه . ورأى كرومر أن من الأفضل أن لا يسرف في إذلاله ، وأن يدع الباب مفتوحاً للتفاهم، لعله يستطيع من بعد أن يتألفه ، فحل المسألة حلا وسطياً ، وذلك بأن لا يعود مصطفى فهمي إلى رياسة الوزارة ، وبأن يعزل فخري في نفس الوقت ، ويعهد في تأليف الوزارة إلى مصطفى رياض . ولكنه أصر على أن يتقدم عباس إليه بخطاب

= مرسومة واضحة . وهي أنه كلما كان يتحقق اقتراب الأزمة كانت تزداد الحاجة إلى الاعتدال المتناهي ، لكي أبعد كل ما يدعو إلى الاشتباه بأن الأزمة أثيرت عمداً . . » عباس الثاني ص ٣٠ — ٣١ .

١ — كان مصطفى فهمي من أطوع رؤساء الوزارات المصريين للإنجليز وأوثقهم صلة بهم ، حتى لقد روى أحمد شفيق وكرومر أنه أجاب رسول عباس إليه حين طلب منه الاستقالة بقوله : إن الأوفق لسموه أن يستشير اللورد كرومر قبل أن يتخذ خطوة في هذا السبيل . راجع مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٥٨ ، عباس الثاني ص ٣٤ .

٢ — عباس الثاني ص ٣٥ — ٣٦ ، مصطفى كامل ص ٢٦٤

أملىَ هو صورتَه، يقول فيه « إنه يرغب رغبة شديدة في أن يوجه عنايته إلى إيجاد أصدق العلاقات الودية مع إنجلترا . وأنه يسير بكل رضاء بموجب نصيحة حكومة جلالة الملكة في كل المسائل المهمة في المستقبل (١) » .

وظن كرومر أنه قد لقن الخديوي الشاب درساً لن ينساه . وكان يتوقع أن يجد في رياض – عدو المبادىء العرابية القديم – عوناً على ترويض عباس وكسر حدته . ولكن الذي حدث هو أن رياضاً قد انقلب إلى موآزرة عباس ، وظاهره في موقفه العدائي من إنجلترا ، فمنع الموظفين الإنكليز ممن جرت العادة بأن يحضروا مجلس الوزراء من حضوره ، وقرر أن تكون اللغة العربية هي لغة التعليم في المدارس الأميرية ، بعد أن كانت معظم الدروس تلقى باللغة الإنكليزية (٢) . وكثر الصدام في عهده بين الموظفين المصريين والإنكليز (٣) . وتشجعت الصحف الوطنية على مهاجمة سلطات الاحتلال ، حتى اضطر إزاء إلحاح كرومر إلى إيقاف صحيفة « الأستاذ » وإبعاد صاحبها عن وطنه .

ومضى عباس لوجهه لا يتراجع ، يؤيده رياض ، وقد تأثر بما رأى من إجماع الشعب على تأييد الخديوي . فقد ظلت الجموع من مختلف الطبقات تتوالى على القصر طوال اليوم الأول لتوليه الوزارة ، تهتف داعية للخديوي مشيدة بوطنيته وجرأته . وهاجم فريق من الشباب ، وعلى رأسهم مصطفى كامل – وكان وقتذاك طالباً في الحقوق – صحيفة « المقطم » التي كانت تؤيد الإنكليز وتهاجم الخديوي (٤) . وتجلى حماس الشعب في استقبال عباس حين

---

١ – عباس الثاني ص ٣٧ – ٣٩

٢ – مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٨٨ – ٩١

٣ – مثال ذلك ما حدث حين أصر ماهر باشا وكيل الحربية على أن يعرف مرتبات ضباط الجيش من الإنجليز لمقارنتها بمرتبات زملائهم من المصريين . وكان السردار يحرص على الاحتفاظ بمثل هذه البيانات في طي الكتمان ، وقد تعود منذ الاحتلال أن لا تكون موضع مناقشة – عباس الثاني ص ٥٦ – ٥٧ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٨٠ .

٤ – عباس الثاني ص ٤٥ .

ذهب إلى مسرح الأوبرا لمشاهدة رواية « عايدة » بعد الأزمة بأربعة أيام [١]

لذلك لم يمض على أزمة مصطفى فهمي عام حتى تصيد كرومر فرصة لتوجيه لطمة جديدة قوية إلى عباس ، حين وجد الفرصة مواتية في حادثة تافهة ، احتك فيها الخديوي بكتشنر – سردار الجيش وقتذاك [٢] – فبادر كرومر إلى الاتصال برياض ، وطلب تقديم اعتذار رسمي من الخديوي عباس ينشر في الصحيفة الرسمية ، مهددا بخلعه . وأسرع رياض إلى مقابلة عباس في جرجا قبل عودته إلى القاهرة ، وقد ملأ الرعب قلبه ، وأقنعه بقبول شروط كرومر. فلم يجد الخديوي ، « وقد وجد نفسه وحيداً للمرة الثانية ، بداً من قبولها . ونشرت البرقية التي اعتذر فيها عباس إلى كتشنر في الصحف العربية ، كما نشرت ترجمتها الفرنسية في الصحف الأوروبية [٣]. وكانت هذه الحادثة ضربة قاضية لنفوذ عباس في الجيش . فقد انتهى الأمر فيه إلى ما توقعته صحيفة «الأهرام» في تعليقها على الحادث ، واستنكارها لموقف رياض من الخديوي بمساعدته الإنجليز على إملاء شروطهم وإذلال عباس ، حين قالت : « إن الضباط والعساكر المصريين سينتهي بهم الأمر إلى أن لا يعرفوا رئيساً عسكرياً سوى كتشنر باشا ، ولا رئيساً سياسياً سوى اللورد كرومر » .

* * *

كان اصطدام الخديوي بالإنجليز يزيد عطف المصريين عليه وحبهم له .

---

١ – مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٦٢

٢ – وذلك أن الخديوي سافر في رحلة إلى الحدود . فلما بلغ وادي حلفا وعرض الجيش في ١٨ يناير سنة ١٨٩٤ ، أبدى للسردار – وهو وقتذاك كتشنر – بعض الملاحظات التي تدل على عدم رضائه عن تدريب بعض الفرق . ولم يدع كرومر الفرصة تفلت من يده ، فهو يقول : « إن الفرصة التي كنت أرقبها قد جاءت . وإنه من الصعب اختيار ميدان للواقعة أنسب من هذا الميدان » فانتهز هذه الفرصة لإذلال عباس – عباس الثاني ص ٦٠ .

٣ – راجع التفاصيل في مصطفى كامل ص ٢٦٨ – ٢٦٩ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٢٠ – ١٣١ ، عباس الثاني ص ٥٨ – ٦٦

وكان هو من جانبه لا يدع فرصة للاتصال بالشعب إلا اقتنصها .[1] لذلك لم يكن عجيباً أن يقبل عليه الشعراء مادحين وأن يمجدوا فيه وطنيته الصادقة وميوله المصرية ، التي كانت شيئاً جديداً من هذه الأسرة التركية التي عاملت الشعب من قبل بكثير من الترفع والاحتقار . ومن الإنصاف لهؤلاء الشعراء الذين مدحوه في هذه الفترة الأولى من حياته – وهم كثرة كبيرة ، لا يكاد يشذ عنها شاعر من شعراء ذلك العصر – أن نقول : إنهم كانوا مدفوعين إلى ذلك بشعور وطني خالص لا تشوبه شائبة من التزلف أو الملق ، فقد جمع عباس في هذه الفترة الأولى من حكمه بين الزعامة والملك . وهذا هو عبد الله النديم ، خطيب الثورة العرابية ، الذي لم يحد عن مبادئها حتى مات غريباً في تركيا ، لا يني عن الإشادة به في كل مكان من صحيفته « الأستاذ » ، محاولا أن يجمع المصريين حوله ، وأن يجعله قطب الحركة الوطنية في ذلك الوقت . وهذا هو مصطفى كامل ، قائد الحركة الوطنية المناهضة للاستعمار ، يقول في خطبة له بالإسكندرية سنة ١٨٩٦ :

« والحمد لله . فقد أصبحت مصر عارفة بحقوقها ، وأصبح أبناؤها عارفين واجباتهم نحوها ، مستظلين جميعاً – على خلاف ما يشتهيه الدخلاء – براية الوطنية الشريفة الحامل للوائها عزيزُ مصر وأميرها الجليل عباس حلمي باشا .

« أراكم أيها الوطنيون الأوفياء ، والمستوطنون الأعزاء ، صفقتم وهللتم ، وبدت عليكم علامات البشر والسرور ، عندما ذكرت اسم عزيزنا المحبوب . فاسمحوا لي أن أحمدكم من صميم فؤادي ، وأشكركم على المكانة السامية لأميرنا الكريم في نفوسكم ، الدالة على أن الشعب المصري كلّه قدّر هذا السيد حق قدره ، وعرف أنه حقيق بأن يُحَبّ ويُخدَم بصدق وإخلاص ، جدير بأن يساعد في خدمة الوطن العزيز . »

---

١ – راجع على سبيل المثال وصف رحلة الخديوي عباس إلى الصعيد لافتتاح الخط الحديدي بين أسيوط وجرجا سنة ١٨٩٣ فقد حرص على زيارة الأقاليم والنزول في ضيافة أعيانها على طول الطريق – مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٨٤ – ٨٧ .

« إن هذا الأمير أرسل ليسترد لمصر حقوقها ، ويعيد لها أملاكها المفقودة . فليكن منا رجال أوفياء يساعدونه على هذا العمل الخطير ، وينسون أشخاصهم في جانب خدمة البلاد . فإن الوطن يستغيث بكل ذي شعور حي ، والأمة تستنجد بكل ذي إحساس شريف . »

« ولا يجب أن ننسى أن أميرنا المحبوب سهل علينا كثيراً خدمة الوطن الشريف . فإنه هو الذي أسمع أوروبا أن مصر ترغب بغيرة وتشوق نوال حريتها التامة . وهو الذي أزال الخلاف القديم بين مصر والدولة العثمانية ، وأيد العلائق الحسنة ، وأحبط مساعي الدخلاء مريدي التفريق . فلنساعده جميعاً فإن في مساعدته خدمة لمصر وأهلها [1] » .

والذي يقرأ مدائح الشعراء لعباس في هذه الفترة ، يستطيع أن يدرك بسهولة أن كثيراً منها يدخل في صميم الشعر الوطني ، بما اشتمل عليه من تصوير لذلك الكفاح المرير الذي كان يخوضه الخديوي ضد الاستعمار .

وطبيعي أن يكون شوقي في مقدمة هؤلاء الشعراء الذين مدحوا عباساً . ولسنا نزعم أنه كان مدفوعاً في كل مدائحه بشعور وطني ، فقد كان شوقي وقتذاك شاعر القصر . وقد تضطره وظيفته إلى مدح أميره بالحق وبالباطل . ولكنا نقول : إن هذا الشعر طابق الحق في هذه الفترة ، على ما كان فيه من تحوط واحتراس ، وتجنب لمهاجمة الاحتلال مهاجمة صريحة في أغلب الأحيان [2] .

---

١ – مصر والاحتلال الإنجليزي – مجموعة أعمال مصطفى كامل من مايو ١٨٩٥ إلى مايو ١٨٩٦ ص ١٤٢ – ١٤٣ وراجع كذلك مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢٠٣ .

٢ – من الإنصاف لشوقي في هذا المقام أن نشير إلى ما كان من صداقته لمصطفى كامل ، وإلى أن صلته به لم تخضع لصلة الخديوي به قوة وفتوراً . ولكنها استمرت وثيقة قوية على كل الأحوال . ومن الإنصاف له كذلك أن نذكر أنه كان من أبغض رجال الحاشية إلى الإنجليز . ويدل على ذلك ما كان من نصيحة كرومر لعباس في آخر لقاء بينهما قبيل رحيل كرومر ، بأن يبتعد عن مصطفى كامل وعلي يوسف وأحمد شوقي . ويدل عليه كذلك إبعادهم إياه عن مصر بعد خلع عباس – يراجع في ذلك « مصطفى كامل » للرافعي ص ١٢٠ ، ٣٠٤ ، ٣٢٣ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١١٤ – ١١٥ ، ١١٨

ومن أحسن ما قال في هذه الفترة ، مما يتصل بشعر الوطنية ، قوله (١) :

بصوتك حاجَجْنا الممالك والعصرا ... وقلنا فباتَتْ مصرُ في مجدها مصرا
وباسملك أسْمَعْنا ، نريد زماننــا ... كبيراً — كعهد العالمين به — حُرّا
ونطلبُ حقاً عند هذا الورَى لنــا ... توَضّحَ ، يُزْرِي في توضّحه الفجرا
فتى المُلْك ! لي في حب ذا الملك سيرة ... فقل لي ، وإني من يرى أمرك الأمرا
بأي فؤاد جئتَهــا في مكانهــا ... من الدهر ، لم تخطىء عزائمُك الدهرا؟
ولا هِبْتَ فيها البأسَ والرأي والحجا ... خصوماً ، وذاك الملكَ والبرّ والبحرا
فما ذقتَ في هذا المقــام مودّة ... لقوم يذوق الناسُ وُدّهموا قسْرا (٢)
إذا حمَتِ النيلَ المؤمّلَ راحةٌ ... فقد حمَت الشمس الكريمة والبدرا
وإنا لنعطي النيلَ في الله خلْقَه ... ونخشاه فيه أن يُباعَ وأن يُشرَى
فما ساءنا أن غالنــا الدهر شطرنا ... ولكنما نرعَى لأبنائه الشطرا (٣)
بَعَثْنَا وعيــداً من زئيرٍ وطالما ... بعثنا السكونَ الجمّ والنظرَ الشّزْرا
عرفنا خُطوب الدهر والصبرَ عندها ... فلم نعرف الخَطْبَ الذي غلب الصبرا
وما نلتَ ياعباسُ ما نلتَه سُدىً ... ولكنْ أصاب الصابرون بك الأجرا
سندعو بني الدنيا إلى النيل دعوةً ... يلبّون منها الجاه والنائلَ الغمْرا
ومُلْكاً كما تهوى الأحاديث عاليــاً ... كأن الخديوي فيه قيصر أو كسْرَى
تضيء به شُورَى المرائي التي زكتْ ... وتشرق أركان القضاء الذي برّا
وتمــرحُ في أيامه النفسُ حرةً ... تَنَاوَلُها قُشْباً وتَلْبَسُها خضرا

وهو يشير في قصيدة أخرى إلى شدة إقبال الشعب على عباس والتفافه حوله كلما اشتدت الأزمات ، وكلما أسرف الإنجليز في التضييق عليه فيقول (٤) :

---

١ — ديوان شوقي طبعة سنة ١٩١٢ ص ٨٣

٢ — يقصد بالذين يذوق الناس ودهم مرغمين الإنكليز .

٣ — يقصد بالشطر الأول الذي غاله الدهر : السودان ، أما الشطر الثاني الذي يرعاه الخديوي لأبنائه فهو مصر .

٤ — ديوان شوقي طبعة سنة ١٩١٢ ص ٧٣

بعبّاسَ عشنا حين لا العيشُ هيّنٌ وحين بنُوه لا جميلٌ ولا حمدُ
تحبّك يا خير الملوك رعيّةٌ لها منك ما تَخْفى ، وللحال ما يَبْدُو
ولاء مع الأيام ، تنمو صروفُها فينمو ، وتشتد الخطوبُ فيشتد

ويشير إلى قيادة عباس للحركة الوطنية وكفاحه للاستعمار في قصيدة ثالثة حيث يقول [١] :

هذه مصر جاءها النيل يسعى وهو يا طالما جفاها وصدا
صاحبَ النيل في البرية إيه حرّرِ النيل للبرية وِرْدا
ارفع الصوت إن عصرَك حرٌّ لن يرى من سماع صوتك بُدا
إنما الُملْكُ أن تكون بلاد وتصيبَ البلادُ بالُملْك مجدا
فتولَّ الذي سننتَ ونجّحْ لرعاياك في المعارف قَصْدا
ومُر العلمَ أن يزور بلاداً عهِدَتْها له الخلائق مَهْدا

وهو يشير في هذه القصيدة إلى ما كان من احتجاج الإنجليز على تقريب الخديوي له ، ونصحهم إياه بإقصائه عنه فيقول :

قلْ لراجٍ أن يسترِقّ يَرَاعي أنا لا أشْتَري بذا التاج قيدا
ليَرَاعي وللأحاديث شأن أرتجي أن يكون مِسْكاً ونَدّا
نومةُ السيف قد تكون حياةً ورأيتُ اليَراعَ إن نامَ أردَى
خلق الله ذاك صاحبَ غِمْدٍ وبَرا ذا لايعرفُ الدّهْر غِمْدا

ويشير إلى حيرة المصريين ، وما صاروا إليه من سوء الحال ، مشيداً بجهاد عباس ، الذي لا يعرف قلبه اليأس ، حيث يقول [٢] :

أبا الحيارى !.. ألا رأيٌ فيعصمهم فليس إلا إلى آرائك الهرَبُ
باتوا يُرَجّون لمّا طال بؤسُهمُو والنفسُ عند اشتداد الخَطْب ترتقبُ

---

١ – المرجع نفسه ص ٦٨
٢ – ديوان شوقي طبعة سنة ١٩١٢ ص ٥٨

لن يعرف اليأسَ قومٌ أنت حصنهمو	وأنت رايتهم والفيلقُ اللجِبُ
عوّدتهم أن يُبينوا في خلائقهم	وأنتَ عانٍ بما عودتهم تَعِبُ
والصدقُ أرفعُ ما اهتزّ الملوكُ له	وخيرُ ما عوّدَ ابناً في الحياة أَبُ
وإنما الأممُ الأخلاق ما بقيتْ	فإن هُمُو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويشيد حافظ بقيادة عباس للحركة الوطنية في قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠٤ حيث يقول (١) :

رَدَدْتَ ما سلبتْ أيدي الزمان لنا	وما تقلّص من ظل وسلطان
... فكن بملكك بنّاء الرجال ولا	تجعل بناءك إلا كلّ معوان
وانظر إلى أمة لولاك ما طلبت	حقاً ولا شعرت حباً لأوطانَ

ويقول إسماعيل صبري في قصيدة مدحه بها سنة ١٨٩٣ : (٢)

عباسُ !... قد سُست البلاد سياسة	سيحدّث التاريخُ عنها الأعصُرا
أنفذت حكمك بادهاً بمسائل	دقّت على الحكماء أن تُتَصوّرا
وبنيت سدّاً من ذكائك دونهم	فأريتنا يأجُوجَ والإسكندرا (٣)
يا صاحبَ النيل الذي جرّت به	مصرٌ على البلدان ذيلا أخضرا
حققت آمال البلاد وجزْتَها	شأواً وما جُزْتَ الشبابَ الأنضرا
رامتكَ شبْلا كي تُعِزّ عرينَها	فأبيتَ إلا أن تكون غضنفرا

ويقول محرم من قصيدة مدحه بها في إحدى رحلاته الكبرى التي كان

---

١ – ديوان حافظ ١ : ٣٠ ولحافظ قصيدتان سابقتان على هذه القصيدة قالهما سنة ١٩٠١ ولم يشر فيهما إلى الحركة الوطنية من قريب أو بعيد ، لأنه كان وقتذاك في الاستيداع ، وكان يؤمل أن يعود إلى الخدمة . وإنما تجرأ حافظ في هذه القصيدة بعد أن أحيل إلى التقاعد سنة ١٩٠٣ فانقطع أمله ولم يعد يبالي غضب الإنكليز .
٢ – ديوان إسماعيل صبري ص ٤٦ .
٣ – يشبه المفسدين بيأجوج ، ويشبه عباسا بالإسكندر الذي بنى سداً على «يأجوج ومأجوج» ليحول بينهم وبين الناس، كما جاء في سورة الكهف .

يطوف فيها بالأقاليم وينزل في ضيافة أعيانها : (١)

أهلاً بربّ النيل يلقى شعبه فَرِحاً يضج مهلّلا ومكبّرا
فرْعَون ينظر من خلال عُصوره خزيانَ يرفع كفه مستغفرا
سُسْتَ الرعية عادلا تبغي لها عزّ الحياة ، وساسها متجبّرا
جحد الإله وفي يديك كتابه تقضي به وتعيده متدبّرا
الملك إصلاحٌ وعدلٌ شائع يحمي الضعيفَ ويقمع المتكبرا
ورعايةٌ تهب النفوس حياتها وتردّ جيش البؤس عنها مُدْبِرا
مولايَ أحييتَ الرجاء لأمّة شهدتْ بطلعتك الرجاء الأكبرا
صِدْقُ الوَلاء أمانة لك في دمي يأبَى لها الإيمانُ أن تتغيّرا
لستُ الذي يرضى العُقوق سجيّة ويرى التقلبَ في المذاهب مَتجرَا
لو كنتُ طالب حاجة لوجدتَني أسعى إليها في ذُرَاكَ مشمّرا
ولو انّني ممّن يتُوقُ إلى الغنى لوجدتُه بنَدى يديكَ ميسّرا
ما في الحياة على تعاظم شأنها ما يستخفّ العاقلَ المتبصرا
لو كان لي قصرٌ يُزَارُ جعلته لِوِفادةِ العبّاس بِدْعاً في الورى

ويقول الكاشف ، من قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠١ : (٢)

مرّ بالنيل قبل عهدك دهر كان فيه لا يرتوي الوُرّادُ
وبِوَادِيه - وهو أجدَبُ مَحْلٌ - يشتكي عنده الطّوَى الرُوّادُ
...فيكَ آمالنا الكبارُ ، وفينا لك حب وذمة وانقياد
ولديك النجاة من كل عاد وإليكَ السكونُ والإخلادُ
أنخاف العِدَى وأنتَ محيطٌ بالذي دبّر الدُهاةُ وكادوا
وجدوا ما نووه ما دمتَ في مصْـ ـرَ مُحالا فاستسلموا أو كادوا
واكتسوا شيمة الصديق فما يَظْـ ـهرُ منهم إلا الرضى والوِداد

---

١ - ديوان محرم ٢ : ١٢٨ - ١٢٩
٢ - ديوان الكاشف ١ : ٢٣

ويقول من قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠٣ : (١)

إن الذي أحيَا البِلادَ بنيلِها لكَ مُرجعٌ بكَ مجدها المغصوبا
وَهبَتْكَ عاليَ عرشِها، ووهبتَها عدلاً فكنتَ الواهبَ الموهوبا
لا يبلغُ الأقوامُ منها مأرباً ما دمت فيهمْ ناقداً وحسيبا
وسينجلون كما انجلت من قبلهم أمَمٌ أشد وقائعاً وحروبا
سَعْياً لتنسينا بموعود الرضى إثماً جناهُ مَنْ مَضَوا وذنوبا
إنا لنرجو بعد أُهْبَتِكَ التي بَهرَتْ حسودك صَيحةٌ فَوُثوبا

ويقول عبد المطلب من قصيدة مدحه بها حين عاد من الحج سنة ١٩١٠ م (٢) :

يدعو لمصر بأن يراها أحرَزَتْ في دولة العلياء كلَّ نِصاب
بلد عرفناه يهيم بحبه منذ الشباب وقبلَ عصر شباب
وهو الغِياثُ لِمصْرَ إن عَبِثَتْ بها أيدي ثعالبَ في الورَى وذئابِ
وهو الذي وقف المواقف كلها في نصر مصر وقوفَ ليث الغاب
يدعو ويرجو نصرَها متبتلا لله بين القبر والمحراب (٣)
فعلى بَنيها أن يَحلَّ ولاؤه منهم مع الأرواح والألباب

ويقول عبد الحليم المصري من قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠٦ ، وكان وقتذاك تلميذاً بالمدرسة الحربية (٤) :

لكَ اللواءان فوق الإنس والجان فاخذُلْ عداتك من قاصٍ ومن داني
رَبِّ الأسودَ التي يوم الكريهة لا يَرَوْنَ إخوانهم فيها بإخوان
لبثتَ في أمّة السكسونِ تُقرِضها عدلاً بعدل وعدواناً بعدوان
وكنتَ كالدهر لو أغفتَ لواحظُه له على الناس قلبٌ غيرُ وَسْنانِ

---

١ – ديوان الكاشف ١ : ٣٢

٢ – ديوان عبد المطلب ص ٢٥

٣ – يقصد « بين القبر والمحراب » أي قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومنبره، في مسجده بالمدينة المنورة .

٤ – ديوان عبد الحليم المصري ١ : ١٦ – ١٩

... همَمْتُ بالمدح والدنيا تثبطني وكان مدحُك مقروناً بإيمان [1]
فإن ظفرتُ بآمالي سأخذلها وإن خُذِلتُ فإني ذلك الجاني

* * *

هكذا أحب الناس عباساً في صدر حكمه . وكذلك مدحه الشعراء مخلصين غير منافقين . ولكن الحال لم يدم على هذا المنوال . فقد تضعضع عباس وخار عزمه أمام اللطمتين القاسيتين اللتين تلقاهما من كرومر . ولم يدر ماذا يصنع . هذه هي فرنسا وروسيا ، تشجعانه على مقاومة النفوذ الإنكليزي ، ثم تتخليان عنه في المأزق . وهذا هو الشعب من ورائه ، قصارى جهده أن يصفق وأن يهتف بحياته أو بسقوط الظالم ، فجهده جهد المُقِلّ ، وحبه حب الضعيف الذي لا يضر ولا ينفع . وهؤلاء هم الذين اصطفاهم وقربهم إليه : مصطفى كامل وعلي يوسف ، لا تتجاوز وسائلُهم الخُطَبَ والمقالات . وهؤلاء هم أعيان المصريين وكبراؤهم ، يسرعون إلى موكب الظافر يرتمون تحت أقدامه ابتغاء النفع [2] . والجيش — على ضآلته وضعفه — والشرطة والأداة الحكومية بعد

---

١ — يشير إلى أن مدحه يغضب كرومر ويغضب الإنجليز أصحاب السلطان ويعرضه للاضطهاد لأنه كان وقتذاك طالباً في المدرسة الحربية .

٢ — من أمثلة ذلك ، تصريح فخري باشا الذي رشحه عباس لرياسة الوزارة بعد إقالة وزارة مصطفى فهمي ، بأن الاستعمار الإنكليزي أهون من غيره ، وأنه لو تولى الوزارة لما فكر في الاستغناء عن خدمات الموظفين الإنكليز ، لأن مصر لا تستطيع تصريف أمورها بغير مشورتهم « مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٧٤ ». ومن أمثلته كذلك تراجع ماهر باشا الذي كان من ألد أعداء الإنكليز بعد اللطمة التي تلقاها عباس في أزمة الحدود ، وبعد نقله من وكالة الحربية في هذه الحادثة بأمر كرومر . فقد انضوى إلى الإنجليز بعد ذلك مستيئساً من مقاومتهم « عباس الثاني هامش ص ٥٨ ».ومن أمثلته كذلك انصراف رياض باشا إلى التقرب لكرومر بعد أن أقاله عباس من رياسة الوزارة لتخليه عنه في حادث الحدود . وقد ظهر تزلفه هذا في خطبته المشهورة عند افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية سنة ١٩٠٤ . وهي الخطبة التي هاجمه شوقي بسببها في قصيدته « خاتمة رياض » (عباس الثاني هامش ص ٦٦ ، مصطفى كامل ١٤٤ — ١٤٧ ، ديوان شوقي ١ : ٢٤٩) . وهكذا جنح معظم رجالات مصر إلى موالاة الاحتلال واكتساب رضاه ، فانتشر روح الخضوع والاستسلام بعد انسحاب=

ذلك كله في يد كرومر . فكيف يصنع ؟

بدا لعباس بصيص ضئيل من الأمل يشع من باب الخليفة في تركيا ، فتتبعه وطرق باب السلطان عبد الحميد ، يرجو أن يجد عنده الملجأ من كرومر ، وارتمى بين أحضانه كما يرتمي الطفل بين يدي أبيه طلباً للحماية من كلب ضار . وخيل إليه أن السلطان سينصفه ، فبالغ في إذلال نفسه له والتأدب بين يديه [١] . ولكن عبد الحميد كان غارقاً في متاعبه الخاصة . وكان هو نفسه عاجزاً عن مقاومة الدول الأوروبية والتخلص من نفوذها ، وفي مقدمتها إنكلترا ، فكيف يدفع الضرّ عن غيره من لا يستطيع دفعه عن نفسه ؟ . . وكيف يعين عبدُ المُعين وهو أحوج لمن يعينه ؟ . . كما يقول المثل المصري [٢] .

وأخذ كرومر يرقب رحلات عباس إلى الآستانة وعلى فمه ابتسامة ساخرة. وهذا هو السفير البريطاني في الآستانة يقول : « إن السلطان نصح للخديوي بطريقة أبوية أنّ يفوض أمره إلى الله ، ويرضى بما قسم له ، ويثق بفعل الزمن ، محافظاً دائماً على العلاقات الحسنة مع الإنكليز » . ويقول كرومر عن وفد عباس إلى تركيا وعن العريضة التي رفعوها إلى الخليفة ، في عبارة ملؤها الشماتة والاستخفاف : « ومهما تكن البواعث التي جعلت السلطان يعاملهم هذه المعاملة ، فلا ريب أنهم نالوا ما يستحقون . فإن هذه العريضة كانت ألطف فصل هزلي في رواية الحركة ضد الإنجليز . . . هذه هي النتيجة الوحيدة من زيارة الخديوي

= فرنسا من فاشودة سنة ١٨٩٨ وبعد اتفاقية السودان سنة ١٨٩٩ (مصطفى كامل ١٠١ و ١٠٨ ، ١٠٩) وتفشي الضعف والنفعية والانصراف عن متابعة الحركة الوطنية بعد اتفاق فرنسا وانكلترا سنة ١٩٠٤ « مصطفى كامل ١٤٢ ، ١٤٣ » .

١ – زار عباس السلطان عبد الحميد في ثلاث سنوات متتالية عقب أزمة الوزارة الفهمية في سنوات ١٨٩٣ ، ١٨٩٤ ، ١٨٩٥ . ويروي أحمد شفيق في وصف المقابلة الأولى أن الخديوي كان يقف مؤدياً التحية العسكرية للسلطان عبد الحميد كلما أجاب عن سؤال يوجهه إليه . كما روي أنه امتنع عن التدخين في حضرته حين قدم إليه لفافة تبغ ، ولم يسمح لنفسه بالتدخين حتى أمره السلطان بذلك قائلا : الطاعة فوق الأدب « مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٠٣ »

٢ – المثل بلهجته الشعبية « جيتك يا عبد المعين تعيني لقيتك ياعبد المعين تتعان ». والمعين هو الله سبحانه وتعالى.

للآستانة . فإنه اقتنع بأن لا ينتظر أي مساعدة من هذه الجهة . ذهب شاهراً الحرب ، وعاد خَصْماً مؤدباً ذليلا » [1]

واضطرب تفكير عباس ، وراح يتخبط في تصرفاته . فهو تارة يفر من الإنكليز إلى تركيا. وهو تارة أخرى ينصرف عن السلطان محتمياً منه بالإنكليز [2]. وهو كاره لكليهما في الحالين . لا تطمئن نفسه إلى هذا ولا ذاك . ولكن صلاته بتركيا تقوى وتضعف تبعاً لحسن صلاته بالإنكليز ، وصلاته بالإنكليز تزيد وتقل تبعاً لإقبال السلطان عليه أو انصرافه عنه [3] . وبينما كان عباس يشجع أعضاء « تركيا الفتاة » الفارين إلى مصر من مطاردة السلطان عبد الحميد [4]، إذا به ينقلب إلى محاربتهم تقرباً للسلطان [5]. وبينما هو مقبل على الشعب يحتضن مطالبه ، ويشجعه على تقديم العرائض للمطالبة بالدستور التماساً للحد من نفوذ كرومر [6] ؛ إذا به يتنكر للشعب وزعمائه ، ويُعرِض عن مطالبه . حين يرى إقبال غورست « خليفة كرومر » عليه ، فيحارب الحرية والصحافة ويُغضي عن الزجّ بأصدقاء الأمس في السجون [7] . فإذا مات غورست وحل محله كتشنر « عدوه القديم في

---

١ – عباس الثاني ص ٥٥ ، ٥٦

٢ – مذكراتي في نصف قرن : ٢ : ٤١١ ، ٢ ب : ١٦ ، ٢٠ ، ٢١

٣ – سافر عباس للآستانة في أول حكمه ثلاث سنوات متتابعة ثم انقطع سنة ١٨٩٥ بعد زيارة الأسطول الإنكليزي للإسكندرية . وسافر إلى لندن سنة ١٩٠٠ حين فترت صلته بالسلطان بسبب تشجيعه للفارين إلى مصر من أعضاء «تركيا الفتاة» . ولكنه عاد لاستمالة السلطان حين أمر كرومر بتفتيش قصره في حادث « ليون فهمي » سنة ١٩٠١ . ولم يلبث أن انصرف الى التقرب من الإنكليز حين اختلف مع السلطان على جزيرة «طاشوز» سنة ١٩٠٢ . وهكذا ظل طول حكمه يفر من الإنكليز إلى الترك تارة ، ومن الترك إلى لإنكليز تارة أخرى . وكان مما يفسد عليه صلته بالسلطان مكايد « الأمير حليم» الصدر الأعظم ، وقد كان طامعاً في عرش مصر « راجع مذكراتي في نصف قرن في السنوات السابقة » .

٤ – مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٠٣ – ٣٠٨ ، ٢ ب : ٤ ، ٨ ، ١٤٩ – ١٥٠

٥ – المرجع نفسه ٢ : ٣٦٨ ، ٣٩٤ – ٣٩٥ ، عباس الثاني ٧٧ – ٧٨ و ٨٠

٦ – محمد فريد : ٥٧ ، ٥٨ مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١١٤ و ١١٨ ، و ١٥٣ و ١٥٤

٧ – المرجع نفسه ٦٤ ، ١٠٠ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٦٧ و ١٦٨ و ١٧٣ و ١٨٢ و ٢٣١ .

حادثة الحدود » عاد يلتمس عون الزعماء الذين زج بهم أمس في السجون [1].

كان هذا التذبذب والتخبط داعياً لاختلاف آراء الناس في عباس: أكان مخلصاً لمبادئه ولكنه غُـلب على أمره؟.. أكان صادق النية ولكنه غالب التيارَ فَغَلبه؟...أكانت آماله أكبر من همتّه فلم يصبر للكفاح؟... أم أن حبه للمُلْك وتعلقه بما يحيطه من أبهة وجاه كان أكبر من حبه لقومه ووطنه؟... أم أنه كان يسعى إلى زيادة نفوذه وإطلاق يده من كل قيد، فهو يلتمس الوصول إلى هذه الغاية من كل سبيل؟ ... وهو إذن لا يكره الاحتلال الإنكليزي نفسه، ولكنه ينافس ممثله وينازعه السلطان؟!

مهما يكن من دخيلة أمره، فقد انتهى إلى نهاية لا يختلف عليها اثنان. انتهى إلى اليأس والاستسلام. فشهد العرض العسكري الذي كان يقيمه جيش الاحتلال في ميدان عابدين بمناسبة عيد ميلاد الملكة فكتوريا، ثم الملك إدوارد السابع من بعدها. ووقف للمرة الأولى تحت العلم البريطاني بجوار اللورد كرومر في سنة ١٩٠٤، مرتدياً بدلة التشريفة الكبرى يحيط به حرسه الخاص [2]. ثم قَبِل تعيين « ياور » إنجليزي له في سنة ١٩٠٥ [3]. ثم نشرت له صحيفة « الديلي تلغراف » حديثاً في سنة ١٩٠٧، بعد تعيين غورست، ينفي فيه عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال، مطرياً اللورد كرومر، مصرحاً بأنه لا فائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال، وبأن الاحتلال الإنجليزي أفضل من أي احتلال آخر [4].

وانصرف عباس في غمرة يأسه إلى المال يجمعه في شره، ويكدسه في نهم، ولا يبالي شيئاً غير تحقيق منفعته، معتذراً عن مسلكه بأنه يعادي دولة قوية قاهرة يحتاج في حربها إلى المال، وبأنه لا يدري هل ينتهي الأمر بظفره فينجح

---

١ – مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٣٠٣، محمد فريد ٣٤٤، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩١

٢ – مصطفى كامل ١٥٢ و ١٥٣، مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٥٦

٣ – مصطفى كامل ص ١٥٥

٤ – مصطفى كامل ٢٨٧، مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١١٥ – ١١٦

ي إجلائها أم تظفر هي فتطرده خارج مصر ؟... فهو يحتاط لنفسه بأن يدّخر ما يمكّنه من العيش إذا دارت عليه الدائرة [1]. والأمثلة على هذا الشره كثيرة. منها جزيرة طاشوز [2] ، وشركة الزبرجد والنحاس [3] . ومنها بيع الرتب والنياشين وما استتبعه من فضائح [4] . ومنها حرصه على وضع يده على إدارة الأوقاف وإطلاق يده فيها دون مراقبة ، مما أدى إلى اصطدامه بحسن عاصم وبمحمد عبده وبقاضي القضاة التركي وبغيرهم في تفتيش مشتهر سنة ١٩٠٤ [5]

---

١ – تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩٧

٢ – خلاصة المسألة أن الخديوي اتفق مع أحد الأجانب من السويسريين على إنشاء معصرة زيت بهذه الجزيرة سنة ١٩٠٣ وهي وقف لأسرة محمد علي ، وهبها له السلطان مكافأة على حملته الوهابية . وثار سكان الجزيرة حين فرض عباس ضريبة عالية على المعز التي كانت تأكل كثيراً من شجيرات الزيتون ،وشكوا للسلطان ، فأصدر أمره باحتلال الجزيرة حفظاً للأمن. وقد ساءت علاقة عباس بالسلطان من أجل ذلك ،حتى لقد التمس معونة الإنجليز . « راجع التفاصيل في مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٩٥ – ٤٠٦ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٦١ – ٥٦٢ »

٣ – ملخص المسألة أن الخديوي اتفق مع ثلاثة ، أحدهم سويسري ،على تأليف شركة لاستخراج اللؤلؤ والأحجار الكريمة من البحر الأحمر ،والتنقيب عن النحاس والمعادن في جزره وفي شبه جزيرة سيناء ، على أن يكون الربح مناصفة بينه وبين الشركاء . وفوجىء عباس بمنافسة شركة إنكليزية له في الطور ،فلم يستطع الوفاء بعقد الشركة . « راجع التفاصيل في مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٦٦ ، ٦٧ »

٤ – كانت الرتب تباع كالسلع ، وكان لكل رتبة سعر معين ،وكان لها وسطاء معروفون ، ربما اعتدى بعضهم على البعض الآخر فنافسه في عملائه . وقد ترتب على ذلك أن الرتب منحت في بعض الأحيان لأشخاص محكوم عليهم في جرائم خلقية كالتزوير والاختلاس ، فأحدث ذلك ضجة وكان حديث الناس والصحف . وتدخل كرومر في الأمر مهدداً بسحب امتياز منح الرتب من الخديوي « مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٧ ، ٨ و ٤٣ – ٤٤ » وراجع على سبيل المثال مقالا للطفي السيد نشر بصحيفة « الجريدة » في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٠٨ عن « الرتب والنياشين » المنتخبات ص ٧٢ » .

٥ – ملخص المسألة أن «زورفاداكي « اشترى من الحكومة حديقة الجيزة وسرايها وجزءاً من الأرض الزراعية التي أمامها على النيل . ثم اتفق مع عباس على أن يستبدل أرض الوقف الواقعة بجوار « الكوبري الأعمى » بتفتيش الخديوي في «مشتهر» . وكان الخديوي راغباً في إنفاذ الصفقة للتخلص من تفتيش مشتهر ، وليكون شريكاً لزورفاداكي في الأراضي =

وفي تفتيش «المَطَاعنة» سنة ١٩١٣ [1]. وكان الذي يعني الإنكليز من الأمر – إلى جانب تشويه سمعة عباس والتودد إلى الشعب – هو أن لا يتركوا في يد عباس مصادر للمال لا تخضع للرقابة، يمكن أن يستغلها في مناوأتهم. ولذلك كان الشيخ محمد عبده «صديق كرومر» أكثر الناس اصطداماً بعباس في ديوان الأوقاف. وقد بلغ من كره عباس لمحمد عبده أن سخط على كل من اشترك في رثائه أو تشييع جنازته [2]. ومن الأمثلة على هذا الشره في جمع المال مساومته لإيطاليا على شراء سكة حديد مريوط التي كان قد أنشأها لإصلاح أراضيه الزراعية بغرب الإسكندرية، وذلك في مقابل سعيه عند السنوسيين لوقف مقاومتهم للاستعمار الإيطالي سنة ١٩١٢، ثم إقالته لوزارة محمد سعيد سنة ١٩١٤ حين اشترت الحكومة هذا الخط بمبلغ لم يرض شرهه [3]. وقد تدلى عباس في جشعه إلى سفاسف الأمور، حتى لقد فصل موظفاً بسراي رأس التين لأنه رفض أن يرسل حَشَايا «مراتب» و«كراسي» إلى تَكيَّة المنتزه، معتذراً بأن «المَراتب»

= التي تشترى من الوقف. ولذلك غالى في تقدير أرض مشتهر وبخس أرض الوقف. فلما عرضت المسألة على مجلس الأوقاف الأعلى عارضها محمد عبده، وآزره حسن عاصم رئيس الديوان الخديوي، مما كان سبباً في غضب عباس عليه «مذكراتي في نصف قرن ٢ ب: ٤٥ – ٤٦، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٦٢»

١ – ملخص المسألة أن الدائرة السنية باعت ٣٠٠٠ فداناً لمشتريين، قسطا باقي الثمن للبنك العقاري. وتأخر عليهما قسطا سنتين، فشرع البنك في نزع الملكية. وعند ذاك أوعز الخديوي لديوان الأوقاف بشرائها بالممارسة بأكثر من ضعفي ثمنها حتى لا تبخس في المزاد الجبري. وقد عارض أحمد شفيق الصفقة فنقل من الأوقاف وحل محله آخر مقابل رشوة ٥٠٠٠ جنيه وأنفذ الصفقة. ثم تبين أن الصفقة تمت مقابل ستين ألف جنيه قدمت رشوة للخديوي. وقد علم كتشنر بالأمر فصمم على تحويل ديوان الأوقاف إلى وزارة. «مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٢٩٢ – ٢٩٨»

٢ – وهذا هو السبب في أن شوقي لم يرثه إلا بثلاثة أبيات. ويراجع في أمثال هذه الفضائح إلى جانب ما سبق تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٦١، ٥٦٢. ٥٧١، ٥٧٢، عباس الثاني ٧٣، ٧٦

٣ – مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٣٠٩، وراجع التفاصيل في المرجع نفسه ٢ ب : ٣٢٥، ٣٢٦

عكن أن يقال إنها استهلكت وأدخل قطنها في « التنجيد » ، أما الكراسي فهي « عهدة » ثابتة ولا يمكن إرسال شيء منها . [1]

ولم يكن شره عباس إلى السلطة بأقل من شرهه إلى المال . فلم يكد كرومر يرحل عن مصر ويحل محله غورست فيرضي شرهه إلى السلطة والمال ويطلق يده في كل ما تشتهيه نفسه منهما ، حتى تنكر للحركة الوطنية وحارب رجالها ، وعدل عن تحمسه للمطالبين بالحياة النيابية ، لأنها أصبحت تقيد إرادته بعد أن كانت تقيد إرادة ممثل الاحتلال . وهذا هو مصطفى فهمي الذي تلقى بسببه أول صفعة من الاحتلال ، لا يكاد يحتفي بعيد جلوس عباس ، فيقيم الزينات الفخمة أمام بيته ، حتى يرضى عنه ويقبل عليه ويستشيره في كل صغيرة وكبيرة . ويروي أحمد شفيق عن استبداده قصصاً عجيبة . فهو يكلف أحد الموظفين حين يغضب عليه بالعمل في نقل الفحم ، فإذا هرب والتحق بإحدى الشركات أمر بإعادته إلى القصر . وهو دائم السب والشتم لموظفيه . بل لقد يبلغ في ذلك أن يضربهم بالسوط بيده [2] .

* * *

كان انحراف عباس سبباً في تحول الشعب عنه ، ثم سخطه عليه ومهاجمته له ، مما دعاه إلى زج معارضيه في السجون . وأخذ مصطفى كامل يهاجم الحكومة وينتقد تصرفاتها واستسلامها للإنكليز منذ سنة ١٩٠٤ [3] ، مما أغضب الخديوي ، وانتهى بإعلان مصطفى كامل انفصاله عن القصر [4] . ولكن مصطفى كامل كان يتفادى الاصطدام بعباس ومهاجمته رغم ما شجر بينهما من خلاف ، حتى لا يتيح للإنكليز فرصة

---

١ – المرجع نفسه ٢ ب : ١٣٢
٢ – المرجع نفسه ٢ ب : ١٣٢ و ١٤٣ و ١٥٨
٣ – راجع خطبة مصطفى كامل في الإسكندرية : يونيو سنة ١٩٠٤ « مصطفى كامل ١٤٧ – ١٥٠ »
٤ – اللواء عددا ٢٥ ، ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٤ – مصطفى كامل ص ٢٨٢ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٥٩ ، ٦٠

للتدخل ، وكان يتخذ القصر وسيلة لتوحيد سياسة الأمة المصرية على مقاومة الاحتلال [1] . وهذا هو ما عناه شوقي حين قال في الذكرى السابعة عشرة لوفاته :

جمعتَ الناسَ حول العرش علماً ... بأن لمصر في العرش اعتصاما
هو العَلَم الـــذي تَفْديه مِصر ... ونحن الجُنْد في العلم انتظاما

وكان عباس في الوقت نفسه يحس أنه محتاج إلى مصطفى كامل ، لايستطيع أن يجمع على نفسه بين عداوته وعداوة كرومر ممثل الاحتلال . ولذلك سلمت علاقة مصطفى كامل بعباس رغم انفصاله عنه . فلما خلفه محمد فريد ، شعر عباس بأنه يستطيع الاستغناء عنه بعد أن ساد الوفاق بينه وبين جورست ممثل الاحتلال . ورأى محمد فريد أن عباساً لم يعد مستعداً للمضي مع الشعب في كفاح المحتل الغاصب ، بل لقد رآه يتساهل في حقوق مصر ، حرصاً على صلات الود الجديدة ، أو على سياسة الوفاق كما كانوا يسمونها في ذلك الوقت . عند ذاك هاجم محمد فريد عباساً ، ورد عباس هذا الهجوم ، فأمعن في اضطهاد الحركة الوطنية . واستعان على ذلك ببعث قانون المطبوعات في سنة ١٩٠٩ ، وهو قانون كان قد صدر في أيام الثورة العرابية سنة ١٨٨١ . وسن قانون النفي الإداري ، الذي يخول للحكومة حق نفي المصري لمجرد الشبهة ، بحجة أنه خطر على الأمن العام [2] . وبذلك نجح ذلك الداهية الإنكليزي ، غورست ، في صرف جهود الشعب إلى محاربة الخديوي بدلا من محاربة المحتلين . ووقف الإنكليز موقف المتفرج ، يتدخلون للتوسط وحل النزاع حينما يحلو لهم ذلك . وتحقق بذلك ما أوصى به اللورد دوفرين في تقريره الذي وضعه في السنة الأولى للاحتلال ، حين نصح بأن لا يتولى الإنكليز حكم مصر المباشر وإدارتها ، مقترحاً أن تحكم بأيد مصرية موالية للاحتلال ، حتى تقع أخطاء الحكم على رؤوس المصريين

١ – تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩٣ ، ٥٩٤

٢ – محمد فريد ص ١٠٠ و ١٠٦ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٧٣ ، ١٨٤ ، ١٧٨ ، ١٨٠

أنفسهم .[1] وكان تصرف غورست صورة من المأساة التي كروهــا الإنكليز في كل مستعمراتهم على مر السنين . يغرون الزعيم من الزعماء بالمال وبالجاه ، ثم يملون له حتى يتورط في أخطاء تفقده ثقة الرأي العام . فإذا قضوا عليه نبذوه ، وظهروا أمام الشعوب بمظهر الغيورين على العدالة ، الذين يتدخلون للحد من جشعه واستغلاله [2] . وذلك هو ما حدث مع عباس ، أملوا له حتى تخلى عنه الشعب وأصبح وحيداً . ثم تنمروا عليه ، وبعثوا لمصر بعدوه اللدود « كتشنر » ممثلا للاحتلال ، يسومه الخسف ويذيقه الذل ويضيق عليه ، حتى لقد لزم قصره مفكراً في التنازل عن العرش .

ومنذ ذلك الوقت أصبح الوطنيون يحاربون في جبهتين ، يحاربون الاحتلال ويحاربون في الوقت نفسه الخديوي وأذناب الاستعمار . وعرفت مصر مظاهرات الطلبة منذ سنة ١٩٠٦ . وبلغ من تحدي الطلبة للخديوي ، وكرههم إياه أن مر بنفر منهم في « قهوة الشيشة » ، وهو في طريقه لتوديع ولي عهد انكلترا الذي كان في زيارة مصر سنة ١٩٠٩ ، فظلوا جلوساً وقد وضع كل منهم ساقاً على ساق ينظرون إليه دون اكتراث[3] . وأثار هذا الموقف الكاشف فقال يخاطب الطلبة ، وقد عز عليه أن يرى الخديوي محوطاً بالحراس خشية اغتياله ، وهو الذي كان يتزعم الحركة الوطنية في الأمس القريب [4] :

أرأيتم الحرّاس دون ركــــابـه ... سدّاً فما يرنو إليـــه مسلمُ
قـــد يصبح الإنسانُ شيطانـــاً ولا ... يقع الذي ظنوا بكم وتوهّموا
هل نحن أمّة قيصر أو جـــاره ... كسرى فيخشى أن يحيط به الدّم؟
أم بعد ما أمِن الأعادي ليلـــــة ... يأبى على الخُلَصاء أن يتكلموا ؟

وانضم الأزهر للحركة الوطنية ، يندد مع المنددين بحكم الخديوي الاستبدادي ،

---

١ — مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ص ٢٣

٢ — راجع عباس الثاني ص ٧٣

٣ — مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٧٨ .

٤ — قصيدة الكاشف : الطلبة والسياسة . ديوانه ٢ : ٩٥

وبحكم من يشد أزره من أعوان الاستبداد والاستعباد [١] . وظهرت المنشورات الثورية التي تدعو إلى تأسيس جماعات سرية للاغتيال [٢] . ثم عرفت مصر أول حادث اغتيال سياسي سنة ١٩١٠ حين قَتَل الورداني بطرس غالي رئيس الوزراء.

وجهر المعارضون للخديوي بعدائه وتجرّأوا عليه . فاستطاع سعد زغلول في سنة ١٩٠٧ أن يضرب بيده المنضدة في إحدى جلسات مجلس الوزراء وهو يقول ، موجهاً الخطاب لعباس : « حينئذ لا يستطيع الإنسان أن يتكلم هنا » . كما استطاع أن يكسب إلى جانبه أغلبية المجلس ضد عباس في مشروع مدرسة القضاء الشرعي. الذي كان يعارضه وقتذاك[٣]. ورفض محمد فريد أن يقف عندما عزف السلام الخديوي في حفلة لرعاية الأطفال أقيمت في دار الأوبرا سنة ١٩١٢ ، وكان يشهدها مندوب الخديوي [٤] . ونشر محمد عبده مقالا عنيفاً في صحيفة المنار سنة ١٩٠٢ يهاجم فيه محمد علي ، وذلك بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس الأسرة العلوية. وقد صور في هذا المقال الجريء كيف وصل محمد علي للحكم ثم كيف احتفظ به . فقال [٥] :

« ما الذي صنع محمد علي ؟.. لم يستطع أن يُحيي ولكن استطاع أن يميت . كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه .

---

١ – مصطفى كامل ١٦٢ – ١٦٤ ، محمد فريد ٧٧ ، ١٠٣ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٦٤ ، ١٧٨ ، ٢١٠ ، روتشتين ٣٥٠

٢ – وصلت إلى عباس خطابات تهديد.ثم قبض على ثلاثة من الشبان بتهمة التآمر على الخديوي وعلى كتشنر وعلى محمد سعيد فزجوا في السجن « مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٦٥ ، ٢١٠ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ »

٣ – مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٠٢ ، ٢٤٢ . ولمدرسة القضاء الشرعي قصة طويلة ليس هنا مجال تفصيلها . فقد أنشئت بإشارة من اللورد كرومر على نمط معين أعده وعهد إلى الشيخ محمد عبده باحتذائه . ويراجع في ذلك تقرير كرومر السنوي عن سنة ١٩٠٥ في الفقرة رقم ٩٨ تحت عنوان The Mehkemeh Sherieh المحكمة الشرعية .

٤ – المرجع نفسه ٢ ب : ٢٦٨

٥ – تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٣٨٢ – ٣٨٩

ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه . وهكذا ، حتى إذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير « أنا » . واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الأهلين . وتكرر ذلك منه مراراً حتى فسد بأس الأهالي ، وزالت ملكة الشجاعة منهم . وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها ، فلم يُبْق في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه ، أو نفاه مع بقية ولده إلى السودان فهلك فيه . »

« أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى ، كأنه كان يحن لِشَبَه فيه ورثه عن أصله الكريم ، حتى انحط الكرام ، وساد اللئام ، ولم يبق في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أي وجه . فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة واستقلال نفسي ، ليُصَيِّر البلاد المصرية جميعاً إقطاعاً واحداً له ولأولاده ، على أثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة. » .

ثم يقول محمد عبده :

« إن محمد علي قد ملأ مصر بالأجانب والدخلاء ، يستعين بهم على إقرار نفوذه ، وأذل المصريين بإطلاق يد هؤلاء الدخلاء فيهم ، يحكمون على هواهم لا هدف لهم إلا مرضاة الأمير صاحب الإقطاع الكبير » .

ثم ينفي عنه ماينسب اليه من إصلاح ، بل ينسب إليه قتل كل روح للشهامة أو النخوة في مصر ، مما ظهر أثره عند غزو الإنجليز لها ، فيقول :

« حمل الأهالي على الزراعة ، ولكن ليأخذ الغلات . ولذلك كانوا يهربون من ملك الأطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر والموت الأحمر . وقوانينُ الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك . »

« يقولون إنه أنشأ المعامل والمصانع . ولكن هل حبب إلى المصريين العمل والصنعة حتى يستَبْقوا تلك المعامل من أنفسهم ؟ .. وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها في البلاد ؟.. أين هم ؟ .. ومن كانوا ؟ .. وأين آثارهم ؟.. لا .. بل بَغّض إلى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم

في العمل والاستبداد بثمرته . فكانوا يتربصون يوماً لا يعاقبون فيه على هجر المعمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه ، لاعنين الساعة التي جاءت بهم إليـه . »

« يقولون إنه أنشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك ودوّخ به الملوك . وأنشأ أسطولا ضخماً تَثْقُل به ظهورُ البحار ، وتفتخر به مصر على سائر الأمصار . فهل علّم المصريين حب التجنّد ، وأنشأ فيهم الرغبة في الفتح والغَلَب ، وحبّب اليهم الخدمة في الجندية ، وعلمهم الافتخار بها ؟ .. لا ... بل علمهم الهروب منها ، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون إلى الموت ، بعد أن كانوا ينتظمون في أحزاب الأمراء ويحاربون ولا يبالون بالموت أيام حكم المماليك ... هل شعر مصري بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه ؟ ... وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك إليه ، بأن يقول : هذا جيشي وأسطولي ، أو جيش بلدي وأسطوله ؟ .. كلا .. لم يكن شيء من ذلك ... فقد كان المصري يعد ذلك الجيش وتلك القوة عوناً لظالمه فهي قوة خصمه ... »

« ظهر الأثر العظيم عندما جاء الإنكليز لإخماد ثورة عرابي. دخل الإنكليز مصر بأسهل ما يدخل به دامر على قوم(١) . ثم استقروا ولم توجد في البلاد نخوة في رأس تثبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها . وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنساويين في مصر . وبهذا رأينا الفرق بين الحيـاة الأولى والموت الأخير ، وجَهِلَهُ الأحداثُ فهم لا يَسْألون أنفسهم عنـه ولا يهتدون إليه » .

وعند ذلك يبلغ محمد عبده قمة العنف والهياج ، وقد أوشك أن يختم مقاله ، فيقول :

« لا يستحي بعضُ الأحداث من أن يقولوا إن محمد علي جعل من جدران سلطانه بِنْيَة من الدين . أي دين كان دعامة للسلطان محمد علي ؟ ...

---

١ ـ الدامر : هو الذي يدخل على القوم بلا استئذان .

دين التحصيل ؟ .. دين الكرباج ؟ ... دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده ؟...
وإلا فليقل لنا أحد من الناس : أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الإسلامي الجليل ؟ ... »[1]

* * *

وظهر أثر هذا الانحراف عن عباس واضحاً في الشعر . فاصبحنا نرى الشعراء الذين كانوا يمدحونه بالأمس ينتقدون سياسته ؛ منهم من يبلغ في ذلك حد الهجاء العنيف الذي يعرض صاحبه للسجن ، ومنهم من يرفق في ذلك إشفاقاً على وحدة الأمة ، أو خوفاً من الاضطهاد ، فلا يتجاوز فيما يقول العتاب الرقيق .

هذا هو علي الغاياتي شاعر الحزب الوطني ، يعرض بالخديوي الذي يحارب الأحرار ، والذي يعارض إرادة الشعب المطالب بالدستور ، وذلك في مقدمة ديوانه « وطنيتي » ، منتهزاً الفرصة المناسبة في كلامه عن لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت فيقول [2] :

وكان ملك فرنسا في ذلك الحين « لويس السادس عشر » مستسلماً لإرادة حاشيته الظالمة ، وزوجته المستبدة المسرفة « ماري أنطوانيت » . . . وقد كانت حمقاء عدوة للإصلاح والإنصاف . وكانت تحتقر الشعب الفرنسي الكريم وتعامله معاملة يأباها الحر وتعافها النفس الشريفة . وهي التي دفعت زوجها إلى

---

١ – راجع كذلك تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٨٣ وفيه تلخيص المقال الذي هاجم فيه رشيد رضا محمد علي ، وهو سابق على مقال محمد عبده . والواقع أننا لا نستطيع أن نعتبر هذين المقالين صدى لسخط الرأي العام في ذلك الوقت ، ولكن محمد عبده كان صديقاً لكرومر ، وكان يستمد منه القوة والتأييد حين يهاجم الخديوي . ولعل هذه الحقيقة تقلل من تقدير الجرأة التي ينطوي عليها هذا المقال .

٢ – وطنيتي ص ٢٥ ، ٢٦ . وكذلك كان أكثر الناس – ولا يزالون – يتمثلون بالثورة الفرنسية وبأقوال رجالها . لأنهم يجهلون أصابع اليهودية العالمية الخفية التي اشتركت فيها ، بل التي حركتها وأثارتها ،عن طريق الماسون .

مصادرة الأحرار والوقوف في وجوههم . فلما اشتدت الأزمة وحمي وطيس الثورة كتبت إلى أبيها مستنجدة مستجيرة ، فلم تغنها تلك الجيوش الأجنبية والجنود الجرارة المنتصرة للملوكية ، بل كان التغلب للأمة ، والنصر العزيز لفرنسا الحرة . . .ودالت دولة الطغيان . وكذلك عاقبة الظالمين . . . لم تتدبر هذه الملكة الظالمة في أمرها . وسارت في الأمة سيرة الملوك المطلقين والحكام المستبدين ، فقابلت إحسان الرعية بالكفران ، مستعزة بسلطان الملك ، مضَلّلة بشياطين الملوك . وكانت ترى أنها مالكة الرقاب ومقدرة الأرزاق – كما يرى بعض الحكام في هذه العصور – فاستحقت غضب الشعب . ويا ويل الحكومة من غضب الشعب . وكانت عاقبة أمرها الهلاك والدمار » .

ثم يعقب الغاياتي في مقدمة ديوانه على نشيد المارسلييز بقوله [1] :

« إلا أنه مما لا ريب فيه أن الحكومة كلما انتهجت منهج الجور وسلكت سبيل العسف ، فتحت من حيث لا تدري للأمة أبواب الحرية الواسعة ، وهدّمها طرق السعادة المنشودة ، والضغط لا محالة محدث الانفجار . فطوبى لأمة تقوضت في ديارها دعائم العدل ، ووقف حكامها لها بكل سبيل وقفة الذئاب أمام الشياة ، فنظرت ذات اليمين وذات الشمال مستجيرة مستعيذة ، فما رأت غير ظلم وظلام ، يأخذ أموالهَا الحاكمُ المستبد بإحدى يديه ، ويسومها سوء العذاب باليد الأخرى ، فهو يجيعها ليشبع ، ويفقرها ليغنى ، ويذلها ليعتز ، ثم يسد في وجهها مناهل العلم ، لتنفسح أمامه مناهج الظلم . حتى إذا ما رفعت رأساً أثقلته المظالم ، أو فتحت عيناً أغمضتها رؤية الظالم ، أو شكَتْ وبكت ، ثم استرحمت واستنصفت ، كانت الطامة الكبرى عليها والويل الأعظم لها . ولا يزال هذا حالها مع حكامها حتى تفيض الكأس ، ولا تجد النفس طاقة لها على ما احتملت ، ويرتفع بين الأمة صوت الإباء ، مردداً قول أبي العلاء :

مُلّ المقامُ ، فكم أُعاشر أمّــة أمَرت بغير صلاحها أُمراؤها ! !
ظلموا الرعية واستجازوا كيــدها فعَدَوا مصالحَها وهم أُجَراؤها

---

١ – المرجع نفسه ص ٣٣ – ٣٥

« هنالك تشرق شمس الانتقام ، وتأخذ الشعبَ نشوةُ الانتصار ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن يوم الظالمين يوم عصيب . هنالك يغيّرُ الله حالاً بعد حال ، وتستوي الأمة على عرشها ، تدير دفة الحكم بيدها ، وتسيِّر القضاء العدل بإرادتها . هنالك ينادي منادي الحكومة الأهلية الدستورية العادلة بصوت مُدَوّ في أرجاء البلاد أن « لا ظلم اليوم . . لا ظلم اليوم » .

ويختم مقدمة ديوانه بهذه الكلمات الثائرة (١) :

« إن الحرية ليست منحة ولا هبة من ملك أو أمير ، بل هي حق طبيعي للشعوب ، متى دبت فيها روح الإباء والاستقلال أخذته بالقوة القاهرة من أيدي مغتصبيه ، وقدمت في سبيله النفس والنفيس . فهؤلاء الذين يحاربون أعداء الحرية بالوسائل النافعة ، وينتقمون للوطن منهم ثم ينالون الموتَ من يدٍ ظالمة وهم في سبيل جهادهم سائرون ، أولئك الذين رضي الله والشعب عنهم ، ووجبت لهم الكرامة الدائمة والذكرى الخالدة » (٢) .

وها هوذا يتحدث عن خضوع الخديوي وحكومته لإرادة المحتلين ، ويستحث الشعب على الجهاد لاستخلاص حقوقه فيقول (٣) :

وعـــداة ملكوا الأمر ولم ... يحفظوا للشعب في حقٍ ذماما
ووُلاة أقسموا أن يسجدوا ... كلما رامَ العدا منهم مَراما
رَبِّ ! ! ماذا يصنع المصريّ إنْ ... جاوز الصبرُ مدى الصدر فقاما ؟!
طال يوم الظلم في مصر ، ولم ... نَدْرِ بعد اليوم للعدل مقاما
هل يرى المحتلُّ أنّا أُمّة ... مُذْ عرفنا السلم لاندري الخصاما؟
أو يرى الظالم فينـــا أننـــا ... نحمل الخَسْفَ ولا نبغي انتقاما ؟

١ — وطنيّتي ص ٤١
٢ — يشير الغاياتي إلى الورداني الذي قتل بطرس غالي رئيس الوزراء ثم حكم القضاء بإعدامه ويراجع في ذلك قصيدتان للشاعر في ديوانه ص ١٠٩ ، ١١٥
٣ — وطنيّتي ص ٤٥

وها هو ذا يهاجم شوقي شاعر عباس، حين نشر له « المؤيد » في سنة ١٩٠٨ حديثاً يعتذر فيه عن إصدار الدستور بأن عباساً لا يستطيع أن يمنحه بغير رضاء الإنكليز ، ويقول : « إن الأمة لم تبلغ من النضج ما يؤهلها للحياة النيابية ». يقول الغاياتي (١) :

ياشاعر الأمراء ، ويحك ، هل ترى ... في النثر ما في النظم من خطرات؟
إني رأيتك في حديثك شاعراً ... لكن خيالك زائغُ النظرات
ياشاعر النيل العظيم !.. أما ترى ... للنيل إلا أسوأ الحالات ؟
ما كنت أحسب أن مثلك وهو في ... شعراء مصرٍ صاحبُ الآيات
يجني على الشعب الكريم جناية ... ويود أن يبقى مع الأموات ! !
أوأنت تروي عن سواك حديثه ... كَيْما نرى الدستور ليس بآت ؟
واللهُ يعلم أننا لا ننثني ... يوماً ولا نلهو عن الطلبات
حتى نفوز بنَيْلِه رغم العِدا ... وننبّه العزَمات للهجمات

وتصل مهاجمة الغاياتي عباساً إلى قمة العنف عند صدور قانون المطبوعات ، إذ يقول ، مشيراً إلى مالقيت الأمة على يدي عباس من نكال ، بعد أن تحول إلى مهادنة الإنكليز ، منزلقاً إلى ما سماه « سياسة الوفاق » (٢) :

أعبّاسُ ! هذا آخر العهد بيننا ... فلا تخْشَ منا بعد ذاكَ عتابا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة ... ننال إذا رُمنا الحياة عقابا ؟!
وأرضيتَ أعداء البلاد وأهلِها ... وأصليتَنا بعد « الوفاق » عذابا
رويدَكَ يا عباسُ . لا تبلغ المدى ... ولا تستمع للظالمين خطابا
فما يبتغي « جورستُ » إلا مكيدةً ... تُحوِّل أقلامَ السلام حِرابا

ثم يتجه إلى مهاجمة بطرس غالي ، الذي ولي الوزارة بأمر المحتلين، ويذكره بماضيه في دنشواي ، مهدداً بأنه لن يبلغ ما يريد حتى يلقى جزاءه :

---

١ — وطنيتي ص ٥٨
٢ — وطنيتي ص ٦٩

ألا مَطَّرَ الله الوزارة نقمة ولا بُلِّغَتْ مما تروم مَرَامَا
تحاول أن تقضي علينا بإثمها ولكن ستلقى دون ذاك أثاما [1]
وزارة خدّاع أقامته بيننا يد الحاكمين الآثمين فقاما
جنى ما جنى في دنشواي وغيرها ولم يكفه حتى استحل حراما
فقيّد أقلام الصحافة علّها إذا أبصرت سَوْءاته تتعامى
بني مصر! بُشْرَى . فالرجاء محقّق وَمن عَدِم الأقوال رامَ فَعَالا
فإني لمحت النصر بين صفوفكم وأبصرتُ عُقْبى الظالمين وَبالا

وديوان محرم مليء بالقصائد التي حاول بها الشاعر أن يردّ عباساً إلى صوابه ويعيده إلى الإخلاص لشعبه ووطنه . منها ما يستغني بالتلميح عن التصريح ، فيتكلم عن صفات الملك الصالح ومعايب الملك الفاسد ، ومنها ما يهاجم في عنف ، فيصف الملوك بالكذب والنفاق وإفساد الحياة .

يقول محرم في صفة الملك الصالح [2]

أحَبُّ المالكين إلى الرعايا مليك ليس يألوها افتقادا
تغلغل في مكان الحسّ منها فكان السَّمْعَ فيها والفؤادا

ثم يقول في تصوير الملك الفاسد :

أضَرُّ الناس ذو تاج تولّى فما نفع البلاد ولا أفادا
وكان على الرعية شرّ راع وأشأمَ مالك في الدهر سادا
تَبيتُ له الأريكة في عناء تمارس منه أهوالا شدادا
كأن المُلْكَ في عينيه حُلْمٌ يلذ به فما يألو رقادا
وتدعوه الرعيةُ وهو لاهٍ فتصْدَعُ دون مَسْمَعِه الجمادا
فلا هو يُرتجى يوماً لنفعٍ يُعِزُّ به الرعية والبلادا
ولا هو مالك كشفاً لضُرٍ إذا ما كائدُ الحدَثان كادا

١ – الأثام (بفتح الهمزة) : جزاء الإثم .
٢ – ديوان محرم ٢ : ٥٣ – ٥٦

ثم يتخلص من ذلك إلى مخاطبة عباس، طالباً منه أن يأخذ بيد الرعية، ويوحد صفوفها المتفرقة، ويقودها في كفاحها، متسائلا : ألا يرضيك أن تكون ملكاً على شعب عزيز ؟..

عَزيزَ النيل !.. والآمالُ حيرى تسائلك الهداية والرشادا
أضيءْ قَصْدَ السبيل لنا وألِّف أوابدها، فتوشك أن تَعادَى[1]
وقدها قَوْدَ مأمونٍ عليها يُصاديها بأحسن ما تُصادَى
فإيهٍ يا عزيز النيلِ إيه أما ترضى لحكمك أن يشادا ؟
وللشعب المصفّد أن تراه وقد نزع الأداهم والصّفادا ؟
... ألست ترى بنيها في شقاق فما يرجون ما عاشوا اتحادا ؟
أتتركهم يهب الشر فيهم ونارُ الخطب تتقد اتّقادا ؟

ويشير محرم في قصيدة أخرى إلى فساد الشعب تبعاً لفساد الملوك حيث يقول[2] :

رأيتُ الشعبَ - والأمثالُ جَمٌّ - على ما كان مالكه يكون
وما تبقى الممالكُ لاهيات تصرّفها الخلاعة والمجونُ
إذا غَوَت الهداةُ فلا رشيدٌ وإن خان الرعاة فلا أمينُ
وأعجبُ ما أرى : شعبٌ نحيف يسُوسُ قطيعَه راعٍ بَدينُ !

ويهاجم الملوك، وينسبهم إلى الظلم ومجافاة العدل حيث يقول[3] :

أرى العدلَ دَعْوَى يُعْجِبُ الناسَ حسنُها ويخدعهم عنها الحديثُ الملفّق
أكاذيبُ يُزجيها الفتى وهو عالم إذا ما ادّعاها أنه ليس يَصْدق
فشا الظلمُ بين الناس واعتز أهله وبات ضعيف القوم يؤذَى ويرهق

١ – الأوابد من الوحوش : الشاردة النافرة .
٢ – ديوان محرم ٢ : ٥٧
٣ – ديوان محرم ٢ : ٨٦

خَليِاً من الأعوان ، يُغْصَبُ حقّه فيُغْضي ، ويُرْمَى بالهوان فيُطرِق
...رأيتُ ملوكَ الناس لاينصفونهم وخــيرُ الملوك المنصف المترفق
يقيمون صرح الظلم في كل أمة إذا ملكوا ، والعدلُ بالملك أخلقُ

ويلتهب شعر محرم بالثورة حين يهاجم قانون المطبوعات فيقول[١] :

صُبوُّا المداد وحطّموُا الأقلاما واطووا الصحائف وانزعوا الأفهاما
وخذوا على الوجدان كلّ ثَنيّةٍ واقضوا الحياةَ مُزَمَّلين نياما
.. يامصر!.. ماذا تطلبين؟ .. أما كفىَ أن تصبحي للعاديات طعاما ؟!
موتي فما موت العليل بضائر وكفى بآلام الحيــاة حِماما
من ذا يرد عليكِ عهدكِ صالحاً ويعيد صوتَكِ عالياً يترامى ؟
قمنا بنصركِ والخنــاقُ مضيّق والنفسُ مُرْهَقَة أذىً وعُراما
... أنخون مصر ، وما تحوّل نيلها سُمّاً وما انقلب الضياءُ ظلاما ؟
نبغي لها الشرف الأشمّ مؤيّداً بالعلم يُوئسُ صَرْحُه الهدّاما
ونُعِزُّ رايتهــا ونمنع حوضها ونزيد صادق حبها استحكاما

ويهاجم عباساً في عنف ، متهماً الملوك بالكذب ومجافاة الشرف ، مشيراً إلى فضائح بيع الرتب والنياشين حيث يقول : [٢]

كذب الملوك ومن يحاول عندهم شرفاً ويزعم أنهــم شرفاء
رُتَبٌ وألقاب تَغُرّ . وما بها فخرٌ لمُحْرِزها ولا استعلاء
كم رتبةٍ نَعِم الغبيّ بنيلها من حيث جللها أسى وشقاء
لو كان يعلم ذلّها وهوانها ما طال منه الزّهوُ والخيلاء
...لا المجد مجْدٌ بعدما عبثت به أيدي الملوك ولا السنَّاءُ سَنَاءُ

---

١ – ديوان محرم ٢ : ٤٧ – ٤٨
٢ – ديوان محرم ١ : ١٥٠

مالوا عن الشرف الصميم وأحدثوا | ما شاءت الأوهامُ والأهواء
رفعوا الطَّغامَ على الكرام فأشكلت | قِيَمُ الرجال ورابت الأشياء
وإذا الرعاة تنكبت سبل الهدى | غوت الهُداةُ وطاشت الحكماء
لو جاور الشرفُ الملوكَ لأورقت | صمُّ الصخور وضاءت الظلماء
الحقُ منتهَكٌ المحارم بينهم | والعدل وهمٌ والوفاء هَبَاء
رفعوا العروش على الدماء وإنما | تبقى السفينة ما أقام الماء

أما الكاشف ، فهو يتقدم إلى عباس في قصيدة أنشأها في عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ ، ناصحاً له في رفق أن يعيد إلى شعبه الدستور الذي أصدره أبوه ، حتى ينكشف موقف الإنكليز ، ويعرف الناس أنهم هم المعارضون (١) :

يا تابع الأجداد والآباء في | حكم البلاد أعد صنيع أبيكا
وامنح رعيتك الذي سألوكه | وعلى الطغاة الإثمُ إن منعوكا(٢)
ماذا عليك إذا انتزعت أمورها | منهم ، وشاطرك الأمورَ بنوكا؟
هذي نفوسهُمو لديكَ رهينة | ولو استطاعوا غيرَها منحوكا
لا يسألونك مدفعاً وصوارماً | هم يسألونك آيةً من فيكا
لك في الخليفة أسوةٌ محمودة | ولتتبعَنَّ سبيله المسلوكا (٣)

ثم هو يحذره من سياسة الوفاق الخبيثة التي جاء بها جورست ليفرق بها بينه وبين شعبه . فهو اليوم يشكو إليه الأحرار من شعبه ليبغضهم إليه ، ثم هو في غد يشكوه إليهم حتى يكرهوه . وهو ينصحه بأن يستبقي ود شعبه ويحرص على تأييده فهو عدته وقوته (٤) :

أهلا وسهلا بالوفاق ومرحباً | لو كان فيه قضاء ما وعدوكا

---

١ – ديوان الكاشف ٢ : ٤٨ – ٥٠
٢ – يقصد بالطغاة الإنكليز الذين كان يتملق عباس بمعارضتهم الحياة النيابية .
٣ – يشير إلى الدستور التركي الذي كان قد صدر في هذا العام .
٤ – ديوان الكاشف ٢ : ٤٩

إن كنتَ مُشْتَرِطَ الجلاء فواجب   لك أن تَودّهُمو كما وَدُّوكا
خير لنا أن يعلنوا البغضاء من   أن يعلنوا لك مَوثِقاً مفكوكا
ما كان حباً ما ترى ، لكنه   كتْمٌ الُمخاتل سرَّه المهتوكا
أرأيت كيف وشى بكل مهذّب   حرٍّ فكان الآفكَ المأفوكا
اليوم يشكونا إليك وما بنا   غيرُ الوفاء ، وفي غد يشكوكا
أعيى على أوهامه ووعيده   هذا المِراسُ ، فقام يستصفيكا
ماذا ترى في قادرين يسوؤهم   أنّا نحسّ وأننا نرجوكا
حسبوا الرعية - وهي عند يقينها -   تُرْضِي العواذلَ فيك أم حسبوكا ؟
وعليكَ يجني ، أم على أعدائه   من لا يرى لك في البلاد شريكا ؟
لم يبق غيرُك للبلاد وأهلها   فاحرص على تأييد مستبقيكا
لكَ من يقينك والتجارب عاصمٌ   للمخلصين يقيهمو ويقيكا
يا حبّذا يومُ الجلاء ، ولا نرى   جنداً يصول ، ولا دماً مسفوكا
هذي خواطِريَ الحِسانُ وَغيْرَتي   أرأيتني أُغريك أم أوصيكا ؟
لا راقني عيدٌ بمصرَ ومَوْسم   حتى يعودَ محرَّراً واديكا

ويحذره في قصيدة أخرى قالها سنة ١٩٠٩ مما تنطوي عليه سياسة الوفاق الكاذبة من أخطار ، وينصح له أن يعلن رضاءه وعفوه عن ضحايا قانون المطبوعات حيث يقول (١) :

صدقوا رجال الملك أم كذبوهم ؟   ووفاءُ صَحْبٍ أم رياءُ دُهاة ؟ (٢)
أيؤيدون مصاولا بحسامه   ويخادعون منادياً بشكاة ؟
لمَ يعملون على البقاء ؟ .. وما لهم   غَفَلوا عن الميعاد والميقات ؟
أمن الذنوب شَكَاةُ مصرك بعدما   ملكوا أعنة أمرها سَلِسات ؟
غَدَوا على أحرارها أنفاسَهم   وترقبوا اللحظات والخطرات

١ – ديوان الكاشف ٣ : ٥٦
٢ – الضمير في « صدقوا » عائد على الإنكليز

إن ينقِموا منها مِراسَ غُلاتها   فالعجز أن تبقى بغير غلاة[1]
أرأيتها في المهرجان ، وقد خلت   من حلْيَة الأتراب والأخوات[2]
أعلِنْ رضاك عن الأباة ، فإنه   فَصْلُ الخطاب وفُرْجَةُ الأزمات

وهذا هو عبد الحليم المصري الذي يملأ مدح عباس ديوانه ، يقسو عليه في العتاب ، في قصيدة رفعها إليه سنة ١٩٠٨ على لسان الأمة المصرية ، مطالباً بالدستور ، يحذره فيها من معاداة الشعب وتجاهل مطالبه ، ويضرب له الأمثال بمظفر الدين شاه العجم ، الذي خلعه شعبه حين ألغى الدستور الذي أصدره أبوه بعد أن وعده قبل جلوسه أن يرعاه ، حانثاً بقسمه الذي أقسمه أمام أبيه ، وبالثورة المراكشية التي انتهت بخلع عبد العزيز وتولية عبد الحفيظ . ثم هو يذكر عباساً بحديثه الذي أدلى به إلى صحيفة « الطان » ، ووعد فيه بإصدار الدستور [3] . ويقول له إننا شعب مسالم ، لا نتوسل بالثورات . فهل لا يشفع لنا ذلك عندك ، إذ نطلب الدستور بالخطابة والكلام ، حين يطلبه غيرنا بالدماء ؟

رُدَّ الوديعةَ لا مالاً ولا شانا   لم نرج في جانب الدستور إحسانا
لولا ولاؤك لم نبسط إليك يـداً   من الرجاء ، ولم نسألك غفرانا
ربَّ الأريكة ! إنا لا نزال على   وثيق عهدك أخداناً وأعوانا
لا يفصِم الدهر حبلا من مودتنا   ولا تشابُ بماء البؤس نُعمانا
إن الحياة لَدارٌ نحن نسكنها   وحاشَ لله أن نشقى بسكنانا
الناس تُخلَقُ أحراراً ، فكيف بنا   نرضى المقام بوادي النيلِ عِبدانا؟
مظَفَّرَ الدين ! هل أغمضتَ عينكَ عن   منابت الشعب ، أم أوْقرت آذانا ؟

---

١ – يقصد بالغلاة : رجال الحزب الوطني الذين كانوا يتهمون بالتطرف .

٢ – يشير إلى ما قوبل به عيد جلوسه الأخير من فتور .

٣ – ديوان عبد الحليم المصري ١ : ٥٨ وراجع كذلك إشارته إلى الدستور في قصيدة العام الهجري سنتي ١٩١٠ م و ١٩١١ م ، وإشارته إلى اضطهاد الصحافة والأحرار في قصيدته « المساجين » و « الحرية » في ديوانه ١ : ٥٦ و ١١٩ و ١٠٨ – ١١٢ و ٧١ – ٧٤ .

حتّى ترى الدم حول العرش منهمراً وتبصر القوم فتّاكاً وطعانا
وتسأل القسم المبرور، هل حنثت فيه الأعاجم ، أم ظنته بهتانا [1]؟
قد قام شبلك بالإفتاء يهدم ما شيدت للعدل أركاناً وجدرانا
فأجرّت القومُ يمّاً من دمائهم يكاد يُخْفِي عن الأبصار «طهرانا»
وعلّمتْ من رآها كيف تُرْخِص في حب الدساتير أرواحاً وأبدانا
إن قام بالملك مولاي (الحفيظ) ولم يقم له الدهر فوق العرش أركانا
وحرر الشعب من ذل الضعيف إلى عز القوي وأمسى فيه سلطانا
فكيف لم تولِنا مثل (الحفيظ) يداً وأنت أكرم أنساباً وأوطانا ؟
هلاّ ادّكرت الوعود السالفات، وهل نسيتَ بالأمس ما أسمعته (الطانا)؟
ما نال في الغرب أقوامٌ مآربهم إلا وسالت دماء القوم ألوانا
ونحن في الشرق لم نَنْهض السيوف ولا نُرَى بغير اليراع المُرِّ فرسانا
فكيف لا يشفع الصبرُ الجميلُ لنا عند (الأمير) ولا ترضيه شكوانا ؟
يا لفظةً منك في الآذان نرقبها كأن آذاننا أصبحن أجفانا
ثبي لنا في الدياجي مثلما وثبت للترك أختُكِ ، إن الوقت قد حانا

* * *

كان عباس يكره الإنجليز في أعماق نفسه. وكانت علاقته بهم سيئة طوال مدة حكمه، إذا استثنينا السنوات الأربع التي تخللتها ، من تعين إلدون جورست معتمداً بريطانيا سنة ١٩٠٧ إلى وفاته سنة ١٩١١ وتعيين اللورد كتشنر خلفاً له [2].

---

١ — كان مظفر الدين قد أقسم لأبيه قبل جلوسه على العرش أن لا يسترد الدستور . فلما مات أبوه حنث بقسمه وألغاه .

٢ — وبتعيين اللورد كتشنر عدو عباس القديم في حادثة الحدود انتهت الفترة التي يسمونها فترة الوفاق ، وعاد الخلاف بين عباس والانجليز إلى حدته الأولى التي اتسم بها مدة إقامة كرومر في مصر .

وسواء كان كره عباس للإنجليز بدافع من وطنيته على رأي الذين يحسنون به الظن، أو بدافع من منازعتهم إياه سلطته — على رأي الذين يسيئون به الظن — فالحقيقة الثابتة هي أنه لم يطمئن للإنجليز، ولم يطمئن الإنجليز إليه، ولم يتوانوا عن التخلص منه حين سنحت لهم الفرصة بإعلان الحرب العالمية الأولى أثناء رحلته إلى تركيا سنة ١٩١٤. وقد جاهر عباس الإنجليز بعدائه وحاربهم حرباً صريحة في بداية حكمه. ثم أخفى هذا الكره، وظل يدس لهم في الظلام، مسدلا حجاباً من البراعة والرصانة على كرهه الشديد لهم، كما يقول كرومر[١]. ولكن النزاع بينه وبينهم لم يفتر ولم ينقطع في الحالين. بل ظلت في مصر سلطتان قائمتان تتنازعان النفوذ. سلطة الخديوي وسلطة المعتمد البريطاني، أو السلطة الشرعية والسلطة الفعلية، كما كانت تسميها الصحف في ذلك الحين، وكما يقول الكاشف[٢].

أيسود شعب ليس منه رعاته ... فهما وإن طال المدى ضدان
يأبى ويشفق أن يصرّف أمره ... ويسوسه حكمان مختلفان
أيهمّ بالأمر الكبير وليّه ... يوماً وليس له عليه يدان[٣]

وكانت كل من هاتين السلطتين تعمل دائبة في جمع الأنصار واكتساب الأعوان. وقد نجح عباس في السنوات الأولى لحكمه في بث حركة وطنية إسلامية تزعمها مصطفى كامل والشيخ علي يوسف. واستطاع أن يضم إلى صفه ضباط الجيش وكثرة من الموظفين. ولكنه لم يلبث أن خسرهم حين استيقنوا ضعفه أمام الإنجليز، منذ اضطره كرومر إلى الاعتذار لكتشنر سنة ١٨٩٦ ثم اضطره بعد ذلك إلى التخلي عن الضباط الذين حوكموا عندما تمردت فرقتان

---

١ — عباس الثاني ص ٤ ويصفه كرومر في موضع آخر من الكتاب بأنه كان أستاذاً في فن الدسائس الحقيرة ص ٨
٢ — ديوان الكاشف ٢ : ٤٢
٣ — ولي الأمر : هو الخديوي الحاكم الشرعي وقتذاك.

من الجيش المصري في السودان سنة ١٩٠٠ [١] . وخسر عباس الحزب الوطني بعد ذلك منذ لوح له غورست بالسلطة ، ونجح في إفساد ما بينه وبين رجاله الذين كانوا يطالبون وقتذاك بالحياة النيابية ، فانقلب إلى محاربتهم والتنكيل بهم .

وحين كان عباس يخسر الأصدقاء والأولياء ، كان الإنجليز يجدُّون في اصطناع الأصدقاء والأولياء ، ويسرعون إلى احتضان كل خصم له وللسلطان عبد الحميد ، مظهرين أنفسهم في صورة المدافعين عن الحرية والعدل ، المقاومين للظلم والطغيان . وساعدهم على ذلك انتشار روح الخضوع والاستسلام عقب الاتفاق الودي بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٩٠٤ ، مما أدى إلى تفشي اليأس والنفعية [٢] .

استطاع الإنجليز أن يكسبوا إلى جانبهم العمد والمشايخ ، بتأييدهم في التخلص من نفوذ الباشوات وكبار الملاك ، وبحرصهم على تخفيف ضرائب الأملاك ،ولو أدى ذلك إلى شل المشروعات الضرورية في شتى نواحي الحياة [٣] . واستطاعوا أن يشتروا نفراً من رجال الجيش ، فكانوا يمنحون بعضهم « مداليات » تخول

---

١ – علم كرومر أن عباساً هو الذي حرض الضباط على الثورة . فتجاهل الأمر وذهب إليه مقترحاً أن يقابل الضباط المحكوم عليهم ويوبخهم بكلمات اختارها له . فلم يجد عباس بدأ من قبول عرض كرومر حتى لا تثبت عليه تهمة تحريض الضباط . وبذلك فقد الضباط ثقتهم فيه ، وفقد هو نفوذه وهيبته في أوساطهم « راجع عباس الثاني ص ٨٢ ، ٨٣ وراجع كذلك تصوير حافظ إبراهيم لاستبداد الإنجليز في الجيش ومكائدهم لإفساده وإضعافه ، والتفريق بين المصريين والسودانيين ، وما انتهى إليه أمر الضباط المصريين من رهبة الإنجليز والرضوخ لهم ، وقصة تمرد الفرقتين المصريتين في السودان : « ليالي سطيح ص ٧٩ ، ١١٢ » وراجع كذلك مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٢١ ، ٣٢٦ »

٢ – مصطفى كامل ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، و ١٤٢ ، ١٤٣ . تاريخ الإمام ١ : ٩٢٣ – ٩٢٤

٣ – يقول كرومر في ذلك : « إن الرابطة الوحيدة التي تربط الحاكم بالمحكوم عندما تختلف اللغة والجنسية والمذهب والعادات تنحصر في المصالح المادية . وبين هذه المصالح وأهمها جعل ضرائب الأملاك خفيفة . لذلك أرى أن الأحوال السياسية التي علينا مقابلتها والعمل فيها هي من نوع يجعل كل الاعتبارات تزول في جانب ضرورة إبقاء الضرائب منخفضة . . الخ » (راجع عباس الثاني ص ١٥ ، ١٧ وقارن ذلك بما جاء في ص ٥٧ عن العمد والمشايخ)

حاملها الحق في أخذ راتب شهري من الخزينة الإنجليزية فوق مرتباتهم، وذلك على سبيل المكافأة والتشجيع لما يظهرون من ضروب الشجاعة في القتال، أثناء حملة السودان، التي لم يتحمس لها الرأي المصري العام. ونجح كرومر في عقد صلات ود مع كثير من رجال الدين، مثل شيخ الأزهر والمفتي ومشايخ الطرق، لعلمه بقوة نفوذهم الشعبي، وبحرص عباس والسلطان على اصطفائهم وتقريبهم والاستعانة بنفوذهم [1]. واحتضن محمد عبده حين اصطدم بعباس، حتى أصبح هو سنده في كل ما استهدفه من مشاريع تطوير الأزهر وإنشاء مدرسة للقضاء الشرعي [2]. كما احتضن اللاجئين إلى مصر من أعضاء تركيا الفتاة، وشجعهم على تشويه سمعة الحكم التركي ونبش سيئات عبد الحميد والتشنيع باستبداده، متظاهراً بأنه إنما يفعل ذلك دفاعاً عن الحرية [3]. وفتح كرومر أبواب قصره لكل صاحب شكوى، ثم أخذ يتدخل باسم هؤلاء الشاكين، وباسم العدل والإنصاف، للحد من نفوذ الخديوي ومقاومة شرهه وجشعه [4]، حتى رأينا بعض أعضاء الأسرة العلوية يلجأون إلى إنجلترا وإليه، طالبين إنصافهم من عباس [5].

١ – Modern Egypt ٢ : ١٧٤ – ١٨٥

٢ – بلغ من ثقة محمد عبده به واعتماده عليه أنه حين عزم على زيارة الآستانة سنة ١٩٠١ لم ينفذ عزمه إلا بعد أن استشاره. فحمله توصية إلى السفارة الإنجليزية في تركيا لرعايته وحمايته مدة إقامته بها. وكان كرومر هو الذي توسط في العفو عن محمد عبده وإعادته إلى مصر «مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٧٩، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٨٤٧، Modern Egypt هامش ٢ : ١٨٠ – ١٨١»

٣ – راجع ضبط مطبعة تركيا الفتاة في مصر وتفتيش دارهم وتدخل كرومر لحمايتهم في: مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٩٤ – ٣٩٥، عباس الثاني ص ٨٠ وراجع كذلك تدخل كرومر في حبس عباس لليون فهمي الأرمني، وتهديده بتفتيش القصر في: مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٦٨، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٧٩، عباس الثاني ص ٧٨، ٧٩ وراجع كذلك قصة بدر خان الذي لجأ إلى مصر فاراً من عبد الحميد وحماية الإنجليز له وغضبهم من نجاح عباس في حمله على العودة لتركيا في : عباس الثاني ص ٨٠، ٨١

٤ – مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٥٣، ٥٤

٥ – من الأمثلة على ذلك أن المحاكم الشرعية أصدرت حكماً بالحجر على إحدى الأميرات، وعينت=

واتخذ النزاع بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية شكلا أدبياً . فكان لعباس صحيفة رسمية تعبر عن اتجاهاته وتدافع عنه وتهاجم أعداءه ، هي صحيفة «المؤيد». وكان للإنجليز صحيفة رسمية أيضاً تدافع عنهم وتهاجم أعداءهم، هي صحيفة «المقطم». وكان للخديوي شاعر رسمي يشيد به وهو«شوقي» ،تؤيده طائفة من الشعراء . وكان للإنجليز شاعر نصب نفسه لمدحهم والإشادة بهم وهو « نسيم » [1] تؤيده قلة من الكتاب الشعراء الذين يدينون بكيانهم لهم مثل ولي الدين يكن .

وكان شاعر الخديوي يرصد المناسبات المختلفة ليسجلها في شعره ، مادحاً أميره في أعياد جلوسه وفي أعياد ميلاده . وفي أعياد الفطر ، وأعياد الأضحى ، وبدء العام الهجري ، وفي أسفاره داخل البلاد . وفي أسفاره للآستانة ، وفي سفره للحج ، وفي حفلاته الراقصة التي كان يقيمها في عابدين كل عام . وكان شعره السياسي متأثراً بتقلبات أميره صراحة وغموضاً ، وعنفاً وليناً . فهو في أول حكم عباس صريح في مهاجمة الإنجليز في مثل قصيدته :

بصوتك حاججنا الممالك والعصرا وقلنا فبانت مصر في مجدها مصرا [2]

فإذا تراجع عباس أمام كرومر تراجع هو أيضاً ، ولم يعد يهاجم إلا في كثير

= عليها وصياً اختاره عباس . فشكت الأميرة إلى ملك إنجلترا ، وأحال هذا شكواها إلى كرومر . فتدخل في الأمر واستبدل بالوصي الذي اختاره عباس وصياً آخر موثوقاً به من إنجلترا ، « مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢٢٤ » ومن الأمثلة عليه كذلك أن أميرة أخرى شكت إلى ملك الإنكليز من عباس أثناء زيارته له سنة ١٩٠٥ ، فوجه كرومر إلى عباس نقداً قاسياً في شأنها بعد عودته « مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٧٠ ، ٧١ »

١ – عدل نسيم عن موقفه بعد رحيل كرومر عن مصر ، وأعلن ندمه على ما فرط منه، في قصيدة نشرها باللواء سنة ١٩٠٨ « الديوان ١ : ٣ – ٦» زاعماً أنه فعل ذلك غيرة على الإسلام لمهاجمة كرومر له . والواقع أن شعر الشاعر يشهد بأنه محترف يجري وراء المال ويبيع نفسه لمن يدفع ثمناً أكبر . ثم إنه لم يجد مجالا للقول بعد أن ساد الوئام بين غورست خليفة كرومر وبين عباس .

٢ – ديوان شوقي طبعة سنة ١٩١٢ ص ٨٣

من الغموض والالتواء الذي لا يدع لمناقشته وحسابه سبيلا . وذلك في مثل قصيدته التي قالها سنة ١٩٠٢ ، حين أجِّل حفل تتويج إدوارد السابع بسبب إصابته بدمُمّل[١]. ويسكت في حادث دنشواي الذي أقام الدنيا وأقعدها ، فلا يتكلم إلا بعد رحيل كرومر وقد مر على الحادث عام [٢] . ولا تذهب جرأته إلى أبعد من مهاجمة المتوددين إلى الإنجليز من المصريين ، كالذي فعله برياض حين أشاد بكرومر في حفل افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية بالإسكندرية سنة ١٩٠٤ [٣] . فإذا أمن عباس مكر كرومر بعد رحيله هاجمه شوقي مهاجمة عنيفة في قصيدته :

أيامكم أم عهـــد إسماعيـــلا ؟ ... أم أنت فرعون يسوس النيلا ؟ [٤]

ويسكت شوقي عندما اطمأنت صلة عباس بالإنجليز في فترة الوفاق . فإذا عادت إلى الكدر ، وأخذ عباس يكيد في الخفاء ، أخذ هو يلتمس المناسبات التي يشير فيها من بعيد إلى الاستعمار حين يتحدث عن قانون الغابة الذي يسود العالم ، وحين يحث المصريين والمسلمين على الأخذ بأسباب القوة ، في مثل قصيدته عن قصر أنس الوجود ، التي وجهها إلى روزفلت الكبير حين زار مصر سنة ١٩١٠ ، وفي مثل قصيدته عن « الحجاب والسفور » ، وقصيدته في « نهج البردة » ، اللتين نشرتا في العام نفسه ، و« الهمزية النبوية » التي نشرت سنة ١٩١٢ ، والبائية في « ذكرى المولد » التي نشرت سنة ١٩١٤ [٥] .

---

١ – راجع قصيدة شوقي : لمن ذلك الملك الذي عز جانبه لقد وعظ الأملاك والناس صاحبه « الديوان ١ : ٧٥ »

٢ – راجع قصيدة شوقي : يا دنشواي على رباك سلام ذهبت بأنس ربوعك الأيام « الديوان ١ : ٣٠١ »

٣ – راجع قصيدة شوقي : كبير السابقين من الكرام برغمي أن أنالك بالملام « الديوان ١ : ٢٥٩ » .

٤ – راجع القصيدة في الديوان ١ : ٢٠٩

٥ – راجع القصائد السابقة في ديوانه ٢ : ٦٥ ، ١ : ٢١٩ ، ٢٤٠ ، ٤١ ، ٥٩ .

وكان شاعر كرومر ينتهز كل فرصة تمكنه من مدح الإنجليز والإشادة بعدلهم وفضلهم على مصر فيبلغ في ذلك العجب . أليس عجيباً أن نجد شاعراً مصرياً يضله المال ، فيقول للملك الإنجليز بمناسبة شفائه من داء «الأعور»[1]

صاحبَ التاج أنت بالقوم أعلم   هم يودّون أن تعيش وتسلمْ

يشيد فيها بعدله ، معرّضاً بعباس حيث يقول :

ويميناً لولاكَ عـاثَ طغـاة   في بلادٍ من جورهم تتظلّمْ
ظَعَن الجور عن بـلادك لمـا   طنَّب العدل في ذراك وخيّمْ

ثم يجد في نفسه الجرأة لأن يقول :

إننـا نعرف الملوك ولكن   إن عـددناهم فأنت المقدّمْ
ليس إلا إيـاك مولىً مفدّى   يُبدأ القول في ثناه ويُختَمْ
وإذا قيـل : أين أعظم منه ؟   لم نجد ـ للتقى ـ سوى الله أعظمْ

ثم يختم قصيدته مفتخراً بأنه السابق المقدّم بين مادحيه :

تَبِعَتْني إلى مديحك ناسٌ   إنمـا الفضل للذي يتقدمْ
أنا في مصر شاعرٌ قيل عنه   ساجعٌ فيك بالثنـاء تَرَنَّمْ

ويرثي هذا الشاعر الملكة فكتوريا سنة ١٩٠١ ، فيختم قصيدته بتهنئة ابنها ، والتعريض بعباس ، وبكل مصري تجري في دمه قطرة من وطنية حين يقول :[2]

رأيتك في الورى ملكاً وحيـداً   وليس لها سواك بلا ارتياب
فخذ من شاعر النيل امتداحاً   يثير حفائظ القوم الغِضاب

ثم يطاوع هذا العاقّ لسانه ، إذ يقول في قصيدة يهنىء بها ملك الإنجليز في

١ – ديوان نسيم ١ : ١٠٠ – ١٠٢
٢ – ديوان نسيم ١ : ١٠٣

تتويجه إمبراطوراً للهند : [1]

يا قومَ مصر ، ولم أنظر لكم أثراً إذا المعالي دعت قومي دواعيها
أتفخرون بآثار لغـيركم الظلم شيّدها والدهرُ يبليها ؟
إلام تبغون ملكاً عز جانبـه وتبلغون من الدعوى تناهيها ؟
وتفخرون بما « خوفو » بَنَى لكم وتمدحون من الأهرام بانيها
فأي فخر لكم فيما نشاهده يا أمة نسيت في الذل ماضيها ؟

ويقول مشيداً بالاحتلال ، في وضع الحجر الأساسي لخزان أسوان سنة ١٨٩٩ ناسباً فخره للإنجليز [2] :

أمة المجـد شيدتك بقُطْرٍ بَلَغَتْ في احتلاله الأوطارا
وأحق الأقوام بالمـدح قوم ركبوا في سبيلها الأخطارا
فخليق لمثل مصر بأن تُعْـ جَبَ حتى تفاخر الأمصارا

ثم يقول في افتتاحه سنة ١٩٠٣ ، الذي شهده «الدوق أوف كنوت » زوج أخت « الملك إدوارد » ، معرّضاً بعباس الذي تخلف عن حضور الحفل ، خشية أن تمس كرامته بوضع « الدوق » في موضع الصدارة :

بناءٌ عظيم لم يجد لا فتتـاحه سواك عظيماً فيه للفخر مَألَفُ
وكم من دَعِيٍّ فارق الصدر عنوة إذا حضر المستأذَنُ المتَنَصَّف[3]

وحين كانت مصر في عيد يوم رحيل كرومر كان هذا البائس الهالك يذرف الدمع على فراقه فيقول : [4]

---

١ – ديوان نسيم ١ : ١٠٨

٢ – ديوان نسيم ١ : ١١٠

٣ – ديوان نسيم ١ : ١٣٠ . المستأذن : الذي لا يدخل الناس إلى مجلسه إلا بإذنه . المتنصف المخدوم . والمقصود بهما هو الدوق . كما أن المقصود بالدعي هو الخديوي عباس .

٤ – ديوان نسيم ١ : ١١٤ – ١١٥

يا منقذ النيل لا ينسى لكَ النيلُ ... يداً لها من فم الإصلاح تقبيل

وحين يقول له شوقي ، مشيراً إلى أن تنحيته جاءت نتيجة لحملة مصطفى كامل عليه بسبب دنشواي :

فاذهب بحفظ الله جل صنيعه ... مستعفياً إن شئت أو معزولا

يقول نسيم في هذه القصيدة :

حاشاك ما أنت بالمغصوب مَنْصِبَه ... كَلاّ ، ولا أنت من عَلياك معزول

وحين يعدد الشعراء سيئاته ، يرد اليه نسيم كل الفضل فيما ساد مصر من عدل وما بلغته من رقي :

جعلتَ مصر بلاداً أمطرت ذهباً ... فتربها بمذاب التبر مبلول
خلفتها ويد الإسعاد تَكنُفها ... دارٌ عليها من النُعْمَى سرابيل
حللتَ فيهاوغُلٌ الجور مُقْعِدُها ... ذلا ، وفارقتها والجور مَغْلُول

ويهاجم رجال الحزب الوطني ، زاعماً أنهم يهوّلون في غير موضع للتهويل :

لَوى أناساً تمنوا في سياستهم ... أن يخذلوك وخصم الحق مخذول
يهوّلونَ بِلا جَدْوى مزاعمهم ... ولن يضرّك إيهام وتهويل
لو كان بالناس عدل ما قضى عُمَرٌ ... رَبٌّ العدالة فيهم وهو مقتول
صرنا نخاف على الأعراض من نفر ... كأن جِرْوَهُمُ في نَهْشها غُول
قد جرّدوا ألسُناً ياليتها قطعت ... من دونها مرهف الحدّين مسلول (١)

أما ولي الدين يكن فقد كان أحد أعضاء جماعة « تركيا الفتاة » ، الذين

---

١ – راجع فيما عدا القصائد السابقة قصائده : في نور العدل « ١ : ٦ – ٨ » ، تتويج ملك الإنجليز « ١ : ١٨ » ، لؤلؤة التهاني بقدوم ولي عهد إنكلترا سنة ١٩٠٦ « ١ : ٨٩ » وراجع كذلك قصائده الكثيرة في هجاء الشيخ علي يوسف بمناسبة زواجه من بنت الشيخ عبد الخالق السادات . وهي قصائد مقذعة كان مدفوعاً إليها بولائه لكرومر وولاء الشيخ علي يوسف لعباس .

يهاجمون عبد الحميد ويشنعون به، ويتزعمون حركة المطالبة بإصدار الدستور. وقد نفاه السلطان عبد الحميد إلى «سيواس»، وظل في منفاه سبع سنوات، ولم يفرّج عنه إلا بعد سقوط عبد الحميد وإعلان الدستور سنة ١٩٠٩ . وقد عانى خلال هذه السنوات هو وأمه العجوز وزوجته الشابة وطفلاه الصغيران — وكان أصغرهما رضيعاً — من العذاب والآلام ما وصفه في كتابه « المعلوم والمجهول » بجزأيه . وكان كثير من جماعة «تركيا الفتاة» قد فروا إلى مصر من مطاردة عبد الحميد ، فاتخذوها مركزاً من مراكز دعايتهم المنبثة خارج الدولة العثمانية، وأصدروا فيها بعض الصحف والمنشورات التي تشنع بفساد حكمه واستبداده . وكان عباس يغضي عنهم ويشجعهم حين تسوء صلته بالسلطان عبد الحميد ، ويشدد عليهم حين يريد أن يتقرب إليه باضطهادهم . وكان كرومر هو الذي يتولى حمايتهم حين يتخلى عنهم عباس ويمكر بهم. لذلك كان أعضاء «تركيا الفتاة» يدينون له بالولاء ويشيدون بعدله. بينما كان كرومر يستخدمهم في تحقيق أهداف السياسة الإنجليزية التي تريد أن تقضي على الجامعة الإسلامية وتقطّع أوصال الإمبراطورية العثمانية . وقد وجدت بغيتها في هذا النفر الذي يشنع بسيئات عبد الحميد ، ويدعو إلى الأخذ بأسباب المدنية الغربية ، ويهاجم من يسمونهم «رجال الدين» ويتهمهم بأنهم سبب البلاء وموطن الداء ، بل ويهاجم الدين نفسه ساخراً بقيَمه وشعائره، مستبدلا بها القيم التي كان يدعو إليها اللِّبْراليُّون من اللادينيين في أوروبا (Liberals) . وكان ولي الدين يكن من أشد أنصار تركيا الفتاة تقديراً لكرومر ، حتى لقد صدّر الجزء الأول من كتابه « المعلوم والمجهول » بصورته ، وكتب تحتها « مصلح مصر ».وقد انتهى به اعترافه بفضل كرومر إلى تأييد الاحتلال . وكان من بين ما كتبه في ذلك مقال نشر في «المقطم» عنوانه « المحتلون يخرجون من مصر » [١] . وهو يتصور في مقاله الآثار التي تترتب على خروجهم. فيروي حُلْماً رأى فيه جيش الاحتلال يخرج من مصر ، ثم رأى تمثال إبراهيم ينزل إلى الميدان ليمنعه من الخروج ، مستحلفاً

١ — الصحائف السود ص ٤٥ — ٥١

الإنجليز أن يمكثوا ليقيموا العدل وليكفوا الرعاع عن الإفساد . وقد بدأ ولي الدين يكن قصته بقوله :

« . . . فرأيت فيما يرى النائم كأني أسير إلى ميدان عابدين . فلما وافيت مدخل الميدان مما يلي الشارع الآخذ من ميدان « الأوبرا » إذا جموع من الجنود المحتلة ، تتقدمها موسيقاها ، ويقودها قوادها مشاةً وفرساناً ، تخفق بينها الأعلام البريطانية التي أظلت الأمن والعدل بمصر في أكثر من ربع قرن . وبأطراف الميدان جماعات من الرعاع والسوقة ، يتوسطها بعض تلامذة المدارس ، وآخرون جعلت أتعرف بعضهم كلما عَلِقَ بهم نظري . فالتفت إلى وسط الميدان ، فإذا العلم البريطاني وإلى جانبه العلم العثماني ، يصل بينهما رباط أخضر إشارة إلى الود والاتحاد . وإذا أمام العلمين منبر ذو درجات أعد ليخطب عليه مَن لا أعرفه » .

فإذا بلغ من حلمه الذي تخيله خطبة « الجنرال مَكْسويل » قائد جيش الاحتلال قال :

« فصعد قائد الجيش المحتل على المنبر ، وخطب الحاضرين فقال :

نحن الآن يتنازع قلوبَنا عاملان : واحد للفرح وآخر للحزن . فأما عامل الفرح فبأن أثمرت مساعينا لإصلاح مصر حتى لتستطيع أن تعيش وحدها . وأما عامل التَرَح فبأن سنودع وادي النيل وأبناءه بعد أن طاب لنا المقام واستحكمت في قلوبنا الإلفة » .

ثم هو يصور ائتمار المفسدين وما يدبرون من تخريب بعد رحيل جيش الاحتلال فيقول :

« فإذا شرذمات من أهل الضوضاء وسكان الأعشاش ، وقد عصبوا رؤوسهم بمناديل حمر وبأيديهم العِصِيّ ، تتقدمهم عربات فيها رجل كالخيار « الشنبر » ، له شارب أسود يخاله على البعد رائيه ... خنجر ، على رأسه « طربوش »

أعوج . وإلى جانبه آخر مثله . ولكنه منتفخ البطن كـ «البرنيَّة» [1] وفي يده شيء يشير به لم أتبينه جيداً ، وأحسبه سوطاً . وأمام العربة بين هؤلاء الجموع رجل أسود الشاربين طويل القامة، مُعَمَّم مُكَمَّم، يحمل على كتفه مشعلة مغطاة بكوفية[2] من كوفيات «المحلة» الكبرى، وقد جَمَحَ أيمَّا جِمَاحٍ . فكان ينظر يمنة ويسرة، ويصيح بملء فيه قائلا : « مِلْحة في عين اللي ما يصلّيش على النبي ». فتأملته فإذا هو أحد مشاهير الكتاب والخطباء، عزيز القَدْرِ بين أشياعه. فتركته وحبله على غاربه ، وقلت أنظر إلى غيره ، فسمعت أحد من في العربة يقول لجماعة من الماشين : إذا ركب الجنود القطار ، وسار بهم حتى غاب عن الأبصار ، تذهبون من ساعتكم في جماعة من الشذاذ إلى إدارة كذا ، فتهدمونها على من فيها، ثم تفعلون ذلك بإدارة كذا، ثم استعْلِمُوا لنا عن هذا الخبيث الملعون الذي يسمي نفسه « زهيراً » [3]. فاجعلوا في عنقه حبلا وجروه على وجهه، ثم ألقوا به في النيل ».

ويختم مقاله الذي يروي فيه هذا الحلم المزعوم بخطاب إبراهيم بن محمد علي ، إذ يناشد المحتلين البقاء فيقول فيما يقول :

« .. حتى صار ما صار[4]، وحُمِيَ الحِمَى بهذه البواتر، ونامت الأعينُ في أمْن هاته الأعلام ، وتريدون اليوم أن تخرجوا من مصر ، ليصبح عاليها سافلها ، وليجري هذا النيلُ أحمرَ قانياً ؟ . . كلا . . ثم كلا . لأصيحن صيحة تخرق حجب الأزل ، وتنفذ إلى من وَلجوا غابته. ولأبعثن لكم من تحت المقابر أجساداً تسد دونكم طريق الرحيل. أما والهَرَمَيْن والنيل، ليدخلن أهل الطيش غداً على العذارى في خدورهن، وليأخذُنَّ بغدائرهن، وليقومَنَّ بعد زَمَاعِكم من الشر

---

1 – البرنية : كلمة يستعملها العامة في مصر يطلقونها على إناء فخاري صغير منبعج البطن يستخدم في حفظ الأطعمة السائلة .

2 – الكوفية في العامية المصرية : ملحفة صغيرة تحيط بالرقبة .

3 – يقصد نفسه ، و(زهير) هو الاسم المستعار الذي كان يذيل به مقالاته في « المقطم » .

4 – يشير الى الثورة العرابية .

أضعافُ ما أتى بمقامكم من الخير. ارجعوا إلى ثكناتكم مأجورين غيرَ مأزورين. إنما يَأنَسُ إليكم أهل الوقار وأنصار الفضل ».

ويوجه ولي الدين يكن خطابه في مقال آخر إلى والي « البصرة » العثماني فيقول[1]:

« يزعمون أنك تبغض الإنكليز. أبغِضْهم ما شئت، وأحبِبْهم ما شئت، لسنا على فؤادك مسيطرين. ولكنّ الوالي العثماني يحب من تحب دولته، ودولتك تحب الإنكليز، والإنكليز يحبونها. »

« يزعمون أنك تقول إن الهند ومصر شريكتان في الشقاء، وإنهما يتململان من ظلم الإنكليز. ولكنك تعرف أن في الظلم ضروباً لا يجارينا إليها الإنكليز، وأن القوم نزلوا بمصر وعيوننا تراهم، وأن فضلهم على هذا القطر أعظم من فتح الشوارع وإقامة التماثيل، وأن لهم عندنا ـ معشر العثمانيين ـ لجميلا لا ينساه من في فؤاده مثقالُ ذرة من المروءة. وربما كان من أبناء « التايمز » أفراد لا يحبون العثمانيين، فليكن في العثمانيين أناس يبغضون أبناء التايمز. غير أن والي « البصرة » يجب أن لا يكون إلا وفياً عارفاً بمرامي الكلام ».

ويعترف ولي الدين يكن بجميل إنجلترا على من يسميهم « الأحرار » من أعضاء « تركيا الفتاة »، في رثائه لإدوارد السابع سنة ١٩١٠، حيث يقول[2]:

أبا الأحرار لا ينساك حر ... شبابهمُ يُجِلُّك والكهول
رفعتَ بناءهم وجريتَ معهم ... كذاك الليث يتبعه الشبول
تناديك الشعوب بكل أرض ... فليتك سامع ماذا تقول ؟ !
تناجي منك حاميها المرجَّى ... وصَوْلَتَها إذا قامت تصول

* * *

وكان للاستعمار ــ إلى جانب هذه البطانة التي اتخذها من المصريين ــ أعوانٌ آخرون من الشآميين ومن الأرمن، النازحين إلى مصر، والمنبثين في الوظائف الحكومية في مختلف النواحي والفروع. أما الشآميون ــ وقد كانت كثرتهم

١ ــ الصحائف السود ص ٧٩ .
٢ ــ ديوان ولي الدين يكن ص ٦٣ ــ ٦٤

من المسيحيين — نيرجع نفوذ جاليتهم ونشاطها في مصر إلى حكم إسماعيل ، حين أراد أن ينشر الحضارة الأوروبية ، فاحتاج إلى موظفين يتقنون الفرنسية إلى جانب العربية — وكانت الفرنسية وقتذاك لغة دولية — فلم يجد بغيته في المصريين ، إذ كان أصحاب الثقافة الأوروبية منهم قلة لا تكفي ، فاتجه إلى الشآميين ، الذين كان مسيحيوهم أسبق من المسلمين إلى الالتحاق بالمدارس الفرنسية والأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية ، يستخدمهم في مختلف المصالح الحكومية . ثم ساعد الرعيل الأول منهم إخوانهم ومواطنيهم على الرحلة إلى مصر ، ومهدوا لهم احتلال مراكز حكومية فيها [١]. وكان طبيعيا أن لا يشارك هؤلاء الشآميون المصريين في إحساسهم الوطني . فإنما هم مرتزقة لا يبالون إلا الغُنْم ، يجرون وراءه حيث كان ، ويحققون لأنفسهم منه أوفر نصيب ، لا يعنيهم في ذلك أن يرضى المصريون أو يغضبوا . وإنما يعنيهم أن يرضى صاحب السلطة الذي يجري رزقهم على يديه . هذا إلى أن فساد الحكم التركي وغلوه في اضطهادهم وتحقيرهم قد ولد فيهم حقدا على الترك خاصة ، وعلى المسلمين عامة . لذلك لم يجد الإنجليز حين احتلوا مصر خيرا منهم معينا ونصيرا . فاتخذوا منهم صاحب « المقطم » « والمقتطف » ليكون لسانهم الناطق. وتدخلوا لحمايتهم حين هم رياض باشا أن يصدر قانونا يحرم عليهم فيه الالتحاق بالوظائف الحكومية في سنة ١٩٠٠ . [٢] وقد أثنى عليهم كرومر ، واعترف بما أدوا للانجليز من خدمات ، وما بذلوا لهم من معونة صادقة . وخص المسيحيين منهم بثنائه ، فقال : « إنهم أهم كثيرا من مسلميهم من وجهة النظر السياسية [٣] » .

أما الأرمن فيرجع نفوذ جاليتهم إلى حكم محمد علي . فقد كانوا يشغلون منذ ذلك الوقت مناصب رئيسية خطيرة في الدولة ، جعلت لهم كلمة نافذة

---

١ — Modern Egypt ٢ : ٢١٤ — ٢١٥ .

٢ — مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢١٦ .

٣ — Modern Egypt ٢ : ٢١٣ — ٢١٩

مسموعة في كل ما يتصل بشئون مصر ، حتى لقد استطاع أحدهم فيما بعد أن يصبح وزيراً للخارجية ، ثم رئيسا للوزارة ، وأن يمكن لزوج ابنته من بعده حتى يصل إلى وزارة الخارجية . [١] وقد قص مصطفى كامل في خطاب له بعث به إلى أحمد شفيق باشا ما جرى بينه وبين الأميرالاى بارنج (شقيق اللورد كرومر) من حديث خلال إحدى أسفاره إلى فرنسا للدعاية لمصر . ومن هذا الحديث نستطيع أن نتبين مدى اعتماد الإنجليز على نوبار باشا في تنفيذ سياستهم في مصر وفي السودان ، وما كان يطمع فيه نوبار من مكافأة الإنجليز له على إخلاصه ، بالعمل على استقلال أرمينيا وإنشاء وطن قوميّ لبني جنسه [٢] .

ذلك تأويل ما نجده في أدب هذه الحقبة من التعريض بالدخلاء .

يقول مصطفى كامل في خطبة له بالإسكندرية سنة ١٨٩٦ : [٣]

« وإذا كان صالح مصر يقضي كما قلت بوجوب وجود خطباء من أبنائها يطوفون العواصم والمدائن في أوروبا معلنين آراءهم ، مجاهريـــن بإحساساتهم ، مطالبين بحرية بلادهم ، فوجود خطباء مثلهم في مصر نفسها يرشدون الأمة إلى الخير ، ويحذرونها من الوقوع في الشر ، أصبح أمرا محتما ، خصوصا في هذا الزمن الذي يعمل فيه الدخلاء للتفريق بين الوطنيين وبعضهم ، والشقاق بين المصريين والأوربيين ، ويكيدون للأمة أعظم كيد ، ويدسون الدسائس لخلق القلاقل وإحداث الاضطرابات . »

« أجل أيها السادة... أجل. إن تحذير الأمة من أعمال الدخلاء صار واجبا على كل مصري شريف الإحساس ، مخلص النية لبلاده . وما نبلاء المصريين بجاهلين طغمة الدخلاء ، بل الكل يعرفها ، والكل إذا لقيها يشير إليها .

---

١ – Modern Egypt ٢ : ٢١٩ – ٢٢١ والمقصود هو نوبار باشا .

٢ – مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٩٢ – ١٩٥

٣ – مصر والاحتلال الإنجليزي « مجموعة أعمال مصطفى كامل من مايو سنة ١٨٩٥ إلى مايو سنة ١٨٩٦ ص ١٤١ ، ١٤٩ » .

فلتحبطوا أيها الوطنيون الفضلاء مساعي هذه الفئة السيئة ، ولتردُّوا رجالها على أعقابهم خاسرين ... فالدخيلَ الدخيلَ ... هو العدو الحقيقي ، وهو العدو الألدّ ، الذي تجب محاربته بالقلم واللسان ، حتى تعرفه الأمة وتنبذه . وتجتنبه كل الاجتناب . ولا يسلم شعب راغب في الحرية المدنية والسعادة الاجتماعية إلا إذا اتحدت أفراده ، ومنعوا الدخيل من إلقاء بذور الفتن ، والتفريق بينهم وبين بعضهم مما يكون وراءه ضياع بلادهم وضياعهم هم أنفسهم » .

ويقول عبد الله النديم في مقال نشر في مجلة الأستاذ في عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ :

« أنا أخوك ... فلم أنكرتني ؟ ... ما الشام ومصر إلا توأمان أبوهما واحد، يسوء الاثنين ما ساء أحدهما . فلم تنافر أبناؤهما وانحاز السوريون في جانب بعيد عن المصريين وإن ساكنوهم في مصر ؟ ألم يكن الأجدر بنا أن نصرف علومنا ومعارفنا وقوانا العقلية في صلاح بلادنا وبث روح العلم والحياة الوطنية فيها ؟ ... أبراتب قدره عشرون جنيها يبيع المرء منا أخاه ووطنه ، بل جنسه ودينه ؟ ... أم بكلمة تغرير نصرف حياتنا في خدمة الأجنبي لنعينه على إخواننا، لينتقم منهم بغير ذنب ويجني على غير جان؟ بئس والله ما وصّلتنا إليه هذه الخزعبلات التي نسميها معارف وآدابا . زرعنا الأحقاد في قلوبنا بغيا وعدوانا . أهلكنا أنفسنا بالعداوة في غير مصلحة جهلا وحماقة ... فضحنا أنفسنا بنقل عوراتنا للغير سفاهةً منا وجنونا .. بعنا هيئتنا للأجنبي بلا ثمن خبَلاً وبلاهة . ولو اجتمعت كلمتنا وائتلفت نفوسنا وصفت بواطننا وصرفنا هذه الهمم في حفظ الوطنين وإعلاء كلمة الجنسين ، لحسدتنا المعالي ، ووقفت أوروبا تنظرنا بعين الإعظام والإجلال . ولكن قضت شقوة الشرقيين أن يكونوا كحطب النار يأكل بعضه بعضا ، لينتفع الغير بنارهم اصطلاءً وطبخاً واستعمالا فيما يشاء . والعهد قريب ، والعَوْدُ غير عسير ... »

«وأسفاه على رجال قضى آباؤهم الدهور الطويلة يتبادلون العمران والاستيطان ، لا يفرق بينهم دخيل ، ولا يقطعهم عن بعضهم أجنبي ،

فجاءوا من بعدهم وخالفوا سيرهم ، وحالفوا غيرهم ، وخدموا الأجنبي بمساعدته على التداخل في بلادهم ، بل على الاستيلاء عليها . لا لعداوة بين الأمتين ، ولا لحرب جرت في الوطنين ، بل برغيف يحصله الزّبّال ، وخرقة يملكها الشحّاذ . وإن قيل إن جامعة الدين اضطرتهم ، قلنا ان عز الاستقلال بالوطنية خير من الإذلال بجامعة الدين . فإن الأجنبي يغر الرجل منا حتى يوصله إلى غرضه ، ثم يُلحقه بغيره عند تمام الاستيلاء ، ولا يعرف له حقا غير خدمته ، ولا يفرق بينه وبين من يغايره دينا في الاستخدام والاستعباد . »(١)

وصور حافظ إبراهيم ما كان يقوم بين المصريين وبين هذه الطائفة من الشآميين ، من الكراهية المتبادلة وسوء الظن ، حيث يقول مصورا شكاة الشآمي (٢) :

« جلستُ أبث النيل شكاتي من أبنائه . وأنتَ تعلم أنهم صارَموا على غير ريبة ، وقاطعونا على غير ذنب ، وأصبحوا يرموننا بثقل الظل وجمود النسيم ، ولم يراعوا حق الجوار ، فسموا إقدامنا قحة ، ونشاطنا جشعا ، وكدحنا وراء الرزق فضولا ، ونزوحنا عن الوطن عارا ، وضربنا في الأرض شرودا . وما ذنب من ضاقت عليه بلاده فخرج يلتمس وجوه الرزق في بلاد الله ؟! ... اللهم إنها محاسن عدّوها عيوبا ، وحسنات سمّوها ذنوبا . »

ثم يقول مصورا شكاة المصريين على لسان سطيح :

« إنني لا أكذب الله . لقد أكثرتم من التداخل في شئونهم ، فعز ذلك

---

١ — وقد خصص عبد الله النديم عدداً كاملا من مجلة « الأستاذ » لمهاجمة أصحاب « المقطم » ومن يذهب مذهبهم من أبناء جنسهم . وكان بالغ العنف في مهاجمته . ولم يمض على مقاله هذا شهر واحد حتى أرغم الرجل الوطني الذي لم يفتر عن الكفاح ولم يعرف الخوف إلى قلبه سبيلا على إغلاق صحيفته والهجرة عن مصر (العدد ٢٩ من الأستاذ الصادر في ٢٣ مايو سنة ١٨٩٣)

٢ — ليالي سطيح ص ١٦ — ٢٢ . وهو يشير في هذا الموضع من كتابه إلى أن المسيحيين من الشآميين هم المقصودين بهذا الذم بنوع خاص . ويعلل تفوقهم وتخلف المسلمين من الشآميين بانصراف الفريق الآخر عن إلحاق أبنائهم بالمدارس الأجنبية .

عليهم من أقرب الناس إليهم . نزلتم بلادهم فنزلتم رحبا ، وتفيأتم ظلالها فأصبتم خصبا ، ثم فتحتم لهم أبواب الصحافة فقالوا أهلا ، وحللتم معهم في دور التجارة فقالوا سهلا . ولو أنكم وقفتم عند هذا الحد لرأيتم منهم ودا صحيحا وإخلاصا صريحا . ولكنكم تخطيتم ذلك إلى المناصب فسددتم طريق الناشئين ، وضيقتم نطاق الاستخدام على الطالبين . ولقد كنتم منذ بضع سنين لا تجاوزون ستة آلاف عدا ، فأصبحتم اليوم وقد نيفتم على الثلاثين »[1]

وقد وسع النثر في مهاجمة هذا الفريق من مسيحيي الشاميين الذين أيدوا الاستعمار في مصر ما لم يسع الشعر . لأن الشعراء خافوا إن هم تعرضوا للشاميين جملة أن يسيئوا إلى المخلصين منهم ، أو يفسدوا الرابطة الشرقية التي كانت ناشئة في ذلك الوقت . وخافوا إن هم أشاروا إلى المسيحيين منهم أن يثيروا فتنة دينية تفرق بين المصريين . ولذلك اكتفوا بالإشارات العابرة ، مثل قول حافظ ، إذ يصور جدهم وخمول المصريين ، الذين يتبرمون بما أصاب هؤلاء من رزق ، وقد قعدوا عن منافستهم في مختلف الميادين . وذلك من قصيدة له في زواج الشيخ علي يوسف سنة ١٩٠٤ :[2]

وقالوا : دخيل عليه العفاء ... ونعم الدخيل على مذهبي
رآنا نياما ولما نفق ... فشمر للسعي والمكسب
وماذا عليه إذا فاتنا ... ونحن على العيش لم ندأب
ألفنا الخمول ويا ليتنا ... ألفنا الخمول ولم نكذب

---

١ – يقول كرومر : إن أهمية الشاميين – ومن الواضح أن كلامه هنا ينطبق على المسيحيين منهم – لا ترجع إلى ضخامة جاليتهم . ولكنها ترجع إلى المراكز التي يشغلونها ، فمعظمهم موظفون في الحكومة . وفي كل قرية مصرية تجد مرابياً . إذا لم يكن يونانياً فهو شامي . فالشاميون يحتلون في مصر المكان الذي يحتله اليهود في الدول الأوروبية . فهم مكروهون من المصريين – مسلمين وقبطاً – لأنهم يستأثرون دونهم بالوظائف من ناحية، ولأنهم دائنون من ناحية أخرى ، وعلاقة الدائن بالمدين يسودها البغض في أكثر الأحيان (Modern Egypt ٢ : ٢١٣ – ٢١٤)

٢ – ديوان حافظ إبراهيم ١ : ٢٥٧

ويقول في قصيدة ألقاها في حفل أقامه له جماعة من السوريين في فندق «شبرد» سنة ١٩٠٨، بعد أن وصف نشاط الشآميين الموفق في مصر وفي أمريكا : [١]

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العربُ
فما الكنانةُ إلا الشامُ عاج على رُبوعها من بنيها سادةٌ نُجُبُ
لولا رجالٌ تغالَوْا في سياستهم منا ومنهم لَمَا لُمْنَا ولا عتبُوا
إن يكتبوا لي ذنباً في مودّتهم فإنما الفخر في الذنب الذي كتبوا

ويقول علي الغاياتي في قصيدة كتبها بمناسبة حبس الشيخ عبد العزيز جاويش في المقال الذي كتبه عن ذكرى دنشواي في صحيفة اللواء سنة ١٩٠٩ : [٢]

وغدا (الدّخيل) مروّعاً أركانه تتهدّم
يرجو النجاة ولا سبيـ ـل ويستبين فيُعجم
ويمد صوت ندائه نحو «العميد» فيحجم
ذاقَ الوبال بما جنا هُ ولم يُعِذه الدرهَم
فاندكّ صَرْحٌ كان فيـ ـه للخيانة مَغْنَم
وكذاك شأن المجرميـ ـنَ يصيبهم ما أجرَمُوا

ويقول نسيم : [٣]

اتقوا الله يا غُواةُ قليلا واخلعوا العار عنكمُ والشنارا
تنسبون المصري للعار جهلا وهو أسمى من العُقابِ مزارا
جئتمُ داره ضيوفاً عُراة فكَسَاكُم مِنَ الثّراء دثارا
أيها المشتري بهجوكَ حظاً هجوكَ القوم قابل استنكارا

---

١ – ديوان حافظ ١ : ٢٦٩ – ٢٧١

٢ – وطنيتي ص ٨٠ وهو يقصد «بالدخيل» صاحب «المقطم»

٣ – ديوان نسيم ١ : ٤٨

تَمقّ النثر في مقاصد مُجْدي   تُلْفِ حمدَ الورى عليكَ نِثارا

* * *

وبين هاتين الطائفتين من الكتاب والشعراء ، التي تؤيد إحداهما السلطة الشرعية ممثلة في الخديوي ، وتؤيد أخراهما السلطة الفعلية ممثلة في قنصل بريطانيا العام ، كانت هناك طائفة ثالثة تتردد بين المعسكرين ، تحاول أن تحتفظ بصداقتيهما معاً ، وترجو أن لا يخطئها الخير والبر من أحدهما ، وتخشى إن هي أعطت كل نفسها لأحدهما أن تُبتَلى بعداوة الآخر وأذاه . وهؤلاء هم ضعاف النفوس من المسالمين الذين لا يصبرون للكفاح ولا يستطيعون تجشم أعبائه وتبعاته ، وطلاب النفع الذين لا يرون الحياة إلا طعاماً يملأ البطون ، وكساء يختال على الأبدان ، ومتعاً تملأ حياتهم الفارغة التافهة .

وكان حافظ إبراهيم واحداً من هؤلاء المسالمين من طلاب العيش . وكأنما كان يعني نفسه بالبيت الأخير من قوله في تبكيت المصريين : (١)

وشعب يفر من الصالحات   فرار السليم من الأجرب
وصحف تطن طنين الذباب   وأخرى تشن على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر الأمير   ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير   ويطنب في وِرْده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين   على غير قصد ولا مأرب

فقد ظل هذا المسكين منذ أُحيل إلى الاستيداع فيمن عوقبوا من المتهمين في حادث تمرد فرقتي الجيش المصري بالسودان سنة ١٩٠٠ يدير وجهه إلى عباس تارة ، وإلى السلطان عبد الحميد تارة أخرى . فإذا استيقنت نفسه قلة حيلتهما وقصر باعهما انصرف إلى الإنجليز ، وقوى صلاته بالشيخ محمد عبده صديق كرومر وعدو عباس ، ولم يترك رجلا ذا سلطة يؤمل أن

---

١ – ديوان حافظ ١ : ٢٥٦

يجري خيره على يديه إلا قصده . وهو في كل حالاته يتملق ويستعطف ، مؤملا أن يصيبه الخير آخر الأمر من إحدى السلطات . وقد تتخلل سكرته صحواتٌ يتشبه فيها بالثائرين في مثل حادث دنشواي أو توديع كرومر . ولكن الحرص والخوف يمنعان ثورته من الانطلاق ، ويقيدانها بأغلال ينم عنها شعره . فهو في الأولى يضع إنجلترا موضع الأب الذي يظن بابنه العقوق إذ يقول [1] :

لا تظنوا بنـــا العقوق ولكن أرشدونا إذا ضللنا الرشـــادا

وهو يشعر شعوراً عميقاً بضعفه أمامهم ، وليس هذا شأن الثائرين .

كيف يحلو من القوي التشفّي من ضعيف ألقى إليه القيادا ؟
إنها مُثْلَةٌ تشف عن الغيـــــ ـظ ، ولسنا لغيظـــكم أنْدَادا

وهو في الأخرى يروي ما يقول الناس من حسنات كرومر وسيئاته ، بل ويقدم الحسنات على السيئات ، ثم يقول آخر الأمر إنه شاعر لا رأي له [2]

فهذا حديثُ الناس والناس ألسُن إذا قال هذا صاح ذاك مفنّدا
ولو كنتُ من أهلِ السياسة بينهم لسجلت لي رأياً وبلّغتُ مقصدا
ولكنني في معرض القول شاعر أضاف إلى التاريخ قولا مخلّدا

وكأنما كان حافظ يصف نفسه ، حين صور ما يسيطر على رجال الجيش من رهبة الإنجليز فقال : [3]

« ينظر المصري إلى الإنجليزي وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة المعظمة ، فيكبره رهبة وإجلالا ، ويتضعضع لرؤيته . وينظر إليه الإنجليزي بتلك النظارة وقد عكسها فيصغره استخفافاً بشأنه ، ويطيل عتاب الخالق الذي فطره على شكله وصورته ومنحه نعمة التنفس في جو يتنفس الإنجليزي فيه . وهو

---

١ – ديوان حافظ ٢ : ٢٠
٢ – ديوان حافظ ٢ : ٣٠
٣ – ليالي سطيح ص ١١٠

إن خاطبه خاطبه بلسان لا تجري عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق ، أو بإشارة يخالطها الجبروت ويزدهيها البطر . »

« هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط . أما الكبار منهم ، كبار الرتب والأجسام ، لا كبار النفوس والأحلام ، فحالهم إلى الرحمة أدعى منها إلى اللوم . فلقد سقاهم ساقي السياسة الإنجليزية كؤوساً من منقوع الرعب . فإذا نظر أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم وقف أمامهم وقفة الجواد وقد رأى الليث . حتى إذا صدر له أمره بشيء كاد يخرج من ظله سرعةً لإمضاء ذلك الأمر . فهو إلى إجابة داعيهم أسرع من الصدى . وهو على حفظ أمره أحرص من الفُنُوغراف على حفظ الصوت . »

« اللهم إن العيش مع الأبيضَيْن وإنْ أبردا العظام، أرْوَحُ للنفس من عيش ضباطنا العظام . تراهم وكأن أكتافهم سماء الدنيا وقد تزينت بالنجوم ، فيروقك ما ترى ، ولو كشفتهم لرأيت تحت تلك السماء أفئدة هواء » .

« فليت سيوفهم كانت عِصياً   وليت نجومهم كانت رُجُوما »

مدح حافظ عباساً سنة ١٩٠١ بقصيدتين ، إحداهما في عيد الفطر ، والأخرى في عيد جلوسه [١] ، وهنأ السلطان عبد الحميد في العام نفسه بعيد جلوسه ، متقرباً إليه بمهاجمة حزب تركيا الفتاة [٢] . ثم لم يلبث أن انصرف إلى تهنئة إدوارد السابع سنة ١٩٠٢ بتتويجه ، فإذا كل بيت من أبيات قصيدته ينطق بما يملأ قلبه من رهبة الإنجليز . يبدأ قصيدته بقوله [٣] :

لمحت في مصر ذاك التاج والقمرا   فقلت للشعر هذا يوم من شعرا

ثم يصور قوة إنجلترا القاهرة إذ يقول :

---

١ – ديوان حافظ ١ : ١١ و ١٣
٢ – » » ١٠ : ١٥
٣ – ديوان حافظ ١ : ١٨

مَن ذا يناويكَ والأقدار جـارية   بمـا تشائين ، والدنيـا لمن قهرا
إذا ابتسمتِ لنـا فالدهر مبتسم   وإن كشرتِ لنا عن نابه كشرا

ويخرجه الخوف عن وقاره وكرامته حين يقول :

اليوم يَلثِم تاجُ العز محتشماً   رأسا يدبر ملكاً يكلأ البشرا
يصرّف الأمر من مصر إلى عدنٍ   فالهند فالكاب حتى يعبر الجُزُرا

بل إنه ليدعو الله أن ينصر جنده في الآفاق إذ يقول :

إدواردُ دُمتَ ودام الملك في رغَد   ودام جندك في الآفاق منتصرا

ويقرنه في عدله بعمر بن الخطاب إذ يقول :

هم يذكرونك إن عدّوا عدوَّهم   ونحن نذكر إن عدّوا لنا عُمَرا
كأنما أنتَ تجري في طريقتـهِ   عدلا وحلماً وإيقاعاً بمن أشِرا

ثم ينصرف حافظ إلى مدح محمد عبده والدفاع عنه في سنتي ١٩٠٢ و ١٩٠٣ [١] ويعود في سنة ١٩٠٤ إلى عباس ، فيمدحه بقصيدتين في عيد الأضحى وفي عيد العام الهجري [٢] ، معتذراً عن سكوته في العامين الماضيين ، ويقول في القصيدة الثانية مستعطفاً .

عسى ذلك العام الجديد يسرني   ببشرى . وهل للبائسين بشير ؟
وينظر لي رب الأريكة نظرةً   بها ينجلي ليلُ الأسى وينير

فإذا عين سعد زغلول وزيراً للمعارف في وزارة صهره مصطفى باشا فهمي سنة ١٩٠٦ ، مدحه متقرباً إليه بصلته بأستاذه محمد عبده [٣] :

فـاردُدْ لنـا عهد الإمـا   مِ وكُنْ بنا الرجل المفَدّى

١ — ديوان حافظ ١ : ٢١ — ٢٧
٢ — « « ١ : ٢٨ و ٣١
٣ — « « ١ : ٢٦٤

فإذا انتهى به المطاف إلى دار الكتب وعين بها سنة ١٩١١ ، بلغ به اليأس والاستسلام أن ينصح السلطان حسين كامل، حين وُضعَ على عرش مصر بعد خلع عباس سنة ١٩١٥ ، بموالاة الإنجليز والإخلاص لهم إذ يقول (١) :

ووالِ القومَ إنهمُ كِرام ... ميَامينُ النقيبة أينَ حلّوا
لهم ملكٌ على التاميز أضحت ... ذراه على المعالي تستهل
وليس كقومهم في الغرب قوم ... من الأخلاق قد نهلوا وعلوا
فإن صادقتهم صدقوك وداً ... وليس لهم إذا فتشت مثْلٌ
وإن شاورتهم والأمرُ جِد ... ظفِرْتَ لهم برأيٍ لا يَزِلُّ
وإن ناديتهم لبّاكَ منهم ... أساطيل وأسياف تُسَلّ
فمادِدْهم حِبالَ الودّ وانهض ... بنا فقيادُنا للخير سَهْل

وَيقْنَع بطلب الإصلاح في ظل الراية البريطانية في قصيدته التي استقبل بها السير آرثر مكماهون سنة ١٩١٥ (٢) :

نرجو حياة حرةً ... مضمونة في ظل راية
ونرومُ تعليماً يكو ... ن له من الفوضى وقاية
ونود أن لا تسمعوا ... فينا السعاية والوشاية
أنتم أطباء الشعو ... ب وأنبل الأقوام غاية
أنّى حللتم في البلا ... د لكم من الإصلاح آية
رسخت بناية مجدكم ... فوق الرويّة والهداية
وعدلتم فملكتم الـ ... ـدنيا وفي العدل الكفاية
إن تنصروا المستضعفيـ ... ـن فنحن أضعفهم نكاية

وإزاء هذا النزاع بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية انقسمت مصر إلى

١ – ديوان حافظ ١ : ٦٧ – ٧١

٢ – « « ٢ : ٨٢ والسير آرثر مكماهون هو أول مندوب بريطاني عين في ظل الحماية . وقد وصل إلى مصر في ٩ يناير سنة ١٩١٥ .

معسكرين كبيرين ، أحدهما يحارب الاستعمار ، ويتذرع إلى ذلك بكل وسيلة ممكنة ، فيعتمد على نفوذ الخديوي آناً ، وعلى نفوذ تركياً آناً آخر ، وعلى نفوذ فرنسا في بعض الأحيان . وذلك هو الحزب الوطني ، يؤيده شباب مصر المثقف وطلبة المدارس في مختلف المعاهد . أما المعسكر الآخر فقد جنح إلى موالاة الإنجليز واكتساب رضائهم ، معتقداً أن مصر في ضعفها وانحلالها لا تستطيع أن تكافحهم . وأن الطريق الأمثل للتقدم هو إصلاح حالتها الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية بالاتفاق مع سلطات الاحتلال . وذلك هو حزب الأمة ، يؤيده كبار الملاك ، ويشايعهم نفر من أصدقاء الشيخ محمد عبده ، مثل سعد زغلول وفتحي زغلول[1] . وبين هذين الحزبين الكبيرين كان هناك فريقان آخران ، فريق يعبر عن اتجاهات الخديوي ، استحدثه عباس حين فسد ما بينه وبين الحزب الوطني ، ويمثله الشيخ علي يوسف ومعه قلة من الأشياع يسمون أنفسهم حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية . وفريق باع نفسه للاستعمار وسمى نفسه الحزب الوطني الحر ، وما هو بوطني وما هو بحر ، وتمثله صحيفة « المقطم » . وربما استطعنا أن نضيف إلى هذين الفريقين فريقاً ثالثاً كان مستقلا عن هذه الأحزاب جميعاً ، وكان يقاوم النفوذ الإنجليزي ، ولكنه لا يقاومه من وجهة النظر المصرية أو التركية ، وإنما يقاومه من وجهة النظر الفرنسية ، التي كانت – قبل الاتفاق الودي الذي عقد بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٩٠٤ – تدور حول إحراج الإنجليز وإقلاق مركزهم في مصر ، بإثارة المشاكل ووضع العقبات في طريقهم . وكانت صحيفة « الأهرام » هي الممثلة لهذا الاتجاه.[2] وربما كان مقال الجريدة « تعالوا نتفق أو نختلف » من أوضح ما كتب في بيان الفروق بين هذه الأحزاب .

---

١ – مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٠٢ و ١٢٩ و ١٤٣ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩١

٢ – راجع نشأة هذه الأحزاب وبراجها والظروف التي مهدت لظهورها في مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٢٦ – ١٣٢ ، الدولة العربية المتحدة ٣ : ٩٦ – ١٠٣ تاريخ المفاوضات المصرية ص ٢٣ – ٢٩ »

وقد جاء فيه [١] :

« . . . (فالمؤيد) يتحيز دائماً في سياسته العامة إلى إحدى السلطتين ، وأما في جزئيات المسائل وتقدير الحوادث فإنه يجري من النقيض إلى النقيض ، أي من (اللواء) إلى (المقطم) . فأحياناً يكون كالأول ، وأحياناً كالثاني ، وغالباً ينفرد في هذا الميدان الفسيح بذينكم النقيضين ، مراعياً في ذلك حالة مصلحة سياسته العامة التي ذكرناها . وأما (الجريدة) فإنها لا تتحيز لجهة من السلطتين ، ولا تتفق مع طرف من طرفي النقيض . وليس من سياستها أن تخدم سلطة مطلقاً . بل قلمها وقف في خدمة الأمة دون سواها ، وليس أمام نظرها إلا أن تصبح الأمة ذات إرادة ثابتة ووجود مستقل عن كل سلطة، تقف في مركز تمكين لمطالبة السلطتين جميعاً بحقوقها من غير استكانة ولا محاباة [٢] . وبذلك لا يمكن أن تكون متفقة السياسة مع « المؤيد » . وأما (المقطم) فإنه يتحيز إلى سلطة قصر الدوبارة ، ويزين أعمال المحتلين ولو كان ملؤها الخطل ، ويقول بالرضى عن الاحتلال . وأما (الجريدة) فإنها لا تقول بالرضى عن الاحتلال مطلقاً . وإنها لا تناقش الآن في أصل الاحتلال ، لأن الوقت لم يحن بعد . ولا تتحيز لجهة ، لأنها تنتقد أعمال الحكومة والمحتلين بالحرية الكاملة ، وتبين صالحها من طالحها ، وتقول الحق في الحالتين من غير محاباة . وبهذا لا يمكن أن تكون (الجريدة) و (المقطم) متفقي المذهب . . . وأما (اللواء) فإنها تدعو إلى الاستقلال بالطفرة ، وخطتها عدائية للمحتلين. ونحن نرى أن الطفرة محال ، وعواقب التشبث بها خطرة جداً،

---

١ – صحيفة « الجريدة » عدد ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠٧ المقالة الافتتاحية .

٢ – كذلك تزعم « الجريدة » والواقع أنها كانت تتحيز لكرومر وتتحامل على عباس . وقد كانت فكرة المصرية والتمصير وقتذاك من خلق الإنجليز . وهي فكرة – على ما فيها من حق في ظاهرها – لم يكن يراد بها إلا الباطل . فهي شبيهة بفكرة السودنة التي خلقها الإنجليز في السودان للتفريق بين المصريين والسودانيين . وليس من محض الاتفاق أن يكون المنادي بفكرة التمصير وقتذاك هو حزب الأمة ، وأن يكون المنادي بفكرة السودنة بعد ذلك في السودان هو الحزب المسمى بهذا الاسم نفسه .

وأن الاستقلال لا يكون إلا بمعداته التي شرحها سعادة حسن عبد الرازق باشا في خطبته . كما نرى أن معاداة المحتلين وتقبيح أعمالهم التي لا يحكم العدل بقبحها ليس من الاعتدال الذي هو شعارنا في كل شيء » .

وقد تكلمت في الفصل الثاني من فصول هذا الكتاب عن الفوارق الأساسية بين هذه الأحزاب . ولكني أحب أن أشير هنا إلى أن الخلاف بين هذه الأحزاب قد انتهى إلى خوض الصحف في مهاترات لم تكن تستهدف الحق دائماً ، و كان كثير منها يتصل بالأشخاص لا بالمسائل العامة [1] . وقد أفسدت هذه المهاترات الأخلاق والأذواق ، فتولد في المصريين ميل جامح لتتبع هذا السباب والتشفي بسماعه ، وأصبحت هوايتهم الفاسدة أن يترقبوا في شوق طلوع اليوم الجديد ليستمتعوا بمزيد من السباب ، وليأخذوا مقاعدهم في حفل مصارعة الثيران ، وقد غدا أقدرُ الناس على السباب وعلى ردّه هو أبرعهم في أعين الناس . وبذلك استُنفِدت طاقة المصريين فيما لا طائل تحته ، وصُرفت عن مواجهة الاستعمار ، عَدوهم الأول ، الذي استراح من حربهم بعد أن أصبح كل منهم حرباً على صاحبه . وارتكبت الصحف باسم الحرية أبشع جريمة في تمزيق شمل المصريين وتفريق كلمتهم ، حتى ضج المصلحون من هذه الفوضى المؤذية للأذواق ، والمفسدة للأخلاق والباعثة على بلبلة الأفكار .

يقول عبد الله النديم [2] :

« أطلقت إنجلترا حرية المطبوعات والأفكار . فرأينا الجرائد الكثيرة تتكلم بما تريد ، وتتصرف في أفكارها كيف تشاء . هذه تقول : أنا وطنية ، أنادي بأن خير البلاد وصالحها موقوف على جعل الأعمال بيد المصريين ، تحوطهم عناية الحضرة الخديوية تحت مراقبة بريطانيا العظمى ، حتى إذا رأتهم قاموا بحكومة ثابتة مؤيدة بالقانون الحق النافذ ، وفت وعدها ، وأجلت جندها ، وتركتهم يتمتعون بحريتهم في بلادهم ، كما تتمتع البلغار والجبل الأسود

---

١ – راجع أمثلة لذلك في تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٦٤ ، ٦٦٨ ، ٦٩٤ ، ٧٠٤ ، ٧١٠ ، ٨٣٣ ، ٨٥٣ .

٢ – **الأستاذ** عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ .

والعرب وغيرها مما هو أقل من مصر بكثير ، والأمة مرتاحة لها . وهذه تقول : مصلحة البلاد موقوفة على زيادة نفوذ الإنكليز، ووضع الإدارات تحت أيديهم بمساعدة النزلاء ، حتى يتهيأ المصريون لاستلام أعمالهم . لا تبالي رضي عنها المصريون أو غضبوا منها . وهذه تقول : إن فرنسا هي الدولة الوحيدة في المحافظة على مصر وحقوق السلطان فيها وتأييد الخديوي ، ولا يضرها إلا وجود الإنكليز فيها . وهذه مذبذبة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . وهذه علمية تهذب النفوس . وهذه تورد لهم من مصادرات الأديان ما يوقعهم في الشك والتردد . وهذه دينية ، وهذه حقوقية، وهذه طبية . ثم تركت المصريين يغدون ويروحون بين هذه المتناقضات وهم يتناظرون ويتجادلون ، لا رقيب عليهم ولا جاسوس . ولما رأت أن كثرة المؤثرات الفكرية لم تنبههم إلى طلب حقوقهم ، وظهورهم أمامها بالتظاهرات الأدبية استدلالا على استعدادهم للقيام بأعمال بلادهم ، تركت الجرائد تخوض في المواضيع المتضادة ، وتلعب بالأفكار الجامدة ، ونحن في بحار اللهو غارقون . »

وصور حافظ إبراهيم فساد الصحف التي لا يَنْفَقُ سوقها إلا بتبادل الشتائم بالباطل ، وقد أصبح الناس لا يتقبلون كلاماً في الأدب أو الأخلاق ، ولا يستهويهم إلا السباب. فقال في « ليالي سَطِيح » على لسان صاحبه إذ يبثه شكاته : (١)

« فتق لي الذهن أن ألقي بنفسي في غمار المحرِّرين ، وأن أنشىء صحيفة أسبوعية . فصحت عزيمتي على الدخول في زمرة الكتاب وإن لم أكن منهم . . وجعلت أكتب في الفضيلة وأدعو الناس إلى الأخذ بها ، وأستعين بما سطره الأول وجرى عليه الأخير . وأستمد من بطون الكتب أحكَم الأمثال وأمثل العظات وأكد ذهني في الاستنباط . . . ولكن فاتني أن أنظر نظرة في أخلاق الأمة التي أكتب لها ، وأن أجول بالفكر جولة في وجوه عاداتها . فلم تَنْفُق لذلك سلعتي ، ولم تنتشر صحيفتي . . . فقلت لنفسي : أيتها النفس ، لقد

١ - ليالي سطيح ص ٣٣ - ٤٧

أعْذَرَ صاحبُكِ وما قَصر ، فأنت اليوم بين أمرين، إما الفضيلة والنعش ،وإما الرذيلة والعيش . وكانت من غير تلك النفوس المطمئنة ، التي بشرها الله بالجنة . فشَمَسَتْ عن الأولى وسكنتْ إلى الثانية . فما زالت تأمرني بالسوء حتى أصبحت صحيفتي مجموعة للنقائص ومُستَنَاماً للعيوب . وأصبح يراعي وقد استمد من لعاب الأفاعي لعابه ، واستعار من المسامير سبابه[1]. فما زلت أطعن على زيد لأجتعل من عمرو ، وأغض من خالد لأشد من بكر ، حتى زل الرأي وعثر القلم ، فأصبحتُ غريم الحكومة ، وخوصمت إلى المحاكم فأصبحت مخصوماً ، وبت وقد اصطلحت عليّ الخطوب » .

ثم يقول على لسان سطيح في الرد على صاحبه :

« أي فلان ! . . إن للصحافة رجالا ، وللسياسة أبطالا ، طرّقوا لها الضمائر . وتناولوا بها ما وراء السرائر ، فسدّدوا الكلام كما تسدد السهام . وبلغوا بالمقال مالا تبلغه النصال . يُعَجِّبونك فتعجب ، ويستغضبونك فتغضب . . . وهم كما قال صاحب كليلة : يحقون الباطل ويبطلون الحق . كالمصور الذي يصور في الحائط صوراً كأنها خارجة وليست بخارجة ، وأخرى كأنها داخلة وليست بداخلة . »

ثم قال على لسان صاحبه إذ يسأل سطيحاً عن معنى الحرية وحدودها :

« ألا يحدثنا وليُّ الله عن تلك الكلمة التي أخذها الناس على غير وجهها ، فذهبت فيها الظنون مذاهبها ، وركبت الأوهام مراكبها . ثم أسكنوها في غير معناها ، وأرادوا منها غير ما أرادت منهم . فذلت بهم وذلوا بها . وكان ذلك علة هذه الفوضى التي تراها في الصحف ، وذلك الفساد الذي سرى في الأخلاق ؟ »

---

١ – المسامير : كتيب لعبد الله النديم في هجاء أبي الهدى الصيادي الذي كان شيخاً للإسلام في تركيا، وكان متسلطاً على السلطان عبد الحميد . وهو عربي الأصل . وقد ابتلي النديم بعداوته مدة إقامته في الآستانة بعد إبعاده عن وطنه عقب تعطيل صحيفة « الأستاذ » . والمسامير مملوء بالفحش المقذع .

ويقول على لسان سطيح في مضار ما وقعت فيه الصحف من مهاترات :

« أما وجوه المضرة في بقائها فقد أصبحت شيئاً يحس ، وأصبح مثلها كمثل الهواء ، فقد كنا نشعر به ولا نراه ، حتى سلطوا عليه ضغط الجو فتكاثف حتى همت الأيدي بلمسه ، وتلون حتى وقع في النظر تحت حسه . »

« فمنها أنهم نصبوها حبائل لصيد المال . فأقاموا لها سوقاً فرشت فيها الصحف وركزت الأقلام ، وعرضت للبيع أعراض الناس ، فنراهم يجلسون للمساومة في تلك الأعراض . ويأتي حامل الضبّ (الحقد) لأخيه ، فيساومهم في تمزيق عرض من أراد ، ويُشْهر ذلك في المزاد . »

« ومنها دبيب الفساد إلى أخلاق العامة ، لكثرة ما يقرأون ويسمعون من ألفاظ السباب . فإذا فسدت الأخلاق في الأمة فقد فسد فيها كل شيء »

« ومنها دخول السقاط من القوم في زمرة المحررين . اللهم إلا نفراً من أنصار الفضيلة ، ذهب صرير أقلامهم ضياعاً في وسط تلك الضجة القائمة . وهذا قليل من كثير » .

ويقول محرم في تصوير هذا الفساد والشقاق [١]

ولقد بلوت الكاتبين جميعَهم ... فوجدت أكثر ما يقال دعاويا

شدّوا العيابَ على هنات لو بدت ... ملأت مناديح الفضاء مساويا [٢]

لا بوركت تلك الأكف فإنها ... ضربت على الألباب سداً عاتيا

حجبت صديع الرشد عنها فارتمت ... تجتاب ليلَ الغيّ أسفع داجيا [٣]

سلني أنبّئك اليقين فإن لي ... علماً بما تخفي السرائر وافيا

ألفيتُ أصدقَ من بلوت مداهناً ... ورأيت أمثلَ من رأيت مُداجيا

---

١ – ديوان محرم ٢ : ٩٧ – ١٠٠

٢ – العياب : جمع عيبة « بفتح العين » وهي الحقيبة . مناديح : جمع مندوحة وهي ما اتسع من الفضاء . يقول إن بين جنبات الكتاب الذين يتشدقون بالفضيلة من الشر ما هو خليق أن يسد الفضاء .

٣ – الصديع : الصبح .

بعثوا الصحائف يلتوين كأنما بعثوا بهن عقارباً وأفاعيا
صحف يزل الصدقُ عن صفحاتها ويظل جد القول عنها نابيا
...صدقوا العدوّ ولاءهم وتمزقوا خصماء فيما بينهم وأعاديا
فهم المعاول إن رماهم هادماً وهم الدعائم إن علاهم بانيا
وهم السلاح إذا يُشيح مناجزاً وهم العديد إذا يصيح مناويا
مالي أهيب بمن لو انيّ نافخ في الصور ما نبهت منهم غافيا
.. ليت الزلازل والصواعق في يدي فأصبها للغافلين افيا
فنيت براكين القريض ولا أرى ما شفّني من جهل قومي فانيا
فلئن صَمَتُّ لأصمتنّ تجلّداً ولئن نطقت لأنطقن تشاكيا

من أجل ذلك أخذ الناس يتصايحون بالدعوة إلى الاتحاد وإلى ضم الصفوف، فكانوا كالذين يصرخون وسط الضجيج ينشدون الناس السكوت، فيضيفون إلى الضجيج ضجيجاً جديداً، أو كالذي يحاول ان يوحد بين الأديان فلا يزيد على أن يضيف اليها ديناً جديدا. أو كالذي يريد توحيد اللغات فينتهي إلى خلق لغة جديدة. فالمختلفون لا يملون الخلاف، كما أن دعاة الخير لا يستيئسون من الدعوة إلى الوحدة وإلى الوئام.

يقول حافظ إبراهيم في قصيدة وجهها إلى «البرنس» حسين كامل حين وكلت إليه رياسة مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية سنة ١٩٠٩، طالباً إليه أن يعمل على جمع الصفوف وتوحيد الكلمة: (١)

هلاك الفرد منشؤه توان وموت الشعب منشؤه انقسام
وإنا قد ونينا وانقسمنا فلا سعيٌ هناك ولا وئام
فساء مُقامنا في أرض مصرٍ وطاب لغيرنا فيها المقام
فلا عجبٌ إذا مُلكت علينا مذاهبنا!.. وأكثرنا نيام
حسينُ.. حسينُ، أنت لها فنبّه رجالا عن طلاب الحق ناموا
أفِض في قاعة الشورى وئاماً فقد أودى بنا وبها الخصام

١ – ديوان حافظ: ٢: ٥٥، ٥٦

وعلمهم مصادمة العوادي | فمثلك لا يروّعه الصدام
ففي حزب اليمين لديك قوم | وإن قلّوا فإنهُمُ كرام
وفي حزب الشمال لديك أسْد | كُماة لا يطيب لها انهزام
فكونوا للبلاد ولا يفُتكم | من النُهْزات والفرص اغتنام
فما سادوا بمعجزة علينا | ولكن في صفوفهم انضمام

ويقول محرم : (١)

بلوتُ المدّعين بلاء صدقٍ | فلا أدباً وجدتُ ولا خلاقا
دعاة الشر يتفقون فيه | ولا يرجون في الخير اتفاقا
إذا كان الهوى دلفوا سِراعاً | وإن كان الهدى ركبوا الأباقا (٢)
كأن بهم غداةَ يُقال سيروا | إلى العلياء قيداً أو وِثاقا
أسارَى في قيود الجهل تأبَى | لهم أخلاقهم منها انطلاقا
لبئس القوم . ما منعوا ذماراً | ولا رفعوا لصالحةٍ رِواقا
ألستَ ترى مجال الجِد فيهم | على سعة الجوانب كيف ضاقا
أضاعوا الشعب حين تواكلوه | وساموه التفرق والشِقاقا
ولو أني وَليت الأمرْ فيه | جعلتُ مكانه السبعَ الطباقا
ولكني امروٌ لا شيء عندي | سوى قلمٍ يذوب له احتراقا

ويقول (٣) :

ليس الشقاء بزائل عن أمةٍ | حتى يزول تفرق وتحزّب
من لي بشعب في الكنانة لا القوى | تنشقّ منه ولا الهوى يتشعب
متألب يبغي الحياة كأنه | حشٌ على أعدائه يتألب

---

١ ــ ديوان محرم ٢ : ١٢٥
٢ ــ أبق العبد أباقاً : استخفى وهرب من سيده .
٣ ــ ديوان محرم ٢ : ١١١

ويقول شوقي في الهمزية النبوية التي نشرت سنة ١٩١٢ ، متوجهاً بخطابه إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه : (١)

ما جئتُ بابكَ مادحاً بل داعياً ... ومن المديح تضرُّعٌ ودُعاء
أدعوك عن قومي الضعاف لأزمة ... في مثلها يُلقَى عليكَ رجاء
أدرَى رسولُ الله أن نفوسَهم ... ركبتْ هواها ، والقلوبُ هواء
متفككون فما تَضُمُّ نفوسَهم ... ثقةٌ ولا جَمعَ القلوبَ صفاءُ
رقدوا وَغرَّهُمُ نعيم باطلٌ ... ونعيمُ قومٍ في القيودِ بَلاء

ويقول في قصيدة أخرى هنّأ بها عباساً بعيد الفطر : (٢)

وطني ! أسفتُ عليكَ في عيد المَلاَ ... وبكيتُ من وَجْدٍ ومن إشفاق
لا عيدَ لي حتى أراكَ بأمّةٍ ... شمّاءَ راوية من الأخلاق
ذهبَ الكرامُ الجامعون لأمرهم ... وبقيتُ في خَلَفٍ بغير خَلاق
أيَظَلُّ بعضُهُمُ لبعض خاذلا ... ويُقال شعبٌ في الحضارة راق
وإذا أراد اللهُ إشقاءَ القرَى ... جعل الهُداةَ بها دُعاةَ شِقاق

ويقول في ختام القصيدة الحزينة التي هنأ بها السلطان حسين كامل بعد عزل عباس (٣) :

يا أهلَ مصرَ كِلُوا الأمورَ لربكم ... فالله خيرٌ مَوْئلاً ووكيلا
جرت الأمورُ مع القضاء لغاية ... وأقرّهــا من يملك التحويلا
أخذَتْ عِناناً منه غيرَ عِنانها ... سبحانه مُتَصَرّفاً ومُديلا
هل كان ذاكَ العهدُ إلا موقفاً ... للسلطتين وللبلاد وبيلا ؟ (٤)

١ – ديوان شوقي ١ : ٢٩ « نشرت في المؤيد ٧ مارس سنة ١٩١٢ » .
٢ – ديوان شوقي ٢ : ٩٢ .
٣ – ديوان شوقي ١ : ٢١٧
٤ – يشير إلى تنازع السلطة الشرعية الممثلة في الخديوي والسلطة الفعلية الممثلة في قنصل بريطانيا العام

يعتزُّ كلُّ ذليل أقوامٍ بــه ... وعزيزُكُم يُلـْقي القيادَ ذليلا[1]
دَفَعَتْ بنافيه الحوادثُ وانقضت ... إلا نتائجَ بعدَها وذيولا
وانفضَّ مَلْعَبُه وشاهدُه، على ... أن الروايةَ لم تَتِمَّ فُصُولا[2]
فأدَمْتمُ الشحناءَ فيما بينكم ... ولبثتُمُ في المضحكات طويلا
كلٌّ يؤيد حزْبَه وفريقَه ... ويرى وجودَ الآخرين فضُولا
حتى انطوت تلك السنون كملعب ... وفرغتُمُ من أهلها تمثيلا
وإذا أراد الله أمراً لم تجِــدْ ... لقضائــه رداً ولا تبــديلا

---

١ – يقصد بالعزيز عباساً الذي أذله الإنكليز، وخصوصاً في السنوات الأخيرة، حين كان كتشنر هو ممثل بريطانيا.

٢ – كان هذا البيت والذي قبله مما دعا الإنكليز إلى أن لا يطمئنوا إلى شوقي، فأبعدوه عن مصر.

الفصل الخامس

نزعات إصلاحيّة

ليس التفريق بين ما هو من السياسة وما هو من الإصلاح بالأمر الهين . بل إن التفرقة تكاد تكون تفرقة تعسفية أو إصطلاحية. فكل حركة إصلاحية تخدم هدفاً سياسياً في حقيقة الأمر . وكل منهج سياسي يمكن أن يوصف بأنه حركة إصلاح ، تستهدف رفع مستوى مجموعة أو أكثر من المجموعات البشرية . ولكن العرف جرى على إدخال ما يتصل بتنظيم الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول الأخرى في نطاق السياسة ، بينما أطلق اسم الإصلاح على البرامج التي ترمي إلى رفع مستوى الشعب وتحسين حاله في شتّى نواحي الحياة . ولذلك اقترن اسم السياسة في الأذهان بالسلطة والحكم والتطاحن والمغامرة ، في الوقت الذي لا تثير فيه كلمة « الإصلاح » إلا التفكير الهادىء الذي يتسم بالاتزان والإنصاف ، والذي ينأى بصاحبه عن المخاطر ، ولا يجره إلى المجازفة في ميادين النزاع العنيف . فالذين يتعرضون للسياسة ممن يجدون في أنفسهم الجسارة عليها ، والذين يشتغلون بالإصلاح ممن يغلب على طبائعهم الهدوء والرويّة ، ولا يريدون أن يزجوا بأنفسهم في طريق محفوف بالمكاره وبمكامن

الخطر ، هؤلاء وهؤلاء يعملون في ميدان واحد هو الوطنية ، أو السياسة بمعناها الواسع الذي يدخل فيه كل ما يتصل بتدبير علائق أفراد الأمة أو الوطن بعضهم بالبعض ، ودفعهم في مدارج التطور والرقي . بَيْد أن من الناس مَن يجمع بين الصفتين ويشتغل بالناحيتين ، ومنهم من يقصر نفسه على ناحية واحدة . فكل الذين يشتغلون بالسياسة يشتغلون في الوقت نفسه بالإصلاح ، لأن سياسة أمور الدولة الخارجية لا تقوم إلا على سلامة جبهتها الداخلية . ولكن كثيراً من المشتغلين بالإصلاح لا يزجون بأنفسهم في شؤون السياسة ، لأنهم لا يأنسون في أنفسهم الجسارة عليها ، أو لأنهم يؤثرون البعد عن مواطن الزحام حين يتكالب على المورد كلُّ منافق وكل طامع وكل مغامر من الذين يطلبون الغُنْمَ الكبير من أقرب طريق، وممن لا يبالون أن يقعوا على الثروة العريضة أو الموت الذريع .

كذلك كان شأن المشتغلين بالإصلاح في هذه الفترة التي نؤرخ لها . كان بعضهم من المشتغلين بالسياسة ممن تكلمنا عنهم في الفصل السابق . وكان بعضهم الآخر ممن كرهوا أن يزجوا بأنفسهم في هذا المعترك العنيف ، فآثروا أن يسلكوا طريقاً لا يعرضهم لغضب السلطان ، بعد أن رأوا ما رأوا من سوء مصير العرابيين ، وما يتعرض له المجاهدون للاستعمار من أذى واضطهاد. وقد كان لهؤلاء المصلحين مندوحةٌ ومتّسعٌ في المجتمع المصري الذي آل إلى حال بغيضة من الانحلال والفساد . وكانت المشكلة الكبرى التي تواجه كل سياسي وكل مصلح هي : كيف ننشىء أمة قوية راقية من هذا المجتمع المفكك ، الذي انتهى به الجهل والفقر ، مع تحكم الاستبداد فيه أجيالا طويلة ، إلى حال من اليأس أصبح معها لا يكترث لشيء مما يجري حوله ، بل أصبح في حالة فقد معها التمييز بين الضار والنافع ، واختلط عليه فيها الخير بالشر ، وأنِسَ إلى الظلام حتى أصبح النور يؤذي عينيه ؟.. قال رجال السياسة : إن الاحتلال هو أصل البلاء ، فلا بد من مناجزة المحتل . وقالوا : إن الاستبداد هو جرثومة الداء فلا بد من المطالبة بالدستور . ولكن

المشكلة ظلت باقية تنتظر الحل في رأي رجال الإصلاح ، لأن مجاهدة المستعمر أو الحاكم المستبد تحتاج إلى تضافر القوى واتحاد الجهود . وكيف تتضافر القوى في شعب خيم عليه الجهل والفقر ، وتحكم فيه اليأس والتخاذل ، حتى بلغ حالةً تشبه الموت ، إن لم تكن هي الموت عينه ؟

كان الفتور والتبلد قد استوليا على المجتمع المصري ، بعد أن توالى على الناس الاستعباد والاستبداد والذل والهوان ، فماتت فيهم الآمال ، وفقدوا بتوالي العصور أخص ما يميز الإنسان ، وهو الإرادة ، فتركوا أنفسهم للتيارات المعتركة تقذف بهم حيثما قذفت ، وهم في سكون الجماد الذي لا يحس شيئاً .

وقد رسم عبد الله النديم في رواية « الوطن » صورة حية ناطقة لهذا المجتمع الذي أفقده الاستبداد إرادته ، وأماتت المصائب المتراكمة إحساسه ، حتى فقد الأمل ، وترك العمل ، وارتاح للكسل ، وانحصرت لذته في ألوان من المتع الرخيصة التي يُغْـرِق فيها همومه التماساً لتسكين الآلام [1]. والتمثيلية تشخّص « الوطن » رجلا ، وتعرض صوراً حية للحوار بينه وبين أفراد من مختلف طبقات المصريين ، بعضهم من سكان القرى وبعضهم من المدن ، وبعضهم من الفقراء وبعضهم من السادة المترفين الفارغين للذاتهم ، وبعضهم من الفلاحين الذين يعيشون على ما تخرج الأرض وبعضهم من الصيادين الذين يعيشون على ما يخرج البحر ، وبعضهم من الجهلة الذين يكسبون عيشهم من احتراف الحرف المختلفة ، وبعضهم من الموظفين الذين أصابوا حظاً من

١ – مثلت الجمعية الخيرية الإسلامية التي كان يشرف عليها النديم هذه المسرحية على مسرح «زيزينيا» بحضور الخديوي توفيق . وهذه الجمعية هي جمعية أخرى غير الجمعية الحالية . وقد كان الحوار يجري في أكثر الأحيان باللهجة العامية المحلية . وهي – كما هو معروف – تختلف باختلاف الأقاليم ، بل باختلاف الطوائف والطبقات في الإقليم الواحد ، كما تتعرض للتطور والتغير على توالي السنين . وذلك كله يضيق دائرة صلاحيتها زماناً ومكاناً ، ويفقدها صفة العموم والدوام . لذلك رأيت أن أعدل عما فعلته في الطبعة الأولى من تقديم نصها بالعامية المصرية ، مكتفياً بتلخيصها . ولمن شاء أن يرجع للنص في « سلافة النديم » .

التعليم المدني الحديث . عرض النديم صوراً لهذه الطبقات جميعاً تبين أنها على تباينها في مظهرها لا تختلف في جوهرها ، فكلٌ منهم يعاني من آثار الاستبداد ومن فادح المغارم والتكاليف مثلَ ما يعاني الآخر. وكلهم مشغول بنفسه عما حوله ، وكلهم مصابون بشلل في أعصابهم ، مُبتَلون ببلادة في إحساسهم ، لا يزعجهم البلاء الذي يُصَبُّ على رءوسهم والذي يجري من حولهم ، ولا يحلمون بخير مما هم فيه ، ولا يرون الذين يحاولون ذلك إلا مجانين يتعلقون بالأوهام ويحاولون المستحيل .

انظر إلى هذا الحوار بين « أبو دَعْموم » و « أبو الزُّلفَى » وهما من الفلاحين سكان القرى [1] يبث كل منهما صاحبه شكواه ، وما يحل به من المغارم ، وما ينزل به من صنوف المحن والغَصْب والنهب ، على أيدي « الطَّوافة » و « مشايخ البلد » و « حكّام الخُطّ » و « المديرين » . وبينما هما في هذه الحال إذ يطلع عليهما « الوطن » يندب أهله وأولاده ورجاله الذين تخلوا عنه وفتر حبهم له ، فيتصدى له الرجلان يسألانه في ازدراء — لقذارته ورثاثته — ماذا يطلب من هؤلاء الذين يندبهم ؟ . . وأي شيء فيه يدعوهم إلى حبه والتعلق به ؟ . . فإذا طلب إليهما « الوطن » أن يعملا على جمع الكلمة رأيا أنه يتعلق بالمحال في بلد تفككت فيه عرى المودة ، وشغل كل واحد فيه بنفسه . فإذا دعاهما إلى التعليم تعجبا من قوله متسائلين : وماذا يجدي التعليم وفقيه القرية يتكلم كل يوم في الحلال والحرام ، بينما « شيخ البلد » يقطّع جلود الناس بالسياط . ولا يسلم « الفقيه » نفسه من هذا المصير إذا حدثته نفسه بالاعتراض ؟ . . فإذا علما أن المقصود بالتعليم هو إرسال الأولاد لمكتب القرية سَخِرا منه ، وقد ازدادا يقيناً ببلاهته ، لأن أولادهما — بحمد الله — صِحَاحُ الأبدان ، وقد تعود الناس أن لا يرسلوا إلى « الكُتّاب » إلا العميان ممن يُعَدّون للارتزاق بتلاوة القرآن . فإذا أكثر الوطن عليهم وأثقل ، ردا عليه في استهزاء يعرّضان بسطوة « ناظر القسم » الذي تخرّس

---

[1] — سلافة النديم ٢ : ٣٣ .

من رهبته الألسُن، وبالجابي « الصراف » جرجيوس الذي يضرب ويَشْمَخ ، وبالحاجب التركي « القَوّاص » الذي يَرْفُس ولا يبالي أن يقتل بلا حساب ، متمنيان أن يطلع عليهما الساعةَ واحدٌ من هؤلاء ليستمتعا بفصاحة « الوطن » في حضوره . فإذا طلب « الوطن » إليهما أن يَشْكُوا للحكومة من قسوة هؤلاء الظالمين وتجبرهم ، أظهرا الخوف الشديد من لقاء « الْحكّام » ، الذين ترتعد منهما الفرائصُ يومَ يبلغهما أنهما مطلوبان للقاء أحدهم .

ثم يعرض علينا المؤلف لوناً آخر في حوار يدور بين « أبو دَعموم » و « أبو الزّلْفى » وهما من سكان الريف ، وبين « الحاج حسين » و « المعلّم أبو العلا » وهما من سكان المدن ، يصور فيه كلٌّ من الطرفين ما يعاني من فوضى الحكم واستبداد الحاكمين . فساكنا المدينة يعدّدان صنوف الضرائب والمغارم التي لا تكاد تدخل تحت حصر ، مثل « الشخصية » و « حب الوطن » ، و « الطّلُنْبة » ، « والغَفر » ، و « النّضَافة » ، و « نزح الكنُفان » . فلا يكادان يفرغان من إحصائها حتى يعدّد لهما ساكنا القرية من أمثالها عندهم ما يجعلهما يحمدان الله على مصابهما. وذلك من مثل : « ضريبة المال » و « المقابلة » و « السدس » و « مصاريف الري » و « السهوم » و « المصلح » و « الشخصية » و « عوايد البهائم » و « الوطنية » و « الأغنام » و « النخيل » و « الدخولية » . وذلك عدا ما يغرمه الفلاح من محاصيله كل عام من مثل : « عادة الحكيم والمهندس والمزيّن » و « المشدّات » و « الطوّافة و « قوّاسة المدير وخدمه » و « سَنَويّة الناظر وخدمه » و « العونة » و « السخرة » ، وما يخضع له بناته وأولاده وبهائمه من ضروب السخرة وصنوف الإهانات من خدم الحكّام وأولادهم ونسائهم . ويضاف إلى ذلك ما يُغصَب من غلات الفلاحين ودوابهم ودجاجهم نهباً للناهبين بين الأيدي التي تتناقله حتى يصل منه ما يصل -- إن وصل -- إلى أيدي الحكام الذين ينهبون باسمهم ما ينهبون . وجابي الضرائب « الصرّاف » مع ذلك كله يمر كل يوم فيأخذ ما يأخذه بلا حساب ، والضريبةُ باقيةٌ كما هي لم ينقص منها شيء . فإن ناقشه « الفلاح » أو اعترض لَكَمَه « شيخُ البلد » الذي يرافقه قائلا : أعَقْلُكَ أثبتُ مما هو مسطور في الدفاتر يا لُكَع ؟!

ثم استمع بعد ذلك إلى حديث « الوطن » مع « الحاج حسين » و « المعلم

أبو العلا » حين يفاجئهما وهما غارقان في الحديث عن المقارنة بين الأوكار التي يحرّق فيها « الحشيش » فيُجْفِلان منه مذعورين. فإذا اطمأنا إلى أنه « الوطن » سألاه عن علة ما اعتراه من تغير وما صار إليه من سوء الحال. فيقول لهما إن أولاده هم سبب تعاسته. ويظل يبكي شقاءه ويندب أبناءه حتى يظن به « الحشّاشان » الجنون، ويَضيقان بشكايته التي نغّصت عليهما مجلسهما، فينصرفان عنه إلى متعتهما.

وقريب من هذا الحديث حديث رجلين آخرين من السادة المترفين، وهما « السيد علي » و « السيد إبراهيم ». يتحدثان عن السهرات والأفراح والولائم، ويخوضان في ذكريات تافهة يتحدثان فيها عن جمال أحدهما في صباه، وحب والد الثاني له وقتذاك وتغزله فيه. ولا يقطع عليهما حديثَهما إلا صياحُ « الوطن »: أين رجال الفتوة ؟.. أين رجال النجدة ؟.. ويضيق به السيدان المترفان ويلعنان وجهه ولجاجته وتنطعه، إذ تعوّدَ أن يفسد عليهما مجالس المتعة بنعيقه حين ينوح على السابقين الأولين.

ويرى أحدُ السيدين – بعد ممانعة من صاحبه – أن يواسيه بسؤاله عن حاله، فيشكو إليه « الوطن » ما ابتليَ به أبناؤه من تواكل وخمول انتهى بهما إلى التخلف عن ركب العلم والمدنية. فيعجب السيد المترف لقول « الوطن » في إنكاره على المصريين أنهم أهل مدنية، مع ما هو معروف عنهم من الظرف وحضور البديهة والدعابة.

فإذا صحّح له « الوطن » خطأه، وعرّفه أن المدنية الحقيقية في نشر العلم وفتح المدارس، أجابه السيد المترف في استنكار بأن « المدارس » شيء لا يشتغل به إلا النصارى. أما المسلمون فبحسبهم مكاتبُ تحفيظ القرآن. وهي – بحمد الله – ملأى بكل أعمى وكل كسيح. فإذا أطال « الوطن » الكلامَ في تصحيح خطأ السيد المترف، نظر إلى صاحبه قائلا الآن أدركتُ أنك كنتَ على حق حين عارضتَ في حديثي مع هذا الشخص. فهو حقيقةً مخبول ذاهب العقل. ويعودان إلى ما كانا فيه من لهو الحديث.

ثم يقدم عبد الله النديم بعد ذلك حواراً بين « الوطن » وبين صيادين من أهل الإسكندرية ، لا يختلف في دلالته عما مضى . ثم يلتقي « الوطن » باثنين من المتخرجين في المدارس الأجنبية هما « عزت أفندي » و « مظهر أفندي » — وأحدهما مترجم في بعض القنصليات الأجنبية — فإذا هما يتحدثان عن الليالي الصاخبة في دور الخلاعة والخمر ، ويتفاخران بما ينفقان فيها من مال ، في جمل تتخللها عبارات فرنسية . وإذا هما لا يعرفان للتعليم غاية إلا تحصيل لقمة العيش من أي وجه ، ولا يفكران إلا في المتعة وفي الابتعاد عن المنغّصات . ولا يريان ما سوى ذلك مما يدعو إليه « الوطن » من ضروب الجد إلا سخفاً واشتغالا بما يملأ الحياة هماً وحزناً .

كذلك صوّر عبد الله النديم حال الناس قبيل الثورة العرابية ، لا يدركون من المصالح إلا الداني القريب الذي يمس أشخاصهم ، ولا يعرفون من المُتع إلا أدناها مما يتصل بملذات الجسد ، ولا يرسلون أبناءهم إلى مدارس القرية « الكتاتيب » إلا أنْ يكونوا عمياناً يرتزقون بقراءة القرآن . وهم بعد ذلك مستكينون لما يقع عليهم من الظلم ، لا يكادون يطمعون في دفعه . ولذلك فهم يعيشون في ذوات أنفسهم ، وفي أضيق حدود الجماعة التي لا تتجاوز نطاق الأسرة ، لا يعنيهم شيء مما يجري من حولهم ، لأنهم يعرفون أن ذلك لا يتصل بهم ولا يغيّر من الواقع المرّ البائس الذي هم فيه شيئاً . ذلك شأن الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون . أما المرزوقون ممن أتيحت لهم وسائل العيش ، فهم لا ينظرون لمن حولهم ممن ابتُلِيَ بألوان المحن إلا ليحمدوا الله على ما رزقهم من خير و ما كفاهم من شر . وهم يملؤون الفراغ الممل من أعمارهم الضائعة بالسهرات وبالأحاديث التافهة في مجتمعاتهم وفي ندواتهم ، ويقتلون البقية الباقية من أحاسيسهم ويقظتهم — إن كان فيها بقية — بطلب ما يُغيِّبهم عن شعورهم من ألوان الخمور والمخدّرات ، وقد أعجزتهم اللذة في اليقظة فهم يلتمسونها في أحلام المخمورين وخيالات المخدّرين . لا يميز الجاهلَ من المتعلم إلا أن الثاني يدير لسانه بألوان من الرطانة يحشرها في

كلامه ، ويتخذها عنواناً للكياسة والظرف والتمدن ، ويظن أنها تميزه عن غيره ممن لا يعرفها .

* * * *

ومرت الثورة العرابية في حياة الناس سريعاً وكأنها لم تكن ، فعادوا إلى يأسهم أبلغَ ما يكون اليأس، وإلى انطوائهم أشدَّ ما يكون الانطواء ، ينظرون من حولهم دون اكتراث ، وكأن الأمر لا يعنيهم في شيء . ولم يكن يُنتظَر ممن هذه حالهُم إلا الاستسلام المطلق ، وإلا الإسراع لاستقبال الخديوي الظافر عند عودته للقاهرة بمثل ما استقبلوا عرابي الظافر من قبل . تابعوا الثوار مبهورين بجرأتهم ، مأخوذين بصنيعهم الذي لم يكن يخطر لأحدٍ ببال . فلما انهزموا تركوهم لمصيرهم المؤلم كما يقول البارودي .

وكنا جميعاً ، فلما وقعتُ — صبرتُ وغادرَني مَعشرَي

واستأنفوا حياتهم كأن لم يكن مما كان شيء .

وأدرك العقلاء والراشدون أن تهذيب الشعب وإصلاحَ عيوبه هو الخطوة الأولى في سبيل أي نهضة . فأخذوا يكشفون عن مواطن الضعف والمرض في حياتنا، وينبهون إليها في لين الواعظ المشفق على قومه ، الحريص على هدايتهم حيناً ، وفي عنف المغيظ المحنق الذي غلب عليه اليأس من الإصلاح والضيق بالفساد حيناً آخر . وكان من أثر ذلك أن ظهر في أوائل القرن العشرين لون من الأدب الواقعي الذي يرتبط بالحياة أشد الارتباط ، ويستمد موضوعاته مما يجري من حوله ، فاحتل مكاناً بارزاً بين الفنون الأدبية المختلفة . وطالعتنا كثير من القصائد والمقالات الهجائية التي تُلهب المجتمع بسياط النقد المر ، وتهاجم معايبه ، وتتهكم بأساليب حياته الفاسدة . فمن ذلك قول الكاشف في وصف وباء « الكوليرا » الذي اجتاح مصر سنة ١٩٠٢ ، مصوراً فتكه بالناس، وتفشيه نتيجةً للجهل والاستسلام وانتشار الخرافات وسوء فهم الناس وتفسيرهم

لمعنى التوكل على الله والرضا بقضائه (١) :

وكم ليلٍ قضيتُ حليفَ وَجْد ... وسهد في الضراعــة والصلاة
فإن أغفيتُ نبّهني مخيفـاً ... صياحُ الثاكـلات الباكيات
فمنْ أمٍّ مضى عنها بَنُوها ... ومن أم أُصيبتْ في البنـات
وهذا كان لي جـاراً وفياً ... وكانت تلك إحدى التابعات
فأحسب أنني في الظهر ميْتٌ ... إذا أبصرتُ ميتاً في الغداة
وذي هوَسٍ يقول لقيتُ ليلا ... شياطينَ المنـايا الدائرات
بأيديها سيوفٌ لامعاتٌ ... كلمـع عيونهـا المتوقّدات
...وما حيَلُ الحكومة في مُغير ... به وَجدَ البلادَ مرحّبات
إذا ما طاردتْه في مكانٍ ... رأتْ منه مِراسَ الراسخات
وكان له من الأهلين عَونٌ ... علينا ، فهو موفور الثبات
تساوى عندهم نَفْعٌ وضرٌّ ... فما عرفوا الحُماةَ من العُداة
إذا لاقوا الأطباءَ استعاذوا ... وخاضوا في الظنون السيئات
وأبدوا للعقاقير احتقـاراً ... وظنوها سموماً مهلكـات
وقالوا : في منازلنا دَعونا ... فإن الموتَ في المستشفيات
وإنَّ لنا من الداياتِ عنـكم ... غِنىً لعلاجنا ومن الرُقاة
ولولا غفلةُ العلماءِ عنهم ... لَما تَرَكوُا الوساوس غالبات
إذا استَهْدَوْهُمُ قالوا: استعينوا ... بصبرٍ واخضعوا للكارثات
نرى أنْ لا فرارَ من المنـايا ... فنهزأً بالـدواء وبالأساة
وما العدْوَى ، وإن نقموا علينا ... سوى وَهْمِ النفوس الحائرات
وإن تكُ نقمةٌ فقد احتمينا ... بأسرار « البخاري» الشافعات
وإن لنـا على الله اعتماداً ... وأسباباً إليـه واصلات

ومن ذلك قول حافظ إبراهيم ، من قصيدة له في الحرب اليابانية سنة

١ – ديوان الكاشف ١ : ٥٥ – ٥٧

١٩٠٤ ، يصور يأسه من إصلاح المجتمع الذي شاعت فيه روح الانحلال والتخاذل [١] :

أنا لولا أنّ لي من أمتّي ... خاذلا ما بتُّ أشكو النُوَبا
أمةٌ قد فتَّ في ساعدها ... بغضُها الأهلَ وحبُّ الغرَبا
تعشق الألقابَ في غير العلا ... وتُفدّي بالنفوس الرُّتَبا
وهي ، والأحداثُ تستهدفها ... تعشق اللهوَ وتهوَى الطربا
لا تبالي لَعِبَ القومُ بها ... أم بها صَرْفُ الليالي لعبا

وقوله من قصيدة أخرى : [٢]

سكتُّ فأصْغَرُوا أدبي ... وقلتُ فأكبَروا أرَبي [٣]
وما أرجوه من بلد ... به ضاق الرجاءُ وبي ؟
وهل في مصْرَ مفخَرَةٌ ... سوى الألقابِ والرُّتَبِ ؟
وذي إرْثٍ يكاثرنا ... بمالٍ غيرِ مكتسَبِ
وفي الروميِّ موعظةٌ ... لشعبٍ جدَّ في اللعب
يقتّلنا بلا قَوَدٍ ... ولا دِيَةٍ ولا رَهَبِ
ويمشي نحوَ رايته ... فتحميه من العَطَبِ [٤]
فقل للفاخرين : أما ... لهذا الفخر من سبب ؟!
أروني بينكم رجلا ... رَكِيناً واضحَ الحسب
أروني نصفَ مخترعٍ ... أروني ربع مُحْتَسِبِ [٥]

١ – الديوان ٢ : ٧
٢ – الديوان ٢ : ١١٠ وقد وردت القصيدة في « ليالي سطيح » ص ٢٦ الذي طبع للمرة الأولى سنة ١٩٠٦ .
٣ – يقول إنه سكت حين انتابه اليأس ، فلامه الناس لسكوته . فلما تكلم أكبر الناس ما يقول ، وظنوا أن ما يطلبه شيء كبير لا سبيل لتحقيقه .
٤ – يشير إلى الامتيازات الأجنبية .
٥ – يقصد بالمحتسب الخبير بشؤون المال والاقتصاد .

أرُوني ناديــاً حَفْلا بأهل الفضل والأدب
وماذا في مدارسكم من التعليم والكتب ؟
وماذا في مساجدكم من التِبْيان والخُطَب ؟
وماذا في صحائفكم سوى التمويه والكذب ؟
حصائدُ ألسُنٍ جرّت إلى الويلات والحَرَب
فهُبُّوا من مراقدكم فإن الوقت من ذهب
فهذي أمةُ اليابـان جازت دارَةَ الشهُب
فهامت بالعلا شغفاً وهِمْنا بابنة العِنَب

ويقول محرم مصوراً انشغال كل رجل بنفسه وبتحقيق مصلحته، وتوفير أسباب الثروة والجاه، لا يبالي شيئاً غير ذلك: (١)

أكلُّ أمرىء في مصر يسعى لنفسه ويطلب أسبابَ الحياة لذاتة ؟
طَروبُ الأمانّي ما يبالي بشعبه وإن ملأ الدنيا ضجيجُ نُعاته
يرى نفسَه فوق الملائك عفـةً وقد ضجّت الجِنّانُ من فتكاته
إذا نال ما يرجوه لم يَعنْه امرؤٌ سواه ولم يحفل بطول شَكاته
يظل كأن الحق يتبع خَطْوهُ إذا سار يبغي الغُنْم فوق رُفاته
سواءٌ عليه مَنْزِلُ السخط والرضى إذا نال ما يُرضيه من شهواته
يرى الدين والدنيا ثراءً يصيبه وقصراً تَزِلُّ العَيْنُ عن شُرُفاته
يفوق الصلابَ الصمَّ إن سِيمَ نائلا (٢) ويَعْتَدُّ لجَّ البحر من حسناته
ويجهل ما يدري الصبيُّ، ويدّعي من العلم ما ينسيك ذِكْرَ ثقاته
ويأتيك بالأخبـار يزعم أنهـا بقيةُ وحيٍ وهي من نزَغاته
ويحلف ما داجَى ولا خان صاحباً وقد عبّ سيلُ الغدر في لحظاته
لعمري لقد مارست دهري وأهلَه فأرْبَتْ مساويهم على نكباته

* * * *

١ – الديوان : ٢ : ٧٦ – ٧٧
٢ – الصلاب الصم : هي حوافر الخيل . يقول إنه يسبق الخيل جرياً هارباً من محتاج يستجديه .

رأى بعض رجال السياسة أن الاحتلال هو أصل البلاء ، وأن مصر لن تصبحَ لها نهضة إلا بإجلاء العدو الجاثم على أرضها ، المتحكم في أرزاق أهلها وفي مصائرهم ، والذي يعترض كل حركة حقيقية تهدف إلى النهضة . ورأوا أن الجهود يجب أن تنصرف إلى محاربته ، فإذا حققت هدفها من الجهاد بإجلائه فكلُّ شيء بعد ذلك سهل يسير. ورأى آخرون أن يبدءوا بإصلاح المجتمع المصري وأفراده ، لأن ما انتاب مصر من تفكك وانحلال ، وما فتك بأهلها من أدواء ، لم يجيء – في رأيهم – نتيجةً للاحتلال، بل إن الاحتلال هو الذي كان من نتائجه وآثاره . فالاحتلال عندهم ليس هو علة هذا التأخر وإن كان من المسلَّم به أنه يضع العراقيل في سبيل التقدم . ورأوا بعد ذلك أن جَمْعَ الناس على كره المحتلين لا سبيل إليه. فالعدو قوي متحكم موفور العُدَّة. والناس في يأسهم واستسلامهم لا يعنيهم إلا ما يمس أشخاصهم، لأنهم يدركون أن ما يصيب مصر من خير أو شر لا يصل إليهم منه إلا الضرر ، وإنما خيره كله لمن كانوا يسمُّون أنفسهم أصحاب المصالح الحقيقية. ومن ليس له في مصر مصلحة كيف يمكن أن يحس مصريته ويدافع عنها ويقتل نفسه في سبيلها ؟

ولقي الذين يسعون إلى الإصلاح تشجيعاً من كرومر ، لأن هذا الإصلاح يحقق له هدفين . فهو يشغل الرأي العام بما يُطْرَح على بساط البحث من مسائل وما يثار من مشاكل ، فينصرف عن الانسياق في تيار الكراهية للاحتلال الإنكليزي التي كان يذكي نارَها الحزبُ الوطني الثائر . ثم إن الإصلاح يدعم في الوقت نفسه حجة الاستعمار في أنه دائب على العمل لترقية مصر وإصلاحها ،ويقدم لكرومر مادةً جديدة لفخر جديد يضيفه إلى تقريراته السنوية التي كان يتشدق فيها بما تم في عهده من إصلاح . وهو قادر دائماً على أن يضع حداً لما يراه خطيراً وضاراً بمصلحة دولته مما لا يروقه من وجوه الإصلاح ،لا تُعْوِزُه الوسائلُ في صرف الناس عنه بالحيلة أو العنف . لذلك أُطلِقَتْ حرية الصحافة في الكلام عن عيوب المجتمع وآفاته ووسائل

علاجه . وطُرِح على بساط البحث كثيرٌ من المسائل ، واحتد النقاش حول بعضها . وبرز بين المُصْلِحين طائفتان متميزتان تغاير إحداهما الأخرى ، طائفة تدعو إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، وطائفة أخرى تدعو إلى الاحتفاظ بتقاليدنا الإسلامية والشرقية .

ظهرت آثار هذين التيارين في السياسة ، فكان أنصار الجامعة القومية يمثلون الفريق الأول ، وكان أنصار الجامعة الإسلامية يمثلون الفريق الثاني . وظهرت في الأدب وفي الفن ، فكان هنالك فريق يتخذ مُثُلَه الفنية من الأوربيين ، وكان هناك فريق آخر يستمد قيمه من قديم العرب ومن تقاليد الشرق . وظهرت في التعليم ، فكانت هناك مدارس عصرية تأخذ بأساليب الدراسة الأوربية ، ومدارس أوربية للجاليات الأجنبية ، أقبل عليها أبناء الأغنياء من المصريين ، وكان إلى جانبها معاهد دينية تقتصر على العلوم الشرعية والإسلامية وما يتصل بها . وظهرت في المجتمعات وفي سائر شؤون الحياة ، فكان هناك مجدِّدون — أو مقلِّدون للغرب إن شئت — يُبَغِّضون إلى الناس قديمَهم وتراثَهم ويَصْرِفونهم عنه داعين إلى مسايرة العصر والأخذ بكل مستحدَث طريف ، وكان هناك المحافظون في الأزياء وفي آداب الاجتماع وفي أساليب العَيْش وأنماط الحياة .

وقد نشأ عن هذين التيارين المتباينيْن تناقضٌ في الحياة المصرية ، التي جمعتْ بين المحافظة المتزمِّتة ، وبين التطرُّف في الأخذ بأسباب المدنية الغربية ، وبين التوسط الذي يأخذ من كلٍ من الاتجاهين بنصيب . وبدا هذا التناقض في قصر الخديوي عباس ، وسرى منه إلى بيوت الأغنياء والمترفين . فكان عباس يحتفل في قصره بشهر رمضان احتفالا عظيماً . فيدعو إلى مائدته مختلف الطوائف ، ويحضر مع حاشيته دروسَ التفسير منذ السنة الأولى لحكمه . [1] ولكنه كان يقيم مع ذلك حفلا راقصاً في عابدين كل عام منذ

---

١ — مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢٨

سنة ١٨٩٥ ، يمتد فيه السهر إلى الصبح ، وكان يسمَّى (ليلة البَلّلو)[١] . وقد حج عباس مع والدته إلى بيت الله الحرام سنة ١٩٠٩ [٢] . ولكنه كان يسافر مع ذلك في رحلة طويلة إلى أوربا كل عام . وقد وضح أثر هذا التناقُض في شعر شوقي ، شاعر القصر . فتجاور في ديوانه وصف المَرْقَص والخمر ، مع مدائح الرسول عليه الصلاة والسلام وتمجيد الإسلام [٣] .

* * * *

كان قوامَ الدعوة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية عددٌ من أصحاب الثقافة الأوربية الذين كان يسميهم خصومهم وقتذاك بالمتفرنجين ، بعضهم من الشآميين المسيحيين الذين استقروا في مصر ، وبعضهم من المصريين الذين تلقوا دراستهم في أوربا أو في المدارس الأوربية ومدارس الإرساليات الدينية التي كان عددها في ازدياد مُطَّرِد [٤] .

أما الشآميون فقد كانوا موزعين بين النفوذ الفرنسي والنفوذ الإنكليزي . وكانت صحيفة « الأهرام » تمثل الاتجاه الأول ، بينما كان « المقطم » و « المقتطف » يمثلان الاتجاه الثاني . وكانت هذه الصحف — والصحيفة الأخيرة منها بنوع خاص — دائبة على تعريف المذاهب الغربية في الفلسفة والأدب وسائر ضروب الثقافة ، لا تكاد تشير إلى شيء من قديم الشرق وتراثه الفكري . وكانت تترجم لعظماء الرجال من الغربيين ، ولا تكاد تجد فيها ترجمة لرجل من أبطال الإسلام أو الشرق أو مصر في تاريخها

---

١ — المرجع السابق ٢ : ٢١٣ .

٢ — المرجع السابق ٢ ب : ١٨٩ ، ١٩٠

٣ — راجع أمثلة لوصف حفلة البللو في ديوان شوقي ج ٢ ص ٨ — ١٢ « أثر البال في البال » ، ١٣ — ١٧ « مرقص » . وراجع كذلك « شوقي : شعره الإسلامي » للدكتور ماهر فهمي — الفصل الثاني .

٤ — يراجع في مدارس الإرساليات الدينية والجاليات الأجنبية الفصل الثاني من الكتاب الخامس في (تاريخ التعليم في مصر) للدكتور احمد عزت عبد الكريم ٢ : ٨٢١ — ٨٧٥ .

الحافل الطويل . كما كانت تعمل من طريق خفي على إضعاف النعرة الدينية والوطنية بما تنشر من آراء تشكك في العقيدة ، وبما تدعو إليه من نزعات عالمية لا يراد بها – في حقيقة الأمر – إلا تقريب الفوارق بين المصريين وبين أعدائهم الذين يمتصون دماءهم والذين يحتلون ديارهم ، لكي يسكنوا إليهم ويألفوهم . فمن أمثال ذلك مقال نشرته « المقتطف » تحت عنوان « الناس إخوة » ، جاء فيه :[1]

« وامتزاج الأمم من أقوى الوسائل الطبيعية لترقيتها وإضعاف خلق الأثرة والتباغض وتقوية خلق الإيثار والتواد . فعلى الذين يهتمون بإصلاح نسل الإنسان وترقيته جسداً وعقلا أن يسعوا في إقناع أبناء نوعهم أنهم وسائر الناس من طينة واحدة ، ولا يمتاز بعضهم على بعض إلا بالفضائل المكتسبة. وإن كانت الأديان قد فرقت بينهم فيما مضى فعلى زعمائها أن يزيلوا أسباب التفريق الآن . وإن كان رجال السياسة يسعون إلى إحكام أسباب العداء بين أمة وأمة وشعب وشعب ، فعلى علماء الاجتماع أن يحبطوا مساعيهم ويسفهوا آراءهم . وعلى رسل الخير دعاة الأديان أن يجعلوا غرضهم الأول التعليم بأن الله صنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض . »

«ولا يخفى أن الكلام لا يفيد عشر ما يفيد العمل، وأنه إذا كان عمل المعلم مخالفاً لتعليمه ذهب تعليمه أدراج الرياح . فالمبشر الذي يُعلِّم أن الناس من دم واحد ويقاطع أخته أو ابنته إذا تزوجت رجلا أجنبياً لمجرد كونه من غير أمته ، ينقض بعمله كل ما يقوله بلسانه ، ويثبت للملأ أنه جاهل لا يفهم معنى ما يعلِّم به، أو منافق يظهر الإيمان ويبطن الكفر . »

«ولا مثل الزواج بين الأمم لتمكين عرى الاتحاد، فضلا عن تقوية

---

١ – المقتطف عدد سبتمبر سنة ١٩٠٩ ص ٨٢٧ – ٨٢٩ . ومن المعروف أن فارس باشا نمر كان ماسونياً. ومن مبادىء الماسونية الأساسية إلغاء العصبيات الدينية والوطنية، حتى لا يبقى في العالم إلا العصبية اليهودية ديناً وقومية . (راجع فضائل الماسونية لشاهين بك مكاريوس ص ٥٥ – ومؤلفه من كبار الماسون . وهو زوج أخت فارس نمر باشا) .

النسل ... فإباحة التزاوج بين الأمم المختلفة والترغيب فيه خير واسطة تربط الشعوب. وإذا سلمت من التباغض الديني والمذهبي وكان العفاف عنوانها ربطت أمم العالم أجمع، وأصلحت ما عجزت عن إصلاحه الشرائع والسنن. ولكن اختلاف الأديان – وجعل هذا الاختلاف مصلحة من مصالح المنتفعين به – يبقى فاصلا بين الأمم وسداً منيعاً يمنع اتصالها.»

والواقع أن مثل هذه الدعوات التي تنادي بالإخاء البشري تمس قلوب كثير من الناس لأنها تناجي أقدس ما في الإنسان وأطهر ما تنطوي عليه فطرته. ولكنها تؤثر أكثر ما تؤثر في الأمم الضعيفة، وفي نفوس الشباب البريء منها بنوع خاص، لأن الضعيف وحده هو الذي يحلم بالعطف والرحمة. أما القوي فهو لا يتحدث إلا عن الفتح والغلبة. وهو يروج هذه الدعوات بين الضعفاء وهو أولى الناس بأن تَسْتَيْقِنَها نفسُه. وليس بين دعوات المبطلين شيء يشبه الحق ويلتبس به في الأفهام كهذه الدعوة إذا انتشرت بين الضعفاء الواقعين تحت عدوان الطامعين وأذى المعتدين. فقد سبقت إرادةُ الله (سبحانه) وهو الفعّال لما يريد، واقتضت حكمته وهو العليم الخبير، أن يكون التنافس بين الأفراد والجماعات هو سبيل التقدم. ولذلك خلق الناس شعوباً وقبائل وجعلهم شيعاً وأحزاباً. ولو شاء لجعلهم أمة واحدة. ولو شاء لجمعهم على الهدى. ولكنْ لِيَبْلُوَ بعضَهم ببعض، وليجد الضعيفُ نفسه مدفوعاً إلى استكمال قوته وحشد كل ما أوتي من مواهب وملكات حتى يتخلص من ظلم القوي، وليتطهر المكافحون خلال كفاحهم من الضعف ومن تحكم الشهوات، فتسمو نفوسهم، ويَبْرُزُ فيهم أشرفُ ما تنطوي عليه البشرية من عناصر الخير والكمال. ولا يزال الناس في كفاح وجهاد، وفي تنافس يستهدف التفوق وبلوغ الكمال، حتى يَفْنَى من وجه الأرض كلُّ ضعيف وينمحي كل مترف فاسق وكل ضعيف متهافت من الأفراد والجماعات والمذاهب، وحتى لا يكون على ظهرها إلا كل قوي صالح من المذاهب والأمم والأفراد. (كذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحقَّ

والباطلَ ، فأما الزَبَدُ فيذْهَبُ جُفَاءً ، وأمّا ما يَنْفَعُ الناسَ فيمكُثُ في الأرض .)

ذلك هو ما دعانا إلى أن نقول في مقال المقتطف السابق إنه لا يستهدف إلا ترويض المصريين ، وتمكين الفارس الإنكليزي من مطيته الجامحة بعد أن تسكن وتُسلِس القياد .

أما المصريون من الداعين إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية، فقد كانوا من الذين فتنتهم الحضارة الغربيةالمزدهرة، حين عاشوا في البلاد الأوربية ، أو نشأوا فيمدارسها المنبثة في أنحاء الشرق، واستمدوا مُثلهم العليا في حياتهم من ثقافتهم التي لا تمت إلى الحضارة الإسلامية أو العربية بسبب قريب أو بعيد . فهم يعرفون عن تاريخ إنكلترا وفرنسا أضعاف ما يعرفون عن تاريخ المسلمين أو العرب،وهم يعرفون عن تاريخ الكنيسة الأوربية وما بين مذاهبها من خلاف أكثر مما يعرفون عن تاريخ الفقه الإسلامي،وهم يعرفون أعلام الفكر الأوربي وشعراءه ولا يعرفون عن أعلام الحضارة الإسلامية والعربيّة إلا قليلا . وهم بعد ذلك يعيشون في بيوتهم حياة تحاول أن تقلد في مظهرها الحياة الغربية ، وربما وكلوا إلىبعض المربيات الأجنبيات تنشئةَ أبنائهم والقيامَ على تربيتهم . وبذلك توثقت الصلات الثقافية والفنية والروحية بينهم وبين الغرب ، بينما فترت الصلات الروحية والثقافيةبينهم وبين الشرق والإسلام ، وأصبح أسلوبُ الحياة الشرقية وتقاليدُها لا يقترن في أوهامهم إلا بحاضر الشرق البغيض ، وبتلك الأخلاط من حثالة الناس الذين يفترسهم الجهل والفوضى والانحلال . وقد تشبعت عقولهم بما كان يذيعه رجال السياسة وكثير من كتّاب الغرب الذين كانوا يردّون تخلف الشرقيين إلى تمسكهم بالإسلام ، ويقولون إنه دين ساذج ، إن صلح لتنظيم حياة نفر من البدو البدائيين ، فهو لا يصلح لتنظيم المجتمع الجديد في القرن العشرين .

يقول كرومر إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين ، ولكنه فاشل كنظام

اجتماعي . فقد وُضعت قوانينُه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، ولكنه مع ذلك أبديٌّ لايسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنساني. ويعدد كرومر ما يراه من معايب الإسلام فيقول إنه يحرم المرأة من كل حقوقها ويعتبرها أحط من الرجل ، وأنه يبيح الرق ، وأنه دين متعصب متطرف يبيح لأتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم في العقيدة أسرى حرب ورقيقاً ، ويكفِّر كل من لا يعتقد برسالة محمد [1] ، ويجعل من أتباعه جماعة من أنصاف الهمج المحبين للحروب الذين لا تتسع صدورهم لأي تسامح ، فهم لا يفهمون أن الخلاف في الرأي ليس موجباً للكراهية والحقد. ثم يأخذ كرومر في مقارنة بين المسيحية والإسلام ، يحاول أن يبين فيها صلاحية المسيحية للعصر وتفوقها . ويوازن بين أسلوب الشرقي وأسلوب الغربي في الحياة والتفكير ، محاولا تحقير أسلوب الأول وتسفيهه . فالشرقيون أسرع الناس إلى تصديق الشائعات . وهم يتملقون من فوقهم بنفس القَدْر الذي ينتظرون فيه الملق ممن هم دونهم . وهم لا يكترثون للمستقبل، ولا يتبصرون في العواقب، ولا يدبِّرون شيئاً لمن يتركونهم من خلفهم . وهم يدسّون في الخفاء ولا يعملون في الضوء، نتيجة للعصور المتوالية التي عانوا فيها من الاضطهاد . وهم يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويدفعهم إيمانهم هذا إلى الرضوخ المطلق لكل ذي سلطان . [2]

هذا نموذج مما كان يكتبه ساسة الغرب ومفكروه عن الإسلام والمسلمين، تستطيع أن تلتمس له نظائر في مثل مقال هانوتو الذي رد عليه محمد عبده في مقالاته المشهورة سنة ١٩٠٠ .[3] وقد انتهى بهؤلاء الغربيين تفكيرُهم إلى

---

١ – عليه صلاة الله وسلامه .

٢ – Modern Egypt ٢ : ١٣٤ – ١٥٤ . وقد فند روتشتين بعض هذه المزاعم في كتابه : Egypt's Ruin ص ٣١١ – ٣١٢ من الترجمة العربية .

٣ – راجع ترجمة مقال هانوتو في تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٤٠١ – ٤١٤ . وراجع رد محمد عبده ٢ : ٤١٥ – ٤٦٨

أن الإسلام والتقاليد الإسلامية وأسلوب الشرقي في حياته وتفكيره — وهو يختلف اختلافاً بيِّناً عن أسلوب الغربي — كل ذلك يحول دون إيجاد علاقة مستقرة بين الشرق والغرب ، ويجعل مركز الغربي المستعمر في الشرق دقيقاً محفوفاً بالخطر ، ويحوجه إلى أن يقف على حمايته بقوة دائمة يقظة . لذلك كان كرومر يحاول ابتداع روابط صناعية مُفْتَعَلة لكي تسد النقص الناتج عن اختلاف العقيدة والجنس واللغة والعادات والتفكير ، وهي الروابط الأساسية للاتحاد والتعاون بين الحاكم والمحكوم كما يقول . ومن بين ما اقترحه في هذا الصدد أن يكون هناك نظام مدبَّر لعرض وجهات النظر التي تبدي عطفاً معقولاً على المصريين ، عن طريق أفراد من المشتغلين بالسياسة الشرقية ، لا عن طريق الحكومة . وكان يؤمل من وراء ذلك أن تجد أجيالُ المصريين المقبلة من الحكمة وسعة الأفق — حسب تعبيره — ما يحفزها للعمل بصبر وإخلاص مع الأوربيين الذين يعطفون عليهم ، حتى يستطيعوا متعاونين وضع مُثُل عليا جديدة تحل محل المثَل الأعلى للمسلم المتدين الذي لم يعد صالحاً لهذا الزمان حسب زعمه (١) .

كل ذلك يعلل لنا ما كان يجد هذا النفر من المفكرين الذين يحتذون أساليب الحياة الغربية من تشجيع ممثل الاحتلال في مصر ورضاه . وقد قرر كرومر في كتابه عن عباس الثاني أن المسلم غير المتخلق بأخلاق أوربية لا يصلح لحكم مصر ، كما أكد أن المستقبل الوزاري سيكون للمصريين المُتَرَبِّين تربية أوربية (٢) . وهو — مع ذلك — يعترف بأن المتفرنجين من المصريين — وكثرتهم في رأيه من المسلمين — لم يتشربوا روح الحضارة الأوربية ولم يدركوا إلا قشورها . وهم بذلك قد فقدوا أحسن ما في الإسلام

---

١ — Modern Egypt ٢ : ٥٦٩ — ٥٧٠

٢ — عباس الثاني ص ٦٧ وراجع كذلك ما جاء في تقريره السنوي عن سنة ١٩٠٦ بمناسبة تعيين سعد زغلول وزيراً للمعارف حيث أكد هذا المعنى « ص ٨ من الفقرة ٣ » تحت عنوان : Egyptian Nationalism .

وأحسن ما في المدنية الأوربية كما يقول. فهناك فرق - في رأيه - بين المتحررين في أوروبا وبين من تطلق عليهم هذه التسمية في مصر. فأحرار التفكير الأوربيون (اللبْرالِيُّون) ينسجمون مع مَن حولهم من المسيحيين ولا يعادونهم. بل هم لا يختلفون عنهم في أسلوب حياتهم وتفكيرهم العملي. أما الذين يسمون أنفسهم أحرار التفكير في مصر، فهم يختلفون مع بني جِلْدتهم من المتدينين ويحتقرونهم، ولا يدركون المدنية الغربية إلا إدراكاً سطحياً. فهم لا يعرفون عنها إلا أنها تؤمن بالمادة وحدها. يقرر كرومر ذلك، ولكنه يقول مع هذا إن المتفرنجين من المصريين، إذا قيسوا إلى مواطنيهم، كانوا أصلح الناس للتعاون مع الإدارة الإنكليزية [١].

ذلك شأن السابقين الأولين من المصريين الذين دعوا إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية. ولكن هؤلاء الدعاة قد استطاعوا على مر الأيام أن يكسبوا أنصاراً من الشباب والمفكرين الذين كانوا يطمحون إلى القوة، ويتوقون إلى النهضة بوطنهم، ويرون أن من الخير أن نستفيد بتجربة الغرب ونسلك الطريق الذي سلكه في سيره من الهمجية إلى المدنية، ومن وهدة الضعف إلى قمة المجد، ولا يرون في ذلك بأساً على الإسلام والمسلمين.

نظر بعض هؤلاء المفكرين إلى الشرق في تأخره من بعد عزَّة وغلبة، وإلى الغرب في تفوقه من بعد ذل وقلة، فخيل إليهم أن السبيل إلى نهضة الشرقيين هو أن يأخذوا بأساليب الغربيين في الحياة والتفكير، وأن يقتدوا بهم أو ينافسوهم كما يقول حافظ إبراهيم في قصيدته التي ألقاها في حفل كلية البنات الأمريكية بمصر سنة ١٩٠٦ : [٢].

---

١ - Modern Egypt ٢ : ٢٢٨ - ٢٣٢ . والمقصود بأحرار الفكر أو المتحررين هم معتنقو مذهب الـ Liberalism الذي لا يتقيد أصحابه بالعقائد والآراء السائدة، دينية كانت أو غير دينية. وهو مذهب يرتبط أصحابه في الغرب بقيم العدالة والإنسانية بمفهومها الجاهلي عند الرومان واليونان الوثنيين، أكثر من ارتباطهم بالقيم المسيحية.

٢ - ديوان حافظ ١ : ٢٥٩ .

أيْ رجالَ الدنيا الجديدةمُدُّوا لرجال الدنيا القديمة باعا
وأفيضوا عليهمُ من أياديـ كمْ علومـاً وحكمةً واختراعا
... ليتنا نقتدي بكم أو نجاريـ كمْ عسى نستردُّ ما كان ضاعا
إن فينا ــ لولا التخاذلُ ــ أبطا لا إذا ما هم استقلُّوا اليراعا
وعقولا لولا الخمـولُ تولاّ ها لفاضت غرابةً وابتداعا
ودعاةً للخير لـو أنصفوهم ملأوا الشرقَ عزّةً وامتنـاعا
... قد مَلِلْنا وقوفَنا فيه نبكي حَسَباً زائـلا ومجداً مضـاعا
وسئمنا مقالهَم كان زيدٌ عبقرياً وكان عمرٌو شجاعا
ليتشعْريمتى تُنَازِع مصرٌ غيرَها المَجْدَ في الحياة نِزاعا
ونراها تفـاخر الناس بالأحـ ياء فخراً في الخافِقَيْنِ مُذاعا

ونادى هؤلاء المفكرون بأن استبداد الحاكمين بالمحكومين هو السبب الأول في انكماش الناس وانطوائهم على أنفسهم جيلا بعد جيل ، حتّى انتهى بهم الأمر إلى ما هم فيه من تخاذل وتواكل وفتور ، وبأن هذا الاستبداد قد أفسد الدين وقتل كل فضيلة . قتل العلم ، وقتل الطموح ، وقتل الأخلاق ، وأفقد الفرد ثقته بنفسه فأصبح آلة صماء لا يتحرك إلا أن يحركه محرّك . وقالوا إن صلاح الأمة بصلاح الفرد ، وأن الفرد لا يصلح حتّى يتخلص من أسر العبودية والاستعباد ، وتُكفل له الحرية في أن يقول ما يشاء وفي أن يفعل ما يشاء . وذهبوا إلى أن أوروبا لم تحقق نهضتها إلا بتقييد قُوَى الحاكمين ، وأنها قد وضعت لذلك نظاماً يحقق سيطرة الشعب وولايته على شؤونه عن طريق الدساتير الحديثة والمجالس النيابية . فنشط الأفراد للعمل حين عرف كلٌّ منهم قدر نفسه، وحين تحققوا أن ثمرة جهودهم لا تعود إلا عليهم ، ولا يتصرف فيها الحاكم إلا برأيهم ، ولا ينفقها إلا فيما يرون أنه عائد عليهم بالنفع والخير . عند ذلك قال هؤلاء المصلحون . لماذا لا يكون للمصري أو المسلم أو الشرقي مثل هذه الحرية ؟ ولماذا لا ينعم بمثل هذا النظام ؟ ولماذا

لا يدخل النهضة من الباب الذي دخلت منه أوروبا ؟

إلى جانب ذلك كله كانت الحياة الأوربية بخيرها وشرها تغزو مصر دائبة لا تني ولا تفتر. فتأسست شركة التليفونات الإنجليزية سنة ١٨٨٤ ؛ (١) وافتتحت السينما الأولى بالقاهرة سنة ١٨٩٦ . وافتتح أول خط للترام سنة ١٨٩٧ . ثم أنشيء البنك الأهلي ومنح امتياز إصدار الأوراق المالية سنة ١٨٩٨ . (٢) وافتتحت الخمارات في كل مكان ، حتى تغلغلت إلى الريف وإلى أحياء العمال . (٣) وافتتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة في كل العواصم . وتجرأ الناس على ارتكاب الموبقات والجهر بها باسم الحرية الشخصية التي لم يفهموا منها إلا أن يحل الناس أنفسهم من كل قيد ، لا يبالون ديناً ولا عرفاً ولا مصلحة .

وتجلى أثر الحضارة الغربية والتفكير الأوربي في دعوات كثيرة ، برزت من بينها ثلاث دعوات كبيرة شغلت الرأي العام في مستهل هذا القرن. أما الدعوة الأولى فقد كانت تطالب بكفالة الحرية الشخصية ، وبالحياة النيابية كما عرفتها الأمم الغربية الحديثة . وأما الدعوة الثانية فقد كانت تطالب بتحرير المفكرين من سلطة رجال الدين ، وذلك بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية ، على النمط الذي قامت عليه النهضة الأوربية الحديثة بعد التخلص من نفوذ الكنيسة . وتطلب من رجال الدين أن لا يقحموا الدين في شؤون الحياة ، لأنهم يرون أن الدين لا ينبغي أن تتجاوز دائرة نفوذه تنظيم صلات المخلوق بالخالق، ولأن تنظيم صلات الناس بعضهم ببعض ينبغي أن يترك للساسة وللمتخصصين في شتى فروع المعرفة . وأما الدعوة الثالثة فقد كانت تنادي بتحرير المرأة — حسب تعبيرهم — وتزعم أن الحجاب قد حال بينها

---

١ — مذكراتي في نصف قرن ١ : ٢٦٣

٢ — المرجع نفسه ٢ : ٢٣٢ ، ٢٤٦ ، ٢٦٢

٣ — مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ص ١٨٩ .

وبين أن تكون عضواً نافعاً في الحياة ذا أثر في المجتمع ، على النحو الذي بلغته المرأة الأوربية .

* * * *

شملت الدعوة إلى الحرية العصر كله ، وكانت الأمنية التي يحلم بها الكتاب والشعراء ، لم يكد يخرج منهم أحد على هذا الإجماع . كانوا يطالبون بحرية الفرد في أن يفعل ما يشاء ، وفي أن يعبر عن رأيه وينشره كيفما أراد ، وفي أن يدعو إلى الاجتماعات والندوات التي يروِّج فيها لمذهبه دون قيد .

وكان دعاة الحرية في كل مكان متأثرين بالثورة الفرنسية على وجه الخصوص ، وبآراء مفكريها وزعمائها . فالحرية ـ كما هو معروف مشهور ـ هي أحد أركان الشعار المثلث الذي اتخذته هذه الثورة ، وهو (الحرية ـ الأخاء ـ المساواة) [1] .

وتزعَّم المطالبةَ بالحياة النيابية مصطفى كامل ومن انضوى تحت لوائه من الكتاب والشعراء ، ولم يزالوا ينفخون فيها من روحهم حتى تقدمت الجمعية العمومية في مارس سنة ١٩٠٧ بمطالب غاية في الجرأة ، كان من أهمها طلب دستور وبرلمان [2] . ثم نُقِل كرومر من مصر على أثر حادث دنشواي سنة ١٩٠٧ . وقامت من بعد ذلك الثورة التركية ، وصدر الدستور العثماني في يوليو سنة ١٩٠٨ ، فكان لذلك أثر عظيم في تشجيع المطالبين بالحياة النيابية على المضي في جهادهم . فقرر مجلس شورى القوانين في جلسته التي انعقدت في أول ديسمبر سنة ١٩٠٨ أن يضم صوته إلى صوت الجمعية

---

١ ـ وهذا الشعار هو شعار ماسوني في الوقت نفسه . بل هو قد انتقل إلى الثورة الفرنسية عن طريق زعمائها من اليهود والماسون . والكلام في ذلك يطول ويحتاج إلى تفصيل ليس هذا موضعه ، راجع كتاب « فضائل الماسونية » ص ٤ ، ٤٩ ، ٨٩ ، ١٣٣

٢ ـ روتشتين ٣٤٥ ، محمد فريد ٥٦ .

العمومية في المطالبة بالحكم النيابي، رغم معارضة الخديوي وممثل الاحتلال [1].

وقد قدمت في الفصل الرابع بعض نماذج من الشعر والنثر في هذا الصدد، ولكني أحب أن أشير هنا إلى كتاب ظهر سنة ١٩٠١ وكان قد نُشِر من قبل مفرّقاً في أعداد سنة ١٨٩٩ من صحيفة المؤيَّد. كان هذا الكتاب من أجرأ ما كتب في الدعوة إلى الحرية وإلى الحياة النيابية، وفي محاربة الاستبداد وبيان أثره السيء في شتّى نواحي المجتمع، علمية وخلقية ودينية واقتصادية وعمرانية. ذلك هو كتاب «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» للكواكبي [2].

يقول الكواكبي في أثر الاستبداد في إفساد الأخلاق، مبيناً أن الإنسان يمتاز بالإرادة، والاستبداد يفقده الإرادة. [3]

« لا تكون الأخلاق أخلاقاً ما لم تكن مُطَّرِدةً على قانون، وهذا ما يسمى عند الناس بالناموس. ومن أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب ناموس وهو كالحيوان المملوك العنان، يقاد حيث يراد ويعيش كالريش يهب حيث يهب الريح، لا نظام ولا إرادة. وما هي الإرادة؟ هي أمُّ ناموس الأخلاق. هي ما قيل فيها تعظيماً لشأنها: « لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة ». هي تلك الصفة التي تَفْصِل الحيوان عن النبات في تعريفه بأنه متحرك بالإرادة. فأسير الاستبداد الفاقد الإرادة هو مسلوب حق الحيوانية فضلا عن الإنسانية، يعمل بأمر غيره لا بإرادته. ولهذا قال الفقهاء: لا نِيَّةَ للرقيق في كثير من أحواله، إنما هو تابع لنية مولاه. »

---

١ – روتشتين ٣٤٩، محمد فريد ٥٦ – ٦٢.

٢ – ولد عبد الرحمن الكواكبي مؤلف هذا الكتاب في حلب سنة ١٨٤٨ م ورحل إلى مصر حين ضاقت به الحياة في ظل الحكم العثماني بعد أن طوف في كثير من البلاد الإسلامية. وقد نشر في مصر كتابيه «أم القرى» و «طبائع الاستبداد» في سنتي ١٨٩٩، ١٩٠١. وتوفي في سنة ١٩٠٢. وترجمته الكاملة في «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» ص ٢٤٩ – ٢٨٠ و «الحركة الأدبية في حلب ص ٨٩ – ١١٢

٣ – طبائع الاستبداد ص ٩٣.

ويبين الكواكبي الحكمة في احتمال ما في الحرية من مضار لما فيها من مزايا كثيرة . وذلك لأن النهي عن المنكر من أهم الأركان التي يقوم عليها المجتمع السليم . وفي ذلك يقول الكواكبي : [١]

« أقوى ضابط للأخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ . وهو في عهد الاستبداد غير مقدور عليه لغير ذوي المَنْعة مع الغيرة ، وقليل ما هم ، وقليلا ما يفعلون ، وقليلا ما يفيد نهيهم ، لأنه لا يمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضراً ولا نفعاً . بل ولا يملكون من أنفسهم شيئاً. وينحصر موضوع نهيهم وانتقادهم في الرذائل النفسية الشخصية فقط مما لا يخفى على أحد . أما المتصدّرون في عهد الاستبداد للوعظ والإرشاد فيكونون مطلقاً — ولا أقول غالباً — من المتملقين المرائين . وما أبعد هؤلاء عن التأثير ، لأن النصح الذي لا إخلاص فيه هو بذرٌ ميت . أما النهي عن المنكرات في الإرادة الحرة فيمكن كلُ غيور أن يقوم به بأمان وإخلاص ، ويوجهه إلى الضعفاء والأقوياء على سواء، ويفوّق سهام قوارصه على ذوي الشوكة والزعماء ، ويخوض في مواضيع تخفيف الظلم وتسديد النظام ، وهذا هو النصح الذي يُجْدي ويجدي . ولما كان ضبط أخلاق الطبقات العليا من الناس من أهم الأمور ، أطلقت الأمم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط . ورأت أن تحمُّلَ مضرة الفوضى في ذلك خيرٌ من التحديد ، لأنه لا ضامن للحكام أن يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد يخنقون بها عدوّهم الطبيعية ، أي الحرية . »

ويقول في إفساد الاستبداد للدين : [٢]

« والاستبداد ريح صَرْصَرٌ فيه إعصار يجعل الإنسان كلّ ساعة في شأن. وهو مفسد للدين في أهم قسميه ، أي الأخلاق . وأما العبادات منه فلا يمسها

١ — طبائع الاستبداد ٩٥ — ٩٦

١ — طبائع الاستبداد ١١٢

لأنها تلائمه في الأكثر . ولهذا تبقى الأديان في الأمم المأسورة عبارة عن عبارات مجردة صارت عادات ، فلا تفيد في تطهير النفوس شيئاً ، فلا تنهى عن فحشاء ولا منكر ، وذلك لفقد الإخلاص فيها تبعاً لفقدها في النفوس التي أَلِفَتْ أن تتلجأ وتتلوّى بين يدي سطوة الاستبداد في زوايا الكذب والرياء والخداع والنفاق . ولهذا لا يستغرب في الأسير الأليف تلك الحالَ أن يستعملها أيضاً مع ربه ومع أبيه وأمه ومع قومه وجنسه ، حتى مع نفسه . »

ويقول في إفساد الاستبداد للتربية : [١]

« الاستبداد يضطر الناس إلى استباحة الكذب والتَّحَيُّل والخداع والنفاق والتذلل ومراغمة الحس وإماتة النفس ، إلى آخره . وينتج من ذلك أنه يربي الناس على هذه الخصال. بناءً عليه يرى الآباء أن تعبهم في تربية الأبناء التربية الأولى لا بد أن يذهب يوماً عبثاً تحت أرجل تربية الاستبداد كما ذهبت تربية آبائهم لهم سُدى. ثم إن عبيد السلطة التي لا حدود لها هم غير مالكين أنفسهم ولا هم آمنون على أنهم يربون أولادهم لهم ، بل هم يربون أنعاماً للمستبدين وأعواناً لهم عليهم . وفي الحقيقة أن الأولاد في عهد الاستبداد سلاسل من حديد يرتبط بها الآباء على أوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق. فالتوالد من حيث هو زَمَنَ الاستبداد حمقٌ ، والاعتناء بالتربية حمقٌ مضاعَف ... وغالبُ الأسَراء لا يدفعهم للتوالد قصدُ الإخصاب ، إنما يدفعهم إليه الجهل المظلم ، وأنهم محرومون من كل الملذات الحقيقية التي يُحْرَمها أيضاً الأغنياء الجهلاء عامة ، كلذة العلم وتعليمه ، ولذة المجد والحماية ، ولذة الإثراء والبذل ، ولذة إحراز مقام في القلوب ، ولذة نفوذ الرأي الصائب ، إلى غير هذه الملذات الروحية . وأما ملذاتهم فهي مقصورة على جعل بطونهم مقابرَ للحيوانات إن تيسَّرت ،وإلا فمزَابِلَ للنباتات،

---

١ – طبائع الاستبداد ١١٩ – ١٢٠

ومنحصرةٌ في استفراغهم الشهوة . كأن أجسامهم خُلقت دمّلا على أديم الأرض وظيفتها توليدُ الصديد ودَفْعُه. وهذا الشَّرَهُ البهيمي الناشئ عن فقدان الملذات العالية المذكورة هو ما يعمي الأسَراء ويرميهم بالزواج والتوالد، مع أن العِرْضَ كسائر الحقوق غيرُ مَصُون زمنَ الاستبداد، بل هو معرّض لهتك الفساق من المستبدين والأشرار من أعوانهم ، خصوصاً في الحواضر الصغيرة والقرى المستضعفِ أهلُها . »

ويقول في بيان أن المجد الصحيح لا ينشأ في ظل الاستبداد ، وإنما ينشأ في ظله طبقة ممن سماهم « المتمجدين » . ووصف التمجُّد والمتمجدين بقوله : (١)

« التَّمَجُّد خاص بالإدارات المستبدة ، وهو القربى من المستبد بالفعل ، كالأعوان والعمال ، أو بالقوة ، كالملقبين بنحو دوق وبارون ، والمخاطبين بنحو رب العِزّة ورب الصَّوْلة أو الموسومين بالنياشين ، أو المطوّقين بالحمائل ، وبتعريفٍ آخر ، التمجد هو أن ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبد ليحرق بها شرف الإنسانية . وبتعريف أجلى : هو أن يتقلد الرجل سيفاً من قِبَل الجبار يبرهن به على أنه جلاد في دولة الاستبداد ، أو يعلق على صدره وساماً مُشْعِراً بما وراءه من الوجدان المستبيح للعدوان ، أو يتحلى بسيور مزركشة تنبئ بأنه صار أقرب إلى النساء منه إلى الرجال . وبعبارة أوضح وأخصر : هو أن يصير الإنسان مستبداً صغيراً في كَنَفِ المستبد الأعظم .

« المتمجدون يريدون أن يخدعوا العامة — وما يخدعون إلا أنفسهم — بأنهم أحرار في شئونهم ، لا يُزَاح لهم نقاب ، ولا تُصْفَع لهم رقاب . فيُحوِجهم هذا المظهر الكاذب لتحمل الإساءات والإهانات التي تقع عليهم من قِبَل المستبد ، بل للحرص على كتمها ، بل على إظهار عكسها ، بل على مقاومة من يدّعي خلافَها ، بل على تغليط أفكار الناس في حق المستبد ،

١ – طبائع الاستبداد ٤٩ – ٥٢

وإبعادهم من اعتقاد أن من شأنه الظلم . وهكذا يكون المتمجدون أعداءً للعدل ، أنصاراً للجَوْر. وهذا ما يقصده المستبد من إيجاد المتمجدين . »

ويقول إن الاستبداد يسري في سائر موظفي الدولة المستبدة ، كبيرِ هم والصغير : (١)

« الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها ، من المستبد الأعظم إلى الشرطي إلى الفراش إلى كناس الشوارع . ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً ، لأن الأسافل لا يهمهم جلب محبة الناس . إنما غاية مسعاهم اكتسابُ ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته وأنصارُ دولته وشرهون لأكل السقطات من ذبيحة الأمة . وبهذا يأمنهم ويأمنونه ، فيشاركهم ويشاركونه ... إن العقل والتاريخ والعيان، كلٌ يشهد بأن الوزير الأعظم للمستبد هو اللئيم الأعظم في الأمة، ثم مَنْ دونه من الوزراء يكونون دونه لؤماً ، وهكذا تكون مراتب لؤمهم حسب مراتبهم في التشريفات ... كيف يكون عند الوزير نزعة من الشفقة والرأفة على الأمة ، وهو العالم بأنها تبغضه وتمقته وتتوقع له كل سوء ما لم يتفق معها على المستبد ، وما هو بفاعلٍ ذلك أبداً إلا إذا يئس من إقباله عنده . وإن فعل فلا يقصد نفع الأمة . إنما يريد تهديد المستبد أو فتحَ بابٍ لمستبدٍ جديد عساه يستوزره فيوازره على وِزْره . والنتيجة أن وزير المستبدّ هو وزيرُ المستبد لا وزيرُ الدولة كما هو في الحكومات الدستورية... بناءً عليه لا يغترّ أحد من العقلاء بما يتشدق به الوزراء والقواد من الإنكار على الاستبداد والتفلسف بالإصلاح ، وإن تلهفوا وإن تأففوا . ولا ينخدعْ النبهاء لهم وإن ناحوا وإن بكوا . ولا يثقوا بهم وبوجدانهم مهما صلّوا وسبّحوا . لأن ذلك كلّه ينافي سيرهم وسيرتهم ، ولا ضامنَ على أنهم أصبحوا يخالفون ما شبوا وشابوا عليه . بل هم أقرب أن لا يقصدوا بتلك المظاهر غيرَ تهديدِ المستبد واستدرارِ دماء الرعية، أي

---

١ – طبائع الاستبداد ٦٠ – ٦٤ .

أموالها . نعم . كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير أنه يريد إلقاء سيفه للأمة لتكسره، وهو قد ألف عمراً طويلا لذة البَذَخ وعزةَ الجَبَروت ، وهو من تلك الأمة التي قتَلَ الاستبدادُ فيها كلَّ الأميال الشريفة العالية، حتى صار الفلاح التعيس يؤخذ للجندية وهو يبكي ، فلا يكاد يَلْبَسُ كُمَّ ثوبها إلا ويتنمّر على أمه وأبيه ، ويتمرد على أهل قريته وذويه ، ويكظُ أسنانه عطشاً للدماء لا يميز بين أخ أو عدو » .

ويقول الكواكبي إن الاستبداد يفسد الميول الطبيعية والأخلاق الحسنة، ويقلب الحقائق في الأذهان ، وينزل بالإنسان إلى مستوى البهائم [١] :

« الاستبداد يتصرف في أكثر الأميال الطبيعية والأخلاق الحسنة فيضعفها أو يفسدها أو يمحوها ، فيجعل الإنسان يكفر بنعم مولاه ، لأنه لم يملكها حَقَّ المُلْكِ ليحمده عليها حقّ الحمد . ويجعله حاقداً على قومه، لأنهم عون الاستبداد عليه . وفاقداً حب وطنه، لأنه غير آمن على الاستقرار فيه ويودّ لو انتقل منه . وضعيفَ الحب لعائلته ، لأنه ليس مطمئناً على دوام علاقته معها. ومختلّ الثقة في صداقة أحبابه لأنه يعلم منهم أنهم مِثْلُه لا يملكون التكافؤ ، وقد يُضطّرون لإضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون. أسير الاستبداد لا يملك شيئاً ليحرص على حفظه ، لأنه لا يملك مالا غير معرّض للسلب، ولا شَرَفاً غير معرّض للإهانة .ولا يملك الجاهل منه آمالاً مستقبَلةً ليتتبَّعها ويشقى كما يشقىَ العاقلُ في سبيلها. وهذه الحال تجعل الأسير لا يذوق في الكون لذةَ نعيمٍ غيرَ الملذاتِ البهيمية. بناءً عليه يكون شديد الحرص على حياته الحيوانية وإن كانت تعيسة . وكيف لا يحرص عليها وهو لا يعرف غيرها . أين هو من الحياة الأدبية؟ أين هو من الحياة الاجتماعية؟ أمّا الأحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم بعد مراتب عديدة . ولا يعرف ذلك إلا من كان منهم[٢] أو كشف الله عن بصيرته. ومثال ذلك

---

١ – طبائع الاستبداد ص ٧٨ – ٩١ .

٢ – الضمير في (منهم) يعود على الأحرار في الجملة السابقة .

الشيوخ . فإنهم عندما تمسي حياتهم كلها أسقاماً وآلاماً ويقربون من أبواب القبور ، يحرصون على حياتهم أكثر من الشباب في مُقْتَبَلِ العمر ، في مُقْتَبَل الملاذ ، في مُقْتَبَل الآمال » .

« الاستبداد يسلب الراحة الفكرية ، فَيُضني الأجسام فوق ضناها بالشقاء ، فتمرض العقول ، ويختل الشعور ، على درجات متفاوتة في الناس . والعوامُّ الذين هم قليلو المادة في الأصل ، قد يصل مرضهم العقلي إلى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر ، في كل ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية . ويصل تسفّل إدراكهم إلى أن مجرد آثار الأبهة والعظمة التي يرونها على المستبد وأعوانه تَبْهَرُ أبصارهم. ومجردَ سماع ألفاظ التفخيم في وصفه وحكايات قوته وصولته يُزيغ أفكارَهم . فيرون ويفكرون أن الدواء في الداء . فينصاعون بين يَدَيْ الاستبداد انصياعَ الغنم بين أيدي الذئاب ، حيث هي تجري على قدميها جاهدةً إلى مقرّ حتفها ... وقد قَبل الناسُ من الاستبداد ما ساقهم إليه ، من اعتقاد أن طالب الحق فاجر ، وتاركَ حقه مُطيع ، والمشتكيَ المتظلمَ مُفْسِد. والنبيهَ المدقّقَ ملحد ، والخاملَ المسكين هو الصالح الأمين . وقد اتبع الناس الاستبداد في تسميته النصح فضولا ، والغيرةَ عداوةً ، والشهامة عُتوّاً ، والحميةَ جنوناً ، والإنسانية حماقة ، والرحمة مرضاً. كما جاروه على اعتبار أن النفاق سياسة . والتحيُّل كِيَاسة. والدناءة لطف ، والنذالة دماثة . »

ويقول : (١) «ومن طبائع الاستبداد أن الأغنياء أعداؤه فكراً وأوتادُه عَمَلاً ، فهم ربائط المستبد ، يذلهم فيئنون ، ويَسْتَدِرُّهم فيحِنّون. ولهذا يرسخ الذل بين الأمم التي يكثر أغنياؤُها . أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب ، ويتحبب إليهم ببعض الأعمال التي ظاهرُها الرأفة ، يقصد بذلك أن يَغْتَصِب أيضاً قلوبهم التي لا يملكون غيرها . والفقراء كذلك

١ ـ طبائع الاستبداد ص ٨٣

يخافونه خوفَ دناءة ونذالة، خوف البُغَاث من العُقاب [١]، فهم لا يجسرون على الافتكار فضلاً عن الإنكار، كأنهم يتوهمون أن داخل رءوسهم جواسيس عليهم. وقد يبلغ فساد الأخلاق في الفقراء أن يسرَّهم فعلا رضاء المستبد عنهم بأي وجه كان رضاؤه.»

هكذا صور الكواكبي في كتابه آثار السلطة المطلقة التي لا يحدها قيد في الحكام وفي المحكومين على السواء، ليصل آخر الأمر إلى أن كل عللنا يمكن أن تُردّ آخرَ الأمر إلى الاستبداد، وأن الذين يظنون أن تأخرنا يرجع إلى الجهل أو إلى الفقر أو إلى ترك الدين هم بين مخطئين وبين عارفين يمنعهم الاستبداد وخوف الحكام أن يقولوا ما يعرفونه. وانتهى الكواكبي في آخر كتابه إلى تقديم مجموعة من المشاكل التي تتصل بنظام الحكم، وضعها بين أيدي المفكرين، ودعاهم إلى بحثها وتمحيصها ووضع الحلول لها. وختم هذه المشاكل بالمسألة الكبرى وهي: (كيف نتخلص من الاستبداد؟). وتناول هذا السؤالَ الأخير وحدَه بالتعليق فقال [٢]:

«إن الأمة التي ضُربت عليها الذلة والمسكنة حتى صارت كالبهائم أو دون البهائم، لا تسأل قط عن الحرية. وقد تنقم على المستبد، ولكنْ طَلَباً للانتقام من شخصه، لا طلباً للخلاص من الاستبداد، فلا تستفيد شيئاً، إنما تستبدل مرضا بمرض كمغص بصداع. وقد تقاوم المستبد بسَوْق مستبد آخر. فإذا نجحت لا يغسل هذا السائقُ يداه إلا بماء الاستبداد، فلا تستفيد أيضاً شيئاً. إنما تستبدل مرضاً مزمناً بمرض جديد[٣]... إن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقية الأمة في الإدراك والاحساس، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس... ومَبْنى قاعدةِ أنه يجبُ قبل مقاومةِ الاستبداد تهيئةُ ماذا يُستبدَل به الاستبداد[٣]، هو أن معرفة الغاية – ولو إجمالا – شرط طبيعي للإقدام على كل عمل. لكنَّ المعرفة الإجمالية في هذا الباب لا

---

١ – البغاث: صغار الطيور وضعافها. العقاب (بضم العين) طائر من الجوارح.

٢ – طبائع الاستبداد ص ١٧٢ – ١٧٧.

٣ – الباء تدخل على المتروك. ولذلك فالصواب فيما يعنيه الكواكبي هو (تستبدل مرضا جديداً بمرض مزمن) و (ماذا نستبدل بالاستبداد).

تكفي مطلقاً ، بل لا بد من تعيين المَطْلَب تعييناً واضحاً موافقاً لرأي الكل أو لرأي الأكثرية ... ثم إذا كانت الغايةُ مبهمة في الأول ، فلا بد أن يقع الخلاف في الآخر ، فيفسد العملُ أيضاً ، وينقلب إلى فتنٍ صمّاء وانقسامٍ مهلك . ولذلك يجب تعيينُ الغاية بصراحة وإخلاص ، وإشهارُها بين الناس ، والسعيُ في إقناعهم واستحصالِ رضائهم بها ، بل حملُهم على النداء بها وطلبها من عند أنفسهم . »

* * * *

أما الاتجاه الثاني الذي تأثر أصحابه بالحضارة الغربية فهو الدعوة إلى فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية ، أو فصل الدين عن الحياة وشئونها. ومن المعروف أن ما يسمونه « عصر النهضة » في أوروبا قد جاء نتيجة جهاد طويل بين رواد التحرر الفكري وبين الكنيسة ، التي كان نفوذها على الملوك والأمراء والعلماء وقتذاك واسعاً شاملا لا يحد . فسيف الحرمان مسلط على رقاب كل من تحدثهم نفوسُهم بتجاهل البابا ، فضلا عن مخالفته. ولن ينسى التاريخ إذلال البابا جريجوري السابع للامبراطور هنري الرابع ، حين اختلف معه على حق تعيين الأساقفة على إقطاعياتهم ، فأعلن حرمانه ، وأحلّ أتباعه الأمراءَ من ولائهم له ، فاضطر الإمبراطور أن يذهب إليه تائباً في « كانوسا » سنة ١٠٧٧ ، وأن ينتظر الغفرانَ ثلاثة أيام ، متدثراً بالخيش وهو حافي القدمين وسط الثلج في فناء القلعة. ولن ينسى التاريخ من أُحرِقَ ومن نُكِّلَ به تحت آلات التعذيب في محاكم التفتيش من روّاد علم الطبيعة وعلمِ الكيمياء وعلم الفلك ، بتهمة الخروج على تعاليم الدين ، أو بتهمة ممارسة السِّحْر الأسود . وهذا الصراع الطويل المرير الذي وقفت فيه الكنيسةُ سداً بين أوربا وبين التقدم ، وظهر فيه العلماء بمظهر الاستشهاد في الدفاع عن مبادئهم وآرائهم حتى الموت ، قد أتاح الفرصة لدعاة التحرر الفكري ، فهدموا الكنيسة وهدموا معها الدين . وانتهى ذلك الصراع الطويل المرير بانتصار دعاة التحرر

(Liberalism) والحد من سلطة الكنيسة ، وحصرها في نطاق الدين . وبذلك تحقق فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية ، وانكمش نفوذ البابا فلم يعد يجاوز طقوس التعميد والصلاة والزواج والجنائز ، وأصبحت شئونُ الدولة وتدبير نظام المجتمع في يد رجال السياسة .

قرأ أصحاب الثقافات الغربية ذلك كله فيما تداولوه من كتب التاريخ . وقرءوا معه في هذه الكتب أن ذلك قد استتبع تحريرَ الفكر فنشط من عقاله ، واندفع يرتاد ويكشف في حريةٍ لا يهددها الخوف ، حتى وضع أوربا في مكان الذروة من القوة والمالِ ونفوذِ السلطانِ والعِرْفان . وخُيِّل إلى أصحاب هذه الثقافات أن الشعوب الإسلامية — ومصر واحدة منها — تعيش في حالة تشبه حالة أوربا في العصور الوسطى. وساعد على تمكن هذا الوهم أن الذين يتكلمون باسم الإسلام كانوا جزءاً من العالم الإسلامي الذي مُنِيَ بأسباب التخلف والجهل . وبذلك أصبحت آراؤهم موضع السخرية والتندر . وقد دفعهم تخلفهم الثقافيّ في كثير من الأحيان إلى التورط في محاربة بعض العلوم النافعة بدافعٍ من جهلهم لها ، فزعموا أنها تخالف روح الدين .

ثم إن نظام التوظف الجديد منذ عهد إسماعيل ، وفي عهد الاحتلال الإنكليزي خاصة ، قد أدّى إلى اختفاء أصحاب الثقافة الدينية من ميادين الإصلاح وتخلفهم عن ركب الحياة ، وانحصار وظائفهم في المساجد . وأصبحت الوظائف الحكومية وأدواتُ التوجيه الاجتماعي في أيدي أصحاب الثقافة الأوربية ، الذين ينشئون مشاريعهم الاجتماعية والعمرانية على نَمَطِ ما تعلموه[1]. فكان من جملة ما نقلوه نقلا أعمى ، السخريةُ برجال الدين والاستخفافُ بأمر الدين تبعاً للاستخفاف برجاله .

وكانت هناك قوى خفية غيرُ ظاهرةٍ تؤيد هذا الاتجاه وتمُدُّ نارَه بالوقود

---

١ — راجع تقرير كرومر عن سنة ١٩٠٦ (الفقرة ٣ ص ٨) . وراجع كذلك Modern Egypt ٢ : ٢٢٩ . حيث يدعو كرومر صراحة إلى وجوب تمكين هذه الطائفة من المناصب المسئولة عن التوجيه السياسي والاجتماعي .

والحطب ، بما تلفقه من أكاذيب ، وما تزوِّره من مبالغات . وما تدبِّجه من مقالات تلْبَس ثوبَ الدفاع عن الحرية ، والرثاء لضحايا الظلم والاستبداد. وربما كانت اليهودية العالمية الطامعة في تقويض نظام الخلافة الإسلامية تمهيداً لاغتيال فلسطين واتخاذها وطناً قومياً ليهود العالم في مقدمة هذه القوى الخفية. فقد كان من أهداف الصهيونية العالمية — ولا يزال — أن تفسد التفكير الإسلامي والمسيحي على السواء ، نشراً للفوضى التي يظنون أنها هي السبيل إلى سيادتهم على العالم ، حسب ما يتوهمونه . وكان الاستعمار الطامع في اقتسام العالم العربي والاستيلاء على بتروله وأسواقه ، شريكاً للصهيونية العالمية في هذا التدبير .

ومما يصور هذا الاتجاه الفكري ما كتبه عبد القادر حمزة في سنة ١٩٠٤ تحت عنوان « خطرٌ علينا وعلى الدين » وهو واضح الدلالة في تأثر صاحبه بتاريخ النهضة الأوربية ، وفي دعوته إلى اقتفاء أثرها . وقد جاء فيه : (١)

« ... ولقد كنت منذ عامين أحببت أن أكتب الكلمة التي أنا اليوم كاتبها نصيحة لأمتي ، واحتراماً لدينها . ولكني اعترتني الرهبة ، وخشيت أن استفز غضبها لدعوة كنتُ لا يزال يعتريني بعض الشك في صحتها ، ففضلت أن أطويها خاطراً في صدري ، وتركت للزمن أن ينضجها ، بعد أن تُثقَّف وتُصقَل في نار البحث والتدقيق... والآن بعد مرور عامين طويلين ، قلبتُ فيها تلك الدعوة على جميع وجوهها ، وعرضتها على محكّ النقد والمناقشة ، لا أجدني أخطأت إلا في عدم الجهر بها إلى الآن مع شدة احتياجنا إلى معرفتها والعمل بها ، سيما في هذه الأيام التي شاعت فيها كلمة الدين من أناس اتخذوها تجارة ، فلم يعد يهمهم إلا أن ترددها أفواههم صباح مساء ، وسيلةً للتغرير ، واحتيالاً لكسب رضا العامة وشيوع ذكرهم بينها ، غير ملتفتين

---

١ — المقتطف عدد مارس سنة ١٩٠٤ ص ٢٣١ — ٢٤٠ . وقد رد عليه رفيق العظم في عدد مايو سنة ١٩٠٤ بمقال يحمل العنوان نفسه : « خطر علينا وعلى الدين » . كما رد عليه محمد كرد علي في العدد نفسه بمقال عنوانه « الدين والعامة » .

إلى الخطر العظيم الذي يدفعون إليه الأمة ودينها ، كما اندفعت إليه أوروبا من قبل ، فكانت النتيجة وَبالاً على المسيحية والمسيحيين » .

ثم عرض موضوعه بعد هذه المقدمة فقال :

« قالوا : إن الأمة إذا كانت جاهلة متأخرة ، ثم قدر لها أن تخطو إلى الأمام وتنهض راغبة في التقدم ، فلا بد لها من أدوار كثيرة طبيعية تتناوبها واحداً بعد الآخر . وأول هذه الأدوار أن يكثر فيها الناصحون والمرشدون ، فلا يزالون يقرعون الآذان إيقاظاً للنائم ، وتنبيهاً للغافل ، ولا تزال الأمة تُغْضي عن أكثر ما يقولون رَدَحاً من الزمان ، حتى يتأثر مجموعها ، كما تتأثر الصخرة الصماء من قطرات الماء ، فتهم إلى السعي وإتْباع القول بالعمل. وحينئذ يصح أن يقال إنها نشطت من عِقالها ، وقامت تنفض الغبار عن أكتافها ، ودخلت في دور آخر هو دور الحياة والعمل . »

« فإذا صح قولهم هذا — وهو مما لا شك فيه — وصح أن الأمة المصرية كانت ولا تزال متأخرة جاهلة — ولا أظن مصرياً ينكر ذلك — فإنها في الدور الأول من نهوضها . ولذلك تجدها على كثرة الصائحين بينها والمنادين فيها ، تكاد لا تفقه كلمةً من عَشْر كلمات يلقيها عليها الناصحون والمرشدون . وخليق بنا ونحن لا نزال في أول الطريق أن نتساءل : إلى أين نساق ؟ ... وأي سبيل نتبع ؟ ...وهل فيما نحن سائرون إليه نفع أو ضرر؟ حتى لا نرمى بقصور النظر ، ولا نكون كالتائه في البيداء لا يعلم إلى النجاة أم إلى الهلاك يسير ... دُرْ في البلاد طولها وعرضها واستَجْلِ غوامض أفكار أبنائها ، وسل كل من تريد منهم عن أسباب تأخرنا وانحطاطنا ، ثم عن الطريق الذي يؤدي إلى نهوضنا وارتفاعنا ، وبالجملة عن دائنا ودوائنا ، تجدْه — مهما أطال في الشرح وعدد من الأسباب — لا يحوم إلا حول سبب واحد تنتهي إليه جميع الأسباب . وهذا السبب هو الدين . فتركُه والجريُ على خلافه هو علة ما نحن فيه . والعملُ به هو الدواء الوحيد لشفائنا من كل

ما أصابنا من الأمراض . دع هؤلاء وراقب معلّمي أبناء الأمة ومربيّ أطفالها واستطلع خلاصة ما يبثّون من النصائح والإرشادات ، تجد أن الدين هو القدوة التي يغرسونها في الأذهان ، مثالا لكل كمال ، ومنبعاً لكل حياة ، وأساساً لكل عمران » .

ويمضي الكاتب في استقراء طبقات الأمة المختلفة ، من كتاب وشعراء وصحفيين ، مصوراً إجماعهم على أن إهمال الدين هو علة تأخرنا . ثم يقول :

« هذا كلُّه ، وكثيرٌ غيرُه لا يتسع المقام لإفاضة الشرح فيه ، يدل على مبلغ تسلط الدين على عقولنا ، وانخداع أفهامنا انخداعاً لا مثيل له لكل ما يأتي من جانب الدين . بل يدل على استسلامنا استسلاماً أعمى إلى ماضينا الذي يجب أن نبتعد عنه كل الابتعاد ، إن كنا نريد أن لا نبقى كما نحن وكما كنا جهلاء وضعفاء » .

ويهاجم الكاتب الذين يقحمون الدين في كل شيء تقرباً إلى العامة الذين استولى عليهم ما يسميه الكاتب هَوَساً دينياً ، ويقول : إن الذين ينادون بالدين هم أجهل الناس بالدين ، ولكنهم يتاجرون باسمه ، ويتخذونه مطية للتغرير والتضليل . ويعلل الكاتب ذلك بما ورثناه من الميل إلى تقليد أسلافنا المعروفين بالتقوى والورع . ثم يقدم أمثلة من تاريخ الحضارة الإسلامية ، ماضيها وحاضرها ، وقف فيها رجال الدين الذين أساءوا فهمه في وجه العلم والعلماء ، واتهموهم بالخروج عليه . ويختم هذا العرض متسائلا « هل في النداء بالدين فائدة ؟ » فيقول : إن من أخطر الأشياء أن نستنجد بالدين في كل شيء ، بعد أن صار إلى ما صار إليه ، وبعد أن أصبح مجموعة من العادات والتقاليد أنتجها الفهم السيء والتغالي المضر . ثم يقول :

« هذه بلاد أوروبا كان أهلها قبل العصر الذي يسمونه عصر النهضة والإصلاح متمسكين بعرى الدين المسيحي ، متشيعين لكل ما يأتي من جانبه . فما زالوا يغالون ويتطرفون ، حتى انتهت بهم الحال إلى حصر الدين برمته

في الكنيسة. ولم تمض على ذلك سنوات حتى أصبحت الكنيسة صاحبة التصرف المطلق فيهم، توجههم إلى الحروب الصليبية، فيعانون المشاق ويكابدون الأهوال ويهلكون ألوفاً ومئات ألوف حباً في الدين. ثم تستأثر بالأموال فلا تجد منهم إلا ملبين خاضعين، يقدمون إليها أموالهم باسم الغيرة على الدين. ثم تستولي على الكتاب المقدس وتحرم على غيرها فهمه وتفسيره، فيتلقون أوامرها بالرضى والطوع عملا بأوامر الدين. ثم تقف أمام العلوم مخافة أن يكون فيها ما يخالف الدين. وما زالت على حالها، تفتئت كل يوم على الدين باسم الدين، والناس لا يعرفون إلا كلمات تسمى الدين يتفانون في الجهاد غيرةً عليها، حتى أخذ شعاع العلوم ينفذ إلى الأذهان، وابتدأ دور النهضة. فقام القسوس وقعدوا، آخذين بتلابيب الأمة بأسرها، ينادونها: الدينَ الدينَ! اطلبي الكمال والرقي والنهضة من جانب الدين. وظلوا يصدعون آذانها بهذا النداء، حتى تنبهت العقول ونظرت إلى الدين كما صوروه لها، فنبذه البعض، وضعفت سلطته على البعض الآخر.»

ويختم الكاتب مقاله مطالباً بأن يُترك الدين بيننا في زيه الحقيقي، ذلك الثوب الأبيض الطاهر. وأن لا ننفر الناس منه بإقحامه فيما ليس من شأنه، منادياً بأن القرآن لم ينزل إلا بقواعدَ عامة للناس جميعاً. ولكل أمة أن تتصرف في مدلولات هذه القواعد العامة بما يناسب زمانها ومكانها، دون تقيدٍ أو حَجْر على الأفهام، إلا فيما يخرج عن الدين.

كانت الحضارة الأوربية والثقافة الغربية، تغزو الشرق الإسلامي، وتغزو تركيا نفسها، في أشكال مختلفة: معاهدَ علمية، وشركات أجنبية، وبضائع، وملابس، وفُرُش، وأثاث. وقد دأب أبناء الأمراء والأثرياء والطبقات العليا من المستوزرين والحكام، على إرسال أبنائهم وبناتهم إلى هذه المدارس التي كانت تُعد تلاميذها لأسمى المناصب. وأقبل عليها أبناء الطبقة المتوسطة تقليداً لهؤلاء الأثرياء في بعض الأحيان، وإعجاباً بنظامها المحكم الدقيق، وببراعة تلاميذها في اللغات الأجنبية التي تُعد صاحبها لكثير

من الأعمال المُرْبحة في أحيان أخرى [١]

وكان السلطان عبد الحميد هو المقصود بكثير مما كُتِب عن الدعوة إلى الحرية والمناداة بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية. فالذين يتكلمون عن الاستبداد وتقييده بالنظام النيابي كانوا يقصدون استبداد السلطان عبد الحميد. والذين ينادون بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية كانوا ينظرون إلى استخدام السلطان عبد الحميد سلطته الدينية، بوصفه خليفة للمسلمين، في جمع السلطة في يده ومحاربة أعدائه. وكان العرب منهم يطالبون بأن يكون عبد الحميد سلطاناً، وبأن تكون الخلافة أو الولاية الدينية على شئون المسلمين للعرب الذين هم أقدر الناس على فهم الدين. أما الترك فكان أكثرهم من المتأثرين بالفكر الإلحادي الذي كان يجتاح أوربا باسم (التحرر Liberalism) وبكتّاب الثورة الفرنسية ومفكريها على وجه الخصوص. وكان كثير منهم واقعاً تحت سيطرة الصهيونية العالمية.

وكان كل ما كتب من هذا اللون يطبع في مصر، لتعذر نشره في أي قطر من الأقطار العثمانية. وكانت كثرة هذه الكتب تصدر عن الشام، ولكنها كانت تُطبع في مصر، وتقرأ في مصر، ولا تكاد تصل إلى الأقطار العثمانية إلا بطريق التهريب غير المشروع.

ومن هذه الكتب التي طبعها الشاميون في مصر كتاب (أُمّ القُرَى) للكواكبي [٢]. وقد عالج فيه أسباب ضعف الأمم الإسلامية وتخلفها. ودعا في آخره إلى فصل الخلافة عن السلطنة، مقترحاً جعل الخلافة في العرب والسلطنة في الترك، ومحاولا التدليل على أن الترك يقدمون السياسة على الدين، وأن احترامهم للشعائر الدينية ليس إلا من قبيل التظاهر والمجاملة لكسب ولاء

---

١ – راجع مشروع اللائحة التعليمية التي كتبها محمد عبده في بيروت سنة ١٣٠٤ هـ (١٨٨٩ م) في تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٥٠٥ – ٥٢٢

٢ – طبع في مصر سنة ١٨٩٩ ومؤلفه هو مؤلف «طبائع الاستبداد» الذي أشرنا إلى ترجمته في هامش ص ٢٦٦

رعاياهم من المسلمين (ص ١٦٣). وهو يسوق في هذا السبيل جملة من الوقائع التاريخية، ليثبت أن سلاطين آل عثمان كانوا يضحون بالدين في سبيل إدراك كسب سياسي يزيد من نفوذهم ويؤيد ملكهم. (ص ١٦٤، ١٦٥، ١٧١) فيزعم أن السلطان محمد الفاتح قد اتفق سراً مع فيرْديناند وإيزابيلا على تمكينهما من إزالة مُلْك بني الأحمر، آخر الدول العربية في الأندلس، ورضي بما جرى على خمسة ملايين من المسلمين من التقتيل والإكراه على التنصر، فشغل أساطيل إفريقيا عن نجدة المسلمين، وذلك في مقابل ما قامت له به من خذلان للإمبراطورية الشرقية عند مهاجمته مقدونيا ثم القسطنطينية [1]. ثم يقول: إنه بينما كان الأسبانيون يحرقون بقية العرب في الأندلس، كان السلطان سليم يستأصل آل عباس بعد أن غدر بهم، مجاوزاً في ذلك كل حد، حتى قتل كل حبلى من النساء. ويقول كذلك: إن السلطان عبد المجيد رأى أن من مؤيدات إدارة ملكه أن يبيح الربا والخمور وأن يبطل الحدود. ويزعم أن الترك هم الذين أعانوا الروس على التتار المسلمين، وأعانوا هولندا على جاوة والهند (ص ١٦٥)، وتركوا المسلمين أربعة قرون ولا خليفة، وتركوا الدين تعبث به الأهواء ولا مرجع، وتركوا المسلمين صماً بكماً عمياً ولا مرشد (ص ١٧١). ويقول المؤلف إن لقب الخلافة إنما طرأ على العثمانيين في زمن متأخر، حين كان بعض وزراء السلطان محمود يخاطبونه بهذا اللقب تفننا في الإجلال وغلواً في التعظيم، ثم توسع الناس في ذلك من بعد (ص ١٦٧).

وقد عدد المؤلف في كتابه هذا مزايا العرب التي ترشحهم للخلافة

١ – المعروف أن محمد الفاتح استولى على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م. وأن فرديناند وإيزابيلا لم يعتليا عرش إسبانيا إلا سنة ١٤٧٩ م. وقد توفي محمد الفاتح سنة ١٤٨١م ومملكة غرناطة الإسلامية لا تزال قائمة. ولم تسقط في يد فرديناند وإيزابيلا إلا سنة ١٤٩٢. ولم يتعرض مسلمو الأندلس للتقتيل والتنصير إلا بعد ذلك ببضعة أعوام. وهذا يصور أن الدعاوى التي جاءت في هذا الكتاب وأمثاله كانت تقصد إلى التشنيع والإثارة، ولا تقوم على التحقيق العلمي الدقيق النزيه.

المسلمين . فهم مشرق النور الإسلامي ، فيهم الكعبة والمسجد النبوي والروضة المطهرة . وبلادهم متوسطة في موقعها الجغرافي بين المسلمين . وهي أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسيّةً وأدياناً ومذاهب . وهي أفضل أرض لأن تكون ديارَ أحرار ، لبعدها عن الطامعين والمزاحمين . وأمراؤهم يجمعون بين شرف الآباء وشرفَ الأمهات ، لبعدها عن اختلاط الأنساب بالإماء من الأجنبيات... إلى آخر ما يعدّد المؤلف من مثل هذه الصفات (ص ١٥٤–١٥٨) .

ودعا المؤلف آخر الأمر إلى نقل خلافة المسلمين للعرب ، لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لتجديد حياة العثمانيين السياسية (ص ١٦٩–١٧١). ورسم اختصاصات هذا الخليفة ، فحصرها في شئون السياسة العامة الدينية . فليس من حقه أن يتدخل في شيء من الشئون السياسية والإدارية في السلطنات والإمارات ، ولكنه يصدّق على توليات السلاطين والأمراء احتراماً للشرع . ويُذكَر اسمه في الخطبة قبل أسماء السلاطين، ولا يُذْكَر في المسكوكات . وهو يتولى بعد ذلك رياسة هيئة شورى إسلامية ، تنعقد مدة شهر في كل سنة ، قبيل موسم الحج في مكة .

ويبين المؤلف طريقة اختيار الخليفة ، فيقول : إنه يختار بطريق الانتخاب ، ويتجدد انتخابه كل ثلاث سنوات . ويستحسن أن يكون هذا الخليفة قرشياً (ص ١٦٨–١٧٠) .

ولكن هذه الآراء لم تخل من إشارات مريبة إلى موالاة الدول الأوربية المستعمرة ، مثل ما جاء في تحديد وظائف الشورى العامة التي لا تخرج عن تمحيص أمهات المسائل الدينية ، حين ضرب أمثلة لهذه المسائل فقال فيما قال : « وكفتح أبوابَ حُسْن الطاعة للحكومات العادلة ، **والاستفادة من إرشاداتها ، وإن كانت غيرَ مسلمة** ، وسد أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب » (ص ١٦٩)، ومثل قوله : « والغالب أن الدول المسيحية التي لها رعاياها من المسلمين أو المجاورة للمسلمين تتحذر من أن يجر جمع

الكلمة الدينية إلى رابطة سياسية تولد حروباً دينية . فتعمد هذه الدول إلى عمل الدسائس والوسائل لمنع حصول هذا الارتباط أساساً . فما هو التدبير الذي يقتضي اتخاذه أمام تحذر الدول ؟ » (ص١٧٢) . وردّ على ذلك بكلام طويل ، في أن المسلمين المتنورين أدنى إلى المسالمة ، وأن العرب منهم أقربُ من غيرهم للأُلفة وللثبات على العهد ، وأن الجهاد في سبيل الله ليس محصوراً في مجرد محاربة غير المسلمين . فكل عمل شاق نافع للدين والدنيا ، حتى الكسب لأجل العيال ، يسمى جهاداً . وقال فيما أورد من كلام لبعث الطمأنينة في نفوس الدول الأوربية : « ولَدَى رجال السياسة دليل مهم آخر على أن أصل الإسلام لا يستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم ، بل يستلزم الألفة . وذلك بأن العرب أينما حلوا من البلاد جذبوا أهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم ولغتهم . كما أنهم لم ينفروا من الأمم التي حلت بلادهم وحَكمَتْهم ، فلم يهاجروا منها ، كعدن وتونس ومصر ، بخلاف الأتراك . **بل يعتبرون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حكم الله** ، لأنهم يذعنون بكلمة ربهم تعالى شأنهُ (وتِلْكَ الأيامُ نُداوِلهُا بينَ النَّاس). فإذا علم السياسيون هذه الحقائق وتوابِعَها لا يتحذّرون من الخلافة العربية ، بل يرون من صوالحهم الخصوصية وصوالح النصرانية وصوالح الإنسانية أن يؤيدوا قيام الخلافة العربية بصورة محدودة الصورة ، مربوطة بالشورى ، على النسق الذي قرأته عليك » (ص ١٧٤) .

وكلام الكواكبي هنا متأثر بما كان يذيعه ساسة الدول الاستعمارية عن الجامعة الإسلامية ، من تخيل الخطر الذي يهدد الغربيين في اجتماع كلمة المسلمين وارتباطهم برابطة الإسلام ، الذي يدعو إلى مجاهدة غير المسلمين . والذي يعتبر هذا الجهاد ركناً من أهم أركان الدين .

على أن الناظر في كلام الكواكبي يجده متأثراً بفكرة البابا الذي اتخذ مقره في روما ، مهدِ المسيحية الأولى في أوربا ، والذي يرأس المَجْمَع الديني ، ويتوج الملوك رعايةً لسلطان الدين . كما أن الناظر في كلامه يَريبهُ ما فيه

من **تودد إلى** الدول المستعمرة ، ومن تهون لوقوع الأمم الإسلامية **تحت** حكمهم ،وإسقاطِ فريضة الجهاد بعد أن فسرها تفسيراً غريباً . كما تـربـبه الصلةُ الواضحة بين كلامه هذا وبين كلام مستر بلنْت في كتابه (مستقبل الإسلام) الذي دعا فيه إلى نقل الخلافة للعرب[1]، وبينه وبين ما تكشفتْ عنه الأيام من حوادث الثورة العربية بتدبير الإنكليز سنة ١٩١٦ .

ومن هذه الكتب التي طبعها الشاميون في مصر كتاب لسليمان البستاني سماه (ذكرى وعبرة – الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده [2])طبعه سنة ١٩٠٨ ، وصور في شطره الأول فساد الحكم العثماني قبل صدور الدستور الذي أكره السلطان عبد الحميد على إصداره في يوليو سنة ١٩٠٨ ، وصور في الشطر الأخير بعض الآمال التي يعلقها اللبنانيون على العهد الجديد ، الذي وضع – في نظره – حداً للظلم والفوضى والإرهاب .

يقول البستاني في تصوير فساد الحياة الاجتماعية :

« ولكن هذا الجسم[3] على قوته الكامنة ، وإن شئت فقل : على ضعفه الظاهر ، لم يقو على تحمل أذيَّة الحكومة الغابرة ، بما انتابته من ضروب الظلم ، في عصر ليس كالعصور السالفة ، يساق الناس فيه سوقاً ، ويتّخذ فيه من دون الله أرباب ظالمون . فألوية الحكومات الدستورية قد انتشرت من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق ، وكواكب الحرية قد سطعت حولنا واكتنفتنا من الجهات الأربع . هذا ، وأرباب الأمر فينا يودون بقاءنا في ظلمة مدلهمة . » ثم يقول« فمعظم الشكوى إذن ليس من الاستبداد بمعنى الحكم المطلق ، وإن كانت دولة هذا الحكم قد دالت . وإنما هو من ذلك الاستبداد بمعنى الحكم الجائر الذي أباح الموبقات واستباح المحرمات . استبدادٌ حكّم

---

١ – راجع ص ٢٤، ٢٥ من هذا الكتاب ، حيث يتهكم مصطفى كامل بمشروع الخلافة العربية في كتابه (المسئلة الشرقية) .

٢ – وشبيه به كتاب « ما هنالك » الذي أصدرته مطبعة المقطم سنة ١٨٩٦ ولم تصرح باسم كاتبه . والمعروف الشائع أنه هو إبراهيم المويلحي .

٣ – يقصد جسم الدولة العثمانية .

الأنذال برقاب الرجال ، فنكّس الرءوس وذلل النفوس . استبداد لا مرشد له إلا التعنت عن هوىً تميلُ به النفس إلى حيث لا تدري ،ولا شرع له ولا وازع ، يحلل اليوم ما يحرمه غداً ... الخ ص ١٨–١٩ » .

ثم يقدم المؤلف صوراً مظلمة من تحكم الاستبداد وتغلغله في شتى نواحي الحياة ، حتى بات الناس مراقَبين في كل حركاتهم . يحصي عليهم الجواسيس أنفاسهم ، ولا يأمن فيه أحدهم أن يفاجئه طارق في دياجي الظلام فيختطفه من بين ذويه ليُزَج به في السجون ، أو يُقذَف به منفياً إلى أقصى الأرض ، أو يُلقى به في مياه البسفور ، لمجرد شبهة لا تقوم عليها بينة . يقول :

« وهذه القيود والأغلال في أعماق السجون تكاد تشتبك غيظاً لكثرة ما أثقلَتْها المعاصمُ والأقدام .وهذه بنغازي وبعض المدن النائية في أطراف السلطنة تضج منتحبة لما ترى من شقاء المبعدين . بل هذا البوسفور يوشك أن يفور تلهفاً على تلك الجثث ، فيَقذِف بها إلى ثغريه خشية أن تبيت دفينة في بطون الحيتان . — ص ٢٥ »[١] .

ويصور ما أمسى فيه رجال الدولة من حذر الوشاية فيقول :

« كانوا سجينين في بيوتهم ،تُوجِسُ منهم الخيفةَ ،إذا تجاوزوا الأبواب. وعليهم العيون مبثوثة في المنازل والطرق ، لا يعلمون أهم واقفون لهم في الطريق ، أم قاعدون بين جلسائهم وندمائهم في بيوتهم ، أم جاثمون بين خدمهم في غرف نومهم ومطابخهم . لا يجسر الوزير أن يزور وزيراً ولو كان حبيباً له قبل الوزارة . يمعن الفكرة طويلا قبل أن يفوه بكلمة ، خوف أن تؤوَّل أو تنقَل . تأخذه الهواجس فلا يعلم مصيره مساء يومه ... ولهذا كنت ترى معظم هؤلاء الأمراء الأرقاء على تحفز واستعداد ، حتى إذا خشوا الغدر بهم تناولوا حقيبتهم المعدة لمثل هذا اليوم ، وطلبوا ملجأ يتقون به

١ – وراجع كذلك مقالا لولي الدين يكن يصور فيه إلقاء أحد الضحايا في مياه البسفور ، وكان قد نشره في صحيفة المقطم بعنوان « خليج البسفور في إحدى ليالي الشتاء » (الصحائف السود ٧٢ – ٧٦)

شرّ السعايات — ص ٦٣ » .

ويصور هذه الأداة المخيفة التي كانت تبعث الرعب في قلوب الناس كبيرهم والصغير ، وهي التي يطلق عليها (الخفية) فيقول :

« أما الخفية عندنا فلم تكن على شيء مما تقدم ، بل قامت على نظام محكم لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم . أقيمت لها دائرة منظمة في المابين ، ودعي رئيسها بأسماء لا يدل منها شيء على مسماها ، كقولهم : مدير سياسة المابين directeur de la politique du palais imperial ، أو مدير السياسة الخارجية . ولم يكن يباح لأحد أن يدعوه باسم رئيس الخفية ... وكان لتلك الدائرة فروع متشعبة داخل البلاد وخارجها تشعّبَ العروق في الجسم ، إذ كان عمالها مبثوثين في كل دوائر الحكومة ، من الباب العالي ، إلى النظارات المنفصلة عنه ، إلى كل فرع من فروعها . وهناك شعبة منها لقراءة الكتب والجرائد وترجمة ماكان منها باللغات الأجنبية . وهناك أيضاً عمال مقيمون خاصة لتناول زبدة الأخبار وتقديمها إلى المراجع العليا . وكم كانت تلك المراجع تحذف وتزيد وتعدل على هواها ، أو تستنبط من مخيلاتها ما لم يكن له أثر في تلك التقارير ، فتعرضه حقيقة ثابتة على المرجع الأعظم . ص ٨٤—٨٥ » .

ويصور إسراف عبد الحميد في التضييق على الصحافة فيقول :

« فكم من جريدة ألغيت أو أوقفت لزمن محدود أو غير محدود لخبر روته عن جرائد أوروبا ينبيء بمقتل وزير في الصين أو أمير في إفريقيا ، أو اختراع ذكرته لآلة تطير في الهواء أو غواصة تسير تحت الماء . بل كم من مرة فاجأ الجريدةَ أمرٌ بتعطيلها ، وظل صاحبها يبحث أشهراً فلا يعلم لذلك سبباً غير (الإيجاب) . بل كم من مرة انقضّت الصواعق على رأس الصحافي لجهله أن هذه الكلمة أو تلك قد انتُزِعتْ بحكم الاستبداد من معجم الألفاظ الكتابية ، كالقانون الأساسي ، والخلع وما اشتق منه ، والجمهورية ،

والديناميت ، والثورة ، والإنصاف ، والحرية ،أو أن عبارة أو جملة وجب حذفها من أبواب الإنشاء كقولك : العدل أساس الملك ، والظلم مرتعه وخيم ، والحرية منتهى غايات الأمم . بل الويل كل الويل لمن ذكر حرفاً عرف به علم مشهور كعبد العزيز ومراد ورشاد . ص ٢٢–٢٨ » .

ويصور القيود المفروضة على حرية التأليف فيقول إن هذه القيود لم تكن تحددها إلا (الإرادات السنية) . ولم يكن يباح نشر كتاب من الكتب إلا بعد أن يعرض على (مجلس التفتيش والمعاينة) في الأستانة نفسها ، فيقرأ حرفاً حرفاً ويتعرض خلال ذلك للتغيير والتبديل ، والحذف والإضافة ، ثم تُختَم كل صفحة من صفحاته إن أسعد صاحبَه الحظُ بالموافقة على نشره بعد طول الانتظار . والويل له إن وشى به واش بأنه غير حرفاً أثناء الطبع . هذا إلى أن التأليف لم يكن مباحاً إلا في التافه من الأغراض التي لا تغني شيئاً في تثقيف العقول أو إعلاء الهمم . وقد كان يبدو للرقابة في بعض الأحيان أن تصادر كتاباً وتحظر النظر فيه بعد أن يُقرأ ويتداول بين أيدي الناس أزماناً ،لكلمة أو لعبارة تنبهت الرقابة إليها بعد حين .وقد يُزَج بصاحب الكتاب أو بائعه إلى ظلمات السجن . وكثيراً ما كانت تتعرض المكاتب العامة والخاصة للتفتيش المفاجيء . وكثيراً ما كان يتذرع الوشاة بصفحة من كتاب مؤلف منذ قرون لأخذ صاحبه غيلة ، حتى ضاق تجار الكتب وهُواتها بها ، وأصبحوا يفرّون من اقتنائها (ص ٤٠–٤٦) .

ولم تسلم الرسائل بعد ذلك من المراقبة « حتى كان الصديق إذا بعث برسالة سلام وتودد إلى صديقه يحسب أن عيناً أثيمة تنظر إلى ما كتبه وتحلله وتشرحه قبل أن يقع تحت نظر صاحبه ، فيودع كتابه من العبارات ما يرد أشَرّ الوشاة وشبهات المتعنتين — ص٥٠ » « وكانت لهم مهارة مذكورة بفتح التحارير وفض الأختام ولو كانت بالشمع ، حتى يخيل لك أنهم لو استفادوا من البخار والكهرباء وسائر مخترعات العصر ما استفادوه من الإحاطة بجميع وسائل فض الأختام لرقوا بالبلاد درجات — ص ٥١ » لذلك كان الناس

يفضلون الراسل عن طريق مكاتب البريد الأوروبية المنبثة في سائر الأقطار العثمانية. وقد كان كل مكتب من هذه المكاتب يتمتع بحماية الدولة التي يتبعها، مما يمنع يد الرقابة أن تصل إليه. وقد كانت هذه المكاتب تخدم أنصار الفساد وأعداءه على السواء. فقد كان الثوار والمتآمرون على عبد الحميد يتبادلون الأخبار عن طريقها. وكان رجال عبد الحميد يهرّبون ما يجمعون من المال الحرام عن طريقها كذلك. (ص ٤٧ — ٥٤).

ثم يروي المؤلف أن الجماعات والأندية كانت خاضعة لمثل هذه الرقابة. فلم يكن يُسمح بتأليفها، إلا ما كان منها خيرياً محضاً، حيث لا بحث ولا خطابة. ومن طرائف ما يروي المؤلف في هذا الباب عن (جمعية المقاصد الخيرية) التي ألفها وجهاءُ المسلمين في بيروت لإسعاف الفقراء وتربية الأيتام وإنشاء المدارس أن الوشاة وشوا بتلك الجماعة، فقالوا: تلك جمعية ينم اسمُها عن مرمىً خفيّ. ولا حاجة بالجمعيات الخيرية أن يكون لها (مقاصد). فلا بد من أن تكون تلك المقاصد لأمرٍ آخر. فاقضوا عليها قبل أن تقضي عليكم. (ص ٥٨).

وبمثل ذلك تناول المؤلف فساد نظم التعليم الذي حرمته الرقابة من كل علم نافع، وضيقت فيه على العقول «حتى حار المعلّمون في أمرهم. وكانوا وهم يلقون حتى ولو مسألة نحوية أو حسابية صرفاً يخشون أن تُوجَس منهم إشارةٌ إلى عدد يوافق أعداد سني الظلم، أو فتحةٌ أو كسرةٌ تشيران إلى فتح الأعين وكسر القيود — ص ٣٦». وقد أدى ذلك إلى أن يلجأ الناس إلى المدارس الأجنبية «التي كانت متمتعة بحرية حُرِّمت على سواها. ولقد تهافت عليها الطلاب من كل الملل والنحل تهافت الظمآن على الماء الزلال. وبثّتْ نور العرفان بين جمهور عظيم من فتياننا.»

هذه صورة مما آل إليه فساد الحكم كما عرضها أحد الشآميين. ومهما

يكن من إنصافه وحياده فيما قال ، أو مبالغته وتحامله ، فذلك ما شاع وما تناقله الناس ، وأعان الثوار من الأتراك والأوربيون الذين كانوا يبيتون النية على اقتسام الإمبراطورية العثمانية على نشره والمبالغة في تصويره والتهويل من شأنه . ولكن أثر ذلك كان محدوداً في الشعر ، وخاصة في مصر ، لما قدمنا في الفصل الأول من أسباب .

فمن ذلك قول نسيم من قصيدة رفعها إلى السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٥ ، ينصحه فيها بالاستجابة لدعوة المصلحين [١] .

وليتَ بلاداً حلّق الجورُ فوقها ... وحط عليها كالعُقاب فخيَّما
تناوىءُ فيها الحادثاتُ أديبهـــا ... وتنبذ منهـا الحاذقَ المتعلمـا
إذا لم تَداركْها برأيٍ وحكمة ... تبيت لفُتّــاح الممالك مَغْنَما
بحيث يكون الملكُ فرعاً مشذّباً ... وحيث يصير التاج نهباً مقسما
هناك يُبيد الله شعبَك مثلما ... أبادت صروفُ الدهر طَسْماً وجُرْهُما [٢]
فهل لك أن تُجْري العدالة بينهم ... فَيلهجَ بالشُكران من كان مُسْلِما
دع العلم يفشو في البلاد لَعلّه ... يكون لإدراك السعادة سُلَّما
وأقص الجواسيس الذين تألبوا ... على ضفة البسفور جيشاً عرمرما

ويقول في قصيدة أخرى : [٣]

إلى الله يرفع هــذا الأنينْ ... ليضرب فوق يـــد الظالمين
بلاد غدت ملجــأً للطغام ... وكهفــاً تمَــوّج بالفاجرين
فيا عين نوحي على حالة ... ستُدْمي المــآقي بدمع سخين
ويا قلبُ صبراً لعل الزمان ... يُنيخ على العصبة الكاذبين
ويا سيدي أجب الشعب عاماً ... يلبّ نداءك طولَ السنين

---

١ – الديوان ١ : ٢٩
٢ – طسم وجرهم قبيلتان من قبائل العرب البائدة .
٣ – الديوان ١ : ١٢٤ تحت عنوان «أجب الشعب يا أمير المؤمنين»

فتلك الجواسيسُ أودت بنا وهم يلعبون بِدُنْيَا ودِين
أتصغي إلى الزور من قولهم وما هو منهم بقولٍ مُبين
وتنفي العبـاد بلا زَلَّـة وما هم من الفئة الآثمين
فراقِبْ إلهـك فيما بقي وإلا عفا كلَّه بعد حين
ولا تَرْجُ تكدير ملكٍ صفا بظلمٍ كما كدَّر الماءَ طين
فما أيّدَ اللهُ من مالك بغير العدالـة في العالمين
ومن أين يُعرَفُ سلطان قومٍ إذا ما نَفى قَومَه أجمعين ؟

ويقول حافظ ، من قصيدة بعث بها إلى داود عَمون الشاعر اللبناني ، يدعوه إلى الهجرة لمصر (١) :

وخِلٍّ أقام بأرض الشآم فباتت تُدِل على جارها
وأضحت تَتِيه برب القريض كتيبـه البَوَادي بأشعارها
ولَلنّيلُ أولى بذاك الدلال ومصر أحـق ببشّارها
فشمِّرْ وعجِّلْ إليها المآب وخَلّ الشآم لأقدارها
فكيف لَعمري أطقتَ المقام بأرضٍ تضيق بأحرارها ؟
وأنت المشمِّر إثْر المظالـ ـم تسعى إلى محو آثارها

ويقول على لسان بعض المتصوّفة في محبوب نافر ، معرّضاً بالشيخ أبي الهدى الصيّادي ، الذي كان يتمتع بنفوذ عظيم في بلاط عبد الحميد ، مشيراً إلى ما شاع من أمر غلامه (شكيب) ، وصلته المريبة به (٢) .

أخرِقُ الدُفّ لو رأيت شكيباً وأفُضُّ الاذكارَ حتى يَغيبا
هو ذِكْري وقِبْلَتي وإمامي وطبيبي إذا دعـوتُ الطبيبا

(١) الديوان ١ : ١٦٨
(٢) الديوان ١ : ١٦٠ ويراجع في قصة غلام أبي الهدى الصيادي وهربه إلى مصر سنة ١٩٠١ واستغلال الخديوي عباس له في التشنيع بأبي الهدى الصيادي ، وما جرى من مفاوضة لاعادته للأستانة : مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٤٨ – ٣٥٣

لو تراني وقد تعمَّدْتَ قتلي بالتنائي رأيت شيخاً حَرِيبا
كان لا ينحني لغيركَ إجلا لا ولا يشتهي سواكَ حبيبا
لا تعيبَنْ يا شكيبُ دبيبي (إنما الشيخُ من يَدِبُّ دبيبا)
كم شرِبتَ المدامَ في حضرة الشيـ ـخ جهاراً وكم سقيتَ الحليبا ؟!
فسلوا سُبحتي ، فهل كان تسبيـ ـحي فيها إلا شَكيباً شكيباً ؟

ويقول ولي الدين يكَن، مشيراً إلى إلقاء أحد الضحايا في مياه البسفور بعد اختطافه من بين أهله في ظلام الليل (١).

في ليلة ليس بها كوكب كأنما مَشْرِقُها مغرب
يُمسِي سواداً كلُّ ما بينها ففوقَها وتَحتَها غَيْهَبُ
لا يدرك الفكرُ بها مطلباً فكل ما يطلبه يهرب
جاءوا بمظلوم إلى ظالم قالوا له هذا هو المذنب
بكى وفي الدار بكوا مِثْلَه فكل من في داره يَنْحَبَ
وقد رأينا حوله صبية تندب حين أمُّهُمْ تندُب
قالوا اجعلوه مثل أترابه من كان من مذهبه يذهب

. . . .

. . . .

وأقبل الصبح على أيِّم وصبْيَةٍ ليس لديهم أب
يا بحرُ لو تنطق أخبرتنا ما قالَ من غُيِّب إذْ غيِّبوا

على أن مثل هذا الشعر الساخط كان أكثر انتشاراً في الشام. وإن كان أكثر أصحابه يكتمونه فيُتداوَل شفاهاً، أو ينشرونه بأسماء مستعارة. وكان أكثر ما يذاع منه ينشر في مصر لما قدمناه في الفصل السابق من أسباب. فمن ذلك قصيدة للشاعر سليم عنحوري يروي فيها قصة لص دفعته الحاجة إلى السرقة ، فزج به في السجن. ثم ذهبت زوجته تلتمس نجاته بالرشوة ،

١ — الديوان ص ٦ ، الصحائف السود ص ٧٢ .

فلم يُرضِ المرتشين من الحكام إلا أن يجمعوا إلى الرشوة مساومتَها على عِرْضها (١).

يقول في تصوير فقر اللص الذي دفعه إلى السرقة :

صِبْيَةٌ بعضُهم يسبق البعـ ضَ هزالاً بفضل سوء الغذاء
وبناتٌ مثلُ الملائك حسناً عاريات يندبن حال الشقاء
حول أمٍّ تقرّحت مقلتاهَا من دواهي الزمان والأرزاء
تشتكي البرد . لا كساءَ يقيها لذعةَ القرّ، لا وقودَ اصطلاءِ
كم نهارٍ ، كم ليلةٍ قد قضتها بين نَـوْح وحسرةٍ وبكاء
ظلماتٌ صواعقٌ وبروق ورياحٌ تهبُ فصلَ الشتاء
لا بساطٌ ولا فراشٌ وثير لا سراج يُنيل بعضَ الضياء
شُرُفات بلا سُدولٍ وسقف دامَ بالوَكْفِ ممطراً سيلَ ماء

ثم يقول في سعي زوجته لإنقاذه :

زوجةُ اللص بادرت بعد شهر نحو مَغْنَى رئيس رهط القضاء
حال دون اللقاء حُجّابُ باب نفحَتْهم بليرة صفراء
أدخلوها مقصورةً ذاتَ عرشٍ فوقه ماكرٌ كثير الدهاء
قبّلت هُدْبَ ثوبه ثم خرّت فرماها بنظرة الكبرياء
سألته فِكاكَ زوجٍ أثيم رحمةً بالبنات والأبناء
وحبته بعضَ المئات نقوداً فاحتواها بغلظة وجفاء
قال هَلاّ أقنعتِ بعض رفاقي فقِوامُ الرءوس بالأعضاء
خرجت تذرف الدموع غزاراً نحو عضوٍ يعز بالفحشاء
رام منها لكي تنال رضاه ما إليه نشير بالإيماء

ويختم قصيدته مقارناً بين اللص الصغير السجين واللصوص الكبار

---

١ – المقتطف عدد أغسطس سنة ١٩٠٤ ص ٦٧٩ – ٦٨١

الطلقاء ، فيقول :

لزم السجنَ زوجُها ورجالُ الـْ — ـبَغْيِ فازوا بسؤدد وعَلاء
واللصوص الكبار صاروا قضاةً — واللصوص الصغار أهلُ الشقاء
سلبوا المال رشوةً واستباحوا الـ — ـعرض جهراً وهم من العظماء
وإذا قيل : من لنَيْل المعالي ؟ — قيل : هذا وذاك ، دون امتراء
وإذا عُدّ معشرُ الفضل يوماً — حسبوهم من أفضل الأذكياء
أبهذا ومثل هذا صلاحٌ ؟ — لا ، وربّ الأنْباء والأنبياء (١)

هذه صور مما كان يذيعه فريق من الكتاب والشعراء عن اضطراب الحكم العثماني وفساده ، كان لها أثر ملحوظ في مطالبة الناس بتقييد سلطة الحكام ، وبفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية .

أما الاتجاه الثالث الذي تأثر أصحابه بالحضارة الأوربية وهو المطالبة بما سموه (تحرير المرأة) ، والدعوة الى تمكينها من المشاركة في الوظائف والأعمال العامة ، فقد كان يتصل اتصالاً وثيقاً بالاتجاهين السابقين ، لأنه يعتمد أولا على أن الحرية الشخصية قد أصبحت في العصر الحديث حقاً لكل إنسان — ذكراً كان أو انثى — ثم هو يعتمد على تخليص تفكيرنا الاجتماعي من سلطان رجال الدين ، والزعم بأنهم يصدرون فيما يُحِلّون وما يحرمون عن اعتبار التقاليد والأوهام التي ورثناها عن أسلافنا جزءً من الدين .

وقد كان أهم ما ظهر في هذا الموضوع كتابين لقاسم أمين ، الذي اقترن اسمه من بعدُ بلقب (محرر المرأة) ، وهما : (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) . وقد طبع الكتاب الاول سنة ١٨٩٩ ، وطبع الثاني سنة ١٩٠٠ . وأثار ظهور الكتابين ضجة شديدة في ذلك الوقت ، وظلا موضع أخذ ورد في الصحف طوال نصف قرن .

---

١ — تراجع أمثلة أخرى لمثل هذا الشعر في « شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام » ص ١١ — ١٥

أما كتاب (تحرير المرأة) فقد انصرف جهد المؤلف فيه الى التدليل على ما زعمه من أن حجاب المرأة بوضعه السائد ليس من الإسلام ، وأن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لِقواعده . بينما غلب المنهج الغربي الحديث على كتابه الثاني (المرأة الجديدة) ، فأقام بحثه فيه على الإحصاءات التي تدعمها الأرقام والوقائع ، وتؤيدها آراء لبعض كتاب الغرب ومفكريه .

يرى قاسم أمين في كتاب (تحرير المرأة) أن « الشريعة الإسلامية إنما هي كليات وحدود عامة . ولو كانت تعرضت إلى تقرير جزئيات الأحكام لما حق لها أن تكون شرعاً عاماً يمكن أن يجد في كل زمان وكل أمة ما يوافق مصالحها . أما الأحكام المبنية على ما يجري من العادات والمعاملات ، فهي قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان. وكل ما تطلبه الشريعة فيها هو أن لا يُخِلّ هذا التغيير بأصل من أصولها العامة (ص١٦٩). ولكنا ظلمنا الإسلام وعرضناه لأن ينسب إليه الغربيون تأخر المرأة الشرقية . ولو كان لدين من الأديان سلطة على العادات لكانت المسلمة في مقدمة نساء العالم ، لأن الإسلام سبق كل شريعة سواه في تقرير مساواة المرأة بالرجل (ص ١١) . وهو يتناول في كتابه أربع مسائل وهي : الحجاب ، واشتغال المرأة بالشئون العامة ، وتعدد الزوجات ، والطلاق . ويذهب في كل مسألة من هذه المسائل إلى ما يطابق مذهب الغربيين ، زاعماً أن ذلك هو مذهب الإسلام .

أما الحجاب ، فهو يعتبره أصلا من أصول الأدب يلزم التمسك به . ولكنه يطالب بأن يكون منطبقاً على الشريعة الإسلامية (ص ٥٥) . ثم يقول : إن الشريعة ليس فيها نص يوجب الحجاب على الطريقة المعهودة . وإنما هي في زعمه عادة عرضت لهم من مخالطة بعض الأمم ، فاستحسنوها وأخذوا بها ، وألبسوها لباس الدين ، كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين ، والدين منها براء (ص ٥٩). ويورد قوله تعالى: « قُلْ للمؤمنين يَغُضّوا من أبْصارِهِم

ويحفظوا فروجهم. ذلك أزكى لهم، إنّ الله خبيرٌ بما يصنعون. وقُل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ، ولا يبدين زينتهنّ إلا ما ظهر منها. وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ، ولا يبدين زينتهنّ إلا لبعولتهنّ، أو آبائهنّ، أو آباء بعولتهنّ، أو أبنائهنّ، أو أبناء بعولتهنّ، أو إخوانهنّ، أو بني إخوانهنّ، أو بني أخواتهنّ، أو نسائهنّ، أو ما ملكت أيمانهنّ، أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهنّ ... » ثم يقول: إن الآية قد أباحت أن تظهر بعض أعضاء من جسم المرأة أمام الأجنبي عنها [١]، غير أنها لم تسمّ تلك المواضع. وقد قال العلماء إنها وكلت فهمها وتعيينها إلى ما كان معروفاً في العادة وقت الخطاب. واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما شمله الاستثناء في الآية. ووقع الخلاف بينهم في أعضاء أخَر كالذراعين والقدمين. ويمضي قاسم أمين في التدليل على فساد الحجاب. فيقول إن للمرأة حق التعاقد شرعاً فكيف يتعاقد معها الرجل دون أن يتحقق من شخصها. ويقول: إن الشرع قد أباح للخاطب أن ينظر إلى المرأة التي يريد أن يتزوجها، ولكنا ضيقنا على أنفسنا فيما وسّع الله. ويرد على الذين يتذرعون بخوف الفتنة فيقول: إن خوف الفتنة يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال، وليس على النساء تقديره ولاهنّ مطالبات به. ثم يتساءل متهكماً (ولماذا لا يؤمَرُ الرجال بالتبرقع خوفاً على النساء من الفتنة؟ .. هل المرأة أقوى عزيمةً من الرجل وأقدر على ضبط النفس؟) [٢]
ثم ينتقل قاسم أمين الى الكلام عن الحجاب بمعنى قصر المرأة في بيتها وحظر

١ – آية « يدنين عليهن من جلابيبهن » واضحة الدلالة في إطالة الثياب حتى تستر الوجه والأطراف. وقوله تعالى: « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » واضح في ستر شعر الرأس وستر الرقبة وفتحة الثوب في الصدر. فأي شيء قد بقي من أعضاء الجسم حتى يقال إن الآيات أباحت أن تظهر بعض أعضاء من جسم المرأة؟ أما قوله تعالى « إلا ما ظهر منها » فواضح أن المقصود هو استثناء ما لا سبيل إلى ستره، أو ما تقتضي الضرورة إظهاره. وهو لا يمكن أن ينـ.. اليدين والوجه على كل حال.

٢ – رد محمد طلعت حرب على ذلك في كتابه « تربية المرأة والحجاب ص ٨٣ » بأن وظيفة الرجل

مخالطتها للرجال ، فيقول : إن الحجاب بهذا المعنى هو تشريع خاص بنساء النبي . ويستشهد على ذلك بالآيتين : « يا أيها الذين آمنُوا لا تَدْخُلوا بيوتَ النبي إلا أن يُؤْذَنَ لكُمْ إلى طَعام غَيْرَ ناظرين إناهُ ، ولكنْ إذا دُعيتُمْ فادخُلوا . فاذا طَعِمْتُم فانتَشِرُوا ، ولا مُسْتأنِسينَ لِحَديث، إن ذلِكُمْ كان يُؤْذِي النبيَّ فيَسْتحيي منكم والله لا يَسْتَحيي من الحقّ ، وإذا سألتُموهُنَّ مَتاعاً فاسألوهُنَّ مِنْ وراءِ حِجاب . ذلكُمْ أطهَرُ لقلوبِكُمْ وقلُوبِهِنّ .وما كان لكُمْ أن تُؤذُوا رسولَ اللهِ ولا أن تَنْكِحُوا أزواجَهُ من بعدِهِ أبَداً . إن ذلكُمْ كان عندَ الله عظيماً .) و (يا نساءَ النبيِّ لستُنَّ كأحد منَ النساء . إن اتقيتُنَّ فلا تخضَعْنَ بالقول فيَطْمَعَ الذي في قلبه مرضٌ ، وقُلْنَ قولاً معروفاً . وقَرْنَ في بُيوتِكُنَّ ولا تَبرَّجْنَ تبرُّجَ الجاهليةِ الأولى ...) أما نساء المسلمين عامة فهن في زعمه منهيات عن الخلوة بالأجنبي فقط . ويستشهد على ذلك بما ينقل عن الطبرى من قصة عمر بن الخطاب وقد دخل عليه ضيف فأمر له بالغداء . ودعا زوجته (أم كلثوم) الى مشاركتهما [1] .

أما اشتغال المرأة بالشئون العامة ، فهو يقدم فيه بعض الأمثلة التاريخية

هي خارج المنزل . أما وظيفة المرأة فهي داخله . فتكليفها بالتبرقع أقل ضرراً من تكليف من الأصل في خلقته –بمقتضى الحكمة الإلهية – وجوده خارج بيته. هذا إلى جانب أن الرجل والمرأة كليهما مكلفان بغض البصر ،ولكن المرأة مكلفة –بالإضافة إلى ذلك – بعدم إبداء الزينة والمحاسن وسترها .

١ – القصة التي أشار إليها قاسم أمين تدل في حقيقة الأمر على عكس ما ذهب إليه . وهي في تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ « طبعة التجارية ١٣٥٧ هـ – ١٩٣٩ م ». فهي تدل على أن زوجة عمر رضي الله عنه كانت تلتزم الحجاب . فهي تعتذر عند دعوتها للطعام بأنها تسمع صوت رجل . وتروي القصة كذلك أن نساء عمر قد انزعجن حين ارتفع صوته «فمجئن إلى الستر». والنصوص كثيرة جداً في شعر العرب وفي المأثور من تاريخهم، على أن التزام الحجاب قديم في نساء العرب، وليس طارئاً كما زعم قاسم أمين . أما أن التشريع خاص بنساء النبي صلى الله عليه وسلم فهو زعم لا دليل عليه، تكذبه النصوص التاريخية والفقهية . ولمن شاء المزيد من التفصيل أن يعود إلى مقالين لي عن « المجتمع المختلط » و « الجنس الثالث » ص ٨٥ – ١٣٥ من كتابي « حصوننا مهددة من داخلها » ط . بيروت ١٣٦١ هـ – ١٩٧١ م.

التي تصور أن عدداً من النساء قد شاركن في مصالح المسلمين العامة في صدر الإسلام . فيشير إلى مكانة عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما من رواية الحديث ، كما يشير إلى تدخل عائشة رضى الله عنها في مسألة الخلافة العظمى . وإلى غزو أم عطية مع النبي ﷺ سبع غزوات حيث كانت تَخْلُفُ المحاربين في رحالهم وتصنع لهم الطعام وتداوي الجرحى وتقوم على المرضى . وهو يرى أن الأحوال التي فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة، مثل الخلافة والإمامة والشهادة في بعض الأحوال، إنما روعى فيها عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها في الأسرة وحصر الوظائف العامة في الرجال ، وهو تقسيم طبيعي . على أن الإسلام قد خول المرأة حقوقاً عظيمة في كل الأعمال المدنية ، ومنها أهليتها لأن تكون وصيّةً على رجل .

أما عن تعدد الأزواج فهو يقول : إن الإسلام قد أنصف المرأة فيه ، ولكن الفقهاء هم الذين انصرفوا إلى مناقشة الألفاظ . ويوازن بين ما يسميه تعريف الفقهاء للزوج، وبين وصف القرآن له . فيقول : إن الفقهاء يعرّفون الزواج بأنه (عقد يملك به الرجل بُضْعَ المرأة). والله تعالى يقول في شأنه (ومن آياته أن خَلَقَ لكُم مِنْ أنفُسِكُم أزواجاً لتَسْكُنُوا إليها، وجَعَلَ بينكُم مودّةً ورَحْمَةً). ثم يعلق على ذلك بأن الناظر في التعريف الأول الذي فاض به علم الفقهاء — حسب تعبيره التهكمي — والتعريف الثاني الذي نزل من عند الله (سبحانه وتعالى) ، يرى إلى أي حد وصل انحطاط المرأة في رأي الفقهاء، وسرى منهم إلى عامة المسلمين. ويبين قاسم أمين أن الإسلام قد منح المرأة حقوقاً لا تقل عن حقوق الرجل . فالله تعالى يقول : (ولهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بالمَعْرُوف *) ويقول : (وعاشِرُوهُنَّ بالمَعْرُوف) ويقول جل شأنه تعظيماً لحقهن (وأخَذْنَ منكُمْ ميثاقاً غَليظاً). والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : (أكْمَلُ المؤمنين إيماناً أحسَنُهُمْ خُلُقاً وألطَفُهُمْ بأهلِه). وقد كان صلوات الله عليه يخدم النساء، حتى إنه كان يضع ركبته على الأرض لتضع زوجته عليها رجلها إذا أرادت الركوب . ثم يزعم أن نصوص القرآن في تعدد الزوجات تحتوي إباحةً وحظراً في آن

* ولماذا كتم بقية الآية (وللرجال عليهن درجة) ؟

واحد . فالله تعالى يقول (فانكحُوا ما طابَ لَكُم من النساء مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ . فإنْ خفتُمْ أن لا تَعْدِلُوا فواحدةً أو ما ملكَتْ أيمانكُمْ . ذلك أدنَى ان لا تَعُولُوا) .

ويقول : (ولن تستطيعُوا أن تَعْدِلُوا بين النساءِ ولو حَرَصْتُمْ . فلا تَميلُوا كلَّ المَيْلِ فتَذَرُوها كالمُعَلَّقَةِ . وإن تُصْلِحوا وتتقوا فإن الله كان غَفُوراً رحيماً) . فالشارع سبحانه وتعالى -في زعمه- قد علّق وجوب الاكتفاء بواحدة على مجرد الخوف من عدم العدل ، ثم صرح بأن العدل غير مستطاع [1] . ولكن الفقهاء - في زعمه - هم الذين قصروا ما أوجب الله من العدل بين النساء على النفقة وما شاكلها. ويبين المؤلف أن تعدد الزوجات من العادات القديمة التي كانت مألوفة عند ظهور الإسلام، ومنتشرةً في جميع الأنحاء . وأنها تتبع حال المرأة في الهيئة الاجتماعية ، فتكون غالبة في الأمة التي تكون حال المرأة فيها منحطة ، وتقل أو تزول عندما تكون حالها راقية . ويقول إن الشعور بحب الاختصاص طبيعي في المرأة كما أنه طبيعي في الرجل . أو هو على الأقل ميل مكتسب بلغ من النفس الإنسانية بالعادة والتوراث مبلغ جميع الكمالات التي تولدت في نفوس أفراد هذا النوع عند ارتقائه من أدنى درجاته الحيوانية إلى

١ - العدل الذي صرح القرآن الكريم بأنه غير مستطاع هو العدل القلبي ، أي العدل في المحبة ، وهو ما لا يملكه الزوج ولا يستطيعه . ولذلك فهو غير مكلف به . أما العدل الذي يستطيعه والذي هو مطالب به فهو العدل في المعاملة . وآخر الآية الثانية يدل على المطلوب دلالة واضحة « فلا تميلوا كل الميل » . فالفاء للترتيب ، والذي رتبته الآية الكريمة على ما قررته من صعوبة العدل القلبي، التي تبلغ حد الاستحالة ، هو أن لا يجمع إلى هذا الانحراف عن العدل القلبي انحرافاً عن العدل المادي، فيما يستطيعه من العشرة والمعاملة ، فتصبح الزوجة كالمعلقة ، لا هي متزوجة فتستمتع بما يستمتع به المتزوجات، ولا هي عزباء تعيش على أمل الزواج . ولو كان المقصود هو تحريم التعدد لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم - وقد عدد - وصحابته وكثير من السلف الصالح - وقد كانوا معددين - مخطئين في فهم المقصود من الآيات ، أو متخطين لحدود الله عن عمد مع علمهم بالمقصود ، وذلك ما لا يقول به منصف ، فكيف يقوله مسلم ؟ والإسلام على كل حال لا يلزم بالتعديد، ولكنه يترك ذلك لظروف كل بيئة وكل عصر ، ولضمير كل شخص وظروفه التي هو أعلم بها . وحسابه بعد ذلك على الله . فالثواب والعقاب لا يكون إلا مع حرية الاختيار .

ما أُعِدَّ له من الكمال الإنساني،وأن خير ما يعمله الرجل هو انتقاء زوجة واحدة . إلا في حالات الضرورة ، كالمرض المزمن ومثل أن تكون عاقراً . أما في غير ذلك فليس تعدد الزوجات — في نظره — إلا حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية .

أما الطلاق ، فيبين قاسم أمين أنه كان مشروعاً عند اليهود والفرس واليونان والرومان،ولم يُمنَع إلا في الديانة المسيحية بعد مضي زمن نشأتها . ثم يقول: إن الذين يريدون بالزواج أن لا يَحُلَّ عقدَته إلا الموتُ إنما يطمحون للكمال المطلق ، ولا يراعون الطبيعة البشرية والضرورات التي تجعل الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر . وهذا هو الذي دعا الأمم المسيحية إلى الضغط على الكنيسة حتى أباحت الطلاق . ولكنه يذهب إلى أن إباحة الطلاق بدون قيد لا تخلو من ضرر ، وإن كانت منافعها أكثر من مضارها . ولذلك وضعت الشريعة الإسلامية للطلاق أصلا يجب أن تُرَدَّ إليه جميعُ الفروع في أحكامه ، وهو أن الطلاق محظور في نفسه ، مباح للضرورة . ويورد قاسم أمين الأدلة على ذلك من القرآن ومن الحديث . فالله تعالى يقول: (فإنْ كرهتمُوهنَّ فعسىَ أنتكرَهُوا شيئاً ويجعلَ اللهُ فيه خيراًكثيراً) (فإنْ خِفتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فابعثُوا حَكَماًمنأهلِهوحكماًمن أهلِها ،إنْ يُريِدَا إصْلاحاً يُوَفِّق اللهبينَهما) (وإنْ امرأةٌ خافَتْ منبَعْلِها نُشوزاً أو إعراضاً فلا جُنَاحَعليهما أنيُصْلِحابينهماصُلْحاً . والصُّلحُخَيرٌ . وأُحضِرَت الأنفُسُ الشُّحَّ .وإنتُحْسِنوا وتتقوا فإنَّاللهَ كان بما تَعْمَلون خبيراً) وجاء في الحديث(أبغَضُ الحلال عند اللهالطَّلاق) (لا تُطلِّقوا النساءَ إلا لِريبة . إن اللهلا يحب الذَّواقين ولا الذَّوّاقات .)والإمام علي رضي اللهعنه يقولُ: (تَزَوَّجوا ولا تُطَلِّقوا ، فإن الطلاقَ يهتزُّ منه العرش .) ثم يقول: إن الأصل في الطلاق الحَظْر ، والإباحةُ للحاجة إلى الخلاص . أي أنه محظور إلا لعارض يبيحه . ولكن الفقهاء — في زعمه — لم يراعوا في التفريع تطبيقَ هذا الأصل الجليل علىطريقة واحدةمتساوية ، ولم تَطَّرِدْ طريقتهم على وتيرة واحدة في تطبيق الأحكام على الوقائع . ويورد أمثلة

من بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالطلاق ويناقشها . ثم يقول : إنه لا ينبغي أن يقع الطلاق بكلمة لمجرد التلفظ بها مهما كانت صريحة[١]. فاللفظ لا يجب الالتفات إليه في الأعمال الشرعية ، إلا من جهة كونه دليلا على النية . وينتهي المؤلف إلى مشروع قانون للطلاق لا يتم فيه الطلاق إلا أمام القاضي ، في وثيقة رسمية بحضور شاهدين ، بعد نصح الزوج أولا ، ثم تحكيم أهل الزوج وأهل الزوجة ثانياً ، على أن يتقدما بتقرير في حالة إخفاق مسعاهما في الصلح .[٢]

ذلك عرض موجز لكتاب (تحرير المرأة) ، يتضح منه منهج المؤلف في التوفيق بين الإسلام وبين مذاهب الغربيين . وهو يعرض في خلال كلامه لبيان المضار الناشئة عن الجهل والحجاب . فالمرأة التي تبيع جسدها ليست مدفوعة بالشهوة ، ولكن الذي يدفعها إلى ذلك هو الجهل والعجز عن كسب قوتها من طريق شريف . والنقص الذي نشاهده في أخلاقنا ، وما أصابنا من فتور وقلة اكتراث ، وما ابتلينا به من بلادة في الإحساس وفي تذوق الجمال ، كل ذلك إنما هو ناشيء من نقص تربيتنا الأولى التي تقوم عليها الأم . والتعليم وحده لا يكفي – في نظر قاسم أمين – لتكوين المرأة تكويناً سليماً يجعل منها أداة صالحة للقيام على الأولاد وعلى تنشئة الرجال ، فلا قيمة للقراءة إذا لم تؤيدها التجربة والمشاهدة . ولذلك فهو ينادي برفع الحجاب، لأن حجاب المرأة في منزلها يحبسها في هذا العالم الضيق، ويحول بينها وبين العالم الحي، عالم الفكر والحركة والعمل ، ويجعلها لا ترى ولا تسمع ولا تعرف إلا ما يقع في عالمها الضيق من سفاسف الأمور .

ولا يخلو الكتاب من تهكم بما يسميه (جمود رجال الدين) . وبعض

---

١ – التهوين من قيمة الكلمة الى هذا الحد يوقع الناس في الفوضى المطلقة ، لأن كل العقود الاجتماعية تقوم على الكلمة .

٢ – لا شك أن في ذلك تقييدا لما أطلقه الله . ويستطيع المتدبر البصير أن يدرك ما يترتب عليه من مضار لا محل للإفاضة في ذكرها هنا . والمهم في الأمر هو أن هذه الآراء التي يحتال المؤلف لإلباسها أثواباً إسلامية من نصوص القرآن والحديث ، هي في حقيقة أمرها آراء غربية . فتصوره للعلائق الزوجية مستمد من العادات الغربية والقوانين الكنسية .

كلامه يصيب الحقيقة في مثل قوله مشيراً إلى انصراف المشتغلين بالعلوم الإسلامية عن دراسة العلوم الحديثة : « من رأي علمائنا اليوم أن الاشتغال بشئون العالم والعلوم العقلية والمصالح الدنيوية شيء لا يعنيهم . وصار منتهى علمهم أن يعرفوا في إعراب البسملة ما يزيد – من غير مبالغة – على ألف وجه على الأقل . يزعمون أنهم وكلوا جميع أمورهم إلى ما يجرى به القضاء، مع أنك تراهم أشد الناس احتيالا في طلب الرزق من غير وجهه ، وأحرصهم على حفظ ما يجمعون من الحطام ، ونيل ما يتوهمونه شرفاً ورفعة . ولذلك ضُرب المثل بتحاسدهم فيما بينهم – ص١٠٨ ».وبعض هذا التهكم ينطوي على التجني والتحامل مثل قوله : « والذي يطلع على كتب الفقه يندهش عندما يرى اشتغالهم بتأويل الألفاظ ، والتفنن في فهم معانيها في ذواتها ، بقطع النظر عن الأشخاص . لهذا قصروا أبحاثهم جميعاً على الكلمات والحروف ، وامتلأت الكتب بالاشتغال بفهم: طلقتُكِ ، وأنتِ طالق ، وأنتِ مطلقة ، وعليّ الطلاق ، وطلقتُ رِجْلَك ، أو رأسَك ، أو عرقَك وما أشبه ذلك ... على أننا نظن أن علم الشرائع يقبل أبحاثاً أخرى غيرَ تأويل الألفاظ. والطلاقُ لم يخرج عن كونه عملا شرعياً يترتب عليه ضياع حقوق جديدة . وهو في حد ذاته لا يقل عن الزواج في الأهمية ، حيث يتعلق به أعظم الحوادث المدنية ، كالنسب والميراث والنفقة والزواج . فالاستخفاف به إلى هذا الحد أمر يدهش حقيقةً كلَّ من له إلمام – ولو سطحي – بالوظيفة السامية التي تؤديها الشرائع في العالم – ص ١٥٣ » .

من هذا العرض يبدو واضحاً أن الكتاب ليس كتاب فقه ، وأن صاحبه ليس فقيهاً يعرض لشرح النصوص الإسلامية شرحاً نزيهاً ليتسنبط منها (١) . ولكنه كتاب موجه لخدمة فكرة معينة يحاول المؤلف أن يسخِّر النصوص لخدمتها . لذلك جاء كتابه مملوءاً بالمغالطات ، سواء كان ذلك في تفسير

---

١ – بل المعروف المشهور أن مؤلف الكتاب ليس له إلمام بالعلوم الإسلامية . ولذلك شاع بين الناس وتناقلته أن مؤلفه في الحقيقة هو الشيخ محمد عبده أستاذ قاسم أمين .

الآيات القرآنية،أم في النصوص التاريخية والفقهية،أو الأدلة العقلية . وهذا الاتجاه الذي يفسر النصوص تفسيراً جديداً مخالفاً لكل ما هو ثابت متواتر في تفسيرها،هو جزء من اتجاهٍ عامٍّ تزعّمه الشيخ محمد عبده،متذرعاً إليه بالدعوة إلى فتح باب الاجتهادِ ، الذي زعم أن الفقهاء قد أغلقوه . وهـــو يدعو إلى الملاءمة بين الإسلام وبين الحضارة الغربية . وسوف نعود للكلام عن هذا الاتجاه بعد قليل .

وقد أثار كتاب (تحرير المرأة) موجة من المعارضة كان أكثرها مقالات صحفية . وليس فيها من الكتب إلا كتاب (تربية المرأة والحجاب) لمحمد طلعت حرب ، الذي اقترن اسمه مِنْ بَعْد بشئونُ الاقتصاد والمال .

ولم يلبث مؤلف (تحرير المرأة)حين واجه هذه المعارضة وأحرجَتْه أن كشف عن أهدافه الحقيقية في كتاب ظهر في العام التالي وهو كتاب (المرأة الجديدة)،الذي بدا فيه أثر الحضارة الغربية واضحاً . فالتزم فيه مناهج البحث الأوربية الحديثة، التي ترفض كل المسلَّمات والعقائد السابقة ، سواء منها ما جاء من طريق الدين وما جاء من غير طريقه ، ولا تقبل إلا ما يقوم عليه دليلٌ من التجربة أو الواقع ، على حسب ما يفعله باحثو الاجتماع الأوربيون ، وهو ما يسمونه (الأسلوب العلمي) .

طلب قاسم أمين إلى المصريين أن يتخلصوا مما وَقَرَ في نفوسهم من أن عاداتهم هي أحسنُ العادات، وأن ما سواها لا يستحق الالتفات . وقال: إنّ طالبَ الحقيقة لا يجب أن يجري في إصدار أحكامه على هذا الضرب من التساهل ، بل يجب أن يعوِّد نفسه على أن يجري نقدَه للحوادث الاجتماعية على أسلوبٍ علمي (ص ٧٥).ونبه في موضع آخر من كتابه إلى وجوب الأخذ بالأسلوب العلمي ، إذا أردنا أن نصل إلى نتيجةٍ صحيحة في معرفة حقوق الناس ، فننظر في الوقائع التي تمر أمامنا ، فنتصور نظريتنا مطبقةً في قريةٍ ، ثم في مدينةٍ ، ثم في إقليمٍ، ونتمثّل النساء في جميع أعمارهـــن

وأحوالهن وطبقاتهن، بنات ومتزوجات ومطلقات وأرامل. ونتصورهن في المدرسة، وفي البيت، وفي الغيط، وفي الدكان، وفي المصانع. ثم نستعرض حال النساء في غير بلادنا. ونقف على حالة المرأة في الأزمان الخالية والتقلبات التي طرأت عليها (ص ٨٣). ويبين قاسم أمين في موضع ثالث من كتابه أن معظم الكتّاب يبنون أحكامهم على الشهوات. وإن وجد بينهم المنصف كان نصيبه أن يتهم بالتجرد عن الوطنية والعداوة للدين والملّة. وأشدهم اقتصاداً في ذمه يرميه بالطيش والخفة، توهماً منه أن الاعتراف بفضل الأجنبي مما يزيد طمع الأجانب فينا. والواقع أن السبب في طمع الأجانب فينا ليس هو اعترافنا بانحطاطنا، وإنما هو ذلك الانحطاطُ نفسُه (ص ١٩٤). ويؤكد في موضع رابع من كتابه أن العلم ليس منافياً للإحساس الديني كما يزعم كثير من الناس[1]. ويضرب لذلك مثلا بالذي يُثْنِي على مؤلف عظيم قبل أن يقرأ كتبه. ثم يتساءل: فهل إذا قرأها يضعف شعوره بعظمته؟ ويؤكد أن خدمة العلم هي عبادة، لأنها اعتراف ضمني بأن للمخلوقات قيمة عالية، وذلك يقود — حسب زعمه — حتماً إلى الاعتراف بعظمة خالقها. هذا إلى أن الاشتغال بالعلم يقوّي حكم العقل ويهذب النفس ويُنمّي الإحساس الديني، لأنه يكسب صاحبه الاعتماد على ضبط النفس، الذي هو من أهم أركان الأدب (ص ٢٠١–٢٠٣).

---

١ — لم يزعم أحد ذلك. ولكن الذي يقوله المتمسكون بالدين والداعون إلى سبيله هو أن هذا الذي ننقله عن الأوربيين أو الأمريكيين ونثق فيه ثقة عمياء ونسميه «علماً»، ليس «علماً» بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، إلا فيما يتصل بالفروع التجريبية كالطبيعة والكيمياء والهندسة والطب. أما ما يتصل منه بالنفس وبالتقنين الاجتماعي والأخلاق، فهو لا يزيد عن أنه فروض لحل بعض المشكلات، ولتعليل ما غاب عن الحس. ولذلك فهو موضع الخلاف والأخذ والرد بين دارسي الغرب أنفسهم، يمينهم وشمالهم. ولو كانت له حقيقة ثابتة ما اختلفوا فيه. ولا ينبغي أن ننسى أن بعض هذه الدراسات — ولا سيما الدراسات النفسية والاجتماعية — قد أصبحت دراسات موجهة، تسخر لخدمة المذاهب والأحزاب السياسية المختلفة. وبعضها يتذرع باسم (العلم) إلى هدم الدين والأخلاق ومحو الشخصية القومية، خدمة لأهداف سياسية ترمي إلى توهين الجامعة الوطنية أو الدينية، من ورائها الاستعمار أو الصهيونية العالمية.

ويناقش قاسم أمين في كتابه (المرأة الجديدة) بعض حُجج المعارضين لسفور المرأة ومشاركتها الرجل في الأعمال، مثل قولهم: «إن المرأة مخلوق ناقص العقل والتفكير، وأنها أضعف عزيمة من الرجل وأقل قدرة منه على مقاومة الشهوات». فيرد على ذلك بأن التشريح الفسيولوجي والتجربة في البلاد التي منحت المرأة حريتها قد أثبتت أن المرأة مساوية للرجل في الملكات. كما يرد عليه بأن الحكم على استعداد المرأة لا يكون عادلا ومنصفاً ومستوفياً لشرائط البحث العلمي المحايد إلا إذا منحنا المرأة الفرصة التي مُنِحها الرجل لتثقيف عقله وتدعيم ملكاته خلال الأجيال الطويلة. ويرفض قاسم أمين أن يصدّق ما يذاع من أثر حرارة الجو في إثارة الشهوة، مما يتذرع به الداعون إلى الحجاب في البلاد الشرقية الحارة، ما لم يقم على صحة هذا الزعم دليل علمي. ويستشهد بكلام كاتب إيطالي يقول إن العفة تُكتسَب بمنح الحرية للمرأة، وأن اختلاف الأجواء لا أثر له في ذلك. ويعتمد المؤلف على الدراسات النفسية الحديثة وعلى علم وظائف الأعضاء، في التدليل على أن قوة البنية وسلامة الأعصاب هما من أهم ما يعين الإنسان على ضبط نفسه، وأن ضعف البنية واعتلال الأعصاب هما من أهم الأسباب التي تجعل الإنسان آلة تلعب بها الشهوات والأهواء. ثم يطبق هذه النتائج العلمية على نسائنا، فيزعم أن نظام الحياة عندنا يبعث في المرأة شدة الميل إلى الشهوات، لأن سجنها والتضييق عليها في وسائل الرياضة يعرضها دائماً لضعف الأعصاب. ومتى ضعفت الأعصاب اختل التوازن في القوى الأدبية. ثم يقول: إن زيادة الحَجْر على البنت كلما تقدمت في السن، والتشدد في نهيها عن مخالطة الرجل، يلفت ذهنها في سن مبكرة إلى ما بين الجنسين من اختلاف. هذا إلى أن الألفاظ والصور المحركة للشهوة، التي تستقر في نفس الطفل والصبي من الأحاديث التافهة التي تترامى إلى أذنه بغير تحفظ من أحاديث الأمهات الجاهلات، تترك أثرها العميق فيه.

ويقول قاسم أمين: إن الحرية في الحياة السياسية هي منبع الخير للإنسان

وأصلُ ترقيته وأساسُ كماله الأدبي. ثم يطبق ذلك على المرأة، فيقول: «عاشت الأمة المصرية أجيالا في الاستعباد السياسي. فكانت النتيجة انحطاطاً عاماً في جميع مظاهر حياتها: انحطاط في العقول، وانحطاط في الأخلاق، وانحطاط في الأعمال. وما زالت تهبط من درجة إلى أسفل منها حتى انتهى بها الحال إلى أن تكون جسماً ضعيفاً عليلا ساكناً يعيش عيشة النبات أكثر من عيشة الحيوان. فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها في أول الأمر في حيرة لا تدري معها ماذا تصنع بحريتها الجديدة.» «وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء. أول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوى منها، ويظن الناس أن بلاء عظيماً قد حل بهم، لأن المرأة تكون في دور التمرين على الحرية. ومع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها وتشعر بواجباتها شيئاً فشيئاً، وترتقي ملكاتها العقلية الأدبية. وكلما ظهر عيب في أخلاقها يداوى بالتربية، حتى تصير إنساناً شاعراً بنفسه — ص ٧٠، ٧١».ثم يبين المؤلف أن النمو الأدبي لا يختلف في سيره عن النمو المادي. فالطفل يحبو قبل أن يمشي. ثم يتعلم المشي بالتدريج مستنداً إلى الحائط أو إلى قائد يقوده، فإذا استقل بالمشي لم يحسنه إلا بعد أن يتعرض للوقوع على الأرض مرات. فلا ينبغي أن نكون كالأب الأحمق الذي يخاف على ولده إذا مشى أن يسقط على الأرض فيمنعه من المشي، حتى إذا كبر عاش مقعداً مشلول الرجلين.

ويقسم المؤلف مسئوليات المرأة إلى ثلاثة أقسام (١) ما تحفظ به نفسها (٢) ما تفيد به أسرتها (٣) ما تفيد به المجتمع الإنساني. وهو يهمل الكلام عن القسم الثالث الذي يتصل بمشاركة المرأة في الأعمال العامة، لأن دورها فيه لم يكن في نظره قد جاء وقتذاك. ويقول في القسمين الآخرين: إنه مهما اختلف الناس في فهم طبيعة المرأة، فليس فيهم من ينكر أنها لا تستغني عن الأعمال التي تحافظ بها على قوتها الحيوية، وتُعِدها للقيام بحاجات الحياة الإنسانية وضروراتها، كما أنها لا تستغني عن الأعمال والمعارف التي تتعلق

بواجباتها في الأسرة. ثم يقول: إننا قد ورثنا الصورة التي كوناها عن المرأة من العرب الذين قامت حياتهم – حسب زعمه – على الغزو والنهب، ومن ثم لم يكن فيها للمرأة نصيبٌ تشارك به في الدولة. ثم لم يكن لها نصيب في تربية الولد، لأن تربيته كانت مقصورة على تغذية جسمه، ليشب مقاتلا لا عالماً فاضلا. وصورةُ المرأة هذه التي ورثها المسلمون – حسب زعمه – عن العرب قد تكون صحيحة بالقياس إلى الماضي، ولكنها مزوَّرة إذا نظرنا إلى الحال والمستقبل، لأن الحالة الاجتماعية والاقتصادية قد تغيرتا تغيراً تاماً. فقد اتسع الميدان لتجادل العقول. والمرأة إنسان مثل الرجل، زيّنته الفِطرةُ بموهبة العقل. فمن حقها أن تسمو إلى مرتبة الرجل أو ما يقرب منها على الأقل. ويعتمد قاسم أمين على إحصاء سنة ١٨٩٧، الذي يدل على أن عدد النساء اللاتي يشتغلن بحرفة أو صنعة قد بلغ ٦٣٧٣١ وهو يساوي ٢ ٪ من جملة النساء، ولا يدخل فيه الفلاحات اللاتي يشتغلن بالزراعة، ولا الأجنبيات اللائي تبلغ نسبة المحترفات فيهن ٢٠ ٪، كما لا يدخل فيه النساء اللائي لا عائل لهن ممن يعشن عالة على أقاربهن، أو ممن يَستعمِلْن لكسب العيش وسائل لا يُعترف بها. ولا يدخل فيه الزوجات اللائي لا يكفي كسب أزواجهن لضرورات معاشهن ومعيشة أولادهن. ثم يتساءل قاسم أمين: أفلا ينبغي لهذا العدد من النسوة اللائي تقضي عليهن ضرورات الحياة بمزاحمة الرجال أن يزوَّدن بما يعينهن في معركة الحياة؟... والمؤلف يسلم بأن الفطرة قد أعدت المرأة للاشتغال بالأعمال المنزلية وتربية الأولاد. ولكنه يرى أن من الخطأ أن نبني على ذلك أن المرأة لا يلزمها أن تستعد بالعلم والتربية للقيام بمعاشها وما يلزم لمعيشة أولادها عند الحاجة. ففي النساء من لم تتزوج، وفيهن من انفصلت عن الزوج بالطلاق أو الموت، وفيهن المحتاجات لمعاونة الزوج لفقره أو لعجزه أو لكسله. وفي المتزوجات عدد غير قليل ممن ليس لهن أولاد. ثم يعجب قاسم أمين للذين يعارضون تعليم المرأة. فهم يبيحون للمحتاجات منهن أن يعملن، ويقولون: إن

الضرورات تبيح المحظورات . ولكنهم ينسون أن مذهبهم هذا ليس له إلا دلالة واحدة ، وهو أنهم يريدون قصر المرأة على الأعمال الحقيرة الممتهنة ، كالخدمة في البيوت ، وبيع السلع الزهيدة في الطرقات .

أما القسم الثاني الذي يتكلم المؤلف فيه عن مسئولية المرأة أمام أسرتها ، فهو يعتمد فيه على إحصائية وفيات الأطفال في القاهرة ، ويقارنه بوفيات مدينة ضخمة كلندن ، فيرى أن عدد الموتى من أطفال القاهرة يزيد على ضعف عدد الموتى من أطفال لندن. ويُرجِع ذلك إلى جهل الأم المصرية بالثقافة الصحية . وهو يقول : إن المرأة المهذبة الحرة هي وحدها التي يمكن أن يكون لها نفوذ عظيم في أسرتها . أما المرأة الجاهلة المستعبَدة، فلا يمكن أن يتجاوز نفوذها نفوذ رئيسة الخدم في البيت . فالمرأة المصرية الجاهلة لا تعرف كيف تعاشر زوجها ، ولا يمكنها أن تدير بيتها، ولا تصلح لأن تربي أولادها . ذلك لأن أعمال الإنسان تصدر عن أصل واحد ، هو علمه وإحساسه . فإن كان هذا الأصل راقياً كان أثره في كل شيء كبيرا نافعاً حميداً . وإن كان منحطاً كان أثره في كل شيء حقيراً ضاراً غير محمود . ويضرب المؤلف أمثلة لفساد تربية الأبناء من أثر جهل الأم ، مثل منع الطفل من اللعب كي لا يشوِّش عليها ، ومثل تخويفه بمُوهِمات تثير في ذهنه خيالات قد تلازمه طول عمره ، ومثل وعده بوعود لا تفي بها إذا أرادت مكافأته ، وإظهارِ الغضب عليه ونهره بالصوت الشديد وإزعاجه بالتهديد ، ثم ضمِّه وتقبيله وإظهارِ غاية الندم حين تشاهد انفعاله نتيجة ما أتت .

ويتساءل المؤلف عن علة تأخر الأمم الإسلامية، ويفترض لذلك ثلاثة أسباب ، هي : الإقليم ، والدين ، والأسرة . ثم يستبعد الفرضين الأولين ، لأنه لم يثبت بأدلة علمية صحيحة أن الحرارة تؤثر في الجسم والعقل تأثيراً سيئاً، ولأن المسلمين قد برهنوا في ماضيهم على أن دينهم عامل من أقوى العوامل للترقي في المدنية . ولذلك فهو يرد تأخر المسلمين إلى نظام الأسرة الفاسد بسبب جهل المرأة . ويؤيد ذلك بأن الأمم الشرقية التي لا تدين بالإسلام

تشاركهم في ذلك ، لأن وضع المرأة فيها لا تختلف عن وضعه في الأمم الإسلامية . ويقول المؤلف : إن العلوم التي يتلقاها الأبناء في المدرسة لا تزيد قيمتها عن أن تكون محفوظات لا ينفذ منها شيء إلى باطن نفوسهم ، فتكون داعية للعمل حافزة إليه . وذلك لأن تربيتهم الأولى لم تتناول وجدانهم في أول السن. « هذا الوجدان الذي هو المحرك الوحيد للعمل . لا يظهر ولا يقويه ولا ينميه إلا التربية البيتية، ولا عامل لها في البيت إلا الأم . فهي التي تلقن ولدها احترام الدين والوطن والفضائل، وتغرس في نفسه الأخلاق الجميلة . وتنفث فيها روح العواطف الكريمة . ص ١٣٨–١٣٩ ». ويختم كلامه عن هذا القسم بقوله : « ولكن المتأمل إذا روّى في الأمور يجد أن لسيْر الإنسانية قوانين خاصة يجب مراعاة أحكامها لنمو الحياة واستكمال قواها ، سواء في الأفراد أو في الجماعات ، وأن كل مخالفة لهذه القوانين لها أثر سيء وضرر عظيم يلحق الفرد أو الهيئة الاجتماعية . فالتعويل على حرمان المرأة من حريتها في اتقاء ضرر سوء استعمال ذلك الحق ربما يفيد في منع بعض النساء من إتيان ما ينشأ عن ذلك الضرر . ولكن من المحقق أنه بجانب هذه الفائدة الخاصة المؤقتة يجلب ضرراً عاماً مستمراً ، وهو تعطيل النمو في ملكات صنف النساء بتمامه ص ١٥٤ » .

وقد اتسم كتاب (المرأة الجديدة) — إلى جانب هذا الطابع الغربي الذي يعتمد على آراء مفكري الغرب ، ويصطنع أساليبهم في الإحصاء وفي الدراسات النفسية والاجتماعية والتجريبية [١] — بمهاجمة علماء الدين الذين هاجموه من قبل هجوماً عنيفاً واتهموه بالتفرنج وبإفساد تقاليد الإسلام، عندما نشر كتابه الأول (تحرير المرأة) . وقد جرّته مهاجمةُ رجال الدين إلى القسوة في الحكم على الحضارة الإسلامية في بعض الأحيان . فقد كان معارضو قاسم أمين يرون أن نهضتنا يجب أن تعتمد على تراثنا القديم وعلى

---

١ – تراجع أمثلة لاعتماد قاسم أمين على آراء الغربيين في كتاب المرأة الجديدة ص ٨–١٧، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٥، ٦٥ ، ٧٥ ، ١٠٣ ، ١٢٣ ، ١٢٦ – ١٢٧ ، ١٦٧ .

حضارتنا الإسلامية وحدها . فهو يرد على ذلك بأن الحضارة الإسلامية قامت على دعامتين : الأساس الديني الذي كوّن من القبائل العربية أمةً واحدة ، والأساس العلمي الذي ارتفعت به الأمة الإسلامية وآدابها . ثم يزعم أن العلم كان وقتذاك ضعيفاً في أول نشأته ، وكانت أصوله ضرباً من الظنون التي لم تؤيدها التجربة . ولذلك كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين ، فتغلّب الفقهاء على رجال العلم ، ووضعوهم تحت رقابتهم ، وزجوا بأنفسهم في المسائل العلمية ، ينتقدونها ويفتون بمخالفتها لنصوص القرآن والحديث التي يؤولونها . وبذلك حملوا الناس –حسب زعمه– على إساءة الظن بالعلم ، فنفروا منه وهجروه . وانتهى بهم الأمر إلى الاعتقاد بأن العلوم جميعاً باطلة إلا العلوم الدينية ، بل قالوا في العلوم الدينية نفسها إنها يجب أن تقف عند حد لا يجوز لأحد أن يتجاوزه . ثم تقدمت العلوم ، وظهرت المكتشفات الحديثة ، واستطاع العلم أن يشيد بناء متيناً لا يمكن لعاقل أن يفكر في هدمه . وبذلك تغلب رجال العلم على رجال الدين . وينتهي قاسم أمين من هذا العرض إلى أن التمدن الإسلامي قد بدأ وانتهى قبل أن يُكشَف الغطاء عن أصول العلم . فكيف يمكن أن نعتقد أن هذا التمدن كان نموذج الكمال البشري ؟ ... ثم يبين أن كثيراً من ظواهر التمدن الإسلامي لا يمكن أن تدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية . ويضرب الأمثلة من نُظُم هذا التمدن في الحكم ، وهي في رأيه أقل من المستوى الذي بلغه اليونان والرومان في كفالة الحريات .[1] كما يضرب أمثلة من نظام الأسرة ليبين أنه كان غاية في الانحلال ، وأن الفرق واسع بينه وبين النظم والقوانين التي وضعها الأوربيون لتأكيد روابط الأسرة . ويختم ذلك متسائلا : إذا كانت هذه

---

١ – هذه المقارنة بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة اليونانية الرومانية وترجيح كفة الأخيرة تبين أن المعين الذي كان يستمد منه قاسم أمين وأضرابه هو كتابات المتحررين في أوروبا liberals الذين كانوا يحقرون الحضارة المسيحية ويمجدون الحضارة اليونانية واللاتينية في جاهليتها الوثنية السابقة على المسيحية .

حالهم . فما الذي يُطلَب منا أن نستعيره منها ؟ ...وأي شيء منها يصلح لتحسين حالنا اليوم؟ ... ثم يقول : « متى تقرر أن المدنية الإسلامية هي غيرُ ما هو راسخ في مخيلة الكتّاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليه ، لا بما كانت في الحقيقة عليه ، وثبت أنها كانت ناقصة من وجوه كثيرة ، فسيان عندنا بعد ذلك أنّ احتجاب المرأة كان من أصولها أو لم يكن . وسواء صح أن النساء في أزمان خلافة بغداد والأندلس كنّ يحضرن مجالس الرجال أو لم يصح . فقد صح أن الحجاب هو عادة لا يليق استعمالها في عصرنا ص ١٨٣ »

ويدعو قاسم أمين في آخر كتابه دعوة صريحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، فيقول – بعد أن يبين أن إعجابنا الشديد بالماضي هو نتيجة لشعورنا بالضعف والعجز : « هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه . وليس له دواء إلا أننا نربي أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها . إذا أتى ذلك الحين – ونرجو أن لا يكون بعيداً – انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربي ، وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح ما في أحوالنا إذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية الحديثة ، وأن أحوال الإنسان مهمـــا اختلفت ، وسواء كانت مادية أو أدبية، خاضعةٌ لسلطة العلم . لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها في الجنس واللغة والوطن والدين متشابهةٌ تشابهاً عظيماً في شكل حكومتها وإدارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها ولغاتها وكتابتها ومبانيها وطرقها ، بل في كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل.[1] هذا هوالذي جعلنا (نضرب الأمثال بالأوروبيين)

١ – يشير قاسم أمين إلى اتفاق الأمم الأوربية في آداب الاجتماع وفي الكتابة بالحروف اللاتينية وفي ارتداد أكثر لغاتها إلى أصول يونانية لاتينية . ومن المعروف أن قاسم أمين كان يدعو إلى ثورة في لغة الأدب وخطه، تشبه ثورته الاجتماعية . فننسلخ من لغة القرآن ونكتب آدابنا بلهجاتنا العامية على نحو ما انسلخت اللغات الأوربية الحديثة من أمها اللاتينية . ونعبر في خطنا عن الحركات بحروف تدخل في بنية الكلمة على طريقة الكتابة بالحروف اللاتينية .

ونشيد بتقليدهم، وحملنا على أن (نستلفت الأنظار إلى المرأة الأوروبية). »
« ص ١٨٥–١٨٦ ».

ويختم قاسم أمين كتابه بالإشارة إلى أن ما انبعث في الشرقيين من شوق إلى مجاراة الغربيين، قد حدث بعد أن اختلطوا بهم فتبينوا سوء حالتهم الاجتماعية حين قاسوها بحالة الغربيين. ويقول إن الكتّاب والمرشدين قد فاتهم أن كلامهم لا يترك أثراً إلا إذا وصل إلى النساء، اللاّئي هن حَجَرُ الزاوية في تربية الأجيال. فإذا أراد المصريون أن يصلحوا حالهم، فعليهم أن يبدءوا الإصلاح من أوله. « وهذه الحقيقة مع بساطتها وبداهتها قد اعتبرها الناس يوم جاهرنا بها في العام الماضي ضرباً من الهذيان. وحكم الفقهاء بأنها خَرْق في الإسلام. وعدّها الكثير من متخرجي المدارس مبالغة في تقليد الغربيين. بل انتهى بعضهم إلى القول بأنها جناية على الوطن والدين. وأوهموا فيما كتبوا أن تحرير المرأة الشرقية أمنية من أماني الأمم المسيحية تريد بها هدم الدين الإسلامي. ومن يعضدها من المسلمين فليس منهم. إلى غير ذلك من الأوهام التي يصغي إليها البسطاء، ويتلذذ باعتقادها الجهلاء، لعدم إدراكهم منافعها الحقيقية. ونحن لا نرد عليهم إلا بكلمة واحدة، وهي أن الأوروبيين إذا كانوا يقصدون الإضرار بنا، فما عليهم إلا أن يتركونا لأنفسنا، فإنهم لا يجدون وسيلة أوفى بغرضهم فينا من حالتنا الحاضرة.
ص ٢١٥–٢١٦ ».

* * * *

إلى جانب هذه الطائفة التي كانت تحـاول النهضة بمصر وبالشرق وبالمسلمين عن طريق الأخذ بأساليب الحضارة الغربية، التي هي في زعمهم أكثر ملاءمة للعصر، كان هناك فريق آخر يرى أن الأمم الإسلامية التي سقطت تحت أقدام الغرب لا يمكن أن تنهض على أساس اعتناق مبادئ الغرب، لأن هذا لا يؤدي إلا إلى إفناء نفسها فيه، ولا ينتهي إلا إلى إعجابها

بمستعبديها، وسكونها إليهم ، وأنسها بهم . وعند ذلك لا تجد في نفسها ما يحفزها للتخلص منهم ، لأنها ستفقد إحساسها بأنهم غرباء عنها . لذلك نادى هذا الفريق من المصلحين بأن النهضة الصحيحة لا تقوم إلا على أساس التمسك بديننا وتقاليدنا .

وقد كان من أشد ما أفزع أصحاب هذا المذهب أن شباب المسلمين ممن فتنتهم المدنية الغربية — قد استقر في وهمهم أن النسبة إلى الدين سُبَّة ، وأن الظهور بالمحافظة عليه مَعَرّة ، حتى لقد احتاج أديب من أدباء ذلك العصر وهو الشيخ طه حسين إلى أن يعتذر عن بدء محاضرة له في اللغة والأدب بحمد الله والصلاة على نبيه فقال : « سيضحك مني بعض الحاضرين إذا سمعني أبدأ هذه المحاضرة بحمد الله والصلاة على نبيه ، لأن ذلك يخالف عادة العصر » . (١)

وأصبح الإعجاب بكل وافد من الغرب وهماً مسلطاً على الناس ، حتى لقد احتاج الداعون بدعوة الإسلام إلى أن يضربوا للناس الأمثال بزعماء الغرب ممن يحترمون دينهم ولا يرون الوطنية إلا شعبة من الإيمان . وهذا هو محمد عبده ينقل عن بسمارك قوله :(٢) « لو نُقِضَت عقيدتي بديني لم اخدم بعد ذلك سلطاني ساعةً من زمان . إذا لم أضع ثقتي في الله لم أضعها في سيد من أهل الأرض قاطبة . لكن انظروا إليّ تجدوني ملكت من موارد الرزق ما يكفيني ، وارتقيت من المناصب ما لا مطمع بعده . فلماذا أشتغل ؟ ولِمَ أجهد نفسي في العمل ؟ ولم أعرِّضها للهموم والآلام ؟ ... لا يبعثني على شيء من هذا إلا شعوري بأنني في جميع ذلك أعمل لوجه الله ... اسلبوني هذا الإيمانَ تسلبوني محبتي لوطني . اعلموا أنني لو لم أكن مسيحياً مخلصاً لم يكن لكم وزير كبير مثلي يدبر أمر الاتحاد الألماني . »

١ — مجلة الهداية عدد أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩١١ ص ٧٦١ .

٢ — تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٣٨١ ، من مقال له عن « بسمارك والدين » ، نشر في صحيفة المنار ٢١ يناير سنة ١٨٩٩ .

واتجه الشعراء إلى تدعيم هذه الفكرة وإقرارها وإحلالها محل العقيدة من الشباب ، بتذكيرهم بمجد الإسلام القديم .

يقول محرّم : (١)

تذكّرَ ماضي دينه فتوجعا ... وأحزنه ما نابه فتفجعا
وأهلكه من قومه أن قومه ... بعمياءَ يأبى غيمُها أن يقشعا
وكائنْ دعاهم بالقوافي إلى الهدى ... فلو أسمع الصمَّ الدعاءُ لأسمعا
لقد زادهم ذاك الدعاءُ ضلالة ... فيا ليته لم يُسمِع الصوتَ إذ دعا !
وكيف وُجومُ المرء أصبح دينُه ... مهاناً وقد كان العزيزَ الممنّعا ؟
... همُ ضيعوا ما استُودِعوا من نفائس ... أراها بأيدي القوم نهباً موزعا
وهم خذلوا الدين القويم وزعزعوا ... جوانبه حتى وهَى وتضعضعا
... وما كنت أخشى أن أرى الدينَ ذِلّةً ... ولا أن أراه بعد أمنٍ مروّعا
تَصدّعَ قلبي رحمة لمصابه ... وليس عجيباً منه أن يتصدعا ! !

ويقول (٢) :

هل الدينُ إلا معْقِلٌ نحتمي به ... إذا دَلَفَ العادي إلينا فأسرعا
هو الدين، إن يذهبْ فلا عز بعده ... وإن جدّ ساعينا على إثْرِ من سعى
ولا دينَ حتى ينزِعوا عن ضلالهم ... ويصبحَ منهم موطنُ الغيّ بلْقَعا
وحتى يصونوا للكتاب زمامه ... وحتى يكونوا ساجدين ورُكّعا
هنالك يقوى منهمُ ما تضعضعا ... ويثبُتُ من بنيانهم ما تزعزعا

ويقول : (٣) .

ياداعيَ الله مُدّ الصوتَ وادعُ إلى ... جناته من يريدُ النارَ مسرورا

---

١ – ديوان محرم ١ : ١١١ .
٢ – ديوان محرم ١ : ١١٣
٣ – » » ٢ : ٨١

أما ترى الناس لا يبغون صالحةً ولا يخافون فوق الأرض محذورا؟!
أمـــا تراهم كأنعـــام مشرّدة فوضى تهيم وتمضي جُنَّحا زُورا؟!
يا داعيَ الله إن القوم قد لبسوا ليلَ العَماية فابعث فيهم النورا
أطلِعْ لهم من كتاب الله بيِّنةً تجلو اليقينَ وتمحو الشك والزورا

ويقول: [1]

أما وجلالِ الله في ملَكوته وآلائه العظمى وآياته الكبرى
لقد فدح الخَطْبُ الذي هال دينَه فما يملك المحزون من أجله صبرا
ألاَ نهضةٌ بَكريَّةٌ عُمريَّة تعيد إليه مجدَه تارة أخرى
وما أنا من رَوْح الإله بآيسٍ وإن ملأ الهمُّ الجوانح والصدرا
فيا ربِّ لا تبعث إليَّ منيّتي إلى أن أرى البعث المؤمّل والنشرا
وهوِّنْ خطوب الدهر إنْ حان حينُها وطَمّت على الأحياء ترهقهم عسرا

ويبيّن لهم الكاشف أن الغرب لم يتقدم إلا حين أخذ بتقاليد الإسلام في الكفاح وفي طلب العزة والسعي للمجد، وأن المسلمين لم يتخلّفوا إلا حين تخلوا عما أمرهم به دينهم من ذلك. ولذلك فهو يدعو الشرقيين إلى مجاراة الغربيين في الأخذ بأسباب القوة، لأنهم أحق منهم باتباع ما جاء به الإسلام، فيقول: [2].

بني الشرق! أدعوكم إلى خير منهج يعيد إليكم نُضْرةَ العيش ثانيا
فجاروا بني الغرب الذين تشبّهوا بأجدادكم حتى تنالـــوا المعاليا
وأنتم بتقليد الجدود أحقُّ مِنْ عِدىً سلبوكم مظهراً كان زاهيا
أسرَّكُمُ أنَّ المحارم تُسْتبَى ولم تلق فيكم عن حِماها محاميا!؟
وأعجبكـــم أن الطرائق تُعْتَفَى ولم نَرَ منكم يا بني الشرق واقيا
وإن لكم سيفاً من الدين ماضياً يَفُلُّ إذا جردتمـــوه المواضيا
فأحيوا به نَهْجَ النبي وجددوا مَقاماً لـــدين الله أصبح باليا

1 — ديوان محرم 2 : 82
2 — ديوان الكاشف 1 : 91

ورُدوه حتى تستعيدوا شبابه نضيراً وإلاّ عاش ظمآنَ ذاويا
كفاه اكتئاباً مامضى من سكوتكم وغفلتكم عن أمره وكفانيا ! !
فأرضوه عنكم بانتهاج طريقه فما أجمل الدنيا إذا بات راضيا
هنالك نَحْيَى في نعيم ونَضْرة ونأمنُ عدوان العِدَى والليا ليا

وغَذّى معظم الشعراء هذا الاتجاه الإسلامي، بما كانوا ينشرون من شعر يمجد أبطال الإسلام، ويستنبط الموعظة من تاريخهم، ويقدم القدوة الحسنة للشباب من حياتهم. وكان شوقي أبرز الشعراء الذين غذوا هذا الاتجاه في قصائده الإسلامية المتعددة. فقد أبرز فيها ما يحرص عليه الإسلام من دعوة المسلمين إلى الأخذ بأسباب القوة وابتغاء العزة واستهداف السيادة ، جرياً على نواميس الكون التي تقوم على التنافس بين الأفراد والأمم .

فيقول في (نهج البردة) التي نشرها سنة ١٩١٠ (١) :

قالوا غزوتَ، ورسلُ الله ما بُعِثوا لقتل نفسٍ، ولا جاءوا لسفك دم
جهلٌ وتضليلُ أحلامٍ وسفسطةٌ فتحتَ بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كلُّ ذي حَسَبٍ تكفل السيفُ بالجهّال والعَمَم
والشرُّ إن تَلْقَه بالخير ضِقْتَ به ذرعاً، وإن تلقه بالشر ينحسم
سل المسيحيةَ الغرّاءَ، كم شربتْ بالصاب من شهوات الظالم الغَلِم
طريدةَ الشِّرْك يؤذيها ويُوسعها في كل حينٍ قتالا ساطع الحَدَم
لولا حُماةٌ لها هبّوا لنُصْرَتها بالسيف ما انتفعت بالرفق والرُّحُم

ويقول من قصيدة له، كتبها سنة ١٩١١، في استقبال الأسطول العثماني (٢)

زِدْهُمْ أميرَ المؤمنين من القُوَى إن القُوَى عِزٌ لهم وقِوَامُ

---

١ – الهلال . عدد فبراير سنة ١٩١٠ ص ٣١٤ . الديوان ١ : ٢٥١ .
٢ – الديوان ١ : ١٨٤ ، ١٨٦ . نشرت في مجلة الهلال عدد يونيه سنة ١٩١١

المُلْكُ والدُولاتُ ما يَبْنِي القنا والعلمُ ، لا ما ترْفعُ الأحلام
والحق ليس وإن علا بمؤيّد حتى يحوِّط جانبيه حسام
خطّ النبيُ براحتيه خندقاً ومشى يحيط به قناً وسهام
يا معشرَ الإسلام في أسطولكم عزٌ لكم ووقاية وسلام
سيلُ الممالك جارفٌ من شدّةٍ وقوىً ، وأنتم في الطريق نيام
حُبُّ السيادة من شمائل دينكم والجِدُّ روحٌ منه والإقدام
والعلمُ من آياته الكبرى إذا رَجَعَتْ إلى آياته الأقوام
لو تُقرِئون صغاركم تاريخَه عرف البنون المجدَ كيف يُرام ! !

ويقول في قصيدته (الهمزية النبوية) التي نشرها سنة ١٩١٢ ، موجهاً خطابه للرسول صلوات الله وسلامه عليه : (١)

وتمُدُّ حِلْمَك للسفيه مداريا حتى يضيق بحلمك السفهاءُ
في كل نفس من سُطَاك مَهَابةٌ ولكل نفسٍ من نَدَاك رجاءُ
والرأي لم يُنْضَ المهنَّدُ دُونَه كالسيف لم تَضْرِبْ به الآراءُ

ويقول في قصيدة (ذكرى المولد) التي نشرها سنة ١٩١٤ ، متحدثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم : (٢)

وكان بيانُه للهَدْيِ سُبْلاً وكانت خيلُه للحق غابا
وعلَّمَنَا بناءَ المجد حتى أخذنا إمْرَةَ الأرض اغتصابا
وما نَيْلُ المطالب بالتمني ولكنْ تؤخَذ الدنيا غِلابا
وما استعصى على قومٍ مَنَالٌ إذا الإقدامُ كان لهم رِكابا

ثم هو يبين ما امتاز به الإسلام من اتزان . فهو مزاج معتدل من القوة والرحمة ، يقود جهادَه وحروبَه الخيرُ والهدفُ الشريف ، ويَحُدُّ من شِرَّتها

---

١ – الديوان ١ : ٢٤ نشرت في مجلة المؤيد ، عدد ٧ مارس سنة ١٩١٢

٢ – الديوان ١ : ٦٢ نشرت في مجلة سركيس ، عدد ١٥ فبراير سنة ١٩١٤ .

الانصاف وتنكّبُ البغي. وهو يدعو إلى السلام ، ولكنه يخوض الحروب إن ألجأه إليها السفهاء دفاعاً عن هذا السلام.

يقول من قصيدة في رثاء عثمان باشا الغازي ، نشرت سنة ١٩٠٠ (١)

إنما المُلْكُ صارمٌ ويَرَاع فإذا فارقاه ساد الطّغام
ونظامُ الأمور عقل وعدل فإذا ولّيا تولى النظام
وعجيبٌ ، خُلِقتَ للحرب ليثا وسجاياكَ كلُهن سَلام !!
فهي في رأيك القويم حَلالٌ وهي في قلبكَ الرحيم حَرَام
لكَ سيفٌ إلى اليتامى بفَيْض وحنان يحبه الأيتام
مستبدٌ على قويٍ ، حليمٌ عن ضَعيف ، وهكذا الإسلام

ويقول في الهمزية النبوية :

الحربُ في حَقٍّ لديكَ شريعةٌ ومن السُّموم الناقعات دواء
إن الشجاعةَ في الرجال غَلاظةٌ ما لم تَزِنْها رأفةٌ وسخاء
والحربُ من شَرَفِ الشعوب فإن بغَوا فالمجد مما يدعون براء
والحرب يبعثها القوي تَجَبُّراً وينوء تحت بَلائها الضعفاء
كم مِنْ غَزَاةٍ للرسول كريمة فيها رِضىً للحق أو إعلاء
كانت لجند الله فيها شِدَّةٌ في إثرها للعالمين رخاء
ضربوا الضلالةَ ضربةً ذهبت بها فعلى الجَهالة والضلال عَفَاءُ
دَعَموا على الحَرْبِ السَّلامَ وطالما حَقَنَتْ دماءً في الزمان دماءُ

وهو يبين في أرجوزته الطويلة (دول العرب وعظماء الإسلام) ، حين يدافع عن عثمان بن عفان ، أن الإسلام لا يتعارض مع الدنيا ، ولا يطالب الناس بالزهد فيها ، فيقول (٢) :

١ – الديوان ٣ : ١٤٣ نشرت في المجلة المصرية ، ١٦ يونيو سنة ١٩٠٠ ص ٤٩ .
٢ – دول العرب وعظماء الإسلام ص ٥٠ وقد نظم شوقي هذه الأرجوزة في منفاه ، خلال الحرب العالمية الأولى .

فإن تسل ماذا أتى عثمانُ؟ مما يردُّ الدينُ والإيمانُ
تجد دعاوى القوم لفقوها وسلعاً بالدين تفقوها
زروا على الإمام ما لا يزرى وأركبوه الحسنات وزرا
واستنكروا علوه بالدور عن دارة الثلاثة البدور [1]
وقال قومٌ خالف الأترابا وحالف الثراء والإترابا
وكرهوا التمصر والتمدينا وزعموا الدنيا تعفي الدينا
وينحهموا ما لهم وماله؟ طاب وطيب الحلال ماله
مالٌ كما شاء العفاف والكرم زكا كهدي البيت أو حلي الحرم
والزهد حالٌ للقلوب والنهى ما أمر الله به ولا نهى
وهذه الدنيا يد العظيم وسره في ملكه العظيم
أسكنها العقل فكانت أشرفا من كل زاه في السماء أشرفا
أحل منها ما صفا مشارعاً وحرم الآفات والمصارعا
وساقها للأنبياء ترسف هذا سليمانُ وهذا يوسف
وأين من شأنيهما عثمانُ على الذي خوله الرحمنُ؟

وإنما رسم الإسلامُ حكومةً قوامُها العدلُ والمساواة، لا معبود فيها إلا الله. أمرُ الناس فيها شورى. لا يطغى فيها غني على فقير، ولا قويٌّ على ضعيف: [2]

داءُ الجماعة من أرسطاليس لم يوصف له حتى أتيت دواء
فرسمت بعدك للعباد حكومةً لا سوقةٌ فيها ولا أمراء
اللهُ فوق الخلق فيها وحده والناسُ تحت لوائها أكفاء
والدينُ يسرٌ، والخلافةُ بيعةٌ والأمرُ شورى، والحقوقُ قضاء
الإشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغلواءُ

---

١ ـ يقصد بالثلاثة البدور النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما .

٢ ـ الديوان ١ : ٢٦ من الهمزية النبوية . وقد نشرت سنة ١٩١٢ .

داويتَ مُتَّئداً وداوَوا طَفْرةً ... وأخَفُّ مِنْ بعضِ الدواء الداءُ
البِرُّ عندك ذِمّةٌ وفريضةٌ ... لا مِنّةٌ ممنونةٌ وجباءُ
جاءت فوحّدَت الزكاةُ سبيلَه ... حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفتَ أهلَ الفقر من أهل الغنى ... فالكلُّ في حقٍّ لديكَ سواء
فلو أنّ إنساناً تخيّر مِلّةً ... ما اختار إلا دينَك الفقراءُ

والإسلام يدعو إلى العمل. فالرزق مرهون بالسعي، والتوكل لا يغني شيئاً إذا صَرفَ صاحبَه عن العمل. يقول شوقي في السيرة النبوية:[1]

كان رسولُ الله في شبابِه ... لا يَدَع الرزقَ وطرقَ بابه
أيُّ رسولٍ أو نبيٍّ قبلَه ... لم يَطلب الرزقَ ويَبْغ سُبْلَه؟
موسى الكليمُ استؤجِر استئجاراً ... وكان عيسى في الصبا نجّارا
مِنْ أحسنِ الأمثال فيما أحسب ... الخُبْزُ لا يُعطَى ولكن يُكسب
والرزقُ لا يُحرَمه عبدٌ سَعى ... مضيَّقاً عليه أو موسَّعا
لا تَألُ لا سعياً ولا تُكْلانا ... لا ينفع التوكلُ الكسلانا
كان قُبَيل البعث رَبَّ مال ... وتاجراً مُيسَّر الأعمال
يَضرب في حَزْن الفَلا وسهله ... بمال عمّه ومال أهله
مباركَ الرّحْلة والإقامهْ ... مستصْحِبَ الجِدِّ والاستقامهْ
والرزقُ بين الناس بحرٌ جار ... شِراعُه يُرفَع للتّجّار
فاسترزق الله وقِفْ ببابِه ... واكسبْ، فأهلُ الكسب من أحبابه

وكان مما تمخض عنه هذا الاتجاه الإسلامي سُنّةٌ جديدة جرى عليها الناس منذ سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) وهي الاحتفال برأس السنة الهجرية.[2]

---

١ – دول العرب وعظماء الإسلام ص ٢٤، ٢٥

٢ – محمد فريد ص ٩١. والواقع أن هذا الاحتفال متأثر بالتقليد المسيحي الذي يحتفل برأس السنة الميلادية. وقد فات المقلدين اختلاف الظروف والدلالات في الحالتين لأن أول السنة الهجرية لا يطابق هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام. فقد كان ميلاده وهجرته كلاهما في شهر ربيع الأول.

وكان هذا اليوم يمر من قبل كغيره من الأيام لا يكاد يأبه له أحد ، في الوقت الذي كانت تحتفل فيه الحكومة رسمياً بعيد ميلاد الملكة فيكتوريا ، ثم بعيد الملك إدوارد السابع من بعدها . [1] وقد كان احتفال المصريين العظيم بهذا العيد يضم أعداداً غفيرة من الناس . وكان الشعراء قوام هذه الحفلات ، يتبارون في إلقاء ما أعدوا من قصائد ، يعرضون فيها ما مر بالبلاد الإسلامية — وبمصر خاصة — في العام الفائت من أحداث ، مستلهمين العبرة من حياة الرسول ، بما يستنهض الهمم ويدعو إلى العمل والجهاد .

* * * *

وأخذ أصحاب هذا المذهب الإسلامي يزيلون من أوهام الناس ما اختلط عليهم من أمر دعوتهم ، إذ ظن بعضهم أن الإسلام الذي يدعون إلى إقامة النهضة على أساسه هو هذا الخليط من خرافات الجهال التي غلب فيها الفاسد على الصالح ، فشرع هؤلاء المصلحون يبينون للناس أن الإسلام في جوهره وفي حقيقته يختلف عما هو شائع بين العامة والجهال ، وعمّا انتهى إليه أمره بعد أن أُقحِم عليه ما ليس منه .فاتجهوا إلى تخليصه مما شابه من أوهام وما خالطه من معتقدات مفسدة ، ليقدموه للناس في صورته الصحيحة ، وليبينوا لهم أن الإسلام سهل يسير بعيد كل البعد عن التعقيد الذي أُقحم عليه فجعله شيئاً صعباً لا يفهمه إلا المحترِفون ، ولا يطيقه إلا أولو العزم من الزاهدين . وأخذوا في الوقت نفسه يهاجمون البدع والأدعياء الذين يستغلون الدين ويتاجرون باسمه،ويروّجون الأباطيل بين الجماهير الجاهلة استجلاباً للنفع وتصيداً للمغانم .

من ذلك مقالان لمحمد عبده نُشرا في الوقائع المصرية سنة ١٨٨٠ . هاجم فيهما أساليب الأدعياء المفسدين من مشايخ الطرق في الموالد . وقد صور فيهما ما يصحب الأذكار من ضرب الطبول ومن هياج الذاكرين

---

١ — مصطفى كامل ص ١٥٢

الذين يهيمون هيام المَعاتيه، ويتجردون من ثيابهم ، ويأتون أعمالا هي أدخل في الشعوذة منها في الدين ، من مثل أكل النار والزجاج . وندد محمد عبده في مقاليه بما يحدث في الموالد من اختلاط الفتيان بالفتيات ومزاحمتهم ومكاتفتهم في بيوت الله ،وهاجم بدعة (الدوسة) التي ينطرح الناس فيها على الأرض مصطفين أحدٌهم لجنب الآخر ، ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحداً بعد الآخر حتى ينتهي إلى آخرهم ، متعجباً من أن يجري هذا بين مسلمين من أهل الإيمان ، قد أمر الله بتكريمهم ، وحرم إهانتهم إلا لحدٍّ أو تعزيزٍ شرعيّ [1] .

وتابع عبد الله النديم من بعد ذلك الحملة على هذه البدع الفاسدة في مجلة (الأستاذ) . فندد بهذه الطوائف « التي تبتدع أموراً تُضحك السفهاء وتُبكي العقلاء ، وتحتال لمطامعها البهيمية بما جلب العار على الأمة ، وسلط عليها الأجنبي ، يهزأ بديننا ويقبح أعمالنا ، ظناً منه أن ما يجريه هؤلاء الجهلة من الدين » وهو يتساءل « أين تصفية الباطن التي هي مَدَارُ الطريق ؟ وأين الخمولُ مع هذا الظهور ؟... وأين التواضعُ من ركوب الخيل والبغال ، يَقْدُمُها الطبل والمزمار ،كأن الخليفة مأمور مركز أو ضابط بلد ؟... وأين البعد عن الناس مع هذه المزاحمة الدنيوية ؟ ... »

ويَعْجَب النديم لما يدّعيه جهلاء هؤلاء المرتزقة من علم ما أنزله الله، زاعمين وصوله إليهم من طريق الفتح أو الإلهام ، ولهجومهم على تفسير القرآن بما لا يقوله إلا مجنون ، ضالين في كل ما يقولون ومُضلين . ويقتطف الكاتب من كلام السلف الصالح من رجال الطريق ، أمثال الرفاعي والجُنَيد والخوّاص والبِسْطامي وذي النون والجيلاني والسُّهْرَوَرْدي ، ما يؤكد أن

---

١ – راجع المقالين في تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ١٣٣ في مقال عنوانه « إبطال البدع في نظارة الأوقاف العمومية » ، ٢ : ١٣٦ وفي مقال عنوانه « بطلان الدوسة » .

الطريق الصحيح في التمسك بالقرآن والسنة [١].

ويهاجم الجهال من خطباء المساجد الذين يصرفون الناس عن الجد وعن طلب العزة وعن الإعداد للعدو بما يَبْتدِعون فيه ويُعيدون من الدعوة إلى الانصراف عن الدنيا. فيقول : [٢].

« ولا نصل للقوة العلمية وفينا من يقول : العز في الخمول ، والسعادة في العزلة ، والفضل في الزهد في الدنيا والبعد عما في أيدي الناس ، فإنّ من توكل على الله كفاه » وهذا الفريق متخلّل بين العامة .يزعم أنه من الهداة ، وهو من المُضِلين . فلو كان من البُصَراء لطالع سيرة نبينا سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وغزواته ، وفتش في سياسته السماوية والأرضية ... فهؤلاء بجهلهم سيرة نبيهم سوّلت لهم أنفسهم أنهم قائمون بإرشاد الأمة وهدايتها إلى طريق الحق ، وما درَوا أنهم أماتوا الهمم وصرفوا النفوس عن التعلق بحوافظ الدين والملك معاً . ومن هذا القبيل الذين دوّنوا دواوين الخطابة ، وجعلوها قاصرة على التزهيد في الدنيا ، والتحذير من المال وجمعه ، والفرار من المجامع والظهور ، والرضا بخشن العيش والصبر على الذل والهوان، وتركوها للخطباء يخطبون بها يوم الجمعة ... فلو تصدّت أوروبا لإماتة همم المسلمين وصرفهم عن مجد المُلْك والدين والجنس ، وقطعَتْ دهوراً في اختراع طريق تصل به هذه الغاية ، ما اهتدت إلى ما فعله الخطباء ،مِنْ تحويل الخطابة عن عهدها النبوي إلى ما قاله المتملقون إلى الملوك ، والغافلون عن طريق الهداية وإصلاح الأمة . »

« ونحن نستفتي هؤلاء المثبِّطين ،إذا كانت الدنيا يُحذّر منها فلمن خُلِقت ؟... وإذا كان الاشتغال بها بهتاناً وضلالا ، ولا يشتغل بها إلا

---

١ - مجلة الأستاذ عدد ١١ أبريل سنة ١٨٩٣ ص ٧٨٦ « الطرق وما فيها من البدع » ، عدد ٢٥ أبريل سنة ١٨٩٣ ص ٨٢٨ (الطرق وإصلاحها) .

٢ - الأستاذ عدد ٢٠ ديسمبر ١٨٩٢ تحت عنوان « أتتقلب الأمم بتقلب الأحوال ونحن نحن ؟ »

أعداء الله فلم نتألم من تسلط الغير علينا ووقوعنا في أيدي المتغلبين ، ونعُدّ الرضا بذلك ذنباً ومعصية ؟ »

ثم دعا الكاتب خطباء المساجد إلى أن يحدثوا الناس فيما يتصل بشئونهم وحياتهم السياسية والعمرانية ، ضارباً لهم الأمثال بخطب الرسول والصحابة من بعده ، الذين كانت خطبهم يوم الجمعة في صميم الحياة ، تتصل أشد اتصال بالشئون السياسية والحربية .

وهاجم الكواكبي المبتدعة من غلاة المتصوفين في كتابه (أم القرى) مهاجمة عنيفة فقال : [١] .

« إن الطامة من تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلّسين وغلاة المتصوفين ، الذين استولوا على الدين فضيعوه وضيعوا أهله . وذلك أن الدين يُعرَف بالعلم ، والعلم يعرف بالعلماء العاملين ، وأعمال العلماء قيامهم في الأمة مقام الأنبياء في الهداية إلى خيري الدنيا والآخرة . ولا شك أن لمثل هذا المقام في الأمة شرفاً باذخاً ، يتعاظم على نسبة الهمم في تحمل عنائه والقيام بأعبائه. فبعضُ ضعيفي العلم وفاقدي العزم تطلعوا إلى هذه المنزلة التي هي فوق طاقتهم ، وحسدوا أهلها المتعالين عنهم ، فتحيّلوا للمزاحمة والظهور مظهرَ العلماء والعظماء ، بالإغراب في الدين ، وسلوك مسلك الزاهدين . ومن العادة أن يلجأ ضعيفُ العلم إلى التصوف ، كما يلجأ فاقدُ المجد إلى الكِبْر ، وكما يلجأ قليلُ المال إلى زينة اللباس والأثاث. فصار هؤلاء المتعالون يدلّسون على المسلمين بتأويل القرآن بما لا يحتمله مُحكَم النَظْم الكريم ، فيفسرون مثلا البسملة أو الباء منها بسِفْر كبير تفسيراً مملوءاً بغلط لا معنى له ، أو بحكمٍ لا برهان عليه . ثم جاءوا الأمة بوراثة أسرار أدّعوها ، وعلومٍ لدُنّيات ابتدعوها ، وتسنُّم مقامات اخترعوها ، ووضعِ أحكام لفّقوها ،

---

١ — أم القرى ص ٢٧ — ٣١ . وتأثر هؤلاء الكتاب جميعاً بمحمد بن عبد الوهاب ، وبابن تيمية من قبله واضح في هذا الموضوع . وفي هذا الموضوع يلتبس كلام السلفية بكلام اللبراليين ، والفرق بينهما دقيق . أحدهما يستهدف العودة بالإسلام إلى نقائه وصفائه . والآخر يستهدف محاربة الدين وما يسمونه (العقلية الغيبية) .

وترتيب قُربُاتٍ زخرفوها . »

ثم يبين الكواكبي بعد ذلك تأثر رجال الطرق ببِدَع اليهودية والنصرانية وبطقوس الكنيسة ، ويرد كثيراً من تقاليدهم ورسومهم إلى نظائرها في النصرانية وفي التقاليد الكنسية ، ويقول إن عبادتهم الله قد أصبحت أشبه شيء بعبادة مشركي العرب التي وصفها الله تعالى بقوله : (وما كانَ صلاتهم عند البيت إلا مُكاءً وتَصْدِيَة) أي صفيراً وتصفيقاً . وهؤلاء جعلوا عبادة الله تصفيقاً وشهيقاً ، وخلاعة ونعيقاً . وسحروا بهذه الخزعبلات عقول الجهلاء ، واختلبوا قلوب الضعفاء من النساء وذوي الأهواء والأمراض العصبية ، بتزيينهم هذه الرسومَ التي تميل إليها النفوس الضعيفة الخاملة ، التي تستصعب تحصيل الدين من طريق العلم الشاق الطويل . ثم يقول :

« وقد قام هؤلاء المدلّسين أسواقٌ في بغداد ومصر والشام وتلمسان قديماً ، ولكن لا كَسُوقِها في القسطنطينية منذ أربعة قرون إلى الآن ، حتى صارت فيها هذه الأوهام السحرية والخزعبلات كأنها هي دين معظم أهلها لا الإسلام ... فهؤلاء المدلسون قد نالوا بسحرهم نفوذاً عظيماً به أفسدوا كثيراً في الدين ، وبه جعلوا كثيراً من المدارس تكايا للبطّالين الذين يشهدون لهم زوراً بالكرامات المُرْهِبة ، وبه حوّلوا كثيراً من الجوامع مجامع للبطالين الذين تَرْتَجُّ من دوي طبولهم قلوبُ المتوهمين ، وتكفهر أعصابهم ، فيتلبّسهم نوع من الخبَل يظنونه وهماً الخشوع . وبه جعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقاً لهم ، وبه جعلوا مداخيل أوقاف الملوك والأمراء عطايا لأتباعهم ، مما يسمّى في البلاد العثمانية (دعاكو وطعامية) [1] » .

وسرى أثر هذه الدعوة في الشعر . فرأينا بعض الشعراء يرددون هذه المعانيَ السابقة . فمن ذلك قول الكاشف في تصوير جهل الجماعات التي تتبع كل ناعق . فلا تلبث أن تنقاد لمن يزعم أنه المهدي المنتظر (الديوان ١ : ٨٠) :

---

١ — وراجع كذلك ٦١ — ٦٤ من المرجع السابق

كلَّ يومٍ نرى ونسمع مهديّـاً ينادي في قومه : اتّبعوني
موهماً أنّه رسولٌ من اللـه أتى يستعيد مجدَ الدين
وهو خالٍ من التجارب والقـوة والعلم والهدى واليقين
فإذا التفّ حوله الناسُ أغرا همْ بإيقاد كـلّ شرٍّ كمَين
وادّعى أنه بذلك مأمو رٌ من الوحي كالنبيّ الأمين
ومتى قام في جماعته يطـلب إعلانَ سرِّه المكنون
فمضى مورثاً عشيرته كُـلّ بلاءٍ مرّ وذكر مهين
وهي ذكرى للمسلمين فهلا خذلوا كلَّ كاذبٍ مفتون؟!
ورأوا أن دينهم في غِنىً عن دعوةٍ مِنْ مضلل مجنون

وقوله في تصوير استغلال مشايخ الطرق لجهل الناس الذين يظنون بهم القدرة على كل شيء (١ : ٨٠–٨١) :

ومريدٍ لشيخه ناذرٍ عجـلا سميناً به إليه تقرّبْ
كلما قدَّم الطعام له كبّـر مستبشراً به وتأدب
وسطا اللص في الدجى فتلقا ه ابنُه فانثنى وما نال مأرب
ودرَى الوالدُ المجهول بما كا ن فأثنى عـلى الوليّ وأطنب
قائلا : إنني رأيتُ مُغيثي في منامي على جوادٍ أشهب
حارساً منزلي يرُدُّ مُغيراً بالحسام المنصور في كل مَضْرِب
فأهان ابنَه بنسبته الفضـلَ إلى شيخه البعيدِ وأغضب
فنأى عنه تاركاً بل مُبيحاً دارَه بعدَه لمن يتوثب
وأتى اللصُ ثانياً ومضى بالـعجل لا يتقي خفيراً ويرهب
ثم هبَّ المريدُ لا يجد العجـل وعاد ابنُه إليه وأنّب
فدعا أهلَه وقال لهم ما أخذَ العجلَ غيرُ شيخي المحبّب
فلقد خاف أن يفاجئنا اللـصُّ فلم يرض أن نُهانَ ونُسلب
وأرانيه وهو يأكل في مَرْ عاه في صادق المنام ويشرب

ومن ذلك قوله في تصوير ما يسيطر على الناس من جهل ، حتى إنهم ليتعلقون بكل مُشرَّد مجنون ، وكل أحمق يغلب عليه ضعف العقل فيجعله غريب الأطوار مختلف الحالِ . وهم يظنون لسوء فهمهم للدين أن هذا الجنون هو دليل الولاية والقرب من الله (١ : ٨٣) :

في قريتي كان فتىً مجنونُ يضحك من أحواله المحزون
كأنه القرد إذا ما يطْرَبُ والأرنبُ الوحشي حين يثب
فظنه قومٌ ولِياً هاديــاً يكتشف الغيبَ ويُدْني النائيا
ويعلمُ الواقع والمستقبلا فاتخذوه مَرْجعاً وموئلا
وما كفاهم طاعةٌ لحُكمِه حتى دعَوا من يولدون باسمه
يعطيه كلٌّ منهمُ إن نَذرا له جميع ما اقتنى وادَّخرا
وناب للقوم بعيراً مَرضُ فاسرعوا إلى الفتى وركضوا
فأحضروه ورجوا أن يدركه بسِرِّه وروحه والبركهْ
فطاف بالبعير ثم صاحا هاتوا له الجزّار والسلاحا
فأوسعوه بالعصيِّ ضرباً وأشبعوه حسرةً وكربا
لا يُقبَلُ النُصحُ من النبيه فكيف بالمخبول والمعتوه
وقد يُهان ذو الحجى إن ذكّرا فكيف بالجاهل حين أنذرا
هذا وعندي أنّ من تعلقا بمثل ذا الأحمق كان أحمقا

ومن هذا الشعر الهجائي الساخر قوله أيضاً في تصوير نفاق الذين يدّعون الولاية من المشعوذين (١ : ٨١) .

هاجه الوجــدُ فمالا يذكر الله تعــالى
مرغياً كالجمل المُصْـعَب إذ حلّ عقالا
قلتُ هل تبغي بهذا الـــرقص بالله اتصــالا
قال هذا خيرُ ما ارتا ضَ به الراجي كمالا
تتركُ النفسُ به للـ جسم أغلالا ثقــالا

فهوَى دينارُ منـــه وقد تاه اختيالا
ورآه أحـــدُ القـــوم فأخفـــاه احتيالا
وأحس الشيخ بالحا دثِ فاعتـــلَّ اعتلالا
ودعا بالغَـــوْث حتّى أتعب القلبَ ابتهـــالا
قلت يا هذا أيبكي زاهدٌ مثلُك مالا ؟ !
لِمَ لا يلهمُك الذكـرُ عن الحزن اشتغالا ! ؟
فتجردْ مـــن دَعاوَى مكّنَتْ منك الخبَـــالا
إنما نفسُك من جسـمِكَ لا ترضىَ انتقالا

ويقول محرم في الأدعياء من بعض علماء الدين ، وتكالبهم على الدنيا ، وإذلال أنفسهم لأصحاب السلطان ، يُرضونهم بكل سبيل ، ويُفتونهم بما يحبون [1] :

أرى علماء الدين لا يحفظونه ولا يعرفون اليومَ رتبتَه العليا
هم اتخذوا ما أدركوا من علومه سبيلاً إلى ما يشتهون من الدنيا
فضاعوا وضاع الدينُ مابين أمّة همُو شرَعُوا فيها الضلالة والغيّا
إذا المفسدُ استفتا يريد تمادياً أتوه بأعلام الهدى تحمِل الفُتْيا
أيُعجب قوماً من أولي العِلْم أنهم يسيرون بين الناس في نوره عُميا ؟
ألا هل أرى من جِلّةِ القوم شافياً لشعبٍ مريض لا يموت ولا يحيا ؟ !
محتْهُ عَوادي الدهر إلا بقيّةً من الدين والدنيا لمن يؤثر البقيا

* * * *

وظهر بين هاتين النزعتين (الغربية والإسلامية) اتجاه ثالث يرمي إلى التوفيق بين الإسلام وبين حضارة الغرب . وهو الاتجاه الذي أشرت إليه عند الكلام عن دعوة قاسم أمين وأرجأت الكلام فيه إلى هذا الموضع من الكتاب .

---

١ ـ ديوان محرم ٢ : ٨٠

وتزّعم الشيخ محمد عبده هذا الاتجاه الجديد الذي عرّضه لسخط المتفرنجين والداعين بدعوة الإسلام كليهما – كما يقول كرومر – وإن كان سخط الأولين أقلّ من سخط الآخرين.

وحقيقة الأمر في حركة الشيخ محمد عبده وأستاذه جمال الدين الأفغاني الذي اقترن اسمه به في الشطر الأول من حياته لا تزال تحتاج إلى مزيد من الوثائق التي توضح موقفهما وتزيل ما يحيط به من غموض ومن تناقض فيما اجتمع حولهما من أخبار. فبينما يُنزله رشيد رضا – ومعه كل أتباع الشيخ محمد عبده الذين ازداد عددهم على الأيام – منزلةَ الاجتهاد في الدين، ويرفعونه إلى أعلى درجات البطولة والإخلاص الذي لا تشوبه شائبة، كان كثير من علماء الشريعة المعاصرين له يتهمونه بالمروق من الدين والانحراف به وتسخيره لخدمة العدو. فإذا تركنا هؤلاء وهؤلاء ممن قد يجد الطاعنون سبيلا إلى رميهم بالتحيز والمحاباة، أو التحامل والتزمت، وجدنا كثرة من النصوص في كتب ساسة الغرب ودارسيه تصوّر رأيهم فيه وفي مدرسته وتلاميذه ومكانه من الفكر الحديث. وهي جميعاً تتفق على تمجيده والإشادة به وبما أداه للاستعمار الغربي من خدمات، بإعانته على تخفيف حدة العداء بينه وبين المسلمين، وهو عداءٌ يستتبع آثاراً سياسية تضر مصالحه وتهدد بإذكاء الثورات التي لا تفتر ولا تنقطع [1].

وإلى جانب ذلك كله نجد إشارات صريحة في كتابٍ لأحد كبار رجال

---

١ – راجع التقارير السنوية لممثل الاحتلال الإنكليزي في مصر سنة ١٩٠٥ الفقرتان ٧ ، ٩٨ وسنة ١٩٠٦ الفقرة ٣ (ص ٦ – ٨ منها على وجه الخصوص» – Modern Egypt ٢ : ١٧٩ إلى ١٨١ – Whither Islam ص ٦٩، ١٦٣ ، ٣٧١ – ٣٧٢ «يراجع الجزء الثاني من هذا الكتاب. الفقرة ٢ من الفصل ٣» – Great Britain in Egypt ص ١٦٥ ، ١٧٦ – Islam in Modern History ص ٦٣–٦٧ – الإتجاهات الحديثة في الإسلام ص ٦٤ ، ٧٢ ، ٨٤ – التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر : المقدمة ، الفصل الخامس «زعماء الإصلاح في الأزهر»

الماسونية في مصر – ومن المعروف أنها دعوة تخدم الصهيونية العالمية – تؤكد أن جمال الدين الأفغاني كان رئيسا (محفل كوكب الشرق) الماسوني. كما تؤكد أن محمد عبده كان عضواً في هذا المحفل. إذ يقول :

(وقد ظهرت الماسونية في سورية في مظهر الإخلاص والمحبة أثناء الحوادث العرابية سنة ١٨٨٢ فإن الإخوان المصريين والمهاجرين الذين جاءوا سورية قابلهم إخوانهم بالترحيب العظيم، ودعوهم إلى محافلهم ومنازلهم. وكان الأفاضل الشيخ محمد عبده وإبراهيم بك اللقاني وحسن بك الشمسي وجماعة المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني وغيرُهم يحضرون معنا في محفل لبنان ويخطبون، فيشنفون أسماع السوريين بخطبهم النفيسة وأحاديثهم الطلية. ونال الأستاذ الشيخ محمد عبده رتبة البلح والصدف من المندوب الأمريكي الذي حضر إلى محفل لبنان.)(١).

ومما يؤكد هذه النصوص ويزيد قيمتها أن الشيخ محمد رشيد رضا – وهو أكثر تلاميذ محمد عبده تعصباً له – قد أيدها في كتابه (تاريخ الأستاذ الإمام (٢)).

ومهما يكن من أمر في حقيقة حركة محمد عبده فمن الواضح في آثاره الأدبية – وأكثرُها مقالاتٌ صحفية – أنها تنقسم إلى قسمين ظاهرين، اتجه في أحدهما إلى تدعيم الدعوة للجامعة الإسلامية، بينما اتجه في القسم الثاني إلى تقريب الإسلام من الحضارة الغربية والتفكير الغربي الحديث.

وكان من أهم ما اتجه إليه في القسم الأول من هذه المقالات – أيام اتصاله بالأفغاني – محاربةُ ما استولى على المسلمين من ضعف الهمم وفتور العزائم، والانصراف عن الدنيا وعن مكافحة العدو والتخلص من الاستعباد،

١ – فضائل الماسونية ص ١٢٤. وراجع كذلك مقدمة الكتاب. وقد أصبح ذلك ثابتاً ثبوتاً قطعياً من مجموعة الوثائق التي نشرتها جامعة طهران مصورة سنة ١٩٦٣ تحت رقم ٨٤١، نقلا عما عثر عليه من أوراق جمال الدين الخاصة تحت اسم (سيد جمال الدين، مشهور به أفغاني).

٢ – تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٤٠، ٤٦، ٤٨، ٨١٩، ٨٧٣.

ظانين أن دينهم يأمرهم بالاستسلام لما يجري عليهم لأنه من قضاء الله. يقول في إحدى مقالاته عن القضاء والقدر [1] :

« مضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطاناً على الأعمال البدنية. فما يكون في الأعمال من صلاح أو فساد، فإنما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها، على ما بينا في بعض الأعداد الماضية. ورب عقيدة واحدة تأخذ بأطراف الأفكار، فيتبعها عقائد ومُدْركات أخرى، ثم تظهر على البدن بأعمال تلائم أثرها في النفس. ورب أصلٍ من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال إذا عُرِضَتْ على الأنفس في تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع، فتلتبس عليه بما ليس من قَبيلها، أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة، فيعلق بها عند الاعتقاد شيءٌ مما تصادفه. وفي كلا الحالين يتغير وجهُها ويختلف أثرها. وربما تتبعها عقائدُ فاسدةٌ مبنيةٌ على الخطأ في الفهم، أو على خبث الاستعداد، فتنشأ عنها أعمال غير صالحة، وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد، ولا كيف يُصَرِّفه اعتقادُه. والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الأعمال إنما نشأت عن الاعتقاد بذلك الأصل وتلك القاعدة. ومن مثل هذا الانحراف في الفهم وقع التحريفُ والتبديلُ في بعض أصول الأديان غالباً، بل هو علّة البدع في كل دين على الأغلب. وكثيراً ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الأعمال، حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به إلى الهلاك وبئس المصير. وهذا ما يحمل بعض من لا خبْرةَ لهم على الطعن في دين من الأديان، أو عقيدة من العقائد الحقة، استناداً إلى أعمال بعض السُّذَّج المنتسبين إلى الدين أو العقيدة. »

« من ذلك عقيدة القضاء والقدر، التي تُعد من أصول العقائد في الديانة

---

١ — نشرت في العروة الوثقى عدد أول مايو سنة ١٨٨٤، ونشرت بعد ذلك مرة أخرى في مجلة « الأستاذ » عدد ١٦ مايو سنة ١٨٩٣ « تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٥٩ — ٢٦٧ »

الإسلامية الحقة. كثُرَ فيها لغَطُ المغفلين من الإفرنج ، وظنوا بها الظنون، وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قومٍ إلا سلبتهم الهمَّة والقوة ،وحكّمت فيهم الضعف والضَعَة . ورموا المسلمين بصفات، ونسبوا إليهم أطواراً ، ثم حصروا علتها في الاعتقاد بالقدر . »

ثم يأخذ محمد عبده في بيان الفرق بين الجَبْرِيَّة الذين يزعمون أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار ، وبين الاعتقاد بالقدر الذي ترشد إليه الفطرة . فيقول بأن « كل حادث له سبب يقارنه في الزمان . والإنسان لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضرٌ لديه. ولا يعلم ماضيها إلا مُبدعُ نظامها. وإن لكل منها مَدْخلاً ظاهراً فيما بعده بتقدير العزيز العليم . وإرادةُ الإنسان إنما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة . » ويقول إن الإفرنج الذين ينسبون تأخر المسلمين إلى القضاء والقدر يجهلون حقيقة هذه العقيدة ،ويخلطون بينها وبين مذهب الجَبْر ، الذي انقرض أصحابه في أواخر القرن الرابع الهجري. فالاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرَّد من شناعة الجبر . تتبعهُ صفةُ الجراءة والإقدام ، ويبعث على اقتحام المهالك ومقارعة الأهوال ، وعلى الجود والسخاء . ذلك لأن الذي يعتقد أن الأجل محدود . وأن الرزق مكفول، وأن الأشياء بيد الله يُصَرِّفها كما يشاء ، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته وملته ؟ ... وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في سبيل تعزيز الحق وتشييد المجد ؟

ثم يبين محمد عبده أن الإيمان بالقضاء والقدر هو الذي دفع المسلمين الأولين إلى أن يفتحوا العالم في مدة لا تتجاوز ثمانين عاماً . ويقول : إنه لم يظهر في التاريخ قائدٌ عظيم ، إلا كان مؤمناً بالقضاء والقدر . ويضرب الأمثال لذلك بكُورش الفارسي ، والإسكندر اليوناني، وجنكيزخان التتري، ونابليون الفرنسي [1] .

١ – راجع مقالا آخر لمحمد عبده في الموضوع نفسه نشر في المؤيد سنة ١٩٠٢ « تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٣٩١ » .

ويقول محمد عبده في مقال آخر له نشر في العروة الوثقى عن (النصرانية والإسلام وأهلهما.) [1] : « إن المسيحية قد بنيت على المسالمة والمياسرة وجاءت برفع القِصاص . ومع ذلك نرى الأمم المسيحية تتسابق إلى الفتح والغَلَب والتفنن في اختراع أدوات الغلبة والقتال . والإسلامُ قد بُنِيَ على طلب الغَلَب والشوكة والافتتاح والعزة . ومع ذلك نرى الأمم التي تدين به متهاونة بالقوة متساهلة في طلب لوازمها . ثم يتساءل هل تبدلت سُنَّة الله في الملَّتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ ... هل استبدت الأبدان فيهما على الأرواح ؟ ويعرض الكاتب حال المسلمين منذ اتصالهم بالمسيحيين ، فيرى أن المسلمين كانت لهم في الحروب الصليبية آلات نارية فزع لها المسيحيون ، فكانت السببَ في انهزامهم . ويرى أن الدين المسيحي إنما امتد ظلُّه وعمت دعوتُه في الممالك الأوربية من أبناء الرومانيين ، وهم أصحاب حرب وفروسية . ثم يرى أن المسلمين إنما وهنت قوتهم بسبب ما دخل عليهم من بِدعٍ ليست من الدين ، حين انتشرت قواعد الجَبْرْ ، وحين أدخل الزنادقةُ والسوفسطائيون والكذابون من نَقَلة الحديث ما فيه السم القاتل لروح الغَيْرة ، الموجِبُ لضعف الهمم وفتور العزائم .

ويقول محمد عبده في مقال آخر له عن (الأمل وطلب المجد) [2] :

« ليس الأمل هو الأمنية والتشَهِّي اللذان يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى ، ويعبِّر عنهما بلَيْتَ لي كذا من الفضل ، مع الركون إلى الراحة والاستلقاء على الفراش ، واللهو بما يُبْعِدُ عن المرغوب ، كأن صاحبهما يريد أن يبدِّل اللهُ سُنَّتَه في سير الإنسان ، عنايةً بنفسه الشريفة أو الخسيسة ، فيسوقَ إليه ما يَهْجِسُ بخاطره بدون أن يصيب تعباً أو يلاقي مشقة . إنما الأمل رجاءٌ يَتْبعه عمل ، ويصحبه حَمْلٌ للنفس على المكاره ، وعركٌ لها في المشاقِّ والمتاعب ، وتوطينُها لملاقاة البلاء بالصبر ، والشدائدِ بالجلد ، وتهوين كل

---

١ – تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٣٧ – ٢٤٣

٢ – العروة الوثقى العدد ١١ – ١٩ يونيه ١٨٨٤ « تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٩٠ – ٢٩٧ »

مُلِمٍّ يَعرِضُ لها في سبيل الغرض من الحياة ، حتى يرسخ في مداركها أن الحياة لغو إذا لم تُغذَّ بنيل الأرب ، فيكون بذلُ الروح أول خطوة يخطوه القاصد . فضلا عن المال الذي لا يُقصَد منه إلا وقايةُ بناء الحياة من صدمات حوادث الكون . »

ويمضي محمد عبده في بيان أن الميل للرفعة أمر فطري . فكل واحد يطلب الكرامة ، والتمكن في قلب الآخر . لذلك يتزاحم الناس في الآمال والأعمال ، حتى يكونوا جميعاً شُرَفاء بما يأتون من أعمالهم . حكمةٌ من الله . ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين . ثم يقول إن بعض الناس تضعف هِمَمُهم حين يتوالى عليهم الصدام ، فيصيبهم الانحطاط الذي قد يؤول إلى اليأس والقنوط . وعند ذاك يحكمون على أنفسهم بالخطّة ، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة ، إذ يوطّنون أنفسهم على قبول ما يوجَّه إليهم من إهانة ، فينزل إحساسهم إلى مرتبة الأنعام ، ويرضون بما ترضى به البهائم . وهم مع ذلك لا يستريحون بذلك من الكدّ ، فهم إن تركوا العمل لأنفسهم سلّط الله عليهم من يكلفهم بالعمل لغيرهم ، فيكونون كالنمال الحمّالة ، لا تستفيد مما تحمل شيئاً ، وظيفتُها أن تسعى وتشقى ليسعد غيرُها ويستريح .

ثم يبين بعد ذلك أن السبب في ضعف الهمم هو ضعف الإيمان فيقول :

« عجباً . كيف تتبدل أحكامُ الجبِلّة وكيف يَمَّحي أثرُ الفطرة ؟ كيف تَسفُلُ النفسُ حتى لا تطلب رفعة ؟ وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل ، والأملُ وحب الكرامة طبيعيان في الإنسان ؟ بعد إمعان النظر نجد السبب في ذلك ظنَّ الإنسان أن جميع أعماله إنما تَصْدرُ عن قدرته وإرادته بالاستقلال ، وأن قوته هي سلطان أعماله ، وليس فوق يده يدٌ تمده بالمعونة أو تصده بالقَهْر . فإذا صادفته الموانع مرةً بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول ، رجع إلى قدرته فوجدها فانية ، وقُوّته فرآها واهنة . فيعترف بوهنه ، ويسكن إلى عجزه . فييأس ويقْنَط ، ويَذِل ويسفُل ، اعتقاداً منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التي تَعاصَتْ على قدرته ، متى كانت قوةُ المانع أعظمَ من قوته .

فلا سبيل إلى العمل ، لاستحالة قهر المانع . فينقطع الأمل ، فيقع في الشقاء الأبدي . »

« أما لو أيقن بأن لهذا الكون مدبّراً عظيم القدرة ، تخضع كل قوة لعظمته ، وتدين كل سطوة لجبروته الأعلى ، وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه ، يُصرِّف عباده كيف يشاء ، لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس ، وتغتال آماله غائلةُ القنوط. فإن صاحب اليقين لو نظر إلى ضعف قدرته ، لا يفوته النظرُ إلى قوة الله التي هي أعلى من كل قوة ، فيركن إليها في أعماله ، ولا يجد اليأسُ إلى نفسه طريقاً . فكلما تعاظمت عليه الشدائدُ زادت همته انبعاثاً في مدافعتها ، معتمداً على أن قدرة الله أعظم منها. وكلما أُغلق في وجهه بابٌ فُتحت له من الركون إلى الله أبواب. فلا يَمَلّ ولا يَكِلّ ،ولا تدركه السآمة ،لاعتقاده أن في قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزّاء ويلقي قيادَهم إلى الأذلاّء،وأن يدك الجبال ويشق البحار ، ويمكّن الضعفاء من نواصي الأقوياء... ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التي لا ريبة فيها بما قال وهو أصدق القائلين : (إنّهُ لا ييْأسُ من رَوْح الله إلا القومُ الكافرون) وبما حكي من قول نبيه إبراهيم : (ومَنْ يَقْنَطُ مَن رحمة ربِّه إلا الضّالون) .فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلا على الكفر والضلال،ومن أين يَطرُق اليأسُ قلباً عقد على الإيمان بالله وبقدرته الكاملة ؟ »

ويختم محمد عبده مقاله هذا بالتوجه إلى المسلمين . يخاطبهم بقوله تعالى : (إن تَنْصُرُوا اللهَ ينصُرْكم ويثبِّتْ أقدامَكم) .

هكذا مضى محمد عبده في هذه الفترة من حياته ينبه الغافلين ويوقظ النائمين،ويبيِّن للناس أن الدين ليس كلمات تقال في صلاة،أو تقليداً يتَّبع في صوم ، أو ترديداً غافلا للشهادتين فحسب . ولكن الإسلام مع ذلك كله،بل قبل ذلك كله ،عقيدةٌ تهيمن على كل تصرفات المسلم وتوجهه في كل أعماله . وكان من أخطر ما صنعه محمد عبده في هذه المقالات العنيفة

الثائرة ، أن خرج على الناس بجملة من الآيات القرآنية ، كان الناس قد صُرِفوا عن تدبرها ، وأهملوا الاستشهاد بها والتأمل في معانيها ، حتى بدت حين عرضها محمد عبده على الناس ، وبثها في ثنايا مقالاته ، يربط بينها وبين الظروف التي تجتازها الأمم الإسلامية ، كأنها شيءٌ جديد يسمعه الناس للمرة الأولى .

والواقع أن الآيات التي كان يستشهد بها الوعاظ في خطبهم ومقالاتهم منذ شدَّد الاستبدادُ قبضتَه على الناس ،لم تكن تتجاوز ما يتصل بما أعد الله من حُسْن الثواب للمتقين ،وما أعد من العذاب للعصاة والمفسدين. ولكن محمد عبده أبرز في مقالاته جملة من آيات الجهاد ، جهاد النفس وجهاد العدو ، ولفت الأنظار إلى مكان الجهاد من العقيدة الصحيحة . فهو يكتب عن امتحان الله المؤمنين (١) ،فيُصَدِّر المقال بالآية: (آلم . أحَسِبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفْتَنون؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم. فليَعلَمَنَّ اللهُ الذين صَدقوا وليَعلَمَنَّ الكاذبين .) ويبين أن الذين يزعمون أنهم مؤمنون ،ثم لا يُسَهِّل عليهم الإيمانُ احتمالَ المشاق وتجشمَ المصاعب في سبيله ،ليسوا بمَعْزِل عن المنافقين .ويستشهد بالآية : (لا يستأذنُك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يُجاهدُوا بأموالهمْ وأنفسُهمْ في سبيلِ اللهِ ، والله عليمٌ بالمتَّقين. إنما يَستأذنُك الذين لا يؤمنونَ بالله واليومِ الآخرِ وارتابَتْ قلوبُهم ،فهُمْ في رَيْبِهم يَتردَّدون .)ويختم مقاله بقوله : « إن امتحان الله للمؤمن سُنَّةٌ من سُننه ،يميز بها الصادقين من المنافقين قرناً بعد قرن ، إلى أن تنقضي الدنيا . في كل قَرْن يدعو الله المؤمنين إلى قوم أُولي بأس شديد . فإن يطيعوا يؤتهم أجراً حسناً . وإن يتولوا يعذبهم عذاباً أليماً. فميزانُ عدل الله منصوبٌ إلى يوم القيامة ، وهنالك الجزاء الأوفى . »

وفي مقال آخر له عن أسباب حفظ الملك (٢)، يصدِّره بالآية : (أفلَمْ

١ – تاريخ الإمام ٢ : ٣١٧ – ٣١٩ .
٢ – المرجع السابق ٢ : ٣٢٠ – ٣٢٥

يسيرُوا في الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يَعْقِلون بها أو آذانٌ يَسمْعون بها . فإنها لا تعمَى الأبصارُ ولكنْ تعْمَى القلوبُ التي في الصُّدور .) ويطلب إلى الناس التأمل فيمن أهلك اللهُ من شعوب ، ومن أباد من قبائل ، وما دمَّر من بلاد ، للاعتبار بأسباب هلاكهم . ويذكر من أسباب حفظ الملك الاتحاد ، مستشهداً بالآية : (واعتَصِمُوا بحَبْلِ الله جَميعاً ولا تفرَّقُوا) و (ولا تَنَازَعُوا فتَفْشَلُوا وتَذْهبَ رِيحُكُمْ .) ويذكر منها عدمَ الاعتماد على الأجنبي ، مستشهداً بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتَّخذُوا عدُوِّي وعدُوَّكُمْ أوْلياءَ تُلْقُونَ إليهمْ بالمودَّة وقد كَفَرُوا بما جاءكُمْ من الحقّ .) وقوله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذُوا بطانةً من دُونكُمْ ، لا يألُونكُمْ خَبالاً . ودُّوا ما عَنِتم . قد بدَت البغضاءُ من أفواههم ، وما تُخفي صدورُهم أكبر .) ويذكر منها انصراف الناس عن التوغل في الشهوات ، التي تُغْفِل قلوبهم عن الفرائض المفروضة عليهم ، وتصرفهم عن القيام بواجباتهم ، مستشهداً بالآيات (وكم أهلكْنا من قرية بَطِرَتْ مَعيشتَها . فتلكَ مساكنُهُم لم تُسكنْ مِنْ بعْدهم إلا قليلاً . وكُنَّا نحنُ الوارثين) (حتى إذا أخَذْنا مُتْرَفيهم بالعذاب إذا هُمْ يَجْأرُون . لا تجأرُوا اليومَ ، إنكم منَّا لا تُنْصرُون) . (ذلكُمْ بما كُنتم تَفْرَحُونَ في الأرض بغيرِ الحقِ وبما كنتُمْ تَمْرَحُون .)

ويذكر منها الشُّورَى ، مستشهداً بأمر الله نبيّه ، وهو المعصومُ من الخطأ ، بقوله : (وشاورْهُمْ في الأمر) ، وبما امتدح به الله تعالى المؤمنين في قوله : (وأمرُهُمْ شورَى بَيْنَهُمْ) . ويذكر منها إعداد القوة ، صوناً للأمة من أطماع الطامعين ، ويستشهد بالآية : (وأعدُّوا لهُمْ ما استَطَعْتُمْ من قوّة) . ويختم المقال بحثِّ العلماء على تنبيه الغافلين عما أوجب الله ، وإيقاظ النائمة قلوبُهم عما فرَضَ الدين . وعلى أن يُزيلوا اليأس بتذكيرهم وَعْدَ الله — ووعدُه الحق — في قوله (وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكُمْ وعَمِلوا الصالحات ليَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرض كما استَخْلَفَ الذين من قَبْلهمْ ، وليُمكِّنَنَّ لهم دينَهُمْ الذي ارتَضى

لَهُمْ ، وليبدِّلنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خوفِهِمْ أمنا [1])

واتجه محمد عبده بعد عودته من المنفى إلى التقريب بين الإسلام وبين الحضارة الغربية . واتخذ اتجاهه هذا أشكالا مختلفة . فظهر أحياناً في صورة مقالات أو مشاريع أو برامج تدعو إلى إدخال العلوم العصرية في الجامع الأزهر . وظهر تارة أخرى في صورة تفسير لنصوص الدين من قرآن أو حديث ، يخالف ما جرى عليه السلف في تفسيرها ، ليقرب بها إلى أقصى ما تحتمله – بل إلى أكثر مما تحتمله في بعض الأحيان – من قُرْبٍ لِقيَم الغرب وتفكيره ، لكي يصل آخر الأمر إلى أن الإسلام يساير حضارة الغرب ويتفق مع أساليب تفكيره ومذاهبه .

وصحب الحركة الداعية إلى إدخال الدراسات العصرية في الأزهر حملةٌ تحاول أن ترسم صورة قاتمة لما آل إليه أمره ، مشنِّعةً بما تتضمنه بعض العلوم التي تدرس فيه من سخف ومن تفاهة ، داعية إلى التحرر من الآراء السائدة المقرَّرة التي يتوارثها الخلف عن السلف (وهو ما سمّته التقليد) ، والتفكيرِ بما يلائم ظروف الحياة الجديدة (وهو ما سمّته الاجتهاد) . وكانت هذه الحملة تُنقِّب عن أسوأ ما في الأزهر وما في كتبه لتعرضه على الناس . وقديماً قالوا (من فتَّش عن عيب وجده) .

فمن ذلك ما كتبه رشيد رضا في وصف حياة طالب العلم في الأزهر ، إذ يقول [2] :

« كانت أمكنة الجامع الأزهر من صَحْنه إلى مقاصيره إلى أروقته إلى مَغَاطسه وميضاته وكُنُفه مجتمعَ أوساخٍ ، ومَهبَّ روائح عفنة ، ومنبعَ وخامة ، وبؤرةَ أمراض معدية. فإذا دخل الداخل إلى الصحن وجد فيه بقايا الكُرَّات والفجل وقشورَ البصل وفضلات الخبز العفنة وجلودَ الفسيخ وقُمامات الكنس

---

١ – وراجع كذلك مقاله في العروة الوثقى « سنن الله في الأمم » – تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٣٢٥ – ٣٣١ .

٢ – المرجع السابق ١ : ٤٨٠ – ٤٨١

من مواضع النوم أكواماً . وإلى جوانبها ما يراق من مياه الشرب المأخوذة من الصهاريج ، وما تحمله النعال من وحل الطريق ، حيث يتأبط المجاور مداسَه بلا نفض ولا تنظيف. وبين هذا وذاك كثيرٌ من البصاق والنخامة والنخاعة . ثم إذا ذهب إلى جهة الميضأة وجد حواليها أمثال ذلك ، ورأى قطع الخبز المبلول تعوم في مائها ، وهي تتدفق بما يسيل من أفواه المتوضئين وأنوفهم ساعة الوضوء.وربما وجد على جوانبها بعض الفضلات . (بل كان بعضُهم يستنجي بمائها من جوانبها . وقد أخبرني الأستاذ الإمام أنه لم يكن قط يتوضأ من مِيضَأة الأزهر ، بل كان يأخذ الماء من مَصَبِّه فيها المسمى بالسَّلسول على قلته ، ويتوضأ منه وكانت ميضأة الجامع الأحمدي أقذر من ميضأة الأزهر ، ولا سيما أيام الموالد الثلاثة . كان النساء يغسلن أولادهن من العَذِرة فيها ، حتى تُرَى سابحةً وراسبة فيها . ومع هذا كله كان الخرافيون يعدون إبطال الميضأة المكشوفة واستبدالَ الأنابيب بها « الحنفيات »من سيئات الإصلاح الذي ذهب ببركات الأزهر) . (١) وإذا قصد المَغاطس وجد على مياهها طبقة كالدهن من الأدران ، وشم منها ما لا تحمل الأنوف والأبدان. » (٢)

«وإذا وصل إلى غرف السكنى في الأروقة وجد هذا يغسل ثيابه ويُهَريقُ الماءَ بين يديه ، فيمنعه الكسل أن يمضي بها إلى البالوعات . وذاك يطبخ والدخان يسوِّد وجهَ الحائط وداخلَ المسكن. وذاك يغسل آنية ويريق ماءها المخلوط بالدهن والزيوت . وقد يحملهم الكسل على ترك غرف النوم الأسبوع والأسبوعين بلا كنس ، فيتراكم فيها التراب مع بقايا المأكولات . هذا إلى ازدحام السكان في الغرفة الواحدة ، ونومهم مزدحمين ، رأسُ الواحد عند رجْل أخيه .ومعهم فيها — على ضيقها — متاعُهم وفراهم وخبزهم وملابسهم وخزائن كتبهم وأدوات الطبخ والوقود . »

« وإذا طاف الطائف في جوانب الجامع وحول الأساطين وفي الأماكن

---

١ — العبارة التي بين القوسين منقولة عن الهامش .

٢ — كذلك وجدت العبارة في النص . ولعل الصواب « ما تحمل من الأنوف والأبدان) .

التي يسمونها بالحارات، وجدها كلَّها مشحونةً بخزائن الخشب القائم بعضها فوق بعض صفوفاً بلا نظام ، تجري بينها لقذارتها الفيران ، حتى يخالها الرائي لقدم عهدها من آثار الأقدمين . وإذا فتحت الواحدة منها انتشرت روائح المِشّ وعَفَنِ الخبز ،فلا يملك رائيها إلا أن ينهزم أمامها ويفر مغلوباً إلى حيث ينتهي به الفرار . »

ويقول في وصف ما آلت إليه حالهم الخُلُقية والعلمية [١] :

« ولقد كان محمد عبده ، على شدة عنايته بالأزهر وأهله والدفاع عنهم ومبالغته في تكريمهم، شديدَ الاحتقار لهم في نفسه ، إلا أفراداً منه . وكان للأزهر عنده ثلاثةُ ألقاب يُطلقها عليه المرةَ بعد المرة أمام بعض الخواص، عند شدة تألمه من فساد حالهم، وهي : الأصطبْل، والمارِسْتان،والمَخْرُوب (بهذا اللفظ العامي) ... وناهيك بما ذكره الشيخ عبد الكريم من شهادة الزُور ،حتى من قضاة الشرع والمفتين ،الذين لقّب المحقّقُ ابنُ القيِّم أمثالهم (بالموقّعين عن رب العالمين) . وكان قد اطلع على ما لم يطلع عليه أحد من مخازيهم بعمله في إدارة الأزهر ، وتفتيشه للمحاكم الشرعية،كأكْلِ السُّحْت من الرشوة على الأحكام والفتاوى ، وعلى ما هو أشد ضرراً منه ، وهو المحاباة في امتحان شهادة العالمية .ثم ناهيك بما هو المُعدُّ لهذه المخازي كلِها، وهو الذلة والمهانة أمام كبراء رجال الدنيا من الحكام وغيرهم ... وقد أشار الشيخ عبد الكريم إلى شيء من شتائمهم البذيئة المزرية ، التي لا تُبقي في النفس أثراً للكرامة الفطرية الموروثة ولا لعزةِ الإيمان المكتسَبة ... دَعْ تأثيرَ القذارة والأمراض في توطين النفس على الذل واحتمال الضيم » .

« وشر من ذلك كله تمكنُ الخرافات والأوهام من أكثر القوم ، حتى إن الشيخ حسّونة ، الذي كان يعده الأستاذ الإمام أمثلَهم ، كان يقبِّل يد أحد أدعياء الولاية من الدجالين الذين كانوا يخدعون العوام ، بما يُلبِّسون عليهم ويوهمونهم من المكاشفات والكرامات ، فيأمنونه على نسائهم ، حتى

---

١ – تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٤٩٥ – ٤٩٧ .

إنهن كن يدخلن معه الحمّام !! وناهيك بما يفعلونه في احتفالات الموالد المبتدَعة، ومشاركتِهم لسدَنة القبور المعبودة فيما يُنذَر لها من المال والفول النابت وغير ذلك . »

ويقول [1] : « كان طلبةُ الجامع الأزهر لا نصيب لهم في صناعة الكتابة والإنشاء . وكان الواحد منهم إذا كتب لأبيه يستمنحه إرسال الزاد والنفقة قصَّرَتْ صحيفتُه عن بيان المطلوب له ، ولم ينفعه ما حصَّله من قواعد العربية بشيء ، وجاء خطه في مكتوبه نقشاً مكسّر الخطوط ناقص الحروف . وإذا أراد أن يبين ما صرفه وما يلزمه عبَّر عن ذلك باللفظ لا بالرقم ، لعدم معرفته به . »

« هذه حالة كادت تكون عمومية بين الطلبة والعلماء . وهي باقية في الكثير من الأكابر إلى اليوم . وإني لأعرف واحداً منهم كان ممن دعاهم المرحوم الشيخ الإنبابي إلى الإفطار عنده في رمضان ، فاعتذر إليه بالكتابة ، فكان كتابُ اعتذاره على حالٍ لم يَرَ مثلها الراءون ، إذ كتبه إليه في ورق من أوراق العطار ، والكتابة فيها غير منتظمة الشكل ، والخط لا يقرأ إلا لمن تعود قراءة هذه الخطوط ، والأربعة الأسطر التي كتبها اعتذاراً للشيخ ، كان فيها أكثرُ من عشر لحنات لا يمكن تطبيقها على قواعد العربية ولو مع التأويل الذي تعودوه . وهذه الرقعة من عالم كبير إلى عالم أكبر . »

ومهما يكن نصيب هذه الصورة من الصدق أو المبالغة فالذي لا شك فيه أنها صورة مظلمة تنفّر القاريءَ من الأزهر ومن كل ما فيه ومن فيه . وربما نفرته من الإسلام نفسه ، لأن مفهوم الإسلام في الأذهان مرتبط بعلمائه ومؤسّساته أراد الناسُ ذلك أو لم يريدوه . وذلك هو ما دعا باحثاً أوربياً مثل جب H. R. Gibb لأن يقول :

« وقد بدأ تلاميذ الشيخ محمد عبده المخلصون ، حتى في حياته ، يظهرون بمظهر واضح صريح . وقد كان هو نفسه في مادة العقيدة يعارض قبول كل شيء دون مناقشة ، أي يعارض (التقليد) كما يقال في الإسلام . وهذا

---

١ – المرجع السابق ١ : ٤٤٩ – ٤٥٠

الرأي يُعتبر لبنةً في بناء الحركة المتمدنة ، أو خشبةَ الخلاص في حركة التحرر العلمانية [1] .

ويقول كذلك في موضع آخر :

« إن تلامذته الحقيقيين يمتزجون بالصفوف التي أنشئت إنشاءً أوربياً وينضمّون للحلقات العلمانية ... ومن ناحية أخرى نجد الشيخ محمد عبده قد صنعَ جسراً فوق الهوة التي تفصل التعليم التقليدي عن التعليم العصري الخاضع لمذهب العقليين الذي غزا الشرقَ من الغرب . » [2]

والواقع أن فتاوى محمد عبده وآراءه الجريئة كانت لا تزال تباكر الناس وتراوحهم عن طريق دروسه في الأزهر ، وعن طريق الندوات التي كان يعقدها في منزله أو في منازل بعض مريديه ، وعن طريق المقالات التي كان ينشرها في الصحف . وقد كان تفسيرُه للقرآن أحفلَ هذه الدروس وأكبرَها تأثيراً ، لأنه كان يجمع عدداً من أصحاب الثقافات الإسلامية والغربية — أو الدينية والمدنية كما يقولون — على السواء ، من علماء الأزهر ، وأساتذة المدارس الثانوية والعالية ، وكبار رجال القضاء الأهلي ، والوجهاء ، ورجال الحكومة ، ومنهم محافظ القاهرة . وكان يلقي بعض هذه الدروس في دار أحمد تيمور . وهناك التقى به كثيرٌ من الأساتذة الذين أشتهروا في الحياة العامة أو شغَلوا مناصب كبيرة في الدولة ، مثل الشيخ أحمد إبرهيم وحافظ إبرهيم ومحمد كرد علي وأحمد فتحي زغلول ورفيق العظم وقاسم أمين وعبد العزيز جاويش بعد عودته من أوربا .[3] وكانت جرأتُه في الملاءمة بين الإسلام وبين حاجات العصر ، ومعارضتُه علماءَ الأزهر في عصره ، سبباً في كثير من الحملات التي خاضت فيها الصحف . متهمةً إياه بتسخير الدين لخدمة العدوِّ الغاصب . وقد

---

١ — الإتجاهات الحديثة في الإسلام ص ٧٢

٢ — الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص ٨٤

٣ — تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٧٦٩ ، ٧٧٣

أعان على ذلك عداوته للخديوي عباس، الذي بلغ من كراهيته له أن غضب على الذين شيّعوه بعد موته [1].

ومن أمثلة هذه الآراء الجريئة ما عرف في ذلك الحين بالفتوى الترنسفالية، فقد كانت من أعظم ما شنّع به خصومه ومعارضوه. وخلاصة المسألة أن أحد المسلمين في الترنسفال أرسل إلى الشيخ محمد عبده يستفتيه في ثلاثة أمور، أولها لبس البرانيط، وثانيها أكل اللحوم التي يذبحها نصارى الترنسفال على غير طريقة المسلمين، إذ يضربونها بالبُلَط ولا يذكرون عليها اسم الله، وثالثها صلاة الشافعية العيد خلف الحنفية، مع ما بينهما من خلاف في فرضية التسمية وفي تكبيرات العيدين. وقد أفتى محمد عبده بجواز الأمور الثلاثة التي سأل عنها الترنسفالي. ولكن المسألة التي أثارت عليه الشعب خاصة هي المسألة الثانية، التي أفتى فيها بجواز أكل لحوم النصارى، مستنداً إلى قوله تعالى (اليومَ أُحِلَّ لكم الطيِّباتُ. وطعامُ الذين أوتوا الكتابَ حِلٌّ لكم) فقد قال هذا بعد تحريم الميتة. وأحَلَّ طعامهم وهو يعلم ما يقولون عند الذبح، ويعلم ما يعتقدون بعُزَير والمسيح. ورأى محمد عبده في فتواه أن المضروبة بالبلطة هي غير المَوْقُوذة التي حرمها الله. فالوقيذ والموقوذ هو الذي يُقتَل بغير مُحَدَّد من عصا أو حجر [2].

ومن أمثلة هذه الفتاوى الجريئة ما أفتى به من جواز الاستعانة بالكفار وأهل البدع والأهواء فيما ينفع المسلمين، وذلك حين استفتاه بعض مسلمي الهند الذين يَدْعُون إلى إنشاء الجمعيات لتربية أيتام المسلمين، مستعينين في ذلك ببعض الأجانب وغير المسلمين. وقد جاء في هذه الفتوى: [3]

« إن ما يفعله أولئك الأفاضلُ دعاةُ الخير هو الإسلام، ومن أجلِّ مظاهر

---

١ – راجع في ذلك مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٣٤ – ٣٧ ، ٣٩ وتاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٧١ ، ٥٧٧ ، ٥٨٩

٢ – راجع التفاصيل في تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٦٦٨ – ٧١٦

٣ – المرجع السابق ١ : ٦٤٨ – ٦٦٦

الإيمان . وإن الذين يكفرونهم أو يضللونهم هم الذين تعدوا حدود الله ، وخرجوا عن أحكام دينه القويم .. بقي أن بعض المتشددين ربما تعرض لهم الشبهة في فهم قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً) إلى آخر الآية . »

وبعد أن أورد المفتي جملة الآيات التي تصرح أو تشير إلى المنع من موادة المؤمنين لغير المؤمنين قال :

« على أنه لا شبهة لهؤلاء الجهلة في مثل هذه الآيات تسوغ لهم تفسيق إخوانهم أو تكفيرهم بعد ما جاء في الآية المحكمة من قوله تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم . إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) (١) ، وبعد ما جاء من القصص الذي قصه الله علينا لتكون لنا فيه أسوة ، إذ قال : (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما . وصاحبهما في الدنيا معروفاً) ، وبعد ما أباح الله لنا في آخر ما أنزل على نبيه ﷺ نكاح الكتابيات . ولا يكون نكاح في قوم حتى تكون فيهم قرابة المصاهرة . ولا تكون تلك القرابة حتى تكون المودة . » ثم أورد محمد عبده في فتواه أمثلة كثيرة لاستعانة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين ومن تبعهم من الأمويين والعباسيين بغير المسلمين من الذميين .

مثل هذه الآراء قد تبدو في ظاهرها ولا بأس بها ولا غبار عليها ، بينما هي في حقيقة الأمر تدعو إلى مذهب التحرر (Liberalism) ، الذي يذهب في التسامح الديني إلى درجة تكاد تنمحي معها الحدود الفاصلة بين المذاهب والنحل.

ولهذه النزعة أمثلة كثيرة فيما خلفه محمد عبده ، مثل قوله في ختام

---

١ – هذه الآية تنقض دعوى محمد عبده ولا تؤيدها . لأنها تنهى المسلم عن الاستعانة بالمستعمرين الذين غزوا دياره .

بعض دروسه في المنطق ، يحض على التفكير المتحرر (Liberal) الذي لا يوقر رأياً، ولا ينتهي عند الحدود التي يُخشَى معها الزلل ، فيما يستعصي على طاقة العقل ويخرج عن حدود صلاحيته :[١]

« ما الذي يُعتق الأفكار من رِقها ، وينزع عنها السلاسل والأغلال ، لتكون حرة مطلقة ؟... الجواب على هذا السؤال يحتاج إلى شرح طويل. لأن تخليص الأفكار من الرق والعبودية من أصعب الأمور . ويمكن أن نقول فيه كلمة جامعة يَرجعُ إليها كلُّ ما يقال ،وهي (الشجاعة) . الشجاع هو الذي لا يخاف في الحق لومة لائم . فمتى لاح له يصرخ به ويجاهر بنصرته، وإن خالف بذلك الأولين والآخرين ... لا يرجع عن الحق أو يكتم الحق لأجل الناس إلا الذي لم يأخذ إلا بما قال الناس . ولا يمكن أن يأتي هذا من مُوقنٍ يعرف الحق معرفة صحيحة . »

« إن استعمال الفكر والبصيرة في الدين يحتاج إلى الشجاعة وقوة الجَنان، وأن يكون طالب الحق صابراً ثابتاً لا تزعزعه المخاوف. فإنّ فِكْرَ الإنسان لا يستعبده إلا الخوفُ من لوم الناس واحتقارهم له إذا هو خالفهم ، أو الخوفُ من الضلال إذا هو بحث بنفسه . وإذا كان لا بصيرةَ له ولا فهمَ ، فما يُدْريه ، لعل الذي هو فيه عَيْنُ الضلال . »

ومن أمثلة هذا الاتجاه أيضاً قوله في تزيين البحوث الإسلامية التي كتبها مفكرو الغرب من (المستشرقين) ، وهي بحوث متحررة لا تصدر عن تقديسٍ للإسلام أو توقيرٍ للسابقين المقدّمين من رجاله :[٢]

« إننا لو أردنا أن نكتب في تاريخ علم الكلام مثلا فلا يوجد في تواريخنا مادةٌ تفي بالغرض . يذكرون أن واصل بن عطاء أولُ من تكلم في العقائد على مذهب المعتزلة ، واعتزل مجلس الحسن البصري . ولكن ما سبب ذلك ؟ من أين جاءه هذا الفكر الجديد ؟ وكيف انتشر هذا المذهب ؟ وما الذي

١ – تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٧٦٢ – ٧٦٣.
٢ – المرجع السابق ١ : ٩٢٧

حدا بالشيخ أبي الحسن الأشعري للقول بأن الوجود عين الموجود ؟ ومتى دخلت الفلسفة كتب العقائد ؟ ... وماذا كان غرض العلماء من إدخال الفلسفة على العقول مع العقائد في وقت واحد ؟ ... كل هذا يعسر علينا أن نعرفه من تواريخنا . ويمكننا أن نعرف كثيراً من شؤون الإسلام وتاريخه من الكتب الإفرنجية . فإن فيها ما لا نجده في كتبنا . إن العالم المسلم لا يمكنه أن يخدم الإسلام من كل وجه يقتضيه حالُ هذا العصر إلا إذا كان متقناً للغة من اللغات الأوربية ، تمكنه من الاطلاع على ما كتب أهلها في الإسلام وأهله من مدح وذم ، وغير ذلك من العلوم . »

ومن أمثلة هذا الاتجاه الذي يبرر الحضارة الغربية تبريراً إسلامياً قوله في إباحة الصُوَر والتماثيل : [١]

« الرسم ضرب من الشعْر الذي يُرى ولا يُسمع . والشعر ضرب من الرسم الذي يُسمع ولا يُرى . إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص في الشؤون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية . يصورون الإنسان أو الحيوان في حال الفرح والرضا ، والطمأنينة والتسليم . وهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض . ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهراً باهراً . »

وبعد أن أفاض في بيان مزايا التصوير قال :

« ربما تَعْرِضُ لك مسألة عند قراءة هذا الكلام ، وهي : ما حكم هذه الصور في الشريعة الإسلامية ، إذا كان القصد منها ما ذُكِر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية ، أو أوضاعهم الجسمانية ؟ ... هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب ؟... فأقول لك إن الرسم قد رُسم ،والفائدةُ محققةٌ لا نزاع فيها ،ومعنى العبادة

---

١ – المرجع السابق ٢ : ٤٩٨ – ٥٠٢ وراجع رأياً آخر كذلك في إباحة التصوير في مجلة الهداية عددي يونيو ويوليو سنة ١٩١١ ص ٤٨٩

وتعظيم التمثال أو الصورة قد محُي من الأذهان . فإما أن تفهم الحكمة مر نفسك بعد ظهور الواقعة ، وإما أن ترفع سؤالا إلى المفتي وهو يجيبك مشافهة. فإذا أوردْتَ عليه حديث (إن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة المصوِّرون) أو ما في معناه مما ورد في الصحيح ، فالذي يغلب على ظني أنه سيقول لك إن الحديث جاء في أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين : الأول اللهو ، والثاني التبرك بمثال من تُرسَم صورته من الصالحين . والأول مما يبغضه الدين . والثاني مما جاء الإسلام لمحوه . والمصور في الحالين شاغل عن الله ، أو ممهد للإشراك به . فإذا زال العارضان وقُصدت الفائدة كان تصويرُ الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر ... ولا يمكنك أن تجيب المفتي بأن الصورة على كل حال مَظِنّةُ العبادة ، فإني أظن أنه يقول لك إن لسانك أيضاً مظنة الكذب فهل يجب ربطه ، مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب؟... على أن المسلمين لا يسألون إلا فيما تظهر فائدته ليَحْرموا أنفسهم منها . وإلا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء ، أو مَنْ سماهم بعضهم بالأولياء ، وهم ممن لا نعرف لهم سيرة ، ولم يطلع لهم أحد على سريرة . ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة ، وما يعرضون عليها من الأموال والمتاع ، وهم يخشونها كخشية الله أو أشد ، ويطلبون منها ما يخشون أن لا يجيبهم الله فيه ، ويظنون أنها أسرع إلى إجابتهم من عناية الله سبحانه وتعالى . لا شك أنه لا يمكنهم الجمعُ بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد . ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الإنسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية ، وتمثيل الصور الذهنية . »

ويذكّرنا ذلك كله بما جاء في تقرير اللورد كرومر في صدر مشروع مدرسة القضاء الشرعي ، الذي وضعه محمد عبده مع آخرين بتكليف منه ، حيث قال :

« كنت أتصل بين الحين والحين بالبارون كالي حاكم البوسنة لتبادل الرأي في الموضوعات ذات الطابع المشترك . وقد استطعت أن أحصل – بفضل مساعدته ومساعدة خلَفه – على معلومات وافية عن الكلية التي أنشأتها حكومة

النمسا والمجر في ساراجيفو لتخريج القضاة (يقصد قضاة الشرع المسلمين) ، وهي كلية قد أثبتت نجاحها من كل الوجوه . وقد وضعتُ هذه المعلومات تحت تصرف لجنة ذات كفاية ممتازة يرأسها المفتي الأكبر السابق ، (يعني الشيخ محمد عبده) بِقَصْدِ وضع خطة مشابهة تلائم ظروف مصر وحاجاتها . وقد أتمت اللجنة عملها في شهر يونيه السابق . ووضعت النظم المقترحة تحت تصرف الحكومة . وهي الآن قيد البحث في وزارة العدل (الحقانية وقتذاك) . وهذه النظم تزود الطالب ببرامج ثقافية ذات طابع تحرري of a liberal character لاتحصر الطالب في الدراسات الدينية الخالصة[١] . »

على أن هذه الفترة التي تلت عودته من المنفى لم تخل من أثر اتجاهه الأول في بعض ما دافع به عن الإسلام . وقد كان أشهر أعماله فيه رده علـى هانوتو ، الذي كتب مقالا عن الإسلام في مَعْرِض الحديث عن سياسة فرنسا في المستعمرات الإسلامية ، قارن فيه بين الإسلام والنصرانية . ونشرت ترجمة مقاله سنة ١٩٠٠ ، فرد عليه محمد عبده رداً طويلا في ثلاث مقالات ، كانت حديثَ الناس وشُغْلَهم في ذلك الوقت .

تكلم هانوتو في مقاله [٢] عن تاريخ النزاع بين الإسلام والمسيحية ، وتحقق الظفر للديانة الاخيرة في القرن التاسع عشر . وقال إن فرنسا قد صارت بكل مكان في صلة مع الإسلام ، بل صارت صدر الإسلام وكبده . فالإسلام يحيط بها في إفريقيا ، ويمتد في آسيا إلى الصين ، وهو قائم بأوربا في الأستانة « **حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية . ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض .** » ثم قال إن المسلمين في سائر أقطار الأرض يتجهون إلى الكعبة ، وتجمعهم رابطة واحدة ، وأنهم يكرهون الدول المسيحية التي تحتلهم . فالدراويش يبذرون بذور الحقد والكراهية للدول المسيحية حيث

---

١ – تقرير سنة ١٩٠٥ الفقرة ٩٨ ص ٤٩ من الأصل الإنكليزي .

٢ – تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٤٠١ – ٤١٤ .

حلوا في تنقلاتهم بين البدو والقرى والمدن . وقال إن المتعصبين من المسلمين (مثل السنوسي) ، تقوم عقيدتهم على مبدأ كفاح غير المؤمنين ، وعلى كراهية المدنية الحاضرة . وقد لبثوا زمناً مديداً لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العليّة بسبب ما بينها وبين المسيحية من علاقات . وانتهى من هذا العرض إلى قوله : « توجد بالأستانة نفسها وبالشام وبلاد العرب ومراكش عصابةٌ خفية ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافُها وتضغط علينا من قرب. ويُخشىَ أن تفترسنا إذا أغمضنا الطرف . »

ثم دخل هانوتو في موازنة بين الدينين ، فقال إن المسائل الأساسية في كل دين هي التي ترتبط بالقدر ، والمغفرة ، والحساب . وقال إن نظرة الأديان والمفكرين إلى هذه المسائل تتمثل في اتجاهين : اتجاه يقول بتناهي الربوبية في العظمة والعلو ، ويجعل الإنسان في حضيض الضعف ودَرْك الوهن . واتجاه آخر يرفع مرتبة الإنسان ويخوله حق القربى من الذات الإلهية ، بما فطر عليه من إيمان وإرادة ، وبما أتاه من أعمال صالحة ومن حسنات . ثم قال هانوتو إن نتيجة الاتجاه الأول هو تحريض الإنسان على إغفال شئون نفسه ، وبث القنوط في قلبه وتثبيط همته . أما الاعتقاد بمذهب الفريق الثاني فهو يؤدي إلى الجِلاد والعمل . ومثل للاتجاه الأول بالديانة البوذية ، كما مثل للاتجاه الثاني بالثقافة اليونانية . ثم قال : إن المسيحية هي الوارثة لآثار الآريين ، وهي منقطعة الصلة بالمذاهب الساميّة ، وإن كانت مشتقة منها . أما الإسلام فهو متأثر بالمذهب السامي ،ولذلك فهو ينزل بالإنسان إلى أسفل الدرك ، ويرفع الإله عنه في عَلاءٍ لا نهاية له . وأصول الثالوث السري مشتقة من ضرورة وجود إله بشري يمحو ذنب الجنسِ البشري، وَيحمِل المسيحيّ على إتيان الأعمال التي تقربه من الله . أما الإسلام فهو يتمسك بالوحدانية ، ويرفض ذلك ، فيجعل المسلم كمن يهوي في الفضاء بحسب ناموسٍ لا يتحول ، ولا يملك في ذلك من حيلة غير متابعة الصلوات. فلفظ الإسلام معناه الاستسلام المطلق لإرادة الله .

ثم أشار هانوتو إلى اختلاف الباحثين والسياسيين الفرنسيين في تصور العلائق التي تربطهم بالمسلمين . فالمسيو كيمون يعتقد أن « الإسلام جُذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً . بل هو مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولي ، يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء . » وهو يرى المسلمين وحوشاً ضارية . ويعتقد أن الواجب إبادة خُمْسِهم ، والحكمُ على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدميرُ الكعبة ، ووضعُ ضريح « محمد »[1] في متحف اللوفر . والمسيو لوازون (القس ياسنت سابقاً) ، يعتقد أن الإسلام هو الدين المسيحي محسّناً ومحوّراً. فهو يعتبر الإسلام أرقى مبدأ وأسمى كعباً من المسيحية . وهناك فريق ثالث يتوسط بين الفريقين ، ويقول إن الإسلام قنطرة للأمم الإفريقية ، ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية .

ثم قال هانوتو إن هذه الآراء المتباينة هي التي أحدثت التناقض في أعمال فرنسا الاجتماعية والسياسية والإدارية . وطالب بأن تقوم السياسة الاستعمارية على الدراسة العميقة الدقيقة للشعوب الإسلامية وللإسلام . ثم قال إن الاسلام دين وسياسة ، وأن شعور المسلمين مبهم من حيث الجامعة السياسية أو الرابطة المدنية أو الوطنية . فالوطنُ عندهم في الإسلام . وهم يقولون إن السلطة مستمدة من الألوهية . فلا يجوز أن يتولاها إلا المسلمون . ثم أشار هانوتو إلى نجاح فرنسا في فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية في تونس . وقال إنها قد استطاعت أن تحقق هذا الانقلاب العظيم بلباقة وحذق ، دون أن تثير ضجيجاً أو تذمراً . فتوطدت دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس . وتسربت الأفكار الأوربية بين السكان بدون أن يتألم منها إيمان المحمّدي . وبذلك انفصم الحبل بين هذا البلد وبين البلاد الإسلامية الأخرى ، الشديدة الاتصال بعضها ببعض . ودعا في آخر مقاله إلى أن تُتّخَذ تونس مثالا يقاس عليه ، ونموذجاً يُنسَج على منواله .

ورد محمد عبده على مقال هانوتو في ثلاث مقالات .

١ – صلوات الله وسلامه عليه .

أما المقال الأول فقد اتهم فيه هانوتو بتحريك نيران العداوة في الفرنسيين، وإثارتهم على حرب المسلمين. ولفت إلى ذلك نظر الشباب المصري الذي يتعصب للثقافة الفرنسية. وقال محمد عبده إن أصل التمدن الآري هو الهند. وهم يعتقدون بفناء العالم، وأنه لا يليق بالإنسان أن يهتم بشئون العيش. وقال إن الإسلام هو الذي حمل إلى أوروبا مدنيات العالم، من فارس ومصر واليونان والرومان، بعد أن صفاها وهذبها، وذلك عن طريق الأندلس. ثم تساءل بعد ذلك عما يعني هانوتو من المقارنة بين المدنية الساميّة والمدنية الآريّة. فليس هناك علاقة بين الدين المسيحي وبين المدنية الحاضرة. فالإنجيل يأمر أتباعه بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها. ويوجب عليهم إذا سلبهم السالب قميصاً أن يعطوه الرداء أيضاً، وإذا ضربهم الضارب على خدهم الأيمن أن يديروا له خدهم الأيسر. ويقص عليهم أن دخول الجَمَل في سَمِّ الخياط أيسرُ من دخول الغني في ملكوت السماوات. فهل تقوم المدنية الأوروبية على هذا الأساس؟... ثم قال: إن الفينيقيين من الساميين. وهم أساتذة العالم في الصناعة والتجارة، بل القراءة والكتابة. ومنهم الآراميون. وقد كانت لهم مدنية لا تُنكَر أيام الرومانيين. ولا زالت الأمم يأخذ بعضها من بعض في المدنية، لا فرق في ذلك بين آري وسامي. ثم أشار محمد عبده إلى ما قرره هانوتو من أن الدين الإسلامي يراد به التوحيد، والدين الآري يُقصَد به ما يقابله. وقال إن هذا خطأ واضح، لأن التوحيد هو دين عبراني فقط. عُرف به إبراهيم وبنوه، ومنهم عيسى. أما بقية الساميين من عرب وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة في الكتاب المقدس فقد كانوا وثنيين مشبِّهين (١).

وتناول محمد عبده في مقاله الثاني (٢) مناقشة مسألة القدر والجبر عند الآريين والساميين، أو النصارى والمسلمين، فقال إن الآرية والسامية لا

---

١ – تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٤١٥ – ٤٢٠

٢ – المرجع السابق ٢ : ٤٢٠ – ٤٢٤

دخل لهما في هذه المشكلة ، فقد عظم الخلاف فيها بين المسيحيين أنفسهم . ثم قال إننا لا نعرف يهودياً استلقى على قفاه ، وترك العمل اتكالا على القدَر. ولكنْ نعرف ذلك في الأديرة وبين الرهبان . ونعرف بين المذاهب اليونانية ما يذهب إلى أن الأشياء توجد بالاتفاق والمصادفة ، ولا يحتاج الممكنُ في وجوده إلى سبب . وذلك الاعتقاد أدخلُ في باب الجبرية من إسناد كل أمرٍ إلى خالق الكون . ثم بيّن أن النبي وأصحابه جاهدوا في سبيل نشر الدعوة ، ولم يكتفوا بالتسليم للقدر في إتمامها ، قائلين إن الذي كفل لهم النصرَ يكفيهم التعب . كما بيّن أن الآريين الذين دخلوا في الإسلام ، من فرس ورومان ، هم الذين أفسدوا العقائد الإسلامية ، فأدخلوا فيها ما ليس منها . وأن الأوهام التي يبثها المتصوِّفة في الدين ترجع إلى أصولٍ فارسية وهندية .

أما المقال الثالث ، فقد تناول فيه التوحيد والتنزيه ، وتجسد الألوهية والتشبيه ،[1] فقال إن الوثنية وتوهم السلطان الإلهي ظاهراً في بعض الموجودات المادية ، كان عقيدة الواقفين على أبواب الإنسانية ، لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها . وكلما ارتقى الإنسان في العلم ، تمزقت دون روحه حُجُب المادة وانجلى له الوجود الأعلى . وقد كان هذا شأن اليونانيين ، حتى جاء سقراط وأفلاطون وأرسطو . وكذلك كان المصريون ، لم يقف بهم العلم دون التوحيد . غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم ، واستبقوا صور العبادات الأولى . ثم بيّن أن أهل التشبيه قسمان : قسم يعتقد بألوهية بعض الموجودات المشهودة ، وقسم آخر يعتقد أن بارئ الكون يظهر فيها . وبين هذين قسم ثالث ، يعتقدون بالوسائط ، ويقيسون الله على الكُبراء وأهل السمو منهم ، فيتخذون بعض من يظنون بهم القرب من الله شُفَعاء ، يَلجئون إليهم ليقربوهم منه سبحانه . وهؤلاء قد استَعْبَدوا أنفسهم للسادن والكاهن وللزعماء ووارثيهم ، واستسلموا لهم في جميع شئونهم . ثم قال إن ربط

---

١ – المرجع السابق ٢ : ٤٢٥ – ٤٣٢

هانوتو بين المسيحية وبين الديانة اليونانية باطل ، لأن المسيحية بذات وسعها في بداية أمرها لتطهير الأرض من الوثنية . وكان التنزيه قوامَ دعوتها ، ولم تظهر آثار التشبيه إلا بعد قرون من نشأتها وقال إن من المسيحيين الآن — مثل بعض طوائف البروتستانت — من يعتقد أن المسيح لم يكن إلا نبياً مختاراً بعثه الله لخلاص البشر. ومن غير المعقول أن تجاهد المسيحية مَنْ حولها من الوثنيين ، لتخرجهم من وثنية إلى وثنية . أما الإسلام فقد دعا إلى التوحيد . وصرح بأن دين التنزيه هو دين الله من لَدُنْ آدم ونوح وإبراهيم إلى موسى . ثم هو دين الأنبياء بعد موسى ، ودين خاتم رسل إسرائيل عيسى عليه السلام . ولم يُنكِر الإسلامُ أن في اليهود وفي المسيحيين خصوصاً أهلَ تنزيه. وذكر أن منهم من مال إلى التشبيه ، ودعاه إلى الرجوع لأصل دينه ، حتى يقوم بالعبادة وحدَه ، ويُعتَق من سلطة الرؤساء والزعماء ، الذين اغتصبوا عقله وملكوا هواه ووهمه . وبهذه العقيدة التي تدعو إلى التوحيد فتح المسلمون الدنيا ، وجالوا في علوم السماوات والأرض ، فنبغوا في مختلف فروع العلوم . وإنما فسدوا وتأخروا حين فسدت عقيدتهم ودخل فيها ما ليس منها . ورد محمد عبده على ما توهمه هانوتو ، من أن الإسلام قد قطع الصلة بين العبد وربه ، فقال إن الإسلام قد أفضى بالعبد إلى ربه ، وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تَبيعهُ رضاءه . ثم قال إن ثورة المستعمرات لا ترجع إلى أن فرنسا مسيحية. فلو أسلمت الأمة الفرنسية بأسْرها ، ثم كانت معاملتها لغير الفرنسيين على ما نعهد في الجزائر ومدغشقر ، لما أحبها أهل المستعمرات ولا مالوا إليها .

وبعد هذا المقال ، انبرت جريدة (الأهرام) لمناقشة محمد عبده والرد عليه ، زاعمةً أنه بنى ردَّه على ترجمة محرفة لكلام هانوتو. ولما اطلع هانوتو على ما جاء في النسخة الفرنسية من الأهرام ، كتب مقالا جديداً نشرت (المؤيد) ترجمته ، حاول فيه الاعتذار عما رُمي به من إغراء دولته بالمسلمين . وقال إنه لم يحاول فيما قال إلا الإصلاح وإقامة السلام . ثم نشر (الأهرام)

بعد ذلك حديثاً لصاحبه مع هانوتو قال فيه : إنه روى آراء كيمون ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ، وهو لا يعتقدها . وقال إن أوربا لم تتقدم إلا بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية . ونصح الشرق بأن يحذو حذو أوربا ورد بعض مفاسد الشرق إلى أسلوب الحكم العثماني . كما رده إلى ما يتوهمون من أنهم يستطيعون تحقيق النجاح باستغلال ما بين الدول الأوربية من تنافس من خصومة ، وبإقامة البراهين على عدالة قضيتهم . والواقع أن الدول الأوربية لا تهمها العدالة ، ولكن تهمها مصالحهـــا الاستعمارية . ونصح الشرقيين بأن ينهجوا نهج أوربا كما فعلت اليابان ، فيعملوا على نشر العلوم العصرية في بلادهم ، وعلى إزالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب . وقال إن العبرة ليست في إقامة المدارس ونشرها ، ولكنها في وضع مناهج الدراسة السليمة . وختم مقاله بأن السلطة المدنية أهم وأشد من الرابطة الدينية ، وهي التي كانت قاعدة أوربا الأولى في سياستها ، وبها تقدمت وتمدنت ونجحت (١) .

ورد محمد عبده على هذا المقال الأخير في ثلاث مقالات أخرى شرح فيها علل الأمم الإسلامية ، ورسم الطريق لعلاجها (٢) .

وقد ظل أصدقاء محمد عبده وأنصار دعوته يكثرون بما يلقون من تشجيع الإنكليز الذين كانوا يمكّنون لهم في إدارات الحكومة وفي مناصب الدولة الكبرى (٣) ، وبما يجدون من تأييد الثقافة الحديثة التي تشد أزرها الصحفُ والمجلات والمدارس . وظل خصومه ومعارضو دعوته يقلون ويضعفون بمناوأة الإنكليز لهم ومحاربة أجهزة التعليم والثقافة لآرائهم . حتى أصبح اسم محمد عبده مقترناً في أكثر الأذهان بالإصلاح المستنير ، وأصبح اسم معارضيه

---

١ – المرجع السابق ٢ : ٤٤٠ – ٤٤٨

٢ – المرجع السابق ٢ : ٤٤٩ – ٤٦٨

٣ – راجع ما جاء في تقارير كرومر السنوية بمناسبة تعيين سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف . تقرير سنة ١٩٠٦ الفقرة ٣ تحت عنوان Fgyptian Nationalism ص ٨ وراجع كذلك كتابنا (الإسلام والحضارة الغربية) ص ٩٢ وما بعدها

مقترناً بالتزمت وضيق الأفق المُفسِد لسماحة الإسلام .

وقد ظهر صدى ذلك في الشعر الذي قيل في رثاء محمد عبده . فقد أشاد الشعراء الذين شاركوا فيه بفضله على النهضة الإسلامية . فمن ذلك قول حافظ إبراهيم في رثائه ، مشيراً إلى منهجه الجديد في التفسير وإلى توفيقه بين العلم والدين ، وما لقي في ذلك من أذى [1] :

وآذَوكَ في ذات الإله وأنكروا   مكانَك حتى سوَّدوا الصفحات
رأيتَ الأذَى في جانب الله لذةً   ورُحْتَ ولم تَهْمُمْ له بشَكَاة
لقد كنتَ فيهم كوكباً في غياهب   ومعرفةً في أنفسٍ نكِرات
أبنْتَ لنا التنزيلَ حُكماً وحِكْمةً   وفرَّقتَ بين النور والظلمات
ووفّقتَ بين الدين والعلم والحجا   فأطلعتَ نوراً من ثلاث جهات
وقَفْتَ (لهانوتو) و(رينان) وقفةً   أمدَّكَ فيها الرُوحُ بالنفحات

ومن ذلك رثاء الكاشف ، الذي أشار فيه إلى ما ذهب إليه محمد عبده من أنّ صلاح الأمة بصلاح الرعية لا السلطان ، وإلى ما غرس في المسلمين من روح التسامح الذي يتفق مع حقيقة الإسلام . كما أشار إلى عبارته المشهورة « لا يصلح الشرقَ إلا مستبدٌ عادل » ، ودافع عما اتهمه به خصومه من موالاة الإنكليز ، فقال [2] :

فأريتَ أهلَ الشرق أن صلاحَهم   بنفوسهم لا بالملوك مؤكّد
وأبنْتَ للمغلوب علّة عجزه   ومِراسَ غالبه فهَمٌّ يقلد
مِنْ بعْدِ ما أمضَى الليالي خائفاً   مترِّقباً أو ذا شكَاةٍ يَحقِدُ
وأضله نَفَرٌ يرونَ نجاتَه   في أن يسبّوا من بغَى ويعربِدوا
... يتطلب الدستورَ أقوامٌ ، ولو   وُلِّيتَ حكمَ شعوبِ قيصرَ أخلَدوا
وغَدا يَودُّ غلاتُه وحُماتُه   لو أطلقوا لكَ أمرهم وتَقيّدوا

١ — ديوان حافظ ٢ : ١٤

٢ — ديوان الكاشف ٢ : ١٢٢ — ١٢٤

وقضيْتَ فيهم مستبداً عادلا فجمعْتَ شملَهم وأنت المُفْرَد[١]
... أنصَفْتَ حتى ما يُسِرُّ لمسلمٍ متنصِّرٌ حقداً ولا متهوِّدُ
ما قمْتَ بالإصلاح إلا بعد ما قدَّرْتَ قوة من يكيد ويُفْسِد
وجعلتَ عفوك عن عداتك سُنَّةً للقادرين بها إليهم تَعْهَد
ما الحربُ تقتيلَ العِدا، لكنها نَزْعُ الحكيم من الورَى ما عُوِّدُوا

* * * *

وظهر صدى دعوة محمد عبده في كثير مما كتبه تلاميذه ومعاصروه. فمن ذلك ما كتبه رفيق العظم (وهو أحد تلاميذه) رداً على مقال عبد القادر حمزة: «خطر علينا وعلى الدين» الذي أشرنا إليه في صدر هذا الفصل. فدعا في مقاله إلى تنقيح الدين وتهذيبه على غرار ما حدث في أوربا قبيل ما يسمونه عصر النهضة في القرن السادس عشر، حتى يصبح – حسب زعمه – ملائماً للعصر وصالحاً للحياة.[٢] بيّن رفيق العظم في مقاله أن نهضتنا الصحيحة لا يمكن أن تقوم إلا على أساس الدين بعد تنقيته من الشوائب، وأن الذين يطالبون بعدم إقحام الدين في شئون الحياة لا يفرقون بين الدين في حقيقته، وبين الدين كما انتهى إليه أمره، ولا يميزون بين المصلحين من علماء الدين، وبين المتنطعين من الجامدين الذين يدافعون عن بدع مستحدثة وعادات بالية فاسدة يسمونها الدين. ثم رد على الذين يزعمون أن سبيل الإصلاح هو في اتِّباع الغربيين الذين نبذوا الدين، فقال:

«ربقائل يقول: ما أغنى هؤلاء المصلحين عن إصلاح الدين، وأحراهم بالدعوة إلى إصلاح أمر الدنيا، وبيان وجوه الخير والسعادة، التي تتم بها سعادة

١ – راجع مقاله «إنما ينهض بالشرق مستبد عادل» تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٣٩٠ وقد تمنى فيه أن يحكم مصر دكتاتور صالح لمدة خمس عشرة سنة، وهي سن مولود يبلغ الحلم، يولد فيها الفكر الصالح، وينمو تحت رعاية الوالي الصالح، الذي يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة، إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة.

٢ – المقتطف عدد مايو سنة ١٩٠٤ ص ٤٠٢ – ٤١٠

الامم الراقية التي نبذت الدين. فالجواب عن ذلك أن المرض إنما يزول بزوال سببه. وإذْ علمنا أن سبب انحطاط المسلمين اتخاذُهم البِدَعَ والعوائد ديناً، وهي ليست من الدين. واستسلامهم بسبب ذلك للرضا بما وجدوا عليه آباءهم الأولين، لزمنا أن نسعى بإزالة السبب. ومتى زال ونشطَت العقولُ من عقال الأسر للعوائد. والإغراق في الاستسلام لكل ما يقال إنه من الدين، حق وقتئذ على العقلاء والمصلحين أن يحوّلوا وِجهتَهم إلى الإصلاح المدني. إذ يجدون يومئذ كل الأمة آذاناً مصغية لما يقولون، وقلوباً واعية لما به ينطقون.»

ومضى الكاتب في بسط نظريته التي تقوم على أن الإصلاح المدني يتْبَع الإصلاح الديني. وأن المجتمع القوي الناجح لا يقوم إلا على أساس العقيدة السليمة، مؤيداً رأيه بالنظر إلى تاريخ النهضة الأوربية نفسها، التي يدعو بعض المصلحين إلى اقتفاء آثارها. فقد بدأت هذه النهضة في القرن السادس عشر الميلادي بالإصلاح الديني الذي دعا فيه لوثر إلى ترك البِدَع الدينية، وتطهير العقائد من شوائب الحشو القاتلة للعقول. ثم كان الإصلاح المدني من بعدُ نتيجةً لهذا الإصلاح الديني الذي أطلق العقل من قيود السيطرة الجائرة، بمثل ما كان الإصلاح السياسي نتيجةً للثورة الفرنسية.

ثم تتبع رفيق العظم تاريخ دخول البِدَع على الدين مما استدعى ظهور طائفة من المتشددين، فرأى أن الإسلام كان في أوله سهلا يسيراً، لا يزيد على أن يلقّن الداخلُ فيه كلمة التوحيد، ويعلّم أركان الصلاة، ويؤمَر بحفظ شيء من القرآن، ثم يقال له: هذا هو الإسلام في بساطته ويُسره. وكان المتفقهون قلة من الصحابة. ولم يكونوا يجاوزون في فقههم واقعَ الأمر الذي يعين على معرفة أحكام الدين. فلما دخل كثير من الوثنيين وأهل الكتاب في الدين، نقلوا معهم جملة من الآراء الفلسفية والبِدَع العقلية، مثل بدعة معْبَد الجهني وغيْلان الدمشقي في القول بالقدر (واختلف أربابُ المقالات بين جبْرية وقدَرية ومشبِّهة وما لا يُعَد من الفرق التي جمعها الإسلام. وفرقتها الوثنية والابتداع.) و (رأى ذلك فريقٌ آخر من الأمة

فهالهم ما رأوا . فنادوا : واغيرتاه على الدين . وبالغوا في الإنذار والتحذير وقول : هذ حلال وهذا حرام ، وهذا يمس الدين ، وهذا تقليد للوثنيين ، وهذا يشكك المسلمين ، حتى أحرجوا صدر الأمة ، بإلصاقهم كل شيء بالدين . فالقيام والقعود والأكل والشرب والتخاطب والتعامل والعلم والتعلم كله بالدين ومن الدين وللدين . وبالجملة لم يدعوا شيئاً من العوائد إلا أدخلوه في الدين . »

وخلص رفيق العظم من كلامه إلى الإجابة على السؤال الذي ختم به عبد القادر حمزة مقاله (هل في النداء بالدين فائدة ؟ ...) فأجاب على ذلك بأن الكاتب قد أخطأ حين فهم أن المنادين بالدين كلّهم يدعون إلى التمسك به على ما دخله من الحشو واللغو المضر . فنحن في حاجة إلى النداء باصلاح الدين لا النداء بالدين مطلقاً كما ظن . « وإنما ينفع النداء بالدين ، إذا امتاز تجار الدين والمتعصبون للتقاليد ، عن علماء الدين والإصلاح الغيورين ، وتركوهم وشأنهم في الدعوة إلى تطهير العقول من أدران الاعتقاد الباطل الذي تلبّس به سواد الأمة ، فأصبحوا بعيدين عن قبول السعادة المدنية بُعْدَ الأرض عن السماء . »

وتابع عبد العزيز جاويش أستاذه الشيخ محمد عبده في منهجه ، فأنشأ مجلة (الهداية) سنة ١٩١٠ . وأخذ يفسر فيها القرآن على أسلوب شيخه ، في تقريب الإسلام من قيَم العصر وثقافته ، التي هي في حقيقة أمرها مستمدة من قيَم الغرب وثقافته . وأفسح من صفحات مجلته للمترجَم من الثقافات الغربية الحديثة في التربية والاجتماع والدراسات النفسية والأدب شعره ونثره.

أما ما كان يُنشَر في المجلة من مقالات إسلامية فبعضه يستهدف تقريب الدين من الثقافة الغربية الحديثة . وبعضه يستهدف تقريبَه من المدنية الغربية ليطابق أنماط الحياة السائدة . فمما نشرته المجلة في تقريب الإسلام من الثقافة الغربية الحديثة مقال للشيخ طنطاوي جوهري في التوفيق بين الإسلام وبين

مذهب دارْوِن في التطور ، يقول فيه : [1]

« إني قرأت تلك المحاورات . وعلمت ما في تلك القضيات ، ولم أر شيئاً يغاير الدين ، ولا فكراً يضر بعقائد المسلمين . فالإسلام يأمر الناس باليقين ، ولا يقينَ إلا بالعلوم التي يسميها الناسُ عصرية، وهي في الحقيقة علوم إسلامية . »

ثم يقول :

« إن الإيمان بالله تعالى قضية كلية لا يناقضها مذهب من المذاهب ، ولا ينافيها منهج من المناهج . فإذا قلت إن الله وضع العالم منظماً مرتباً سائراً على القانون والترتيب والحكمة والتناسق ، كما هو القضية الأولى [2] ، أو قلتَ إن الخيل والحمير تولّد بينهما بغل ، فلا كفران ولا خسران . كل ذلك حكمة إلهية وعجائبُ حِكْميَّة . وما يكفر بتلك القضايا إلا المتوسطون في العلم ، الذين لم يرتقوا إلى طبقات الحكماء . فإن عقولهم لا تسع نظاماً وترتيباً وإلهاً قادراً حكيماً. ومَثَلُهم كمثل العامة الذين لا تسع عقولهم أن تتصور تأثير العقاقير في الأمراض ، ويكتفون بالإيمان ، وهم جاهلون بنظام العالم وحكمته وترتيبه . »

ثم رد نظرية دارْوِن في التطور الى علماء المسلمين فقال :

« قد علمتم أن مذهب دارون قد رجع إلى قضيتين اثنتين ، وهما لا ينافيان الألوهية [3] . فدلالة العالم المنظم على الله قضية كلية لا يختلف فيها المحققون ، وإن غفل عنها الكثيرون . ولقد كانت هذه القضية الناموسية سراً مكنوناً عند علماء الإسلام، كم أخفوها عن العوام . وتسمَّى عند

---

١ – الهداية عدد أكتوبر سنة ١٩١٠ ص ٥٨٣ – ٥٩٦ .

٢ – رد الكاتب في مقاله مذهب دارون إلى قضيتين : أولاهما أن العوالم العضوية من النبات والحيوان والإنسان متشابهة منتظمة متناسقة ، يتصل أولها بآخرها . وثانيتهما هي أن الأجناس العليا مشتقة من الأجناس الدنيا . ومسألة القرد والإنسان جزء من آلاف من تلك القضية . وترجع كلها إلى التوالد الذاتي من الجماد .

٣ – القضيتان اللتان أشرت إليهما في الهامش السابق .

علمائهم (دائرة الوجود) وعند أهل السنة والمعتزلة بالقضاء والقدر ، وتسمى في القرآن بالميزان . وورَدَ الترتيبُ النظاميُّ بذكر الإنسان فالحيوان فالنبات فالسماوات وكواكبها وشموسها في سورة النحل ، رجوعاً بالعوالم من أواخرها إلى أوائلها ، وهذا عجب عجاب . وقد قال الغزالي رحمه الله: لا يَعرِف هذا السِرَّ إلا المحققون الذين درسوا أكثر العلوم . »

ودعا طنطاوي جوهري علماء المسلمين وشبابهم إلى الاستعانة على توثيق إيمانهم بدراسة العلوم . « فقراءة التشريح والطبيعة والكيمياء وسائر العلوم العصرية، ودراسةُ الحيوان والنبات والإنسان، أجلُّ عبادة . وهي أفضل من سائر القرُبات كما شرحه العلماء . وهي أفضل من صلاة النافلة والإحسان للفقراء. ولولا قصورُ علماء القرون الماضية ما ضاع المسلمون ، وما أحاطت بهم عاديات الدهر ، ولا أصابتهم كوارث الحدثان [1] . »

ورد على ما يزعم الزاعمون من أن دراسة العلوم الطبيعية تورث الزيغ عن الدين وزعزعة اليقين فقال :

« إن أولئك الملحدين أحد اثنين . إما رجل جهل الطبيعة ودرس قشورها فهو من الشاكّين. وإما رجل ضعفت قوتُه الحاكمة، فملأ عقلَه بالمحفوظات، وليس له من قوة الحكم من نصيب . إن بعض الشرقيين أسرعوا إلى الإلحاد لقلة بضاعتهم من العلوم. (علومُ الطبيعة يقينٌ للحكماء ،شكٌ لمن دونهم) . فما مثلهم إلا كالخفافيش أو الفَراش يبهرها ضوءُ الشمس، أو كالفقير أصابه الغِنىَ فجأةً،أو كَسْيِران الأسبان بهرتْها بعدَ حبسها حمرةُ الألوان. هذه طبائع بعض الإنسان. ومن الناس من يمل من هذا الكلام، إما لفسوقٍ فيه ، وإما لكبرٍ وخُيَلاء ،لئلا يقول الناس رجع عن رأيه . وإما ليتظاهر بأنه أعلمُ مَنْ حولَه من العالمين.وما درى المسكين أن الإنكار أسهل شيء على الجاهلين . وليس يُعْوِزه إلا العنادُ الذي ماله من نَفَاد . »

---

١ - راجع، أم القرى ص ٣٧ - ٣٨ ، طبائع الاستبداد ص ٣٤ - ٣٦ في بعض الأمثلة على ما يستفيده علماء الدين من العلوم الحديثة في فهم دينهم، وما كشف عنه العلم الحديث من بعض أسرار القرآن ، كما يذهب إليه الكواكبي .

ومما نشرته (الهداية) في التوفيق بين الدين وبين حضارة الغرب التي تغاير حضارة المسلمين وأنماط حياتهم مقال لعبد القادر المغربي في حجاب المرأة [١] ، بين فيه أن الغرض من الحجاب في الإسلام هو صيانة كرامة النساء وتوفير حرمة الأعراض . وأن الإسلام لم يحدد له صورة خاصة وكيفية بعينها . وإنما نهى عن التبرج وعن الخلوة بالأجنبي . ولكن المسلمين جروا في حجاب نسائهم على طرائق اختلفت باختلاف بيئاتهم وأقطارهم وعمرانهم وأمزجتهم وسائر المؤثرات التي تحيطهم . وأورد أمثلة كثيرة على جواز السفور. منها أن النبي ﷺ شهد وليمة عرس، وكانت العروس نفسها تخدم المدعوين . ومنها أن زوجة عبد الله بن عمر كانت تنزل إلى المسجد فتصلي الفجر غَلَساً . ومنها أن أبا بكر كان يجتمع بالنساء الأجنبيات ويحادثهن . وأن سفيان الثوري وأضرابه كانوا يزورون رابعة العدوية ويسمعون كلامها. وأن عائشة الباعونية (في القرن الحادي عشر من الهجرة) كانت تقرأ درساً عاماً في الجامع الأموي بدمشق،وكان يحضر درسها العلماء والصُلَحاء و عامةُ الناس . وأن عمر بن الخطاب كان إذا رأى امرأة مُرخِية قناعاً على وجهها كشف القناع ونظر إليها فإن وجدها جميلة أقرها ، وإلا ألزمها بالسفور وتَرْكِ القناع. وأن عائشة بنت طلحة كانت مع جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها (أي أنها تشعر من نفسها بأنها أعظم من أن يحدِّث نفسَه بها فاسقٌ) ، وأن سُكينة بنت الحسين كانت تجالس الجِلَّة من قريش ، ويجتمع إليها الشعراء ، وتأذن للناس إذناً عاماً حتى تَغص الدار ، فتأمر لهم بالطعام ، ثم تسأل الشعراء وتنقد أعمالهم .

ومما كتبه عبد العزيز جاويش في تدعيم هذا الاتجاه خطابُه الذي ألقاه في المؤتمر المصري سنة ١٩١١ ونادى فيه بوجوب مراعاة أحوال الزمان

١ – الهداية . عدد ديسمبر سنة ١٩١٠ ص ٧٠٩ ٧١٤ وكل ما أورده من أمثلة يحتاج إلى مراجعة ومناقشة . فبعضه مروي عن غير ثقات . وبعضه مما لا تقوم به الحجة . وبعضه الآخر مما انتزع من سياقه وحرف عن وجهه .

والمكان في تطبيق الشريعة الغراء. وقد جاء فيه (١)

« ألا ليهدأ روعُ أولئك الذين يتقدون غيرةً على الدين كلما عرضت حال يدعو فيها داع إلى الإصلاح، واهمين أنه لا يكون شيء من ضروب الإصلاحات إلا حيث يكون المساسُ بأحد أصول الدين. وإذا لم يكن بدم من أن يغار، فإن أحق ما تحق عليه غيرةُ المؤمن، بل أولى ما تسكبُ عليه حباتُ القلوب دماً من المحاجر، هذا الشرعُ الذي لحق به التوهين، وتلك الأمة التي كادت تكون في الغابرين. ليهدأ روعهم، وليخففوا عنهم بعض مابهم، وليعلموا أن من الواجب تطهير الشرع من بعض الأحكام الاستنباطية، التي قررها نفر من أهل العلم، دون رعاية للمصلحة العامة، التي هي أصلٌ من أصول الشرع الشريف ... »

«لقد سنّت لنا شريعتنا أن نأخذ بالأصلح الملائم للأزمنة والأمكنة، حتى لا يكون على الناس حرج ولا ضرار. بل رخّصت أن يُعْدَل عن النص، إذا ثبت ثبوتاً قاطعاً أن الضرورة توجب هذا العدول، وكانت المصلحة التي تنتج من اتباع النص أقل مما ينتجه هذا العدول. »

ثم ذهب الكاتب إلى أن قوانين الشرع عامةٌ كليةٌ، وأن الذي نُصّ عليه فيها من أحكام التعامل قليل، وأن الباقي تُرِك لاستنباط ما يناسب الضرورات والحاجات التي ستجِدّ للناس. كما زعم أن تقيد الناس بآراء الفقهاء الأقدمين، الذين استنبطوا من الأحكام ما يناسب أحوال زمانهم، قد أوقع الناسَ في حَرَج لا مُسوِّغ له من الشرع، واضطرهم إلى الأخذ بنُظُم الأمم الغربية. وقدم في مقاله أمثلة لعدول النبي ﷺ والصحابة عليهم رضوان الله عن قاعدة الشرع رعايةً للأصلح. منها أن النبي ﷺ نهى أن تُقطَع الأيدي في الحد في حالة استثنائية هي الحرب. ومنها أن عمر رضي

١ – الهداية عدد مايو سنة ١٩١١ ص ٢٩٧ – ٣١٢، مجموعة أعمال المؤتمر المصري الأول ص ١٢٥ – ١٣١.

الله عنه نهى أن يجلد في حدٍّ من كان يباشر الحرب.[1] ومنها إسقاط الحد في عام المجاعة. ودعا الفقهاءَ إلى الخروج عن عزلتهم، وإلى دراسة المجتمع، ليتعرفوا أعراضه وأطواره، كما دعاهم إلى الاختلاط بسائر طبقات الأمة ليعرفوا عناصر الحياة الاجتماعية، وممَّ تتركب، وكيف تمتزج، وما يطرأ عليها من التغيرات، وكيف تترقى. وطلب إليهم أن يرجعوا لأهل الرأي من الأمة ليستعينوا بهم على مراعاة المصلحة العامة، فيكون تقريرهم مجمعاً عليه، لانطباقه على الحاجات المتنوعة والضرورات المتعددة.

وأخذ عبد العزيز جاويش في تفسيره للقرآن يسير على منهج الشيخ محمد عبده في ربطه بالظروف القائمة، متنقلا في ذلك بين التاريخ والأدب والاجتماع والسياسة. فمن ذلك بيانه أن حكمة الله قد اقتضت أن لا يلي الأرض إلا المصلحون، وذلك في تفسيره لقوله تعالى (وإذْ قال ربُّكَ للملائكة إني جاعلٌ في الأرضِ خليفةً. قالوا: أتجعلُ فيها من يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدماءَ ونحن نسبِّحُ بحمدك ونقدِّسُ لك؟. قال إني أعلمُ ما لا تعلمون. وعَلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها، ثم عرَضَهُمْ على الملائكة، فقال: أنبئوني بأسماءِ هؤلاء إنْ كنتم صادقين. قالوا: سبحانكَ لا علمَ لنا إلا ما علَّمتنا، إنكَ أنتَ العليمُ الحكيم. قال: يا آدمُ أنبئْهُم بأسمائهم. فلما أنبأهُمْ بأسمائهم قال ألَمْ أقُلْ لكم إني أعلمُ غيبَ السماواتِ والأرضِ، وأعلَمُ ما تُبْدُون وما كنتم تَكْتُمون.) وقد جاء في تفسيره:[2]

« كيف تكفرون بالله بعد إذ أرادت الملائكةُ أن تكون لهم الخلافة في الأرض دون البشر، وذلك لمكانتهم من الله تعالى، ولعكوفهم على عبادتهم وتسبيحهم بحمده وتقديسهم له، فبين الله لهم أن شرائط الخلافة في الأرض ليست تقطيعَ الليل في التسبيح والتهجد، ولاقضاءَ الأعمار في الحفوف من

---

١ – خطأ الكاتب هنا واضح. وهو ناشىء عن إقامة الاستثناء الشاذ مقام الأصل. والشاذ لا يقاس عليه.

٢ – الهداية عدد فبراير سنة ١٩١٠ ص ٦٨ – ٧٦

حول العرش . وإنما شرائط الاستيلاء على الأرض ، والاستمتاع بما على ظهرها ، والتصرف فيما تضمنه جوفها، لا تكاد تخرج عن وجود العقل المفكر ، وما زود الله به بني آدم من الجوارح والنظام البديع ... لو أن عمران الأرض واستحقاق الخلافة فيها كانا معقودين بمجرد طاعة طائفة من عباده ، وانهماكهم في تسبيحه وتقديسه ، والتزامهم لقواعد عرشه الرفيع ، لاختص الله من عباده بذلك ملائكته المقربين ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ولكنه تعالى سبقت حكمته أن لا يرث الأرض إلا العاملون ، الذين يستخدمون مواهبهم العقلية والجسمية فيما خلقت له ، والذين لا يطلبون الغايات إلا من طرائقها الطبيعية... وإذا كانت هذه هي سنته القديمة ، وتعاليمه التي هدى إليها الأخيار من ملائكته ، فعلام يستند جهال المسلمين من خاصتهم وعامتهم ، إذ يحاولون أن يدفعوا عنهم غارات المغيرين بتلاوة الآيات ورمي الجمرات واستصراخ الأموات ؟ وإذ يقابلون تهاطل الرصاص وتقاطر الجلل وانفجار كرات (الديناميت) بقراءة السور ومدارسة البخاري والابتهال بالدعوات ، وقطع الأوقات بالركعات والسجدات ، وتأبط (الجلنجلوتية) و (حزب البحر) وأشباهها ، مما لم يأت به من الله سلطان ، ولا يتقبله عقل إنسان؟... علام يستند أولئك الذين عطلوا سنة الله الفطرية ، واستمسكوا بسخافات الخرافات ، وتربصوا خوارق العادات ، وما لم يأذن به الله من المنجيات؟... وليت شعري ماذا أفادتهم اللحى الكثة المرسلة ، أو السبح الغليظة المتدلية؟ ثم ماذا أفادتهم يقظات الأسحار ، وقد استغرق منامهم سائر النهار ؟ وهل ينفعهم التعفف عن الدرهم والدينار ، إذا تركوهما لأعداء بلادهم ودينهم ، يحاربونهم بها ، ويملكون رقابهم بمحكم أطواقها؟... لقد والله ذل من يغني أعداءه ويفقر نفسه ، كما ذل من يترك لخصومه ميادين المنافسة ، ينفردون فيها بالكر والفر ، والنهي والأمر ، والتصرف في كل شأن . »

ومن ذلك إبرازه لما ينطوي عليه الإسلام من تسامح ، وذلك في تفسير

قوله تعالى (إنَّ الذين آمنوا والذين هَادُوا والنصارىَ والصابئين، مَنْ آمنَ بالله واليومِ الآخرِ وعَمِلَ صالحاً، فلهُمْ أجرُهُم عندَ ربهم. ولا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يَحزَنون.) إذ جاء في تفسيره: (١)

« وما كان الله ليظلم هؤلاء ليهوديتهم ولا أولئك لنصرانيتهم. اللهم إلا إذا أشركوا به غيرَه، أو أنكروا اليومَ الآخِر، أو هجروا صالحات الأعمال. فأولئك لا يأجرُهُم الله ولا يؤمنهم من الفزع والخوف. أما الذين آمنوا من قوم إبراهيم واليهودِ والنصارى والصابئين الذين ليسوا على دينٍ من تلك الأديان، فإن الله لا يفرِّق بين أحدٍ منهم، ما داموا يؤمنون بتوحيده وبالحياة الآخرة، ويأتون من الأعمال صالحاتها. فما الله بمفضِّل قوماً على قوم حتى يقيموا توحيده وتطمئن نفوسُهم إلى دينه. فإن فعلوا ذلك، ثم أتوا من الأعمال ما يُصْلِح الحياتين الدنيوية والأخروية، فلهم أجرهم عند ربهم، لا ينقصهم منه شيئاً. »

« أما الأعمال الصالحة، فقد سبق أن المراد بها كل ما يُكسِب الإنسانَ قوة في الدنيا وازدلافاً إلى الله في الآخرة. فمن صالحات الأعمال كلُّ ما يُفضي إلى غنى الأمم وعلو مكانتها. كما أن من صالحات الأعمال كل ما يخفف ويلاتِ أصحاب الويلات، ويؤدي إلى إصلاح الشئون العامة، اجتماعيةً كانت أو علمية أو اقتصادية. ومن البديهي أنه ما عُنِيَتْ أمةٌ بذلك إلا ذهب الخوفُ والفزع عن نفوسها، وملأ السرورُ والفرح صدورها. »

« ولقد خالفنا المفسرين في تأويل قوله تعالى (إنَّ الذين آمنُوا). ذلك [أ]ن القرآن الكريم سمّى إبراهيم بالمسلم، ودعا دينه الإسلام (إذ قال له [ر]به أسلِمْ. قال أسلمتُ لِربِّ العالَمين. ووصَّى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ، [يا] بَنيَّ إنَّ اللهَ اصطفَى لكم الدِينَ. فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مُسلِمون.) والمراد [م]ن هذه الآية بيان أن الدين عند الله الإسلام. وأنه من يبتغ غيرَ الإسلام

– الهداية عدد فبراير ومارس سنة ١٩١٢ ص ٨٢ – ٨٣

ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين . »

« أما معنى الإسلام الذي كان دينَ إبراهيم الخليل فإنه توحيدُ الله تعالى بالربوبية واختصاصُه بالعبادة. (إنَّ إبراهيمَ كانَ أُمةً قانتاً للهحنيفاً ولم يكُ من المشركين) . على تلك القاعدة بُنِيَ دين إبرهيم ومن تبع سنته من أهل مكة . كما بني دين سيد الكائنات محمد المصطفى وأهل مكة : (إنَّ أوْلى النَّاسِ بإبراهيمَ لَلَّذِين اتَّبَعوهوهذا النبيُّوالذين آمنوا .والله وَلِيُّالمؤمنين.) »

* * * *

انقسم زعماء الإصلاح كما رأينا إلى فريقين : فريق ينظر إلى قدم المسلمين والعرب يُمجِّده ويستوحيه. وفريق آخر ينظر إلى ما حقق الغَرْب في حاضره من تفوق يزينه للمسلمين ويدعوهم إلى احتذائه والسير على خطاه . وسرى هذان الأسلوبان في كل شئون الحياة . فأصبحنا أمام فريقين متقابلين : فريق يدعو الناس إلى الثورة على الماضي ، ويدفعهم إلى الجديد دفعاً لا رفق فيه ولا هوادة . ويحملهم عليه حملا لا تدرج فيه . وفريق آخر يقول : إن علة تأخرنا هي موت ضمائرنا وفتور عزائمنا . وذلك ما لا سبيل إلى إحيائه إلا بالإسلام الذي يُعلِّم المسلمَ أنَّ حمْلَ أعباء الحياة أمانةٌ وأن الجهاد لإعزاز المسلمين وتحريرهم فريضة .

وكان المعتدلون من دعاة الحضارة الغربية لا يعارضون في تنقيحها وتهذيبها واستبعاد ما يتعارض منها مع ديننا وتقاليدنا . وكان المعتدلون من دعاة الإسلام لا يعارضون في إصلاح عاداتنا وتقاليدنا واستبعاد الضار منها مما أُقحِم على الإسلام وليس منه .ويرون أن التمسك بالدين لا يتعارض مع الأخذ بالنافع من المخترعات والجديدِ من الدراسات التجريبية والتطبيقية التي تَلزَم النشء لكي يساير النهضة الصناعية . ولكنهم يفرقون بين ذلك وبين الحضارة والثقافة التي تتصل بالعقائد والعادات والتقاليد والأذواق وآداب المجتمع وأساليب الحياة وأنماط العيش. فيعارضون أشد المعارضة في أن تكون حضارتُنا وثقافتنا

صورةً من حضارة الغرب وثقافته أو امتداداً لها .

ولكن المتطرفين من الفريقين كانوا يبلغون في تطرفهم الشطط في كثير من الأحيان. فكان في المجددين من يبلغ في دعوته حد التهور والخروج على الأمة والارتماء في أحضان الغرب . وكان في المحافظين من يبلغ في محافظته حدَّ الجمودِ والتنطع ومحاربةِ كل جديد مهما ثبَتَ نفعه،والتمسكِ بكل قديم مهما تبين بطلانه وضرره .

كان بعض دعاة التجديد الذين ينادون باقتفاء الحضارة الغربية يبالغون في الاستخفاف بعلماء الدين ، حتى يجرهم ذلك إلى الاستخفاف بالدين نفسه، كالذي تجده في بعض مقالات وليّ الدين يكن ، حين يجاهر بالإفطار في رمضان مستخفاً بالصائمين ، يتهمهم بالنفاق وبالإفطار سراً ، أو بضيق الأفق والتضييق على الناس في حريتهم الشخصية . فيقول فيما يقول :(١)

« في البلاد العثمانية كلُّ المسلمين صائمون . كانت الحكومة المستبدة تسجن المفطر إلى أن يأتي اليوم الثالث من عيد الفِطْر. وكان أكثرُ المفطرين يدّعون الصوم ويحسنون تقليد الصائمين ، حتى لقد بلغ أمر الكذب أن يَضْرِبَ المفطرُ في بيته من يدخّن بجانبه سيكارته. وقد خرجتُ بها ذات يوم فيرمضان وراءَ أمرِ عرض أريد قضاءه ، فلما ركبت التراموايّ رأيت جماعة من الأجانب على رءوسهم القُبُّعات وبأفواههم سيكاراتهم ، والناس ينظرون إليهم شَزْراً ، ولا يقدر أحد منهم أن يخاطب أحد أولئك الأجانب بكلمة تسوءه . وكانت علبة سيكارتي معي فنسيتُ أنّ اليوم من أيام رمضان فأخرجت سيكارة جعلتُها في فمي. وأقمتُ أنتظر أن يمدّ إليّ أحد الجالسين شيئاً أشعلها به . فمشت فيّ عيون الرَكْب، وجعل بعضهم يغمز بعضاً مشيراً إليّ بلحظِه . ففطِنتُ لموضع خطئي،وقلتُ : أداويه لكم أيها الكاذبون

١ – راجع مقاله الذي نشر في المقطم «أكذوبة إبريل ، وأكذوبة رمضان » الصحائف السود ص ٢٣ – ٣٨ .

بالكذب. ثم وثبتُ من مكاني بغتةً كمن تذكّر شيئاً كان نسيه، وقلتُ: لعن الله الشيطان. كدتُ والله أدخّن سيكارتي وأنقض صومي.»

ويصور بعد ذلك احتقاره الشديد لعلماء الدين وقد التقى بأحدهم عند بعض أصدقائه فيقول:

«... فلما انتهينا من الطعام وخرجنا إلى المكان المعدّ للتدخين دنا مني أحد المعمّمين. وهو رجل كالجرادة، له لحية كقائمة المزاد، وعينان كزيتونتين. فنظر في وجهي مَلِيّاً ثم قال لي: لمَ لا تصوم؟... قلت: لا أدري. قال: كيف لا تدري؟... قلت: ككل من لا يدري. فغلَب الضَحِكُ على الرجل، وتنحيتُ أنا جانباً كي لا يطير في وجهي رشاشٌ مِنْ فيه. فقال: ما لك تنأى عني؟ أغولٌ أنا فتخافني؟... قلت: كلا. بل فَمُكَ رائحته منتنة فلا أقدر أن أشمها.»

ونجد مثل هذا الاستخفاف في مقال آخر له، يسفّه فيه ذبحَ الأضاحي في العيد فيقول: (١)

«أمس أُرهِفَت الشِفار، وشَمَّر الجازرون عن سواعدهم، وجيء بالأضاحي التي أسمنها مقتنوها وطَلَوا فراءها بالحناء وبالوَرْس. وفيهم من مَوَّهوا بالذهب قُرونَها ودهنوا بالزعفران آذانها. فأكب أهلُ الصناعة على صناعتهم، فمِنْ مكبِّرٍ ذابح، ومن نافخٍ ضارب، ومن سالخٍ جاذب، ومن مقطِّعٍ ناصب. وعلى أبواب البيوت الأقيال وأبناءُ الأقيال من الساسانيين وقوفاً صفوفاً، أو جُثَّماً قُعوداً، يراقبون من كل باب مصراعه، وكأن البدرَ سيطلع عليهم في موكبه السماوي، أو كأنْ سيَنْجابُ غشاءُ الأبصار فتبدو من ورائه القِسَمُ.» ثم يقول في استخفاف:

---

١ - راجع مقاله «الإسراف! الإسراف!» الصحائف السود ص ٨٢ - ٨٥. والعجب للكاتب، يضيق صدره بذبح الخراف، ولا يضيق بذبح الأوربيين للديكة الرومية مثلا في أعيادهم.

«لا أدري حكمَ الأضاحي فيما يرجع إلى الدين، فلا أتعرض له بشيء مجانبةً للشطط. ولكنْ ما هذا الإسراف ؟... ألنا ثأرٌ عند الغنم فنثأر ؟ أم الغنمُ كثيرةٌ فنريد أن تقل ؟...ما روى لنا أحدُ المؤرخين أن جدَّ الغنم نطح أبانا آدم، فنجعل عداءنا محمولا على هذا السبب.» (١)

وكان المحافظون من دعاة الإصلاح الإسلامي يهاجمون الفريق الأول، ويتهمونهم بالتفرنج وبهدم الإسلام. فمن ذلك قصيدةٌ لمحرم، يهاجم فيها قاسم أمين في دعوته إلى تحرير المرأة، فيقول : (٢)

أغرَّكِ يا أسماءُ ما ظن قاسمٌ !؟ أقيمي وراءَ الخِدْرِ فالمرءُ واهِمُ
تضيقين ذرعاً بالحجاب، وما به سوى ما جنَتْ تلك الرُّؤى والمزاعم
سلامٌ على الأخلاق في الشرق كلِه إذا ما استُبيحت في الخدور الكرائم
أقاسمُ لا تقذِفْ بجيشك تبتغي بقومك والإسلامِ ما اللهُ عالم
لنا من بناء الأولين بقيةٌ تلوذ بها أعراضُنا والمحارمُ
أُسائل نفسي إذ دلفتَ تريدها أأنت من البانين أم أنت هادم ؟
أتأتي الثنايا الغرُّ والطُرَرُ العُلى بما عجزَتْ عنه اللِحى والعمائم ؟ ...
فلا ارتفعت سفنُ الجواء بصاعد إذا حلَّقتْ فوق النسور الحمائم
عفا الله عن قوم تمادَتْ ظنونهم فلا النهجُ مأمونٌ ولا الرأيُ حازم
ألا إن بالإسلام داءً مُخامراً وإن كتابَ الله للداءِ حاسم

ومن ذلك مقال كتبه عبد الله النديم بأسلوبه الواقعي الساخر في مجلة (التنكيت والتبكيت)، يصور فيه أحد أبناء الريف، وقد عاد من أوربا بعد أن أتم تعليمه في بعثة حكومية. فقال : (٣)

«وُلِد لأحد الفلاحين ولدٌ فسماه (زعيط). وتركه يلعب في التراب وينام

١ - راجع كذلك أمثلة لا ستخفاف الكاتب بعلماء الدين في ديوانه ص ١٩، ٣٥، ٣٧.
٢ - ديوان محرم ٢ : ٦٣ - ٦٥
٣ - العدد الأول ٦ يونيو سنة ١٨٨١ - سلافة النديم ص ٨٢ مقال بعنوان «عربي تفرنج»

في الوحل،حتى صار يَقدِرُ على تسريح الجاموسة ، فسرّحه مع البهائم إلى الغيط ، يسوق الساقية،ويحوّل الماء.وكان يعطيه كل يوم أربعَ (حَنْدَويلات) وأربعة(أمخاخ بَصَل) ،وفي العيد كان يقدّم له (اليَخْني) ،ليمتعه بأكل اللحم بالبصل . وبينما هو يسوق الساقية وأبوه جالس عنده مرّ بهما أحد التجار ، فقال لأبيه : لو أرسلتَ ابنَك إلى المدرسة لَتعلموصار إنساناً . فأخذه وسلمه إلى المدرسة . فلما أتم العلوم الابتدائية أرسلته الحكومة إلى (أوروبا) لتعلم فنٍّ عينَتْه له. فبعد أربع سنين ركب(الوابور)وجاء عائداً إلى بلاده.فَمِنْ فَرَح أبيه حضر إلى الاسكندرية ووقف بر صيف (الجمرك) ينتظره . فلما خرج من (الفلوكة) (١) قرب أبوه ليحتضنه ويقبله،شأنَ الوالدِ المحبّ لولده . فدفعه في صدره . »

ثم يحكي النديم الحوار في لهجته التي دار بها . فالابن ضيق بهذه العادة التي يراها شيئاً قبيحاً ويتمنىّ لو فعل أبوه مثلما يفعل الغربيون فيضع يده في يد ابنه ويقول في رقة (بون أريفي) . والأب لا يفهم ما يقوله ابنه، ويظن أنه يعيّره بأنه (ريفي) . فيضيق الولد قائلا (أنتم يا أولاد العرَب كالبهائم لا تفهمون). ويتكرر هذا الموقف حين يلتقي بأمه وتقدم له غَداءً من اللحم والبصل . فيُظهر الضيقَ الشديد بالطعام ويعنف أمه لأنها أكثرت من ال . . . ويبدو كأنه يبحث في ذاكرته عن اسم (البصل) فلا تسعفه إلا التسميةُ الفرنسيةُ (أونيُون). ولا تفهم أمُه عنه. فتظل تستوضحه، ويظل يصفه لها،حتى يقع عليه حين يقول : (الذي تَدْمَعُ منه العين) فتقول أمه (تعني البصل ؟) فيقول بلهجته الفرنسية الغالبة عليه (سِي سا . بصل ... بصل .)وتَعْجَبُ أمهُ ويَعْجَبُ أبوه من أمره.كيف نسي البصل وقد كان كلُّ طعامه منه ؟!

ويختم الكاتب هذا الحوار باستنباط العظة من القصة قائلا :

---

١ – (الفلوكة) في اللهجة العامية بمصر قارب يلحق بالسفينة لنقل راكبيها إلى الشاطىء .كأنه محرف عن « الفلك » بضم الفاء وسكون اللام وهي : السفينة .

« وشكاه (معيط) لأحد النبهاء ، وقال : ولدي توجه إلى أوروبا ، وحضر يذم بلاده وأهله ، ونسي لغته . فقال له النبيه : ولدُك لم يتهذب صغيراً ، ولا تعلم حقوق وطنه ، ولا عرف حقّ لغته ، ولا قدّر شرف الأمة ، ولا ثمرةَ الحرص على عوائد الأهل ، ولا مزيّة الوطنية . فهو وإن كان تعلم علوماً ، إلا أنها لا تفيد وطنه شيئاً . فإنه لا يميل إلى إخوانه ، ولا يستحسن إلا من يعرف لغتهم . على أنه أصبح كالغراب لما أراد أن يقلد الحَجَل في مِشيته . وعجز عن التقليد ، واستحال عليه عودُه لطبيعته الأولى ، فأصبح يقفز قفزاً . وقد خرج عن حَدِّ الجنسية وطباع النوعية . ولا يفعل فعلَ ولدك إلا لئيمٌ جاهل بوطنه . فكم من شبان تعلمت في أوروبا ، وعادت محافظةً على مذهبها وعوايدها ولغتها ، وصرفت علومها في تقدم بلادها وأبنائها ، ولم ينطبق عليهم عنوان (عربي تفرنج) » .

وإلى جانب هذين الاتجاهين ظهر اتجاهٌ ثالث يريد أصحابه أن يجمعوا بين الاتجاهين وأن يوفقوا بين الطرفين . فنادوا بأن الإسلام هو الأساس الذي يجب أن يقوم عليه الإصلاح ، ولكنهم فسرّوا نصوصه تفسيراً جديداً يقبل معه كثيراً من أساليب الحياة والتفكير الوافدة من الغرب . وقد كان هذا الاتجاه الأخير – ولا يزال – مَثارَ كثير من الجدل في تقديره والحكم عليه . وسوف أعود للكلام عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله .

تم الجزء الأول بحمد الله

قـــائمة

بطبعات الكتب التي أحلت عليها في هوامش الكتاب [1]

(ا)

الاتجاهات الحديثة في الإسلام تأليف « ا. ر. جب » ترجمة كامل سليمان طبع بيروت ١٩٥٤ .

أم القرى لعبد الرحمن الكواكبي . الطبعة الأولى (على نفقة محمود طاهر صاحب جريدة العرب) .

(ت)

تاريخ آداب اللغة العربية (الجزء الرابع لجورجي زيدان الطبعة الأولى سنة ١٩١٤ م (مطبعة الهلال بالفجالة . مصر) .

تاريخ الأستاذ الإمام (الجزء الأول) لمحمد رشيد رضا الطبعة الأولى سنة ١٣٥٠ ﻫ (١٩٣١ م) مطبعة المنار بمصر .

تاريخ الأستاذ الإمام (الجزء الثاني) لمحمد رشيد رضا الطبعة الثانية سنة ١٣٤٤ ﻫ (١٩٢٥ م) مطبعة المنار بمصر .

تاريخ الأستاذ الإمام (الجزء الثالث) لمحمد رشيد رضا الطبعة الثانية سنة ١٣٦٧ ﻫ (١٩٤٨ م) مطبعة المنار بمصر .

١ — رتبت هذه القائمة ترتيباً أبجدياً حسب أوائل أسماء الكتب . وأسقطت منها الصحف والمجلات لعدم الاختلاف في طبعاتها .

تاريخ التعليم في مصر (٣ أجزاء) لأحمد عزت عبد الكريم الطبعة الأولى ١٩٤٥ م مطبعة النصر بمصر.
التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر (ألفريد بلنت — ٥ أجزاء) العدد ٦٩ من سلسلة «اخترنا لك».
تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد الطبعة الثالثة ١٩١٢ م مطبعة التقدم بمصر.
تاريخ المسئلة المصرية (ترجمة العبادي وبدران) تأليف تيودور روتشتين الطبعة الثانية ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م لجنة التأليف.
تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده تأليف تيودور روتشتين وتعريب علي أحمد شكري ١٣٤٥ هـ-١٩٢٧ م.
تاريخ المفاوضات المصرية (الجزء الأول) لمحمد شفيق غربال ١٩٥٢ م مكتبة النهضة المصرية.
تحرير المرأة لقاسم أمين الطبعة الثانية ١٩٤١ م مطبعة روزاليوسف.
تربية المرأة والحجاب لمحمد طلعت حرب مطبعة الترقي ١٣١٧هـ (١٨٩٩) م.

(ث)

الثورة العرابية لعبد الرحمن الرافعي الطبعة الثانية ١٩٤٩ م مطبعة السعادة بمصر.

(ح)

حرب البلقان الأولى تأليف يوسف البستاني المحرر بالجريدة ١٩١٣ م.
الحركة الأدبية في حلب تأليف سامي الكيالي معهد الدراسات العربية ١٩٥٦.

(د)

دفاع المصري عن بلاده (خطب ومقالات مصطفى كامل في صيف ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م مطبعة اللواء بمصر.
دول العرب وعظماء الإسلام لأحمد شوقي ١٩٣٣ م مطبعة مصر.
الدولة العربية المتحدة (الجزء الثالث) لأمين سعيد ١٣٥٦ هـ-١٩٣٨ م مطبعة عيسى البابي الحلبي.

ديوان إسماعيل صبري ١٣٥٧ هـ – ١٩٣٨ م مطبعة لجنة التأليف
ديوان البارودي (جزآن) (محمود سامي البارودي) طبعة المنصوري (لآخر حرف اللام) مطبعة الجريدة ديوان حافظ (الجزء الأول) (محمد حافظ إبراهيم) الطبعة الثانية ١٣٥٨ هـ – ١٩٣٩ م مطبعة دار الكتب .
ديوان حافظ (الجزء الثاني) (حافظ إبراهيم) الطبعة الأولى ١٩٣٧ م مطبعة دار الكتب
ديوان شوقي (الجزء الأول) (أحمد شوقي) ١٩٢٥ م مطبعة مصر
ديوان شوقي (الجزء الثاني) (أحمد شوقي) ١٩٣٠ م مطبعة مصر
ديوان شوقي (الجزء الثالث) أحمد شوقي ١٩٤٦ م مطبعة دار الكتب
ديوان شوقي (الجزء الرابع أحمد شوقي مطبعة الاستقامة نصر المكتبة التجارية مع مقدمة لمحمد سعيد العريان
ديوان صالح مجدي ١٣١٢ هـ – ١٨٩٤ م مطبعة بولاق
ديوان عبد الحليم المصري (الجزء الأول) (عبد الحليم حلمي المصري) ١٩١٠م (مع مقدمة لمحمد صادق عنبر)
ديوان عبد الحليم المصري (الجزء الثاني) ١٩١١ م
ديوان عبد الحليم المصري (الجزء الثالث) ١٣٣٦ هـ – ١٩١٨ م مطبعة المعارف بالفجالة مصر .
ديوان عبد المطلب (محمد عبد المطلب) الطبعة الأولى . مطبعة الاعتماد بمصر
ديوان الغاياتي (علي الغاياتي) الطبعة الثانية ١٣٥٦ هـ – ١٩٣٨ م مطبعة عطايا بمصر
ديوان الكاشف (الجزء الاول) (أحمد الكاشف) الطبعة الثانية ١٣٣٢ هـ – ١٩١٤ م مطبعة الترقي بمصر
ديوان الكاشف (الجزء الثاني) الطبعة الأولى ١٣٣١ هـ – ١٩١٣ م مطبعة الجريدة بمصر

ديوان محرم (الجزء الأول) (أحمد محرم) الطبعة الأولى ١٩٠٨ م مطبعة الجريدة بمصر
ديوان محرم (الجزء الثاني) الطبعة الأولى ١٣٣٨ هـ – ١٩٢٠ م مطبعة الفتوح بدمنهور
ديوان نسيم (الجزء الأول) (أحمد نسيم) ١٣٢٦ هـ – ١٩٠٨ م مطبعة الاصلاح
ديوان نسيم (الجزء الثاني) (أحمد نسيم) ١٩١٠ م مطبعة الهلال . بمصر
ديوان ولي الدين يكن الطبعة الأولى ١٣٤٣ هـ – ١٩٢٤ م مطبعة المقتطف بمصر

(ذ)

ذكرى وعبرة (الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده) لسليم البستاني .الطبعة الأولى ١٩٠٨ م مطبعة الأخبار

(ر)

روتستين (راجع تاريخ المسألة المصرية)

(ز)

زعماء الإصلاح في العصر الحديث لأحمد أمين الطبعة الأولى ١٩٤٨ م نشر مكتبة النهضة المصرية

(س)

سلافة النديم (الجزء الأول) بقلم عبد الله النديم الطبعة الأولى ١٣١٤ هـ – ١٨٩٧ م المطبعة الجامعة بمصر
سلافة النديم (الجزء الثاني) الطبعة الأولى ١٣١٩ هـ – ١٩٠١ م مطبعة هندية بمصر

(ش)

شعراء العصر لمحمد صبري ١٣٢٨ هـ – ١٩١٠ م مطبعة الأمة بمصر
شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام لأمجد الطرابلسي معهد الدراسات العربية ١٩٥٦

شوقي (راجع صداقة أربعين عاماً)
الشوقيات (مجموعة شعره من ١٨٧١ – ١٨٩٨ م) الطبعة الثانية ١٣٣٠ هـ – ١٩١٢ م مطبعة الإصلاح بمصر

(ص)

الصحائف السود لولي الدين يكن ١٩١٠ م مطبعة المقطف بمصر
صداقة أربعين عاماً لشكيب أرسلان ١٩٣٦ م مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر

(ط)

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لعبد الرحمن الكواكبي . الطبعة الأولى ، مطبعة المعارف بالفجالة بمصر

(ع)

عباس الثاني (ترجمة فؤاد ...) تأليف اللورد كرومر . مطبعة التوفيق بمصر
عبد الحميد ظل الله على الأرض (ترجمة راسم رشدي) تأليف الدكتورة آلماوتلين ١٩٥٠ م دار النيل للطباعة بمصر
عصر الخرافة جزآن (ترجمة أبو ريدة ، محمد بكير خليل) تأليف جستاف شتُلْبَر سلسلة الفكر الحديث (لجنة التأليف والترجمة والنشر)

(ف)

فضائل الماسونية تأليف شاهين بك مكاريوس صاحب مجلة اللطائف المصورة مطبعة المقتطف ١٨٩٩ م (ومنه نسخة في مكتبة جامعة الاسكندرية رقم ١٥٦٠٨) .

(ل)

ليالي سطيح تأليف محمد حافظ إبراهيم الطبعة الأولى ١٣٢٤ هـ – ١٩٠٦ م، مطبعة الإصلاح بمصر

(م)

ما هنالك (لأديب فاضل من المصريين) مطبعة المقطم بمصر ١٨٩٦ م

مجموعة أعمال المؤتمر المصري الأول ١٩١١ م المطبعة الأميرية بمصر
محمد فريد ، لعبد الرحمن الرافعي . الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م مطبعة لجنة التأليف
مذكرات عرابي (جزآن) بقلم أحمد عرابي . كتاب الهلال في فبراير . مارس سنة ١٩٥٣ م
مذكراتي في نصف قرن (الجزء الأول : من ١٨٧٣ م — ١٨٩٢ م) الحاج أحمد شفيق (باشا) الطبعة الأولى ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م مطبعة مصر
مذكراتي في نصف قرن (الجزء الثاني ا : من ١٨٩٢ م — ١٩٠٢) الطبعة الأولى ١٩٣٦ م — مطبعة مصر
مذكراتي في نصف قرن (الجزء الثاني ب : من ١٩٠٣ م — ١٩١٤ م) الطبعة الأولى ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م مطبعة مصر
المرأة الجديدة تأليف قاسم أمين الطبعة الثانية ١٩١١ م مطبعة الشعب
المسامير تأليف عبد الله النديم (عني بطبعه الشريف ي . ن. هـ . م)
المسألة الشرقية تأليف مصطفى كامل . الطبعة الأولى ١٨٩٨ م مطبعة الآداب بمصر
مصر للمصريين تأليف سليم نقاش (نشر منه ٦ أجزاء من ٤ — ٩) ١٣٠٢ هـ — ١٨٨٤ م مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية
مصر والاحتلال الإنجليزي (مجموعة أعمال مصطفى كامل من ١٨٩٥ م — ١٨٩٦ م) ١٩١٣ م مطبعة الآداب .
مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال تأليف عبد الرحمن الرافعي . الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م مطبعة الفكرة بمصر
مصطفى كامل تأليف عبد الرحمن الرافعي الطبعة الثانية ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م مطبعة لجنة التأليف
معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثالث (ترجمة عبد العزيز جاويد) تأليف هـ . ج. ولز ١٩٥٠ م مطبعة لجنة التأليف بمصر

معالم تاريخ الإنسانية المجلد الرابع (ترجمة عبد العزيز جاويد) تأليف هـ . ج. ولز ١٩٥٢ م مطبعة لجنة التأليف بمصر

المنتخبات (جمع إسماعيل مظهر) بقلم أحمد لطفي السيد . نشر مكتبة الأنجلو المصرية

منتخبات المؤيد (السنة الأولى ١٨٩٠ م) ١٣٢٤ هـ مطبعة المؤيد .

(هـ)

هـ . ج . ولز (راجع معالم تاريخ الإنسانية)

(و)

وطنيتي (راجع ديوان الغاياتي)

مراجع إنجليزية

1 — Great Britain in Egypt (F. W. polson Newman) 1928

2 — Islam in Modern History (W. C. Smith)princeton 1957

3 — Modern Egypt (The Earl of Cromer) 1908

4 — Reports by His Majesty's Agent and Consul General on the Finances, Administration, and Condition of Egypt and the Soudan .

5 — Whither Islam ? edited by H. A. R. Gibb 1932

فهـرس

الفصل الأول – الجامعة الإسلامية

(ص ١٧ – ص ٦٦)

الفصل الثاني – الجامعة المصرية

(ص ٦٧ – ١٢٤)

الفصل الثالث – محنة الجامعة المصرية – المؤتمر القبطي والمؤتمر المصري

(ص ١٢٥ – ١٥١)

الفصل الرابع – تيارات سياسية

(ص ١٥٢ – ٢٤٢)

الأنذال برقاب الرجال ، فنكّس الرءوس وذلل النفوس . استبداد **لا** مرشد **له إلا** التعنت عن هوىً تميلُ به النفس إلى حيث لا تدري ،ولا شرع له ولا وازع ، يحلل اليوم ما يحرمه غداً ... الخ ص ١٨–١٩ » .

ثم يقدم المؤلف صوراً مظلمة من تحكم الاستبداد وتغلغله في شتى نواحي الحياة ، حتى بات الناس مراقَبين في كل حركاتهم . يحصي عليهم الجواسيس أنفاسهم ، ولا يأمن فيه أحدهم أن يفاجئه طارق في دياجي الظلام فيختطفه من بين ذويه ليُزَجّ به في السجون ، أو يُقذَف به منفياً إلى أقصى الأرض ، أو يُلقى به في مياه البسفور ، لمجرد شبهة لا تقوم عليها بينة . يقول :

« وهذه القيود والأغلال في أعماق السجون تكاد تشتبك غيظاً لكثرة ما أثقلَتْها المعاصمُ والأقدام .وهذه بنغازي وبعض المدن النائية في أطراف السلطنة تضج منتحبة لما ترى من شقاء المبعدين . بل هذا البوسفور يوشك أن يفور تلهفاً على تلك الجثث ، فيَقذِف بها إلى ثغريه خشية أن تبيت دفينة في بطون الحيتان . — ص ٢٥ » [1] .

ويصور ما أمسى فيه رجال الدولة من حذر الوشاية فيقول :

« كانوا سجينين في بيوتهم ،تُوجِسُ منهم الخيفةَ ، إذا تجاوزوا الأبواب. وعليهم العيون مبثوثة في المنازل والطرق ، لا يعلمون أهم واقفون لهم في الطريق ، أم قاعدون بين جلسائهم وندمائهم في بيوتهم ، أم جاثمون بين خدمهم في غرف نومهم ومطابخهم . لا يجسر الوزير أن يزور وزيراً ولو كان حبيباً له قبل الوزارة . يمعن الفكرة طويلا قبل أن يفوه بكلمة ، خوف أن تؤوَّل أو تنقَل . تأخذه الهواجس فلا يعلم مصيره مساء يومه ... ولهذا كنت ترى معظم هؤلاء الأمراء الأرقاء على تحفز واستعداد ، حتى إذا خشوا الغدر بهم تناولوا حقيبتهم المعدة لمثل هذا اليوم ، وطلبوا ملجأ يتقون به

---

١ – وراجع كذلك مقالا لولي الدين يكن يصور فيه إلقاء أحد الضحايا في مياه البسفور ، وكان قد نشره في صحيفة المقطم بعنوان « خليج البسفور في إحدى ليالي الشتاء » (الصحائف السود ٧٢ – ٧٦)